

العدد
٣٦
كان التاريخية
ISSN: 2090 - 0449
Universal Impact Factor (UIF).
Impact Factor for Arabic Scientific Journals.
أول
دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م
السنة العاشرة
يونيو ٢٠١٧ - رمضان ١٤٣٨
www.kanhistorique.org
ناشري
kanhistorique
ISSN 0209-004X
9 770209 004499
رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

دورية كان التاريخية.- س١٠، ع٣٦ (يونيو ٢٠١٧/ رمضان ١٤٣٨)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 10, no. 36 [June 2017]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2017/Issue36

تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٣٦ يونيو ٢٠١٧

٩٥٣	التاريخ العام للعرب والمسلمين
٩٥٣,١٠٩	تاريخ المملكة العربية السعودية
٩٥٣,٠٧١٤	الدول الإسلامية في الأندلس - الموحدون
٩٥٣,٠٧٣٩	الدول الإسلامية في الشام ومصر
٩٦١,٠٣	تاريخ شمال أفريقيا تحت الاحتلال الأوربي
٩٦١,٠٢٣	تاريخ شمال أفريقيا تحت الحكم العثماني
٩٦٤,٠٩	تاريخ المغرب الحديث
٩٦٥	تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان التاريخية.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٧ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2017.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Historical Studies.



ISSN: 2090 – 0449 Online

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م



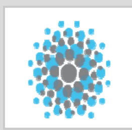
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحَكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org

كُتّاب الدورية	384
الدول العربية والأجنبية	24
الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية	121
المقالات والدراسات المنشورة في الدورية	686

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database - Zurich Open Repository and Archive
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات



www.kanhistorique.org

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا في ما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام





حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

رئيس التحرير

د. أشرف صالح محمد
أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



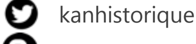
A secret admirer, 1873
Guillaume Charles Brun
(1825 – 1908, French)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com





historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com

goodreads.com/kanhistorique

www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

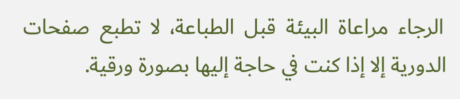
إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.





الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعى أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَر

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَياتُ العَدَدِ

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

الحج إلى الأراضي المقدسة خلال القرن التاسع عشر
موسم ١٨٨٤م نموذجًا

د. هاني زامل مهنا العبدلي
أستاذ مشارك التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الملك عبد العزيز
جدة – المملكة العربية السعودية

مُلَخّصْ
يناقش هذا البحث أوضاع موسم حج ١٨٨٤م من خلال تقرير الدكتور عبد الرزاق، نائب القنصل البريطاني في الحجاز. وقد قع الاختيار على موسم حج عام ١٨٨٤م، لأنه جاء خاليًا من الأوبئة المعدية وعلى وجه الخصوص وباء الكوليرا الذي ضرب بقوة في موسم العام السابق، في ذات الوقت كان هذا الموسم سابقًا لمواسم عدة عاود فيها هذا الوباء ظهوره وعملت الحكومة العثمانية، وإدارات الحجاز المحلية على أخذ الاحتياطات الطبية اللازمة لمنع ظهوره مجددًا. والهدف الواضح من دراسة هذا التقرير هو تلمس الوسائل التي نجح بها العثمانيون وقاية موسم حج ١٨٨٤م من الوباء، وتقصي أهم الأسباب التي أدت إلى ظهوره مجددًا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. وقد جاء هذا التقرير، مفصلاً، شارحًا الضغوط التي كانت تمارسها الدول الأوربية بصفة عامة وبريطانيا على وجه الخصوص على الدولة العثمانية، لضمان سلامة رعاياها الذين يؤدون فريضة الحج. والتقرير في مجمله، تقريرا وصفي يمثل وجهة النظر البريطانية في كثير من القضايا، وخاصةً ما يتعلق بالنواحي الصحية ونواحي أمن الطرقات، فعلى الرغم من ثناء صاحب التقرير على التدابير والإجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانية لضمان سلامة موسم حج هذا العام، إلا أنه ألمح إلى مسؤولية الحكومة العثمانية فيما اتخذته من سياسات أدت إلى حدوث بعض الانفلات الأمني في الحجاز. واتضح من التقرير مدى كفاءة الوالي العثماني عثمان نوري باشا على النهوض بأعباء الولاية وإجراء العديد من الإصلاحات في خدمات المرافق العامة بمدن الحجاز، كما اتضح من التقرير حرص الدول الأوربية، وخاصة بريطانيا، على ممارسة المزيد من الضغوط على الدولة العثمانية للتدخل في شؤونها الخاصة، في ذات الوقت الذي حرصت فيه الدولة العثمانية عبر ضغطها على واليها في الحجاز للمحافظة على العلاقات الودية مع بريطانيا بما لا يتعارض مع مبادئ السيادة.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٦ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
تاريخ السعودية الحديث، مكة المكرمة، الحجاز، الحجاج، مواسم الحج، القنصل البريطاني

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041875

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
هاني زامل مهنا العبدلي. "الحج إلى الأراضي المقدسة خلال القرن التاسع عشر: موسم ١٨٨٤م نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص ١٠ – ٢١.

مُقَدِّمَةُ

الوضع السياسي في الحجاز خلال الفترة (١٨٧٧-١٩٠٥م)

تولى الشريف الحسين بن محمد بن عبد المعين بن عون[١]حكم مكة عام ١٨٧٧م إثر ترشيح والي الحجاز له وموافقة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م). وما لبث الحسين أن قتل عام ١٨٨٠م على يد أحد الموتورين، وقد سرت شائعات أن قتله جاء بتحريض من السلطان عبد الحميد الثاني لحسن علاقة الشريف حسين ببريطانيا. رأى السلطان عبد الحميد الثاني تغيير الحكم في مكة من ذوي عون، للفرع الآخر المنافس (ذوي زيد) خاصةً وأن الشريف الحسين بن محمد بن عبد المعين -كان ممن أمن بمبادئ الإصلاحيين-فوقع اختيار السلطان على الشريف عبد المطلب بن غالب[٢] لحكم مكة المكرمة، خاصة وأن الشريف عبد المطلب كان

قد تقدمت به السن فلا يُخشى منه في أطماع أو تمرد، كما عُرف عنه عدائه للبريطانيين. ولم يجدي نفعًا سعي الوالي العثماني بالحجاز وجهود القنصل البريطاني لمنع هذا الاختيار.[٣]

بدأ الخلاف بين الشريف عبد المطلب والوالي العثماني في الحجاز ناشد باشا[٤]، حال وصول الشريف لمكة، فقد تقاعس الوالي عن تزويد الشريف بالقوات اللازمة لإخضاع البدو، مما دفع الشريف لطلب عزل هذا الوالي، وهدد بالاستقالة من منصبه إن لم تجب دعواه، فأقيل ناشد باشا ليعين بدلاً منه صفوت باشا[٥] الذي كان صديقًا للشريف أثناء إقامة الأخير في اسطنبول. لم تستمر العلاقة جيدة بين الشريف والوالي رغم الصداقة، إذ سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين حيال السياسات التي انتهجها الشريف عبد المطلب وكانت محل غضب الأشراف من ذوي عون وأتباعهم، وتجار مكة وجدة، والقناصل الأجانب، ونظرًا لخلاف الشريف مع صفوت باشا، آل أمر الولاية لأحمد عزت باشا،[٦] ثم تولاها بعد ستة أشهر الوالي عثماني نوري باشا الذي وضع نصب عينيه انتزاع السلطة من الشريف عبد المطلب بن غالب الذي غالى كثيرًا في معاقبة من اعتبرهم أعداؤه.[٧]

كان الشريف عبد المطلب بن غالب قد كبر في السن، عندما آلت إليه إمارة مكة المكرمة للمرة الثالثة، مما جعل بعض معاونيه يستغلوا مكانتهم من الأمير لتحقيق مصالحهم الشخصية، وقد ضج الناس بادية، وحاضرة مما كان يمارسه الشريف، وأعوانه من بطش، وتنكيل حتى اضطرب الأمن في الحجاز بصفة عامة.[٨] ومن المعروف أن الحكومة العثمانية كانت قد عولت كثير على حكومة الحجاز (الشريف الحاكم والوالي) في حفظ الأمن، وتأمين طرق الحج، والطرق التجارية، وقد أظهر الاضطراب الأمني الذي صاحب عهد الشريف عبد المطلب أن كلا السلطتين في الحجاز (الشريف عبد المطلب والوالي عزت باشا) لم يحققا للسلطان ما كان مؤملاً منهما، لذا عزل الوالي عزت باشا، وبات أمر عزل الشريف متوقعًا. وقد نجح الوالي الجديد عثمان نوري باشا[٩] الذي عُين عام ١٨٨٢م على الحجاز في استغلال سياسات عبد المطلب تجاه الأهالي، وفشله في تأمين طرق الحج في أن يستصدر قرارًا من السلطان عبد الحميد بعزله عن الإمارة، وندب عبد الله بن محمد بن عون بدلاً عنه إلى حين صدور قرار السلطان العثماني، وقد صدر القرار بتعيين الشريف عون بن محمد بن عبد المعين (الرفيق) أميرًا على مكة عام ١٨٨٢م.[١٠]

ظلت الأمور المتعلقة بصلاحيات الأمير والوالي محل خلاف كبير بين الطرفين على الرغم من محاولة الحكومة العثمانية وضع حد لهذا الخلاف. وكانت الحكومة العثمانية قد أقرت جعل إدارة مدينة جدة بكاملها بيد الوالي سيرا على التنظيم الذي كان قد أجراه حاكم مصر محمد علي باشا إبان حكمه للحجاز، فانتقل مقر الوالي لمكة المكرمة وظلت جدة تدار من قبل قائمقام عثماني، وأصبح تحصيل ضريبة الجمارك على الواردات عثمانية خالصة لا يتدخل فيها الشريف الحاكم، مع تقرير راتب سنوي معلوم للشريف الحاكم، وظلت قيادة الجيش بيد الوالي أو من ينيبه من القادة العسكريين بالحجاز.[١١] وكان العرف لدى الولاة العثمانيين أن دور أمير مكة لا يعدو أن يكون مساعدًا للوالي، وأن أهم مسؤولياته هي التعامل مع البادية ورؤساء القبائل، وفي بعض الأحيان قد يقلص دور الشريف الحاكم لمجرد المشورة على الوالي، في المقابل كان الشريف الحاكم يرى أنه الحاكم القوى طالما اعترف به شيوخ القبائل والأهالي في القرى والمدن الرئيسة، وأن السلطان العثماني قد عين الوالي وجعل الحامية العثمانية تحت إمرة الشريف وتصرفه لتمكن من تسيير أمر الإقليم.[١٢]

مما سبق يتضح لنا؛ أن الاختلاف على صلاحيات كل من الأمير والوالي كانت طوال حكم العثمانيين في الحجاز، محل خلاف كبير، وأن الفيصل فيها هو قوة شخصية كل من الطرفين، فإذا جاء الشريف قويًا حازمًا، أخذ من صلاحيات الوالي الشيء الكثير، والعكس صحيح، ولربما تنعم الولاية بالأمن والهدوء. أما إذا كان كل من الوالي والشريف على ذات الدرجة من القوة والتطلع والطموح فلا شك أن ذلك سيقود إلى صراع ودسائس بين الطرفين.

كان من البديهي إذن أن ينشب الخلاف بين الشريف عون الرفيق، وهو ذلك الشاب المتطلع الطموح، مع الوالي عثمان نوري باشا القدير والطموح والمرضي عنه في البلاط العثماني. وجاءت بوادر الخلاف عندما قاد الأمير فرقة من الجنود النظاميين، ومن قبيلة عتيبة لمواجهة فرع من قبيلة حرب، تمردوا على السلطة عام ١٨٨٣م لعدم دفع مخصصاتهم المالية. وعلى الرغم من أن الوالي العثماني عثمان نوري باشا لم يبدي اهتمامًا واضحًا لإنهاء القتال، نجح الأمير، بعد وساطة شيخ عشائر وادي فاطمة، في انهاء الحرب، ودفع المتأخرات المالية للقبيلة، وإطلاق سراح المسجونين منهم. في المقابل نجح عثمان نوري باشا في تركيز السلطة الإدارية في يده أكثر وأكثر، عندما خلع قائممقام جدة وتولى مهامه، كما تولى مشيخة الحرم المكي الشريف عام ١٨٨٣م ليزيد من سلطته على العلماء، كما قام بنفي عددًا من أعيان مكة المكرمة لاتهامهم بمعاداتهم لسياساته، وزاد من تعسفه في معاملة الأهالي، ممَنْ يرى أنهم أعوانا للشريف عون، كما زاد من نفوذه على القبائل بانتهاج أسلوب القوة والجبروت، واحتفظ أيضًا بإدارته للشرطة والجيش، ونجح في نزع سلاح وتسريح حراس الشريف عون من العرب، وحراس أمن الطريق الممتد بين مكة المكرمة وجدة، واستبدالهم بجنود عثمانيين لكي تكون له السلطة الكاملة عليهم، وكان يهدف من وراء ذلك كله إلى تقليص دور الشريف، والتفرد بالسلطة في الحجاز. في المقابل، لم يطق الشريف عون تصرفات الوالي هذه، فاتجه للمدينة المنورة، ومنها راسل السلطان يطلب منه عزله من الإمارة أو عزل الوالي، فجاء الرد بعزل الوالي ونقله لولاية حلب عام ١٨٨٦م.[١٣]

تعاقب على منصب ولاية الحجاز بعد عزل عثمان نوري باشا في الفترة (١٨٨٦-١٨٩٥) سبعة من الولاة[١٤]، مما أضعف دور هؤلاء

في مقابل دور الشريف عون الرفيق الذي كان يتمتع بمكانة خاصة عند السلطان عبد الحميد، وبدى كأن الولاة أصبحوا أداة طيعة في يد الشريف عون الذي ازدادت قوته تبعًا لذلك وازدادت صلاحياته. فلم يتمكن الولاة المتعاقبون في فترات حكمهم القصيرة تحدي قوة الشريف، وعندما حاول، أحدهم وهو الوالي نافذ باشا عام ١٨٨٩م بتعليمات من السلطان العثماني، سحب بعض الصلاحيات من الشريف، حرض الشريف عون الرفيق القبائل لقطع طرق الحج بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأثار العلماء لإثارة دعوى أن هذا الوالي بسعي لمحاربة تجارة الرقيق، التي كانت سببا رئيسا في الخلاف بين التجار وعلماء الحجاز من جهة، وبين الإدارة العثمانية التي كانت تعمل على إرضاء الدول الأوروبية بتحقيق منع تجارة الرقيق. عزل الوالي نامق باشا نظرًا لما بدى للإدارة العثمانية من عجزه عن النهوض بأعباء المنصب، ليحل بدلا عنه الوالي اسماعيل حقي باشا، الذي تزايدت في عهده غارات القبائل وتمردهم على السلطة. وقد استغل الشريف عون الرفيق هذه الأوضاع المتردية لمصلحته الخاصة، فزاد من دخله الخاص، عن طريق انتهاج سياسات تعود بالربح الوفير عليه وشركائه في الإدارة من موظفين عثمانيين، وشيوخ قبائل. وكان الشريف عون الرفيق ينفق بعض ما يحصل عليه من الأموال لتبيت حكمه، ودعم سلطته. ونظرا لحجب المعونات المالية التي كانت تدفع للقبائل، أو تأخير تسليمها في اوقاتها المحددة، لم تستمر سلطة الأمير والوالي على القبائل قوية لفترات طويلة، فتعددت تمردات هذه القبائل على السلطة في الحجاز[١٥]. استمر حكم الشريف عون الرفيق على مدى ثلاث وعشرين سنة متواصلة، كان في مستهلها في الموقف الأضعف، مقارنة بالوالي العثماني عثمان نوري باشا. ولما نجح الشريف عون الرفيق في إزاحة هذا الوالي القوي من طريقه، أخذت سلطته في تزايد حتى تأريخ وفاته عام ١٩٠٥م، وبدى المحرك الفعلي لأمور الحجاز في اضطرابها وأمنها.

١-الحالة الصحية في الحجاز خلال مواسم الحج السابقة لموسم ١٨٨٤م

أدت الاضطرابات السياسية بالحجاز في هذه الفترة الزمنية إلى انخفاض أعداد الحجاج في بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر الميلادي عن أعداد الحجاج في منتصف السبعينات، إذ بلغ متوسط أعداد الحجاج في الفترة ما بين (١٨٨٠-١٨٨٣م) ما يقرب من خمسة وسبعون ألف حاج، مقارنةً بالفترة ما بين (١٨٧٥-١٨٧٩م) التي وصل متوسط أعداد الحجاج فيها إلى ما يقرب من مائة وستون ألف حاج.[١٦] وعلى الرغم من انخفاض أعداد الحجاج النسبي في الفترة (١٨٨٠-١٨٨٣م)، واتخاذ الحكومة العثمانية، والإدارات المحلية بالحجاز اجراءات الوقاية من انتشار هذا المرض في مواسم الحج، إلا أن وباء الكوليرا عاود الظهور مجددًا في مواسم حج ٨٠،٨١،٨٢،٨٣م، وإن كانت أعداد الإصابات به أقل بكثير مما شهده منتصف القرن التاسع عشر الميلادي[١٧]. وقد وصلت أعداد الوفيات بسبب هذا الوباء في جدة ومكة في عام ١٨٧٧/١٨٧٨م ما يزيد عن ثلاثين حالة وفاة في أيام الحج، بينما وصل العدد الكلي لمن مات بسبب هذا المرض طوال العام حوالي ثمانمائة وخمسة واربعون في مدينة جدة فقط.[١٨] بينما وصل عدد من ماتوا بوباء الكوليرا طوال عام ١٨٨١م حوالي الفان وخمسمائة واثنان وأربعون، وفي موسم عام ١٨٨٢م حوالي ثلاثمائة وأربع وعشرين، ووصل العدد في عام ١٨٨٣م حوالي اربعمائة وثلاث وخمسون فردًا.[١٩]

أجمعت آراء المختصين بالأمور الصحية أن سبب انتشار المرض يمكن اختصاره في عدم كفاءة إجراءات الوقاية المعمول بها في الحجاز في مواسم الحج.[٢٠] وقد دفع هذا الأمر عددًا من الدول الأوربية منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر إلى إثارة قضية الحجر الصحي في البحر الأحمر، خشية من انتقال المرض للدول الأوربية، وتبعًا لذلك عقد المؤتمر الصحي في إستانبول عام ١٨٦٦م، وكان أهم توصياته إقامة عددًا من مناطق الحجر الصحي على طول ساحل البحر الأحمر مع أنشاء منطقة حجر صحي كبير في مدخل باب المندب، للسفن القادمة من الهند باعتبارها، كما كان يعتقد بأنها الموطن الأساس لوباء الكوليرا.[٢١] وازداد اهتمام العثمانيين بمراقبة الأوضاع الصحية في الحجاز، فأخذت ترسل الهيئات الصحية للحجاز تباعًا لاتخاذ اجراءات الوقائية اللازمة قبل مواسم بدأ مواسم الحج. على الرغم من ذلك استمر وباء الكوليرا في الظهور، وإن كانت أعداد الوفيات قد شهدت انخفاضًا كبيرًا عما كان عليه الوضع في بدايات ومنتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

٢-الإصلاحات الداخلية في الحجاز خلال الفترة (١٨٨٢- ١٨٨٦م)

حدثت أهم اصلاحات العثمانيين بالحجاز في هذه المرحلة على يد الوالي عثمان نوري باشا، الذي كان على الرغم من تعسفه في التعامل مع الشريف الحاكم، إلا أنه قام ببعض الإصلاحات في مكة المكرمة وجدة، وأقام بعض المنشئات التي عادت فائدتها على الأهالي والمقيمين. ففي إطار الإصلاحات الإدارية فقد عمل على اصلاح النظام الإداري في مكة المكرمة، وعمل على تشكيل لجان من أهالي الأحياء للعناية والإشراف على نظافة أحيائهم، أما ما يخص المنشئات فقد افتتح خطين تلغرافيين بين كل من جدة – مكة، جدة - سواكن عام ١٨٨٢م، كما أعاد بناء اسوار ينبع لحماية المدينة من هجمات القبائل، إضافة إلى أعمال توسعة وصيانة الحرم المكي، واصلاح شبكة مياه عين زبيدة ، لتغذي مكة المكرمة ومنطقة المشاعر المقدسة، كذلك شرع في لإنشاء شبكة مياه لمدينة جدة، وأنشأ كذلك عدد من الثكنات العسكرية، ونقاط حراسة الطرق، وأنشأ عدد من المستشفيات العسكرية.

وعلى صعيد التنظيمات الإدارية، عمل عثمان نوري باشا على ضمان صرف استحقاق الجند من مرتبات ومكافئات وصرف مستحقاتهم المتأخرة في أوقاتها المحددة لضمان عدم تمرد الجند وقد كان هذا عاملاً من عوامل اضطراب الأمن في الحجاز. وقام الوالي بعقد تحالفات مع بعض القبائل ليوازن بها القوى القبلية الأخرى في المنطقة، ولعله لم يكن مبتدعا لهذا الإجراء فقد سبقه إليه ولاة آخرون، فارتبط بحلف شبه دائم مع قبيلة عتيبة لمواجهة كثرة تمرد قبيلة حرب الشبه دائم وتعطيلها الطرق الواصلة بين مكة والمدينة المنورة.[٢٢]

٣-الحج في موسم ١٨٨٤ من خلال تقرير نائب القنصل البريطاني في جدة[٢٣]

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو الشعيرة الدينية التي يجمع كل المسلمين بكافة فرقهم وطوائفهم على وجوب أداءها لمن لديه القدرة. وقد أولت الحكومة العثمانية اهتمامًا كبيرًا برعاية الحج وضمان سلامة الحجاج، وحرص سلاطين الدولة المتعاقبين على بذل المال والجهد للقيام بأعباء حماية الحجاج وتيسير أدائهم لهذه الفريضة حرصًا على مكانتهم كرعاة للأراضي المقدسة وتحملاً لمسئولية الهيمنة على هذه الديار. وقد سعت الدولة العثمانية لرفع مستوى الخدمات المقدمة للحجاج في مواسم الحج لزيادة أعداد الحجاج، والاستفادة من عوائد هذه الزيادة ماديا ومعنويًا، لذا تركز جهد الدولة على تحقيق أمرين مهمين في هذا الإطار أولهما تأمين طرق الحج وثانيهما إخراج موسم الحج خاليًا من الأوبئة والأمراض. وظل هذان الأمران الهاجس الذي يمثل التحدي الأكبر المتجدد سنويًا لشريف الحجاز وواليها، وهو المؤشر الذي عليه يعول السلطان العثماني إبقاء الشريف أو الوالي أو عزلهما من منصبيهما في الولاية.

وكانت الغالبية العظمى من الحجاج القادمين لمكة المكرمة من خارج الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي تأتي عن طريق البحر، وكان تقلب الشهور التي تقع فيها أيام الحج على مدار السنة يجعل مواسم الحج الموافقة لفصول الصيف أكثر قسوة بحكم الأجواء البالغة الحرارة في الحجاز في شهور الصيف، ويجعل إمكانية الإصابة بالأمراض أكثر مما قد يؤدي إلى نقص في أعداد الحجاج مقارنة بالمواسم التي تصادف فصول الشتاء أو فصول الاعتدال المناخي. وقد تكفل العثمانيون بضمان سلامة وأمن الحجاج القادمين برًا من خارج الجزيرة العربية لذاك خرجت قوافل الحج الرئيسة (المحامل) من مصر والشام، واليمن، مدعومة بقوى عسكرية رمزية يقودها حكام سابقون أو قادة مشهود لهم بالكفاءة. وقد تمتع قادة هذه القوافل بصلاحيات واسعة في الحجاز للتعامل مع العقبات التي قد تعترض مرور هذه القوافل للأراضي المقدسة، فكان من صلاحياتهم صرف اعطيات مالية للبدو من أموال الخزينة العثمانية لتمكين القوافل من المرور الآمن عبر مناطق نفوذ القبائل، كما كان من مسئوليات هؤلاء القادة تزويد القوافل بالمؤن، والإشراف على الطرق التي ستسلكها القوافل في رحلة الحج وضبط سلوك الحجاج في قوافلهم[٢٤].

وقبل أن نستعرض ما ورد في تقرير نائب القنصل البريطاني عن موسم حج ١٨٨٤م، أرى أن نقدم لذلك بما يلي:

١/٣-نبذة عن التقرير وكاتبه:

هذا التقرير من محفوظات مكتب الوثائق العامة البريطاني، ويحمل الرقم (F. O 195/ 1514) وهو عبارة عن وصفًا تفصيليًا لموسم حج عام ١٨٨٤م وهو تقرير سنوي كتبه نائب القنصل البريطاني لرؤسائه في القنصلية، وقد كُتب في ١٠ يناير عام ١٨٨٥م كما ورد في الصفحة الأولى منه. ويبدو أن اسم من أُرسل اليه التقرير قد طمس، ونرى من صياغته أنه كان موجها للقنصل البريطاني العام في جدة السيد توماس سامبسون جاكو(١٨٨١-١٨٨٧م)[٢٥](Thomas Snapson j ago) ذكر فيه الكاتب أوضاع حج هذا العام معطيًا اهتمامًا خاصًا للحجاج القادمين من الهند باعتبارهم رعايا الحكومة البريطانية. وقد كتب التقرير بلغة بسيطة مباشرة. أما كاتب التقرير فهو الدكتور عبد الرزاق نائب القنصل البريطاني في جدة (١٨٨٢-١٨٩٥م).

صادف تولي الدكتور عبد الرزاق منصب نائب القنصل البريطاني في جدة عهد الوالي عثمان نوري بالحجاز، وقد اعترض هذا الوالي على تعيين رجل مسلم في هذا المنصب السياسي الهام، إذ أنه بحكم ديانته الإسلامية يمكن له الدخول إلى مكة المكرمة، مما يعني مزيدًا من تغلغل للنفوذ البريطاني في المدينة المقدسة، من جهتها كانت الحكومة البريطانية ترى أن ذلك حق من حقوقها لحماية رعاياها في كافة انحاء الحجاز. وقد تدرج الدكتور في عدد من المناصب السياسية بالقنصلية البريطانية في جدة خلال الفترة (١٨٨٢-١٨٩٥م/١٣٠٠-١٣١٣هـ). قبل أن يصل إلى منصب القنصل، فقد شغر منصب نائب القنصل العام ثم القائم بأعمال القنصل ثم قنصل حتى مقتله عام (١٨٩٥م/١٣١٣هـ).[٢٦]

جاء التقرير في خمس وأربعين صفحة من الحجم الكبير (A3) كتبت بخط اليد، وكان الخط جميلاً سهل القراءة في مجموع صفحاته. وقد تمحور موضوع التقرير حول ثلاث نقاط أساسية، الحالة الصحية للحجاج، أعداد الحجاج بصفة عامة والحجاج الهنود بصفة خاصة، ومقارنة هذه الأعداد بأعداد الأعوام الماضية، الحالة الأمنية على طرق الحج، إضافة إلى ذكر بعض المتاعب التي واجهها الحجاج الهنود.

التقرير في مجمله وصفًا تفصيليًا لموسم حج ١٨٨٤م، وقد تطرق الكاتب لبعض الشئون الداخلية في الحجاز والتي نرى أن الصواب قد جانبه في بعضها، ومن الصعب الحكم على حيادية الكاتب من عدمها فيما طرحه من أمور إذ أن المواضيع التي تطرق لها لا تعدوا كونها في المجمل وصفًا لما حدث في موسم الحج وما يتعلق به من أمور تخص الحجاج الهنود، وستتم الإشارة الي ما تطرق له الكاتب من أمور داخلية في ثنايا تعليقنا على التقرير. وباعتبار أن الكاتب طبيب متخصص، فإن الحالة الصحية أخذت

النصيب الأكبر من هذا التقرير، ولعل هاجس السيطرة على الأمراض المعدية الذي كان ينتاب بريطانيا، والدول الأوربية، وانتشارها في الحجاز في مواسم الحج، جعل التقرير يهتم كثيرًا بالجوانب الصحية. ولابد للباحث أن يضع نصب عينيه محاولات بريطانيا الحثيثة، التدخل في شئون الحجاز الداخلية، مستغلة ما يحدث في مواسم الحج من أوبئة معدية كوباء الكوليرا وغيره من الأوبئة.

كان التقرير دقيقًا في ذكر أعداد الحجاج القادمين من الهند، وقد أورد كاتبه قوائم بأعدادهم، وأعداد الفقراء منهم ومقارنتهم بأعداد السنوات الماضية. ولعل معد التقرير عند وصفه للحالة الصحية للحجاج الهنود حاول اثبات أن الحالة الصحية كانت جيدة على العكس مما رآه مفتشو الصحة في الحجاز، وهنا نلمح تحيز الكاتب ضد اجراءات الحجر الصحي.

تكمن أهمية هذا التقرير في أنه تقرير عن موسم حج عام ١٨٨٤م، وهو الموسم التالي مباشرة لسابقه الذي تفشى فيه وباء الكوليرا، وحصد أرواح كثير من الحجاج والمقيمين في الديار المقدسة. فمن الثابت أن موسم عام ١٨٨٣م كان قد شهد انتشار الوباء بين الحجاج، وقد حصد الوباء أرواح أربعمائة واثنان وخمسون حاجًا.[٢٧]

كانت الإشارة للوضع الأمني في الحجاز في التقرير مقتضبة، وقد شابها بعض الاضطراب مما يدل على تواضع معرفة الكاتب بحقيقة التركيبة السياسية في الحجاز، وصلاحيات كل من الشريف الحاكم والوالي العثماني، وسيتم التعليق على ما يتعلق بهذه النقاط في ثنايا التعليق على النص. على الرغم من ذلك فإن التقرير بما احتواه من معلومات تميل إلى التفصيل في بعض فقراته، يوفر معلومات عن حج عام ١٨٨٤م على درجة كبيرة من الأهمية، ويوضح الجهود المبذولة من السلطات المحلية لإخراج موسم الحج خاليا من الحوادث والأمراض المعدية.

زود معد التقرير تقريره بثلاث قوائم شملت: (قائمة بأعداد الحجاج الهنود القادمين على كل سفينة والعدد الفعلي للحجاج الذين لم تدرج اسمائهم في القائمة/ عدد الحجاج الهنود المرضى القادمين على ظهر السفن، وعدد من توفى منهم قبل الوصول/ عدد الحجاج الفقراء المعدمين موزعين حسب السفن).

٢/٣-موضوعات التقرير:

فيما يلي نستعرض ترجمة بتصرف لأهم الموضوعات الواردة في التقرير وقد قسمت حسب موضوعاتها للمحاور التالية:

(٢/٣) ١-الحالة الصحية في موسم حج هذا العام (١٨٨٤م)

استهل السيد عبد الرزاق تقريره واصفًا الحالة الصحية العامة لموسم حج ١٨٨٤م مقارنة بما كان عليه الوضع في موسم حج ١٨٨٣م: [٢٨]

يرى السيد عبد الرزاق أن حج هذا العام على غير السنوات الماضية، كان مميزًا ليس لخلوه من وباء الكوليرا فقط، وإنما ايضا لخلوه ايضا من الأمراض المعدية الأخرى، وأن الحجاج على وجه العموم تمتعوا بمناعة جيدة. على الرغم من وجود بعض الحالات الاعتيادية من الحمى، والإسهال، والدوسنتارية ظهرت متناثرة بين الحجاج بما لا يمكن اعتباره وباء بين الحجاج. ويرى الدكتور عبد الزاق أن القائمين على الحجر الصحي يرون أن سبب حصانة الحجاج لهذا العام يكمن في إجراءات الحجر الصحي الصارمة التي اتخذتها الدولة العثمانية في كل من جزيرتي قمران وأبو سعد في البحر الأحمر، وأن حجر الحجاج في الجزيرتين أدى في محصلته النهائية، إلى معالجة جميع الحجاج القادمين لهاتين الجزيرتين من الأمراض بغض النظر عن العمر، الجنس أو المذهب، وكنتيجة لذلك فإن الحجاج يصلوا إلى أراضي الحجاز خاليين من الأمراض المعدية.[٢٩]

ويرى الدكتور عبد الرزاق أن هناك أسباب أخرى إلى جانب الحجر الصحي حالت دون انتشار الأوبئة بعضها يتعلق بالجوانب المناخية والطبيعية لأراضي الحجاز، والآخر مستحدث بفعل الترتيبات والمحاذير التي اتخذتها السلطات المحلية.

- ما يتعلق بالترتيبات والإجراءات التي اتخذتها السلطة المحلية، فيرى الدكتور عبد الرزاق أنه ذكر في تقريره لموسمي حج العاميين الماضيين، أن مكة المكرمة ومشعر منى، كانتا في حالة مزرية في كل ما يتعلق بجوانب النظافة طوال موسمي الحج، ففي منى على وجه الخصوص، كانت الأنعام المتوفرة بشكل كبير تذبح في كل مكان في الهواء الطلق وتترك جيفها في العراء مما يسبب تلوث الهواء في كل المنطقة المحيطة إضافة إلى عدم نقاء الماء الذي كان الحجاج يشربون منه. أما النظافة في هذا العام (١٨٨٤م) فقد اختلفت اختلافًا كبيرًا بفضل ما اتخذه الوالي العثماني[٣٠] من إجراءات تنظيمية أفضل مما كان عليه الوضع في الأعوام السابقة، فقد أصدر الوالي أوامره الصارمة لنظافة وكنس شوارع مكة المكرمة، ومشعر منى كما أنه أصدر أوامره بإفراغ صهاريج المياه التي في منى، والتي كانت مياه الأمطار تتجمع فيها، وهذا دفع الحجاج لشراء مياه عين زبيدة النقية التي توفرت في أماكن كثيرة. ويرى الدكتور عبد الرزاق أن إفراغ هذه الصهاريج وإعادة تعبأتها منح فرص عمل جيدة للشقاة الذين قدموا بأعداد كبيرة من جدة بجمالهم وعملوا طوال أيام لحجاج الثلاث في منى لإفراغ هذه الصهاريج مما عاد عليهم بأرباح مالية جيدة في هذا الموسم. وقد أدى هذا الإجراء إلى توفير المياه في أماكن متاحة، وبأسعار رخيصة، فاستفاد من ذلك الفقراء الذين توفرت لهم بذلك المياه النقية.
- كانت أماكن ذبح الأضاحي متباعدة عن بعضها، وأن الأخاديد التي حفرت بالقرب من أماكن الذبح لموراة جثث الحيوانات المذبوحة، كانت أكثر عددًا وأكثر عمقًا مما كان معتادًا في السنوات الماضية، وكان يهال التراب على كل أخدود بمجرد أن يمتلأ بجثث الحيوانات.

- استعمال أعداد أكبر من العمالة لتنظيف الشوارع والأزقة وكنسها، ووضع القاذورات في عربات وضعت خصيصًا لذلك.[٣١]
- أن درجة الحرارة في منى لهذا العام كانت أقل بكثير مما كانت عليه في العامين السابقين، وأن النسيم العليل كان ينتشر في كل الأوقات بالوادي.
- أن مخيمات الحجيج في منى توزعت على مسافات متباعدة، وقد ساعد على ذلك غياب الحجاج الإيرانيين عن موسم حج هذا العام لأن حكومتهم منعتهم من أداء حج هذا العام،[٣٢] فاستغلت المساحات التي كانت مخصصة لهم.[٣٣]
- أضيفت عدد من الفوانيس لإضاءة الشوارع زيادةً على ما كان قائمًا من قبل، ولعل هذا ساعد إلى حد ما.

ويرى الدكتور عبد الرزاق أن الأسباب التي كانت وراء انتشار وباء الكوليرا، إما أنه قد قضي عليها تمامًا أو قلصت لدرجة كبيرة بفضل الترتيبات الصارمة التي اتخذت، وبفضل طقس هذا العام، وأنه لا يشك في أن الترتيبات الصحية، وترتيبات النظافة العامة، وإجراءات ذبح الأضاحي، وتوفير المياه النقية كانت الأسباب الرئيسة لوقاية وسلامة الحجاج من هذا المرض الفتاك.[٣٤] ويرى الدكتور عبد الرزاق أنه في بلاد جبلية مثل الحجاز بجوها الجاف، وأرضها الرملية، فإن اتخاذ قدرًا قليلاً من الرعايا الصحية، واتخاذ الاحتياطات الاعتيادية كفيل بعدم انتشار الكوليرا والأوبئة الأخرى.[٣٥]

ذكر الدكتور عبد الرزاق في تقريره أن أحد الموسرين من مسلمي الهند من رامبور تبرع للوالي بمبلغ قدره سبعون ألف روبية بغرض تزويد منى بالمياه النقية عن طريق إيصال فرع من مياه عين زبيدة لها، ويرى الدكتور عبد الرزاق، أنه إذا لم يصرف هذا التبرع في قنوات أخرى، فإن هناك فرصة كبيرة ليس للحجاج فقط لكي يستفيدوا سنويًا وبشكل دائم من المياه العذبة النقية، بل أن ذلك سيتعدى بنفعه ليشمل وادي منى ومدينته.[٣٦] وأبدى الدكتور عبد الرزاق تخوفه من أن يحول الوالي بعض هذا المال لتمويل مشروع يحمل اسمه لتزويد مدينة جدة بمياه من الأودية القريبة منها عبر أنابيب حديدية. ويذكر أن بعض أهالي جدة كانوا يحفظون مياه الأمطار التي تجمعت منذ أزمنة غير معروفة في خزانات مشيدة بالحجار والطوب خارج المدينة.[٣٧] أشار الدكتور عبد الرزاق إلى أنه تحدث عن نظافة مكة المكرمة، ومنى، وكيف أن المدينتين كانتا أكثر نظافة من العام السابق، لكنه لا يستطيع الحديث عن نظافة جدة في هذا العام (١٨٨٤م) لأنه لم يذهب إليها في أيام الحج، غير أنه لم يرده شيء غير متوقع أثناء عبور الحجاج منها أو اليها.[٣٨]

(٢/٣) ٢-أعداد الحجاج:

يذكر الدكتور عبد الرزاق أنه قدر أعداد حجاج العام الماضي (١٨٨٣م) بـ ستين ألف حاج، لكن حجاج هذا العام كانوا أكثر عددًا، وأن مَنْ تجمع من الحجاج في عرفات -حسب تقديره-قد بلغ تعدادهم سبعين ألف حاج، وأن هذا العدد قد أكده عدد من المطوفين، والمسئولين، على الرغم من أن البعض يرى أن تعداد الحجاج بلغ مائة وخمسون ألف حاج[٣٩].

ويضيف الدكتور عبد الرزاق أن مجموع أعداد الحجاج القادمين عن طريق البحر في هذا العام (١٨٨٤م) بلغ واحد وثلاثون الفا ومائة وسبع وخمسين حاج بينما كان تعدادهم في العام السابق (١٨٨٣م) سبع وعشرون الفا ومائتين وثلاث وستين حاج[٤٠] مما يعني أن هذا العام (١٨٨٤م) شهد زيادة تقدر بثلاثة آلاف وثمانمائة وأربع وتسعون حاج. وأن عدد الواصلين من الحجاج الهنود في هذا الموسم بلغ تسع آلاف ومائتان واثنان وستون حاجًا بينما كان مجموعهم في العام الماضي عشرة آلاف ومائة وست وأربعون حاجًا. بمعنى أن هناك نقص في أعداد حجاج هذا العام مقارنة بالعام المنصرم يقدر بثمانمائة وأربع وثمانون حاجًا، وأقل من عام ١٨٨٢م بثلاثمائة وثمان وستون حاجًا.

وقد بلغ عدد السفن التي وصلت إلى ميناء جدة ناقلة الحجاج من كل مكان مائة وسبعة عشر سفينة، بعض هذه السفن كانت سفن بريد قدمت إما من الشمال أو الجنوب وكانت تحمل أعدادًا قليلة من الحجاج. ويشير السيد عبد الرزاق إلى رسالة حكومة الهند البريطانية رقم ٢٩٦٩ المرسل في ٢١ ديسمبر ١٨٨٣ للقنصل البريطاني في جدة والتي توضح الإجراءات التي اتخذتها حكومة الهند لحصر أعداد الحجاج القادمين من الموانئ الهندية المختلفة. فيشير التقرير أن كل سفينة ستغادر الموانئ الهندية ستزود بقائمة بأعداد بأسماء الحجاج الذين منحوا جوازات سفر، وأن هذه القائمة ستسلم للقنصلية حال وصولها إلى ميناء جدة. ويعلق الدكتور عبد الرزاق على هذا الإجراء بأن هناك بعض السفن التي نقلت الحجاج الهنود كانت قد وصلت قبل صدور هذا التنظيم، وأشار أن من بين الستة عشر سفينة التي وصلت من مينائي بومباي وكالكتا إلى جدة، عشر سفن فقط هي التي أحضرت هذه القوائم المشار اليها، وأن أول سفينة وصلت وسلمت قائمة الأسماء هي سفينة موبايل (Mobile) وقد وصلت في ٢٩ مارس، وأن معظم السفن التي وصلت بعد هذا التاريخ التزمت بتسليم قوائم الأسماء.

ويرى الدكتور عبد الرزاق أنه بمقارنة أعداد الحجاج في كل قائمة من قوائم الأسماء بكل سفينة، بالعدد الفعلي القادم على كل سفينة وجد أن هناك فروق واضحة، فالعدد الفعلي أكثر مما ورد في قائمة الأسماء، الواردة من السفن، فقد بلغ العدد الكلي وفق القوائم ستة آلاف وسبعمائة وسبع وخمسون حاجًا[٤١]، بينما بلغ العدد الفعلي سبعة آلاف ومئتان وواحد وثمانين حاج، بما يعني أن هناك زيادة في أعداد الحجاج قدرها خمسمائة وأربع وعشرين حاجا. ويرى الدكتور عبد الرزاق أن هذ التفاوت في أعداد الحجاج كان في الغالب للأسباب التالية:

- أن القائمة اقتصرت على مَنْ تحصلوا على جواز سفرهم من بومباي أو كالكتا، وأن مَنْ تحصلوا على جواز سفرهم من مناطق أخرى من الهند لم تدرج أسمائهم في القوائم، أو أن موظفي الفروع الذين كانوا على ظهر السفن لم توضع أسمائهم في القائمة.
- أن قليل من الحجاج ربما التحقوا بالسفن من خلال موانئ مرت بها السفن وهي في طريقها لجدة، دون أن توضع أسمائهم ضمن المسافرين على متن هذه السفن.

ويرى الدكتور عبد الزاق أنه يمكن تلافي أمر هذا الخلل عن طريق:

- إلزام حجاج الهند القادمين من المناطق الداخلية بتسجيل جوازاتهم عند مندوب الحجاج قبل رحلة الحج.
- إصدار تعليمات لقادة السفن بوضع أسماء كل من يسافر على متن السفن من الموانئ الأخرى لقائمة الأسماء.

ويذكر الدكتور عبد الزاق أن من بين العشرة سفن التي أشير اليها سابقًا هناك ثلاث سفن لم يسلم مسئولوها قوائم بالحالة الصحية للحجاج، كما نصت عليه التعليمات الجديدة الصادرة من حكومة الهند فيما يتعلق بترتيبات رحلات الحج.

ويمضي التقرير في وصف حالة الحجاج الهنود الصحية إبان رحلة سفرهم من الهند للحجاز، وما تعرض له البعض منهم من أمراض تراوحت بين الإسهال، الدوسنتاريا، والحمى، والحوادث العابرة الفردية على ظهر السفن، وأن أكثر هؤلاء المرضي كانوا من ضمن الفقراء الذين كانوا يفتقدون الغذاء واللباس الجيد، علاوة على أن أماكن إقامتهم ونومهم في السفن كانت سيئة. فمن بين الخمسة آلاف وخمسمائة وست وخمسون حاج مسافر على ظهر هذه السفن السبعة، تم علاج مائة وست وثمانين حالة، وقد توفي من هذه الحالات سبع وعشرون حاج. ويشير التقرير أن حالتين من حالات الإصابة بمرض الحصبة ظهرت بين الحجاج على ظهر السفن، ولكن العلاج الجيد الذي تلقاه المرضى حال دون انتشار هذا المرض بين الحجاج على ذات السفن. عموما كانت نسبة المرضى الى عدد الحجاج تقدر بثلاثة في المائة (٣%).

ويسهب التقرير في الحديث عما واجهته السفن من صعوبات خلال إبحارها، مما تسبب في حدوث عدد من الإصابات أثناء الأجواء العاصفة التي اعترضت بعض السفن، وقد اختلفت هذه الإصابات في درجات قوتها، ويذكر التقرير باختصار شديد كيفية علاج الحالات المرضية التي تمت على مختلف السفن، وتوصيات الأطباء المرافقين للسفن. ولن نخوض في تفاصيل ذكر ما ورد في التقارير الطبية لبعدها في موضوعها عن موضوع بحثنا.

ويشير التقرير أن إحدى السفن – دون غيرها من جميع السفن التي انهت مرحلة الحجر الصحي في كمران القادمة من الهند- وهي "The Empress of India"، قد واجهت بعض المصاعب المتعلقة بالحجر الصحي، فقد قضى الحجاج أيام الحجر العشر كاملة في قمران، وعند وصول سفينتهم إلى جدة، أخبر الطبيب المرافق للحجاج بالسفينة مفتش الحجر في جدة بأن أحد الحجاج قد توفي بعد الحجر الصحي بسبب الإسهال، مما أثار ريبة المفتش، لذا رأى أن يضع الحجاج في الحجر لمدة أربعة أيام أخرى في جزيرة ابو سعد بالقرب من جدة، وأفاد المفتش أنه بمجرد الشك في سلامة وخلوا الحجاج من الأمراض المعدية فإنه يملك الصلاحية لإعادة إرسال السفينة مرة أخرى إلى كمران. ويذكر التقرير أن التقرير الطبي للسفينة يذكر أن الرجل المتوفى كان قد عاد إلى السفينة من كمران وهو في حالة صحية سيئة، وستؤدي حتما لوفاته، ويرى الدكتور عبد الرزاق أن هذه الحالة لا تعكس الوضع الصحي الذي كان عليه الحجاج على ذات السفينة، وأن تصرف المفتش تسبب في إرهاق الحجاج في هذه السفينة وتأخيرهم أربعة أيام كاملة.

ورد في التقرير أن عدد الحجاج الهنود المحتاجين (الفقراء) في هذا العام كان ألفا وخمسمائة وثمانون حاجًا (١٥٨٠)، بينما بلغ عددهم في حج عام ١٨٨٣م، ألفان وخمسمائة وخمسة عشر(٢٥١٥) حاجًا، مما يعني أن أعداد الحجاج المعوزين كان أقل بتسعمائة وخمسة وثلاثون حاجًا (٩٣٥). ويرى الدكتور عبد الرزاق أن هذا النقص سببه الترتيبات التي اتخذتها حكومة الهند، إضافة إلى صعوبات ومتاعب الحجر الصحي الذي اتخذته الحكومة المحلية في الحجاز.

ويرى الدكتور عبد الرزاق أنه يمكن وضع ترتيبات شبه رسمية لتأمين عودة الحجاج المعوزين الذين يفدون إلى هذه البلاد سنويًا ويتعرضون لحياة صعبة بسبب فقرهم، وعدم قدرتهم على تأمين أثمان تذاكر عودتهم لبلادهم، فإن الغالبية العظمى من هؤلاء الحجاج يأتون بفضل صدقات التجار المسلمين في الهند، أو بدعم الولايات الإسلامية بالهند، كولاية رامبور، حيدر آباد وغيرها، وسيكون من الأفضل لو أن هؤلاء المتصدقين أمنوا سبل العودة لهؤلاء المحتاجين. ويرى السيد عبد الرزاق أن هؤلاء المتصدقين يريدون الأجر والثواب في افعالهم هذه، إلا أنهم لا يركون حجم المعاناة التي يعانيها هؤلاء الفقراء قبل تمكنهم من العودة لديارهم. ويعطي الدكتور لهذه الحالة المزرية عندما أراد أن يتحرى عن عشرين حاجا هنديا من هؤلاء الفقراء فوجدهم نائمين في منطقة الحجر الصحي بين القاذورات. وبناء على ذلك يرى أنه لو أراد التجار المسلمون، وأمراء الولايات الإسلامية ونبلائها، وأغنيائها الأجر والثواب، فعليهم الاشتراك في إنشاء جمعيات خيرية، وجعلها تحت رعاية، وتكون الأموال تحت تصرف القنصل، وأن أتولى صرفها على المحتاجين بعد عمل التحريات اللازمة لذلك، ويمكن القيام بهذا العمل دون الإعلان عن أهدافنا، ووضع أنفسنا في الواجهة، وهذا الإجراء سيكون متوافقا مع إعلان حكومة الهند القاضي بعدم تقديم مساعدات تميز الحجاج عن بعضهم البعض.

ويذكر الدكتور عبد الرزاق أنه اعتمادا على قوائم أسماء الحجاج المغادرين في السفن بعد أدائهم فريضة الحج، فإن ستة آلاف وخمسمائة وسبع وستون (٦٥٦٧) حاجًا غادروا الحجاز لبلادهم، بينما ما يزال ثلاثة آلاف وستمائة وخمس وتسعون حاج (٣٦٩٥) في أرض الحجاز لم يغادروها. وأن بعض هؤلاء في انتظار السفن لنقلهم، والبعض الآخر يرغب في البقاء لفترة أطول في البقاع المقدسة.

(٢/٣) ٣- الحالة الأمنية على الطرقات:

يذكر التقرير أن طريق جدة -مكة المكرمة كان آمنا في هذا العام، وعلى حد علم كاتبه لم يفقد الحجاج الهنود وهو في طريقه لمكة المكرمة، وكانت الحادثة الوحيدة التي ذكرت مقتل رجل بخاري على بعد ميل واحد من مكة، قبل يوم عرفة.

كذلك اعتبرت السلطات المحلية طريق المدينة – مكة المكرمة طريقًا آمنا في وقت مغادرة الحجاج باتجاه الشمال (المدينة المنورة). ويرى الدكتور عبد الرزاق أن سياسة الإدارة العثمانية في الحجاز في عدم دفع المعونات السنوية للقبائل، وتحريضها شيوخ القبائل ضد بعضهم البعض أثبتت فشلها في الوقت الحاضر(٤٢). ويذكر الدكتور عبد الرزاق أن اختيار شيخ جديد أقل قوة من منافسه في الجزء الشمالي من طريق المدينة، قبل موسم الحج مباشرة، جعل ذلك المنافس ينتقم لنفسه من السلطات المحلية ويهاجم قافلة الحجاج ويطلب من قائد القافلة اخبار الوالي أنه طالما فكر هذا الوالي في ايقاف الدعم، فقد عوض نفسه عن ذلك الدعم من ممتلكات الحجاج، وأنه نصحهم بمطالبة الوالي بما خسروه. كان من بين الحجاج أحد التجار من زنجبار وقد خسر خسائر كبيرة في هذا الهجوم، وقد أرسلت قائمة تفصيلية لما خسره للوالي، لكن طلبه كطلب كثير آخرون لم يجد إجابة من الوالي، وقد قدمت شكوى للشريف الحاكم باعتباره المرجع الأساس لقضايا البادية، وباعتباره رئيسًا على بدو الحجاز ومطالبته باسترجاع المنهوبات.(٤٣)

يذكر الدكتور عبد الرزاق أنه بالنظر إلى تقرير القافلة المنهوبة، وتقرير الدكتور المرافق لحجاج حيدر آباد أنهم كتبوا باسم الحجاج تقريرًا يفيد بأنهم قد تعرضوا للنهب، وأن القافلة التي كانوا فيها كانت قافلة كبيرة جدًا، وأنه ظهر عليهم مجموعة من البدو على ظهور الجمال، وأن المهاجمين كانوا قد غطوا المرتفعات المحيطة بالطريق، وأنهم بعد نهبهم للممتلكات سمحوا للحجاج بالعبور دون أذى في أرواحهم. وأن القافلة الأخرى التي تبعتهم وكان فيها ذلك التاجر من زنجبار لم تنجوا من النهب أيضًا كما ذكرنا سابقًا. ويذكر الدكتور عبد الرزاق أنه لن يذكر تفاصيل المسروقات من الحجاج الهنود لأنه سبق وأن رفعها للقنصل الذي بدوره كتب بذلك للسفارة البريطانية في القسطنطينية، وأن نسخة من ذلك التقرير ارسلت لحكومة الهند.

ويضيف السيد عبد الرزاق أن الإدارة المحلية في الحجاز حاولت فرض رسوم على جوازات السفر بالنسبة للحجاج، لكن هذا الإجراء قوبل بمعارضة شديدة من قبل الحكومات الأجنبية، الأمر الذي أدى إلى عدول الإدارة المحلية عن هذا الإجراء(٤٤)، وأن هذا أدى إلى حرمان الإدارة المحلية من جزء من دخلها. وقد قام الوالي العثماني بفرض ضريبة إضافية على الحجاج بواقع ثلاثة دولارات على كل جمل يحمل حاجا. وقد وفر هذا الإجراء ثلاثين ألف دولار لأن الجمال التي استخدمت كانت عشرة آلاف جمل. ويذكر أن نفقات الحجاج قد زادت بواقع ستة وربع دولار عن العام الماضي.

وفي ختام تقريره ذكر السيد عبد الرزاق أن إحدى السفن (شاه جيهان) الهندية التي تقل الحجاج الهنود سيجري حجزها في جزيرة كمران للحجر الطبي الوقائي وأنهم لن يصلوا إلى جدة قبل ثلاثة أيام من يوم عرفة (الوقوف بعرفات) إذ ستصل السفينة إلى جدة يوم تسع وعشرين من شهر سبتمبر بينما يوم عرفة يوافق ست وعشرون من الشهر ذاته، مما يعني صعوبة إدراكهم للوقوف بعرفة في اليوم المحدد بظروف التنقل الاعتيادية. وقد أرسل الوالي العثماني أوامره إلى أصحاب الجمال، بأن يكون على أهبة الاستعداد في جدة لنقل الحجاج إلى عرفات، كما حدد تكلفة النق حتى لا يتعرض الحجاج لابتزاز الجمالة، وقد وصلت السفينة إلى ميناء جدة يوم سبع وعشرين من شهر سبتمبر وتمكن الجمالة من ايصالهم إلى مكة ومنها إلى عرفات في وقت مناسب، وقد شكر نائب القنصل الوالي على حُسن صنيعه هذا.

خَاتِمَةٌ

أوضح لنا التقرير أن أعداد الحجاج في عام ١٨٨٤م كان أكبر من العام السابق، وعلى الرغم من ذلك لم تظهر حالات من الأمراض المعدية، كتلك التي ظهرت في عام ١٨٨٣م، مما يرجح عدم وجود علاقة مضطردة بين كثرة أعداد الحجاج، وانتشار الأمراض المعدية، إذا ما اتخذت التدابير والتنظيمات اللازمة للعناية الصحية. وقد ذكر التقرير فيما يختص بأعداد الحجاج أن انتشار الخيام في عرفات كان جيدا في عام ١٨٨٤،مقارنة بالعام السابق له لتخلف الحجاج الإيرانيين عن حج عام ١٨٨٤م ولا نعلم ما هو الأساس الذي بنى عليه كاتب التقرير ليصل إلى أن غياب الحجاج الإيرانيين هو الذي أدى إلى زيادة المساحة المعطاة للمخيمات في عرفات، إذ أن تعداد الحجاج في هذا العام ١٨٨٤م، كان أكثر من سابقه، وهذا التعداد هو الذي يعول عليه في حجم المساحة المعطاة للمخيمات، إلا إذا كان كاتب التقرير يشير إلى النواحي المذهبية، وأنها تحتم على الجهات المسئولة عن تنظيم الحج إعطاء الحجاج الإيرانيين بحكم مذهبهم مساحات كبيرة منفصلة عن مخيمات عموم الحجاج، وهذا ما لم يرد في المصادر المختلفة التي بين ايدينا.

كشف لنا تقرير نائب القنصل البريطاني الإجراءات الناجعة التي اتخذتها الدولة العثمانية ممثلة في واليها في الحجاز للحيلولة دون معاودة انتشار وباء الكوليرا الذي كان سببا في وفاة كثير من الحجاج في موسم حج عام ١٨٨٣م. فقد بدأت أولى هذه

الإجراءات بإقامة المحاجر الصحية، قبيل وصول الحجاج للأراضي المقدسة. وعلى الرغم من أن وباء الكوليرا كان قد تفشى في مواسم الحج لسنوات ١٨٣٤م،١٨٣٦م،١٨٣٨م،١٨٤٦م، إضافة إلى أربع هجمات أخرى في العقد الخامس من القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أن الحكومة المحلية كانت عاجزة عن اتخاذ الإجراءات الفعالة لمواجهته، إذ ظلت المدن الرئيسة في الحجاز، مكة المكرمة، جدة، المدينة المنورة تفتقر إلى أبسط سبل الوقاية من تفشي هذا المرض وغيره من الأمراض المعدية. وعلى الرغم من أن العثمانيين وافقوا على تطبيق قوانين الحجر الصحي لمؤتمر باريس عام ١٨٥١م، إلا أن مواسم الحج ظلت تشهد انتشار وباء الكوليرا بشكل متقطع.

عمدت الدولة العثمانية في منتصف العقد السادس من القرن التاسع عشر الميلادي إلى اتخاذ إجراءات أكثر صرامة لتفادي انتشار الوباء، من ذلك: بناء أحواض لتخزين المياه في مكة المكرمة، وانشاء خنادق لدفن الحيوانات النافقة، وإرسال لجان صحية من العاصمة لدراسة الأوضاع الصحية في الحجاز، والعمل على النظافة العامة لشوارع المدن الرئيسة بالحجاز. وقد أدت هذه الإجراءات لأن تكون أواخر الستينات ومعظم العقد السابع من القرن التاسع عشر الميلادي خاليا من الوباء. وقد أدت الضغوط الأوروبية بالمطالبة لتحسين الأوضاع الصحية في الحجاز، وخشية العثمانيين من أن يتخذ الأوربيون هذا العامل ذريعة للتدخل في الشئون الداخلية لهذه الولاية إلى أن تكثف الدولة من إجراءاتها للعناية الصحية في الحجاز.[٤٥] على الرغم من ذلك عاد الوباء وضرب موسم حج ١٨٨١م،١٨٨٣م لتكثف الدولة من إجراءاتها مجددا في عام ١٨٨٤م. وحسب التقرير فإن إجراءات النظافة العامة، وإقامة المحاجر خارج الحجاز وفي مكة المكرمة أدى إلى عدم ظهور الوباء، فخرج موسم حج عام ١٨٨٤ خاليًا من وباء الكوليرا والأمراض المعدية الأخرى. نستنتج من ذلك أنه كلما كانت العناية بالنظافة العامة، والأخذ بأسباب الوقاية عالية، كلما تقلصت أخطار انتشار الأوبئة في المواسم والمناسبات.

إن موسم حج ١٨٨٤م جاء خاليًا تقريبًا من اختلال الأمن في طريق القوافل إلى مكة وبنسبة أقل إلى المدينة، مما يؤكد أن هدوء النواحي الأمنية في الحجاز يتناغم تناغما كبيرا مع طيب العلاقة بين الوالي والشريف، ومهادنتهما للقبائل بصرف المعونة المالية المقررة. وأن تأخر صرف هذه المعونة المالية أو عدم صرفها كان السبب الأكبر لقطع القبائل طريق قوافل الحج. وهنا لابد لنا من الإشارة إلى أن تمرد القبائل وقطعها لطريق الحاج في بعض المواسم كان سببه المباشر هو ذلك الفقر وشظف العيش الذي كانت تعيش فيه هذه القبائل، وأن ضعف الموارد الاقتصادية لمواطن سكنى هذه القبائل جعل التمرد، وما يترتب عليه، أسلوب حياة لهذه القبائل، وأن مهادنتها من قبل الجهات المسئولة بدفع المعونات العينية والمالية السنوية كان سببًا أساسيًا لهدوئها، وانقطاع هذه المعونات لأي سبب كان سيعيدها للتمرد وممارسة أسلوب حياتها. وتجدر الإشارة إلى أن سوء الأحوال السياسية في المنطقة وتغليب المصالح الخاصة على المنافع العليا من قبل بعض المسئولين، كان دافعًا أساسًا لحجب هذه المعونات عن القبائل، مما يدفعها للتمرد وتهديد أمن الحجاج وذلك قد يستتبع تحقيق بعض المصالح للساعين خلف منصب إمارة مكة المكرمة من أسر الأشراف.

أشار التقرير، إشارة مقتضبة، للحالة السياسية في الحجاز، وأوضح أن سياسات الإدارة المحلية الفاشلة تجاه القبائل كان السبب الأساس خلف تمردها. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن الصراع والتنافس على السلطة بين الوالي العثماني، والشريف الحاكم كان مدعاة لعدم استتباب الأمن في هذه الولاية، وأن ازدواجية السلطة، وعدم وضوح صلاحيات كل من الوالي، والشريف جعل هذا الأمر على أهميته مرهون بقوة شخصية أيا منهما. وهذا يفسر لنا السبب في كثرة تعاقب الولاة على منصب الولاية في فترة زمنية وجيزة، ولعل هذا كان سببًا مباشرًا لانصراف كثير من هؤلاء الولاة لعدم القيام بإصلاحات عمرانية تعود بنفعها على الولاية وعموم المواطنين.

الملاحق

جدول رقم (١) أعداد السفن وأسمائها من تقرير نائب القنصل البريطاني في جدة عن موسم حج ١٨٨٤ م

م	اسماء السفن		أعداد الحجاج حسب القائمة	أعداد الحجاج الفعليين
١	إس.إس موبايل	S.S MOBILE	١٦١	٢٢٠
2	إس.إس كولمبيا	S.S COLUMBIAN	٤٤٥	٤٦٢
3	إس إس دو	S.S DO	١٠٤٦	١٠٤٨ *
4	إس.إس أدريا	S.S ADRIA	٣١٠	٥٢٥
5	إس.إس الملك آرثر	S.S KING ARTHUR	٥٦١	٦٢٤
6	إس.إس امبراطورة الهند	S.S EMPRESS OF INDIA	١١٦٠	١٢٠٨
7	إس.إس كولمبيا	S.S COLUMBIAN	١٠٤١	١١٢٥
8	إس.إس موبايل	S.S MOBILE	٤٩٤	٥٣٧
9	إس.إس أنجلو- إندين	S.S ANGLO-INDIAN	٨٣١	٨٥٨
10	إس.إس شاه جيهان	S.S SHAH JEHAN	٥٠٨	٦٣٨
المجموع			٦٧٥٧	٧٢٨١

يوضح هذا الجدول الفروقات بين أعداد الحجاج القادمين من الهند عن طريق البحر فعليًا، وأعدادهم كما وردت في قوائم السفن. وهذا يؤكد أن قوائم السفن لم تكن دقيقة في حصرها لأعداد الحجاج الفعليين. ويكمن السبب في ذلك كما ورد التقرير إلى التحاق عدد من الحجاج بالسفن في موانئ أخرى غير ميناء المنشأ. ويتضح من هذا الجدول أيضًا أن أعداد السفن يختلف، وكذا أعداد الحجاج عما أشير له في التقرير، وهذا بسبب-كما أوضح كاتب التقرير-أن من بين السفن التي وصلت إلى ميناء جدة، سبع سفن فقط سلمت قوائم الحجاج القادمين عليها، وذلك لأن بعض السفن كانت قد وصلت إلى جدة قبل صدور تنظيم تسليم قوائم أسماء الحجاج بناءً على جوازات السفر للقنصلية في جدة.

جدول رقم (٢) يوضح أعداد الحجاج الفقراء (المحتاجين) الذين جاءوا على ظهر السفن القادمة من الهند، وتضح من الجدول أن أعدادهم تشكل نسبة لا بأس بها من مجموع أعداد الحجاج الهنود.

جدول بقوائم أعداد الحجاج المحتاجين (الفقراء)			
م	اسماء السفن		أعداد الحجاج الفقراء حسب القائمة
١	إس.إس كولمبيا	S.S COLUMBIAN	١٠٥
٢		S.S COLUMBIAN	١٢٤
٣		S.S COLUMBIAN	١٩٥
٤		S.S COLUMBIAN	١١٢
٥	إس.إس بيرم	S.S PERIM	٨
٦	إس.إس موبايل	S.S MOBILE	١٥٦
٧	إس.إس موبايل	S.S MOBILE	٨٧
٨	إس.إس أ.رحمان	S.S A. RAHMAN	١٠
٩	إس.إس افغان	S.S AFGHAN	٣
١٠	إس.إس سوريس نابان	S.S SORIS NABBAN	٣
١١	إس.إس اسكندر شاه	S.S ISKENDER SHAH	٣
١٢	إس إس أدوريا	S.S ADORIA	٢٣
١٣	إس.إس الملك آرثر	S.S KINGARTHUR	١٠٣
١٤	إس إس امبراطورة الهند	S.S EMPRESS OF INDIA	٢٤٦
١٥	إسإس أنجلو- انديا	S.S ANGLO-INDIA	١٩٤
١٦	إس إس شاه جيهان	S.S SHAH JEHAN	٢٠٨
المجموع			١٥٨٠

جدول رقم (٣) يوضح أعداد الحجاج المرضى، والمتوفين على ظهر السفن قبل وصول السفن لميناء جدة

جدول بقوائم أعداد الحجاج المرضى والمتوفين				
الرقم	الوفيات	أعداد المرضى	أعداد الحجاج	اسماء السفن
				S.SCOLUMBIAN
١	NIL	١١	٤٦٢	S.S COLUMBIAN
٢	٦	٤٧	١٠٨٤	S.S COLUMBIAN
٣	١٠	٤٢	١١٢٥	S.S ADRIA
٤	٤	١٨	٥٢٥	
٥	١	٤٥	٦٢٤	S.S KING ARTHUR
٦	٥	٢٠	١٢٠٨	S.S EMPRESS OF INDIA
٧	١	٣	٥٣٧	S.S MOBILE
المجموع	٢٧	١٨٦	٥٥٦٥	TOTAL

الهَوامِشُ

(١) الشريف الحسين بن محمد بن عبد المعين بن عون(الشهيد) (١٨٧٧م-١٨٨٠م) مما يذكر عنه أنه اعتنق آراء الإصلاحيين، وقيل إنه اشترك في الثورة الاتحادية أثناء إقامته في الأستانة، ولعل هذا كان السبب الرئيس في أن يبيت السلطان عبد الحميد إزاحته عن امارة مكة المكرمة وتحويلها إلى الفرع المنافس من الأسرة الهاشمية (ذوي زيد). انظر: السباعي، **تأريخ مكة**، دار مكة للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ص٥٤١.

(٢) الشريف عبد المطلب بن غالب أل زيد تولى إمارة مكة ثلاث فترات متباعدة، كانت الأولى منها (عام ١٨٢٨م واستمر حكمه فيها بضع شهور، والثانية ١٨٥١-١٨٥٦م، أما الثالثة فكانت من ١٨٨٠-١٨٨٢م).

(٣) وليم أوكسنولد، **الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب، الحجاز تحت الحكم العثماني**، ترجمة د/عبد الرحمن بن سعد العرابي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة،١٤٣١ هـ، ص٢٨٠. المرجع السابق، ص٢٨١.

(٤) عُين واليا على الحجاز لمدة قصيرة (١٨٧٨م-١٨٧٩م)، وكان قبل ذلك حاكمًا على دمشق وحلب. ترى بعض الدراسات أنه كان على علاقة جيدة بالقنصل البريطاني في جدة، على العكس مما كان عليه الحال مع الشريف الحاكم عبد المطلب بن غالب. (انظر: أوكسنولد، المرجع السابق، ص٢٨١. كذلك انظر: سلوى الغالبي، **الدور السري للقنصلية البريطانية في جدة من خلال وثائق الأرشيف البريطاني** (١٨٨٤-١٨٧٩م/١٢٩٧-١٣٠٢هـ، هامش٢).

(٥) عُين صفوت باشا واليًا على الحجاز خلفا لناشد باشا (١٨٨٠-١٨٨١م) كان صديقًا للشريف عبد المطلب ورغم ذلك اختلف معه على أمور الولاية، خاصةً ما يتعلق منها بالتنكيل بأعداء الشريف عبد المطلب. (انظر: اكسنولد، مرجع سابق، ص٢٨٢.

(٦) عُين أحمد عزت باشا الأرزنجاني خلفًا لصفوت باشا عام ١٨٨١م، وكان قد تولى الولاية سابقًا عام ١٨٥٢م أي في فترة حكم الشريف عبد المطلب الثانية. عمومًا لم تستمر مدة ولايته الثانية للحجاز، فعزل في العام نفسه تقريبًا نظرًا للخلاف الشديد بينه وبين الشريف. وعُين بدلاً منه عثمان نوري باشا عام ١٨٨٢م. (انظر: السباعي، ص٥٤٨).

(٧) أوكسنولد، مرجع سابق، ص٢٨٣.

(٨) أحمد زيني دحلان، **خلاصة الكلام في أخبار البلد الحرام**، ص٣٢٧.

(٩) تولى ولاية الحجاز لفترتين متباعدتين الأولي (١٨٨٢-١٨٨٦م، والثانية ١٨٩٢—١٨٩٣م)، له عدد من التقارير الهامة عن أوضاع القبائل، وأشراف الحجاز. (انظر: سهيل صابان، **مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني**، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة،١٤٢٥هـ، ص١٣٣.

(١٠) أحمد السباعي، مرجع سابق، ص٥٥٠.

(١١) سنوك هورخورنية، **صفحات من تأريخ مكة المكرمة، مركز تأريخ مكة**، المجلد الأول، ص٣١٩.

(١٢) سنوك هورخورنية، مرجع سابق، ص٣٢٠.

(١٣) أوكسنولد، مرجع سابق، ص٢٩٦-٢٩٩.

(١٤) هم حسب الترتيب، مع حفظ الألقاب: كاظم، حازم، فؤاد، أحمد، نديم، وهيب، غالب. (انظر: السباعي، ص٥٦٢).

(١٥) أوكسنولد، مرجع سابق، ص٣٠٤.

(١٦) أوكسنولد، مرجع سابق، ص٩٦.

(١٧) بلغت أعداد من ماتوا بسبب الإصابة بهذا الوباء في ١٨٤٥-٤٦م حوالي١٠٠٠٠ مسلم في مكة المكرمة، وفي عام ١٨٦٥م حوالي٣٠٠٠٠ معظمهم من الحجاج الجاويين. (للمزيد انظر: أكسنولد، مرجع سابق، ص١٠٤).

(١١) أوكسنولد، مرجع سابق، ص١٠٥.

(١٢) سلوى سعد سليمان الغالبي، **وباء الكوليرا في الحجاز: حج عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م**، الدارة، العدد الرابع، السنة الثامنة والثلاثون، شوال ١٤٣٣هـ

(٢٠) يرجع تدني الأوضاع الصحية في الحجاز إلى عدد من الأسباب منها: تلوث المياه التي يشرب منها الحجاج في مناطق المشاعر المقدسة، فقد ورد في التقارير المختلفة أن مياه الأمطار كانت تتجمع في صهاريج معدة في مشعر منى، وقد اختلطت هذه المياه ببقايا الحيوانات النافقة، وعادة ما يضطر فقراء الحجاج للشرب منها. عدم اهتمام السلطة المحلية بالنظافة العامة للشوارع في مكة، وجدة ومناطق المشاعر المقدسة، فكانت على سبيل المثال الأضاحي بعد ذبحها تترك، دون دفنها، في أماكن إقامة الحجاج في منى، كذلك عدم وجود أعداد كافية من المراحيض في منطقة المشاعر المقدسة، يضاف إلى ذلك كله فقر كثير من الحجاج وجهلهم، خاصةً أولئك القادمون من الهند، والذين قد يحملون معهم من الأمراض مما يؤدي إلى تفاقم أوضاع الحجاز الصحية. ولعل السبب الرئيس هو سوء الحالة الاقتصادية في الحجاز.

(٢١) الغالبي، مرجع سابق، ص٢٢٠.

(٢٢) أوكسنولد، مرجع سابق ص٢٩٨.

(٢٣) راجع: **تقرير نائب القنصل البريطاني في جدة الدكتور عبد الرزاق عن موسم حج سنة ١٨٨٦م**/ ترجمة: هاني زامل مهنا العبدلي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١٣٧– ١٤١.

(٢٤) أوكسنولد، مرجع سابق، ص٩٥.

(٢٥) سلوى بنت سعد الغالبي، **وباء الكوليرا في الحجاز: حج عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م**، الدارة، العدد الرابع، السنة الثامنة والثلاثون، شوال ١٤٣٣هـ، ص٢٢٥.

(٢٦) سلوى سعد الغالبي، **الدور السري للقنصلية البريطانية في جدة من خلال وثائق الأرشيف البريطاني** (١٨٧٩-١٨٨٤/ ١٢٩٧-١٣٠٢هـ) **.**

(٢٧) الغالبي، مرجع سابق، ص٢٣٩.

(٢٨) ذكر الدكتور عبد الرزاق في تقريره عن حج ١٨٨٣م، أن حج ذلك العام كان أفضل مما كان عليه الوضع في الأعوام السابقة على الرغم من سوء الاهتمام بالنظافة العامة في مواقع الخيام في منى، وأن أراضي المخيمات في منى كانت قذرة، وفيها تراكمت التغوطات البشرية، ومخلفات الحيوانات. (انظر: الغالبي، وباء الكوليرا في الحجاز: حج عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م، ص٢٣٤.

(٢٩) يرى الباحث أن إجراءات الحجر الصحي كان لها دور رئيس في كشف الحالات المرضية المعدية، وأن الحكومة العثمانية كانت حريصة على إجراءات الوقاية عبر هذه المحاجر تفاديًا لانتشار الوباء، وهذا لا يعني إهمال النظافة العامة في المدن والأخذ بأسباب الوقاية الصحية لأماكن التجمعات البشرية، ولعل كاتب التقرير متمسك بقناعاته التي أوردها في تقرير عام ١٨٨٣ من أن وباء الكوليرا ليس وافدًا على الحجاز من الهند وإنما هو متوطن مشعر منى.

(٣٠) يقصد به الوالي عثمان نوري باشا في ولايته الأولى للحجاز (١٨٨٢-١٨٨٦م)، ويُنسب لهذا الوالي عدد من الإصلاحات التي قام بها في مدن الحجاز، إذ أصلح شبكة مياه عين زبيدة، ومد فرع منها للمشاعر المقدسة، كما أقام شبكة مياه جديده في جدة، فأوصل غليها المياه من أبار وعيون بأبرق الرغامة. (انظر: سنوك هورخرونية، مرجع سابق، ص٣٢١.

(٣١) يذكر أكسنولد أن الدولة العثمانية، للحد من انتشار وباء الكوليرا في مواسم الحج، كانت قد اتخذت في أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر عدد من الإجراءات الوقائية شملت إرسال أطباء إلى الكتائب العسكرية في الحجاز، تنظيف الشوارع، إقامة مستشفى للتطهير من جراثيم المرض، ايجاد عربات إسعاف لنقل المرضى، تقديم المساعدات للمحتاجين من الحجاج، وفي عام ١٨٧٨م تمتنظيف١٥٨ صهريج للمياه في منى،،وتشييد ١٣ مذبحان، وحفر ٦٠٠ خندق لدفن جثث الحيوانات، والفضلات الآدمية، إضافة إلى جلب عمالة من السودان لتنظيف الشوارع ومعسكرات الخيام (انظر اكسنولد،١٠٤-١٠٥)

(٣٢) أدت الاضطرابات السياسية، وانتشار وباء الكوليرا في عام ١٨٨٣م إلى تقليص أعداد الحجاج بصفة عامة، ولعل هذا كان السبب الأساس لإحجام الحكومة الإيرانية عن السماح لرعاياها بأداء فريضة الحج لهذا العام. انظر: اكسنولد ، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٣٣) ذكر كاتب التقرير في تقريره لموسم حج ١٨٨٣م أن عدد الحجاج في ذلك العام كان أقل من سابقه بسبب قلة أعداد الحجاج المصريين، المغاربة، الأتراك، ولم يعلم سببًا لذلك، وأن هذا كان سببًا في اتساع المساحات بين خيام الحجاج في المشاعر، وقد ذكر هذا ايضا في موسم حج ١٨٨٤م على الرغم من زيادة عدد الحجاج عن العام المنصرم ومقاربته للعام العدد عام ١٨٨٢م، مما يدفعنا لعدم الاقتناع بوجاهة هذا السبب الذي طرحه لخلو حج هذا العام من الأمراض المعدية . انظر الغالبي، مرجع سابق، ص٢٣٣.

(٣٤) من المعروف أن الكوليرا عادت لتضرب مواسم الحج في التسعينيات من القرن التاسع عشر.

(٣٥) يبدو أن كاتب التقرير ينحي باللائمة-ولو من طرف خفي- على السلطات المحلية في الحجاز لتدني مستوى النظافة ،على الرغم من إقراره بترتيبات النظافة العامة التي اتخذها الوالي العثماني.

(٣٦) أشار الدكتور عبد الرزاق في تقرير لحج عام ١٨٨٣م، أن الوالي عثمان نوري باشا قد رفض تبرع أحد الأثرياء المسلمين من رامبور بالهند لإنشاء فرع من عين زبيدة في منى، لأن هذا المتبرع اشترط أن يحمل المشروع اسمه، وأن يكون يشرف رجاله على المشروع ودفع النفقات، ونرى أن هذا الرفض متوقع من وال بحجم عثمان نوري باشا وشخصيته القوية المهيمنة. ولعل هذا الوالي رفض هذا التبرع كون صاحبه أحد الرعايا البريطانيين، مما قد يعطي ذريعة للبريطانيين باستخدام ورقة هذا التبرع متى ما ارادوا. انظر: الغالبي، مرجع سابق،٢٣٦

(٣٧) بعض هذه الصهاريج موجود إلى الآن، وقد كانت داخل السور وخارجه. انظر الملحق رقم ٢.

(٣٨) ذكر الدكتور عبد الرزاق في تقرير موسم حج ١٨٨٣م أن جدة أصبحت مدينة نظيفة مقارنة بالأعوام السابقة، وأن الحجاج لم يعانوا من ازدحام خلال موسم الحج، ويدوا أن إقامة كاتب التقرير هذا العام (١٨٨٤م) في مكة المكرمة طوال موسم الحج جعله غير قادر على تقرير حالة النظافة في جدة. (انظر الغالبي، مرجع سابق ص٢٣٠).

(٣٩) تطابق عدد الحجاج في التقرير مع ما ذكره اوكسنولد عن حجاج هذا العام (١٨٨٤م)، ونرى أنه من الصعب تحديد أعداد حجاج الداخل، وحجاج البر بصفة عامة لعدم دقة الإحصائات المحلية، وقد يكون العدد الذي ذكره بعض المطوفين، واختلافه مع ما ذكر في التقرير لا يعدو كونه تخمينًا عشوائيًا.

(٤٠) بلغ عدد الحجاج عام ١٨٨٣م ستون الفحاج حسب ما اورده اوكسنولد،منهم سبعة وعشرون الف قدموا عن طريق البحر بفارق مئتان وثلاث وستين حاجًا عما ورد في التقرير. انظر: اكسنولد، ص٩٨

(٤١) يلاحظ أن نسبة أعداد الحجاج الهنود الفقراء إلى عدد الحجاج الهنود الكلي تجاوز العشرين بالمئة، وهي نسبة عالية، ولا شك أن هذا سيكون سببا من محتملا لحمل هذه الفئة لأمراض معدية تنقل من مجتمعاتها إلى الحجاز، أو العكس. فقد ذكرت المراجع التي بين أيدينا أن الحجاج الفقراء عادة ما يشربون المياه المتجمعة في الصهاريج على قذارتها لعدم قدرتهم شراء المياه النقية. انظر اكسنولد، ص١٠٧.

(٤٢) ظل تمرد القبائل في الحجاز بسبب تأخر أو عدم دفع الإدارة العثمانية لمخصصاتهم المالية المخصصة عاملا رئيسا ،لتمرد هذه القبائل ،وكات صور هذا التمرد تتجلى في قطع طرق القوافل المتجه لمكة أو المدينة، وقد تكون العلاقة المتوترة بين الوالي العثماني والشريف الحاكم سببا لدفع الأخير لتأليب القبائل على التمرد لإحراج موقف الوالي، ومن الثابت أن عثمان نوري باشا عمد إلى التحالف معقبيلة عتيبة لمواجهة تمر د فروع من قبيلة حرب على الإدارة العثمانية أنظر اكسنولد ،ص٢٩٦،أنظر كذلك جير الدين غوري، **حكام مكة**، بيت الوراق للنشر، بغداد، ص٣٠١.

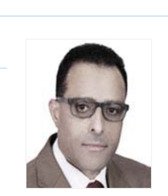
(٤٣) لم نحصل في المصادر المعاصرة للحدث رواية تطابق ما ورد في التقرير، على الرغم من أن مهاجمة القوافل أمر وارد للأسباب التي ذكرت سابقًا. ولعل كاتب التقرير اعتمد اعتمادًا كليًا على ما سمعه من الحجاج.

(٤٤) دأبت الحكومة العثمانية على محاولة استرضاء كلا من بريطانيا وفرنسا لضمان دعمهما في مواجهاتها المتكررة ضد الروس في البلقان وغيرها من المناطق، لذا كانت تمارس الضغط على ولاتها في الحجاز للسير وفق هذا النهج السياسي، وكان هذا النهج سببًا رئيسًا في كثير من الاضطرابات التي حدثت في مكة المكرمة وجدة، إذ بدى الإحساس عند الأهالي بتنامي النفوذ الأوروبي في الحجاز، وبدى التخوف عند الأهالي من العواقب الدينية لهذا النفوذ. انظر: اكسنولد، ص٢٣٥.

(٤٥) اكسنولد، ص ١٠٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

موقف الأردن
من مشروع أيزنهاور ١٩٥٧



د. فيصل خليل الغويين
محاضر "سابق" الجامعة الأردنية
مشرف تربوي – وزارة التربية والتعليم
مادبا – المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّصْ

يتناول هذا البحث موقف الأردن من مشروع الرئيس الأمريكي أيزنهاور (Eisenhower) والذي طرحه في بداية سنة ١٩٥٧، وقد كان لهذا المشروع أثر معتبر في إحداث خلافات كبيرة داخل الأردن، فقد كان موقف الملك حسين ميالاً للأخذ بهذا المبدأ، وكان الأردن أول دولة يطبق فيها هذا المشروع، إلا أن حكومة سليمان النابلسي وأعضاء الحزب الوطني الاشتراكي في الحكومة والبرلمان، بالإضافة إلى أحزاب المعارضة قد عارضوا هذا المشروع، بالإضافة لمعارضة كبار ضباط الجيش والفعاليات الشعبية. ودفع الخلاف حول المشروع الأمريكي إلى تأزم العلاقة بين الملك والحكومة، الأمر الذي دفع الملك إلى إقالة الحكومة، ومن ثَمَّ الدخول في أزمة سياسية انتهت بفرض الأحكام العرفية وحل الأحزاب، مما أدى إلى توتر العلاقات مع الدول العربية خاصةً سوريا ومصر اللتان كانتا ضد قبول الأردن مشروع أيزنهاور، وكان ذلك بداية التعاون الوثيق بين الأردن والولايات المتحدة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ الأردن الحديث، مشروع أيزنهاور، سليمان النابلسي، الحزب الوطني الاشتراكي، مجلس النواب الأردني

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041868

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فيصل خليل الغويين. "موقف الأردن من مشروع أيزنهاور ١٩٥٧".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٢٢ – ٢٩.

مُقَدِّمَةٌ

بعد إخفاق محاولة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضرب مصر في سنة ١٩٥٦ والقضاء على سياسة عدم الانحياز التي كان يتبناها عبد الناصر، تحركت الولايات المتحدة الأمريكية لتدعيم النفوذ الغربي في المنطقة العربية. وقد أثبتت حملة السويس أن دول الاستعمار التقليدي (بريطانيا وفرنسا) لم تعودا الدولتان اللتان عرفهما العالم حتى ذلك الوقت، بحيث يمكنهما إملاء إرادتهما سواء باللجوء إلى القوة المسلحة أو بالتهديد باستعمالها، أو بتصدر موائد المؤتمرات الدولية، كما أثبتت حملة السويس أن زعامتهما للعالم الغربي قد أفلتت منهما بعد أن خرجت الولايات المتحدة من عزلتها، واتبعت سياسة عالمية ايجابية في أعقاب الحرب العالمية الثانية.(١)

وكانت الولايات المتحدة قد لعبت دورًا بارزًا في الأمم المتحدة لصالح العرب خلال العدوان الثلاثي على مصر، وأعلن الرئيس الأمريكي أيزنهاور أن التدخل الأنجلو-فرنسي يعتبر شرخًا في الجبهة الأطلسية، وضربة قاصمة لمبادئ الولايات المتحدة، وتمردًا على زعامة واشنطن للعالم الغربي، والحقيقة أن اهتمام الرئيس أيزنهاور كان منصبًا على مستقبل الصداقة العربية الأمريكية، وعلى مصالح الولايات المتحدة البترولية والاستراتيجية في الوطن العربي.(٢) قادت الولايات المتحدة عملية مراجعة شاملة لسياستها في وقت رأت فيه أن هناك خطرًا مزدوجًا يواجه الغرب: الأول: التهديد الذي يمثله تزايد نفوذ عبد الناصر، وتفسيره الخاص لنوع القومية العربية التي يدعو إليها والتي وضحت معاداتها للغرب، ومحاولته فرض زعامته العربية مستعينًا بذلك باستغلال تناقضات السياسة الدولية والإقليمية.

الثاني: ازدياد النفوذ السوفياتي وخاصةً بعد موقف موسكو خلال حرب السويس، وهو الموقف الذي أثّر إلى حد كبير في الشارع العربي والجماهير العربية التي اعتبرته المسؤول الأول عن فشل العدوان.[٣]

وفي أوائل سنة ١٩٥٧ صرّح أيزنهاور إلى بعض أعضاء الكونغرس الأمريكي بقوله: "إن الفراغ الراهن في الشرق الأوسط يجب أن تملؤه الولايات المتحدة قبل أن تملؤه روسيا.[٤] وقد تضمن مشروع أيزنهاور ثلاث طرائق لملء الفراغ في المنطقة وهي:

(١) استخدام القوات المسلحة الأمريكية لحماية السلام والاستقلال السياسي للدول التي تطلب مثل هذه المساعدات ضمن العدوان المسلح من أية دولة تواجه الشيوعية الدولية.

(٢) تقدم الولايات المتحدة الأمريكية معونات عسكرية لأية دولة ترغب في مثل هذه المساعدة.

(٣) تقوم الولايات المتحدة بتقديم المعونة الاقتصادية لدول الشرق الأوسط من أجل تنمية اقتصادياتها.[٥]

وافق الكونجرس الأمريكي على مشروع القرار في (٩ آذار ١٩٥٧)، واتخذ أيزنهاور بعد ذلك خطوتين هما:

الخطوة الأولى: دعا عددًا من أصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة إلى لقائه في واشنطن مثل الملك سعود ملك السعودية، والأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق.[٦]

الخطوة الثانية: أرسل أيزنهاور مبعوثه الخاص ريتشارد جيمس (B.Richards .James) على رأس وفد أمريكي إلى دول الشرق الأوسط لتوضيح المشروع الأمريكي الجديد.[٧]

انقسمت دول الشرق الأوسط حول هذا المشروع، فدعت بعضها إلى التصدي له ومحاربته مثل مصر وسوريا، فيما أعلنت دول أخرى وخاصةً العراق وإيران وتركيا وباكستان وليبيا ولبنان تأييدها لهذا المشروع، وكانت هذه الدول باستثناء ليبيا ولبنان أعضاء في حلف بغداد، في حين تحفظت عليه السعودية واليمن والسودان.[٨] شكل مبدأ أيزنهاور بداية جديدة لإعادة خلط التوجهات السياسية في المنطقة العربية، ومن ثَمَّ فرز تحالفات جديدة بناءً على الموقف من المبدأ. وقد أخذت السياسة الأردنية بعد إلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية في ١٣ آذار ١٩٥٧ تتراجع عن التعاون مع المحور المصري؛ لان الحكومة الأردنية ورغم تحررها من التبعية البريطانية فإنها لم تستطع الخروج من المصاعب الاقتصادية والمالية التي كانت تواجهها، والتي عجزت اتفاقية التضامن العربي عن حلها، مما حدا بالملك حسين إلى البحث عن حلفاء جدد وموارد اقتصادية جديدة.[٩]

١- موقف الملك حسين من مشروع أيزنهاور

أعلن الملك حسين في لقاء له مع السفير الأمريكي ليستر مالوري (Lesttor Mallory) في السابع من كانون الثاني ١٩٥٧ عن تأييده المبدئي لمبدأ أيزنهاور مؤكدا ترحيب العرب بأي مساعدة لدعم اقتصادهم، وبناء قوتهم العسكرية لضمان سيادتهم، شريطة خلو ذلك من أي هدف يتعارض مع سيادتهم.[١٠] وقد اغضب هذا الإعلان العديد من جهات المعارضة الأردنية فرفع النائبان يعقوب زيادين وفائق وراد برقية إلى الملك حسين باسم الجبهة الوطنية، حذراه فيها من إحلال الاستعمار الأمريكي محل النفوذ البريطاني – الفرنسي، وأكدا أن المستعمرين الأمريكيين مهما هددوا بقوتهم فإنهم لن يقفوا في وجه القومية العربية الناهضة المؤيدة من شعوب آسيا وإفريقيا، وأن أي عدوان تتعرض له البلدان العربية سيلقى المصير الأسود الذي مني به العدوان الانجليزي – الفرنسي – الإسرائيلي على الشقيقة الكبرى مصر.[١١]

وفي العاشر من كانون الثاني رد الملك حسين على البرقية، وأعلن أن الأردن كدولة تقبل بكل مساعدة غير مشروطة، وأكد أن الخطر الحقيقي في الأيديولوجيات المادية .[١٢]

ويبدو أن الملك حسين قد تراجع عن موقفه، وسعى إلى قبول مبدأ أيزنهاور يدفعه إلى ذلك مجموعة من العوامل:-

١-حاجته إلى مظلة الصداقة الأمريكية التي يستطيع العمل من خلالها، وإيجاد مصدر تمويل بديل عن المصدر البريطاني، وخاصة بعد إلغاء المعاهدة الأردنية -البريطانية في آذار عام ١٩٥٧.

٢-شكوكه في حقيقة التزام الدول العربية بما يترتب عليها من أقساط المعونة، والتي وافقت على منحها للأردن في كانون الثاني ١٩٥٧ عوضًا عن المعونة البريطانية.

٣-محاولة الدول العربية استخدام المعونة المالية للضغط على الملك حسين لانتهاج سياسة موالية لسياسة هذه الدول وخاصةً مصر بعكس رغبة الملك حسين.

٤- اعتقاد الملك حسين بفائدة مشروع أيزنهاور للأمة العربية وضرورة مقاومة المد الشيوعي، لذلك أقال حكومة سليمان النابلسي في نيسان ١٩٥٧، وعلي أبو نوار رئيس أركان الجيش الأردني المؤيدان لمصر والمعارضان لمشروع أيزنهاور، وذلك بعد أن أعلن رئيس الوزراء رغبته في إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي.[١٣] وكان الملك حسين قد وجه رسالة إلى سليمان النابلسي رئيس الوزراء في ٢ شباط ١٩٥٧ حذره فيها من التسلل الشيوعي طالبا منه اتخاذ خطوات فعالة لمواجهة هذا التسلل.[١٤] وفي ٦ شباط ١٩٥٧ قامت الشرطة بجمع المنشورات والكتب الشيوعية، ومنعت عرض الأفلام السينمائية السوفياتية.[١٥]

وفي اجتماع مجلس الوزراء الذي عُقد في ١٥ شباط ١٩٥٧ أصدر الملك حسين تعليمات تقضي بأن لا تهاجم الصحافة مشروع أيزنهاور.[١٦] ويمكن القول أن التقارب الأمريكي- الأردني جاء كرد

فعل على التقارب السوفياتي مع مصر وسوريا اللتان كانتا تتعاطفان مع المعارضة الداخلية في الأردن، إضافة إلى ذلك لعبت معتقدات الملك حسين وقناعاته الشخصية خلال هذه الفترة دورًا مؤثرًا في عدم التقارب مع الدول العربية التي كانت تؤيد سياسة مصر مثل سوريا، ذلك أنه كان يرى في العلاقات السوفيتية المصرية خطرًا يهدد الأمة العربية بأسرها والأردن من ضمنها حيث يقول "لا استطيع أن أكون إلا معارضًا للشيوعية فهي تنكر الدين، وهي إذا تنكر المبادئ التي تقوم عليها الأمة العربية".(١٧)

٢-موقف حكومة سليمان النابلسي من مشروع أيزنهاور

جاء موقف الحكومة الأردنية مخالفًا لموقف الملك حسين؛ إذ رفضت حكومته قبول مبدأ أيزنهاور. ففي أول رد عاجل للحكومة تجاه المبدأ، أكد البيان الحكومي الذي عرضه عبد الله الريماوي، وزير الدولة للشؤون الخارجية، على ما يلي:

- رفض "نظرية الفراغ" رفضًا قاطعًا، إذ لا يعني زوال النفوذ الأنجلو-فرنسي أن هناك فراغًا في المنطقة على الدول الأخرى ذات النفوذ أن تملاه.
- إن الوطن العربي يعتمد على نفسه في الدفاع عن أمنه.
- إيمان الحكومة بالحياد الايجابي ومقاومة الاستعمار والتكتلات الأجنبية.
- إن حفظ السلام مناط بالأمم المتحدة.
- إن الحكومة لن تقبل أي دعم اقتصادي ينطوي على أهداف سياسية.(١٨)

وعلى الرغم من موقفها الرافض لمبدأ أيزنهاور اضطرت حكومة النابلسي- وبضغط من الملك الحسين – إلى التقدم بطلب إلى الحكومة الأمريكية في ١٧ كانون الثاني ١٩٥٧، طالبت فيه برفع سقف المساعدات المالية الأمريكية إلى الأردن بموجب مشروع النقطة الرابعة (١٩) للعام ١٩٥٧ إلى ثلاثين مليون دينار بدلاً من ثمانية ملايين، ويعادل هذا المبلغ المعونة المالية التي كانت تدفعها بريطانيا سنويًا للأردن، والتي توشك أن تتوقف نتيجة إنهاء المعاهدة الأردنية-البريطانية، وقد اعتبرت الحكومة الأمريكية الطلب الأردني هذا إشارة واضحة للخط الجديد للحكومة الأردنية القائم على التخلي عن الارتباط الأردني التاريخي ببريطانيا.(٢٠)

وفي ٢٦ شباط ١٩٥٧ رحبت حكومة النابلسي بقبول المعونة الاقتصادية التي نص عليها مبدأ أيزنهاور، وان كانت اشترطت على ألا يترافق ذلك مع أي هدف سياسي يمس سيادة الأردن الوطنية. (٢١) وكان النابلسي قد هاجم – في اليوم السابق لترحيبه بالمعونة- مبدأ أيزنهاور بقوله :"إننا لا نؤمن بوجود الفراغ الذي تركته بعض الدول الغربية، ونحن نؤمن بان الدفاع عن الوطن العربي يجب أن ينبع من صميم الأمة العربية نفسها" (٢٢) ومع تصاعد حدة الخلاف بين الملك حسين وحكومته أرسل الرئيس الأمريكي أيزنهاور مبعوثه الخاص المستمر ريتشارد (Mr.rechards) عضو الكونغرس الأمريكي السابق على رأس وفد أمريكي إلى دول الشرق الأوسط لتوضيح ما جاء في المشروع الأمريكي، إلا أن النابلسي – وتحت ضغط من الملك- اضطر إلى أن يعلن في ٢٦ اذار١٩٥٧ بأن "حكومته لا تمانع في استقبال ريتشارد، ولا تجد حرجًا في الإصغاء إلى أي كان في عرض وجهة نظره ما دامت مواقفنا وآمالنا واضحة وصريحة" وأضاف "سنستمر في رفض نظرية الفراغ في وطننا العربي، وإننا نرى أنه لا حق لأية دولة في فرض نفسها حامية أو ناطقة بلسان غيرها من الدول".(٢٣)

وفي خطاب له في نابلس يوم ٦ نيسان ١٩٥٧ قال النابلسي: "إذا طلب منا ريتشارد التوقيع على بيان بأننا اتفقنا على محاربة الشيوعية، على أن يدفع لنا مائة مليون دينار فسأقول له لا، لأنني إذا أردت الحرب فسأحارب بحسابي وليس بحسابه، ولن أكون مأجورًا لأحد".(٢٤) أغضبت تصريحات النابلسي هذه المبعوث الأمريكي ريتشارد، واعتبرها دلالة واضحة على عدم رغبة الحكومة الأردنية في الدخول في مفاوضات حول مبدأ أيزنهاور، وامتنعت الحكومة الأمريكية عن تقديم مساعدات اقتصادية للأردن.(٢٥) وقد علق وزير الخارجية الأمريكية دالاس على ذلك بقوله إن ريتشارد لن يذهب إلى دولة غير مرحب فيه بها، وحكومة الأردن تبدو في خطر وشيك من أن تقع تحت التأثير المباشر للقاهرة أو موسكو، وبأنه لا يريد أن يرى الأردن يقع تحت سيطرة دولة أخرى أبدت رغبتها في العمل خلافًا لما يعتبره أفضل نفعًا لبلده، مبديًا دعمه للملك حسين في موقفه هذا.(٢٦)

٣-موقف الأحزاب السياسية من مشروع أيزنهاور

٣/١- الحزب الوطني الاشتراكي: عارض الحزب الوطني الاشتراكي السياسة الأمريكية في الأردن ومشروع أيزنهاور، وذلك من خلال أعضاءه في مجلس النواب وأعضاء الحكومة وخاصةً رئيس الوزراء سليمان النابلسي، وطالب الحزب بالتخلص من الضغط الاقتصادي وأعمال التجسس والتخريب والتآمر التي يقوم بها خبراء وموظفو مشروع النقطة الرابعة؛ فطالب النابلسي الحكومة الأمريكية بتعديل الاتفاقية المعقودة عام ١٩٥٢، واشترط إلغاء الدوائر التعاونية التي يشرف عليها الأمريكيون، وإلحاق مشروعات النقطة الرابعة بجميع المشروعات الأخرى بالوزارات، وإدماج أموال النقطة الرابعة في ميزانية الحكومة، على أن يكون استخدام الخبراء الأمريكيين طبقا لرغبة الحكومة الأردنية، وأن لا تكون لها أية سلطات إدارية.(٢٧)

وعندما أعلن عن مشروع أيزنهاور وصف الحزب الوطني الاشتراكي المشروع بأنه وضع بحجة الدفاع عن البلاد العربية ضد الخطر الشيوعي الذي قد يقوم به الاتحاد السوفياتي، وعلى الرغم من الأسباب التي تذرع بها أيزنهاور لطرح مشروعه، إلا أن الحزب

الوطني الاشتراكي شكك بان يكون ذلك الخطر قادمًا من الاتحاد السوفياتي، وان سياسة السوفييت لا تدل على ما أورده أيزنهاور في مشروعه، واستبعد الحزب أن يقوم الاتحاد السوفيتي بالهجوم على البلدان العربية.[٢٨]

وعلى هذا فقد رفض الحزب الوطني أن يستبدل الأردن النفوذ البريطاني بنفوذ أو قوة أجنبية جديدة، ورحب الحزب على لسان أمينه العام سليمان النابلسي بان تقدم الولايات المتحدة مساعدات غير مشروطة للأردن.[٢٩] كما أعلن بعض أعضاء الحزب مثل شفيق ارشيدات عن رفضهم مشروع أيزنهاور رفضًا باتًا مؤكدين على أن جميع الهيئات الوطنية مجمعة ومتفقة على السير في الطريق القومي التحرري، ومتمسكة بسياسة الحياد الإيجابي، ومحاربة الاستعمار بجميع مؤامراته وأحلافه.[٣٠] واعتبر الحزب أن حلف بغداد ومشروع ايزنهاور صنوان يتمم أحدهما الآخر.[٣١]

٢/٣-حزب البعث العربي الاشتراكي: عبّر حزب البعث عن رفضه لمبدأ أيزنهاور؛ فقد أصدر الحزب بيانًا في كانون الثاني ١٩٥٧ أعلن فيه أن مبدأ أيزنهاور يعتبر تدخلاً سافرًا في الشؤون الداخلية والخارجية للعرب، فهو يعطي الولايات المتحدة حق الدفاع عن الشرق الأوسط، مما لا يقبله العرب اللذين شعروا أن حماية الشرق الأوسط لا تلتفت إلا إلى مصالح الولايات المتحدة فقط، ونبّه البيان إلى أن مبدأ أيزنهاور أكد على وجود إسرائيل وتكفل بحمايتها، كما أنه سيزيد من حمى الحرب الباردة.[٣٢]

٣/٣-الحزب الشيوعي الأردني: بعد إعلان الرئيس الأمريكي أيزنهاور مشروعه تقدم عضوًا الحزب الشيوعي في مجلس النواب يعقوب زيادين، وفائق وراد مع بعض النواب الآخرين باقتراح يطلبون فيه ببيان موقف الحكومة من السياسة الأمريكية الجديدة.[٣٣] ورفض الحزب الشيوعي دخول ريتشارد مبعوث أيزنهاور إلى الأردن، كما لعب الحزب دورًا في المظاهرات الشعبية. وبعد تأكيد الملك على مكافحة الشيوعية من خلال الرسالة التي وجهها إلى النابلسي في شباط ١٩٥٧، استدل أعضاء الحزب أن الأردن سيقبل مشروع أيزنهاور.[٣٤] وأرسل الحزب الشيوعي والجبهة الوطنية رسالة إلى السفير الأمريكي في عمان، أعلنا فيها عن رفضهما لمبدأ أيزنهاور لمخالفته ميثاق الأمم المتحدة، ولأنه يعتبر دعوة من دعوات العدوانية التي تهدد السلم العالمي.[٣٥]

وفي أواسط نيسان ١٩٥٧ أصدرت لجنة الحزب الشيوعي في القدس بيانًا طالب الشعب الأردني بكل فئاته أن يهبوا للنضال في سبيل إنقاذ الأردن من المؤامرة الاستعمارية الأمريكية، كما طالب البيان بإيجاد حكومة وطنية تقف في وجه مشروع أيزنهاور، وأن تعمل هذه الحكومة على قطع دابر مؤامرات الاستعمار الأمريكي.[٣٦] كما أصدر الحزب الشيوعي بيانًا آخر بين فيه خطورة مشروع أيزنهاور وأهدافه في حمل الأردن على التخلي عن السياسة العربية التحررية، وطالب الشيوعيون بوحدة الصف الوطني من أجل الصمود في وجه الاستعمار الأمريكي ومشروع أيزنهاور.[٣٧]

٤/٣-الإخوان المسلمين: حذّر الإخوان المسلمون الولايات المتحدة الأمريكية من عواقب السياسة الجديدة بعد انهيار النفوذ البريطاني والفرنسي، وأكدوا على عدم وجود فراغ في البلاد العربية، ورفضوا إيجاد أي نفوذ أجنبي جديد وبينوا حقيقة مشروع أيزنهاور وأهدافه.[٣٨] وهاجم الإخوان المسلمين السياسة الأمريكية المتآمرة مع الصهيونية، وطالبوا بطرد مبعوث أيزنهاور، ووزعوا منشورًا بعنوان "لن نرضى أن نكون عبيدًا للدولار"، و"مبدأ أيزنهاور فكرة استعمارية لدعم إسرائيل"، وجاء في البيان: "أن مشروع أيزنهاور معناه بعث جديد للاستعمار الغربي، ومعناه العمل على بقاء إسرائيل ودعمها ومدها بالحياة، وإبقاء البلاد العربية دويلات ممزقة، وربط العالم العربي والإسلامي بعجلة الغرب".[٣٩]

٥/٣-حزب التحرير: أكد حزب التحرير رفضه لمبدأ أيزنهاور في بيان أصدره في (١٥ شباط ١٩٥٧)، وأشار فيه إلى أنه لا توجد في الشرق الأوسط دول شيوعية، ولا حتى أحزاب شيوعية يستند إليها، بل لا تستطيع أي دولة من دول الشرق الأوسط معارضة مبدأ أيزنهاور والهجوم عليه لجذب الرأي العام الإسلامي إليها بتوجيهه ضد المشروع، وهكذا يمكن إحباط المشروع كما أحبط من قبل حلف بغداد ومشاريع الدفاع الغربية.[٤٠] كما أصدر الحزب بيانًا بعنوان "بيان في كشف الحماية والأحلاف العسكرية الاستعمارية التي يريد أن يفرضها أيزنهاور على العالم الإسلامي" حيث وصف الحزب المشروع الأمريكي بأنه عبارة عن مشروع دفاعي هدفه وضع الشرقين الأدنى والأوسط تحت حماية الولايات المتحدة، وإعلان الحماية الأمريكية على العالم الإسلامي، واعتبر الحزب أن مشروع أيزنهاور أخطر مشروع سياسي منذ الحرب العالمية الثانية.[٤١]

٦/٣- الجبهة الوطنية: وجه أعضاء الجبهة الوطنية وهم: عبد الرحمن شقير، ويحيى حمودة، وفائق وراد، ويعقوب زيادين، وعيسى مدانات، برقية إلى السفير الأمريكي في عمان، أعلنوا فيها استنكار الجبهة الوطنية في الأردن لمبدأ أيزنهاور؛ لمخالفته الصريحة لميثاق الأمم المتحدة، ومقررات مؤتمر باندونغ، وروح العصر، ورغبات الشعوب العربية في السلم والاستقلال الوطني والسيادة القومية، والتهديد باستخدام القوة الأمريكية للتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان العربية، والتلويح بشراء استقلال الدول العربية بالدولارات، ودعم الحكومة الأمريكية لحلف بغداد العدواني، ومحاولتها فرض تسويات معينة لقضايا الشرق الأوسط، والتآمر على شعوب هذه المنطقة، وأكدوا أن هذه الأمور لم تزد الأردن وسائر الشعوب إلا نقمة على الاستعمار الأمريكي.[٤٢]

٤-موقف مجلس النواب

ناقش أعضاء مجلس النواب الأردني مبدأ أيزنهاور في ٢ كانون الثاني قبل أن يطرح على الكونغرس الأمريكي، واتفق اثنا عشر نائبا على تقديم مقترحات تدعو إلى رفض المبدأ؛ لأنه يسمح لأمريكا استخدام القوة لحماية مصالحها في الشرق الأوسط، إلا أن

النائب مصطفى خليفة رئيس الحزب العربي الدستوري اتهم الحكومة بالتسرع في موقفها من المبدأ، داعيًا إلى انتهاج سياسة مرسومة مدروسة لأمد بعيد، وفي نهاية المناقشات وافق المجلس على النقاط التالية:

- اعتبرت حكومة الولايات المتحدة ذلك المشروع جزءًا من خطة أكبر لاستعادة التأثير الغربي في الشرق الأوسط، وكان المشروع مصممًا لاستبداله بحلف بغداد.
- كان هدف الولايات المتحدة إيجاد انقسامات بين الحكومات العربية، والتودد للقادة العرب المعارضين للقومية على أمل عزل مصر عن شقيقاتها.
- إن انشغال الأردن بنقاشات لإلغاء معاهدته مع بريطانيا لم يخلق النية لديه لبيع نفسه إلى مزايد اكبر، على الرغم من أن موارده محدودة.[٤٣]

وجاء على لسان النائب حكمت المصري، أحد نواب الحزب الوطني الاشتراكي: "إننا نعيش سياسة الحياد الإيجابي بما تعنيه من مقاومة الاستعمار، والتخلص من نفوذه في جميع أشكاله، وإننا نقبل المساعدات الاقتصادية إذا كانت غير مشروطة، أو لا تمس سيادتنا، أو تحد من حريتنا".[٤٤]

٥-موقف الجيش

أعلن علي أبو نوار رئيس أركان الجيش أن بناء آلة عسكرية حديثة يقع ضمن مساعدات غربية، وهو يعتقد بأن خطة أيزنهاور طريق مختصر للحصول على المساعدة الاقتصادية والعسكرية من أمريكا، وخاصةً بعد أن أخذ الأردن يواجه صعوبات في جمع المعونة العربية من مصر وسوريا والسعودية.[٤٥] إلا أن أبا نوار وفي الاجتماع الذي عقد في ٩ نيسان ١٩٥٧ في قاعدة ضباط كتيبة المشاة الأولى وحضره جميع ضباطها وضباط كتيبة الدبابات الثالثة، أشار إلى أن مبدأ أيزنهاور عبارة عن الصلح مع إسرائيل بطريق غير مباشر، وأن هناك من الأغنياء ذوي المصالح الخاصة كسمير الرفاعي، وبهجت التلهوني لا يريدون تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفياتي.[٤٦]

٦-موقف الفعاليات الشعبية

وقف الشعب الأردني ضد مبدأ أيزنهاور والسياسة الأمريكية الجديدة في المنطقة، فقد أعلنت لجنة التوجيه الوطني في الخليل تأييدها الكامل لسياسة الحكومة، وشجبت سياسة الولايات المتحدة. وسارعت اللجان الشعبية إلى عقد عدد من الاجتماعات، واتخذت بعض القرارات، ومنها توجيه بيان إلى المواطنين تبين فيه السياسة الأمريكية الجديدة والهادفة إلى استعباد العرب، وتعويض التصريح الثلاثي[٤٧] بتصريح أمريكي[٤٨]. وأرسل المواطنون عدد من الرسائل إلى جريدة فلسطين، وهي موجهة أصلا إلى السفير الأمريكي يشجبون فيها مبدأ أيزنهاور[٤٩]، ورد السفير الأمريكي على هذه الرسائل بان مرسليها لم يطلعوا على حقيقة مبدأ أيزنهاور.[٥٠] كما أرسل أهالي نابلس من معلمين وطلاب رسالة إلى رئيس الوزراء يستنكرون فيها السياسة الأمريكية الجديدة، مطالبين بإطلاق الحريات العامة، والاعتراف بالصين الشعبية، وتبادل التمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفياتي.[٥١]

٧-إقالة حكومة النابلسي والأزمة السياسية في الأردن

على أثر اتساع شقة الخلاف بين الحكومة والملك حسين، اتخذ الملك قراره بإقالة الحكومة في ١٠ نيسان ١٩٥٧.[٥٢] وتفاقمت الأزمة السياسية في الأردن وبلغت ذروتها عندما قامت مجموعة من الضباط الأحرار[٥٣] في الجيش العربي الأردني بمحاولة انقلابية في معسكرات الجيش في الزرقاء في ١٣ نيسان ١٩٥٧، إلا أن المحاولة فشلت، وتم إلقاء القبض على جميع قادة الوحدات الثائرين.[٥٤] وكلف الملك سعيد المفتي بتشكيل حكومة جديدة، إلا أن الأحزاب السياسية سحبت تأييدها للمفتي، فتم تكليف الدكتور حسين فخري الخالدي بتشكيل الحكومة في ١٥ نيسان ١٩٥٧، وقد اشترك سليمان النابلسي في الحكومة كوزير للخارجية، وأعلنت الحكومة الجديدة أنها تسير بسياستها الخارجية بمواكبة مصر وسوريا والسعودية، وأنها لن تقبل مبدأ أيزنهاور.[٥٥]

قامت الحكومة الجديدة باعتقال عدد من رجال الأحزاب، وعدد من الضباط الذين شاركوا في المحاولة الانقلابية، ثم شكلت الحكومة هيئة للتحقيق في محاولة الانقلاب مما دفع الأحزاب السياسية لمواجهة حكومة الخالدي التي أطلق عليها بعض الشيوعيين اسم "حكومة الجسر" واعتبرت أنها الحكومة التي سوف يتم بعدها قبول مبدأ أيزنهاور، واندلعت تظاهرات مختلفة وأتلفت صور الملك، وطالبت المظاهرات بإطلاق سراح "الضباط الوطنيين" وبرفض مبدأ أيزنهاور. وفي ٢٣ نيسان ١٩٥٧ كانت المواجهة قد وصلت إلى حدها الأعلى عندما تداعت الأحزاب السياسية المعارضة وهي الحزب الشيوعي، والوطني الاشتراكي، والقوميين العرب، إلى عقد مؤتمر جماهيري في نابلس حضره العديد من الشخصيات السياسية المستقلة. وقد اصدر المؤتمرون وثيقة قدموها إلى الحكومة تضمنت عدة مطالب كان من بينها رفض مشروع أيزنهاور، ومحاربة جميع المؤامرات الاستعمارية التي تهدف إلى الانحراف بالأردن عن طريق القومية العربية المتحررة، والتمسك بسياسة الحياد الايجابي، كما طالب المؤتمرون بطرد السفير الأمريكي لستر مالوري، والملحق العسكري جيمس سوين (Sweeny James).[٥٦]

وفي اليوم التالي للمؤتمر جاء إلى عمان وفد برئاسة حكمت المصري أحد الأعضاء القياديين في الحزب الوطني الاشتراكي، وقابل رئيس الوزراء، وابلغه مقررات المؤتمر. وأعلن المؤتمرون يوم ٢٤ نيسان ١٩٥٧ الإضراب العام والمظاهرات في معظم المدن الأردنية، وأغلقت المحلات التجارية أبوابها في عمان، وقام

المتظاهرون بقذف الحجارة وإطلاق الرصاص، وأغلقت الشوارع وأقيمت الحواجز، وكان المتظاهرون يرددون النداءات المعادية لأمريكا ولخطة أيزنهاور.[٥٧] ونتيجة الضغط الذي تعرض له النابلسي من حزبه قدم استقالته من حكومة الخالدي في ٢٣ نيسان ١٩٥٧، وفي اليوم التالي قدم الخالدي استقالة حكومته.

وفي ٢٤ نيسان كلف الملك حسين إبراهيم هاشم بتشكيل حكومة جديدة، وطلب إليها العمل على إعادة الأمن والنظام إلى البلاد، حيث شكل هذا الطلب المهمة الأولى للحكومة. واتخذت هذه الحكومة جملة من الإجراءات لإعادة الأمن والاستقرار، وأعلنت الأحكام العرفية في جميع أنحاء المملكة، وفرض نظام منع الانتقال بين المدن، وتم حل الأحزاب السياسية وتعطيل الحياة النيابية، ووضعت قوات الأمن تحت سيطرة الجيش. وفي سبيل تنفيذ هذه الإجراءات عين حكام عسكريون للعمل بجانب رؤساء الوحدات الإدارية، وتم حل لجان الإرشاد الوطني ومجالس الطلبة، واعتقال المئات من المعارضين.[٥٨]

وفي أعقاب تشكيل حكومة إبراهيم هاشم أصبح الأردن في أمس الحاجة إلى المساعدات المالية لسد العجز الاقتصادي الناجم عن توقف المساعدات البريطانية وتخلف دول التضامن العربي عن الإيفاء بالتزاماتها المالية التي كانت قد تعهدت بها مقابل إنهاء الأردن لمعاهدته مع بريطانيا، الأمر الذي دفع بسمير الرفاعي وزير الخارجية إلى أن يتقدم في ٢٩ نيسان ١٩٥٧ بطلب إلى السفير الأمريكي للحصول على المساعدات المالية، كما أعلن أيضا استعداده لدعوة ريتشارد لزيارة الأردن، وبحث مشروع أيزنهاور. وقد أعلنت الحكومة الأمريكية عن موافقتها على ذلك، وقدمت للأردن منحة مقدارها عشرة ملايين دولار لتنمية اقتصاد البلاد، وصيانة الاستقرار السياسي فيها، حيث تم التوقيع على الاتفاقية بين الحكومتين في ٢٧ أيار ١٩٥٧.[٥٩]

وقد أصبحت هذه المنحة تقدم سنويا للأردن، وتبعتها قروض ومعونات أخرى لتصبح الحكومة الأمريكية الممول الرئيسي للأردن بعد إنهاء المعاهدة الأردنية البريطانية،[٦٠] حيث قدمت الحكومة الأمريكية منحة بعشرة ملايين دولار في ٢٧ حزيران ١٩٥٧،[٦١] وأخرى بالقيمة ذاتها في نهاية تشرين الثاني ١٩٥٧.[٦٢] وكان الهدف من كل هذه المساعدات تمكين الحكومة الأردنية من أن تخلق قدرًا من الاستقرار السياسي والاقتصادي حسب مفهوم السياسة الأمريكية، وعلى أساس معادلة كسب الأردن قبل أن يكسبه الاتحاد السوفياتي من خلال التحالف مع مصر وسوريا. ويشير السفير البريطاني في الأردن آنذاك تشارلز جونستون (ch. jhonston) إلى الظروف المالية القاسية التي كان الأردن يعاني منها بقوله: "إن الحرب الباردة قد خلصت الأردن من إشرافه على الإفلاس، فقد جاء الممول الأمريكي من لا شيء ليحل محل البريطاني الذي ودع الأردن الآن."[٦٣]

وكان من نتائج الأزمة السياسية التي شهدتها الساحة الأردنية أن تأزمت العلاقات الأردنية السورية، وتبادلت الدولتان الاتهامات في التخطيط للتدخل في شؤون الأخرى؛ إذ وجهت الحكومة السورية تهديدًا إلى الأردن بالتدخل عسكريًا إذا ما وافقت حكومته على مبدأ أيزنهاور.[٦٤] كما اتهمت سوريا الأردن بالتدخل عسكريًا ضدها، وقد تزامن هذا الاتهام مع وصول المساعدات العسكرية الأمريكية إلى الأردن.[٦٥] كما أخذت إذاعة القاهرة تهاجم الحكومات العربية التي وافقت على مبدأ أيزنهاور، وبالذات الأردن والعراق، فقامت الحكومة الأردنية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر في التاسع من حزيران ١٩٥٧، واتهمت مصر هذه الحكومات بأنها أداة بيد الاستعمار الأمريكي الذي يشن حربًا سافرة ضد العرب، وفي المقابل اتهمت الحكومة الأردنية مصر بأنها وراء المؤامرات التي تهدف إلى الإطاحة بالنظام الملكي في الأردن.[٦٦]

وفي ٢٣ نيسان ١٩٥٧ قال وزير الخارجية الأمريكي دالاس: لدينا قناعة كبيرة أن الملك حسين يدافع عن استقلال بلاده وبقائها، وقد واجه الملك صعوبات كثيرة من أجل عدم وقوع بلاده تحت سيطرة أقطار أخرى، وإننا مستعدون لتقديم الدعم له. كما تمت مناقشة الأوضاع في الأردن في المؤتمر الذي عقد في برمودا (Bermuda) بين رئيس وزراء بريطانيا والرئيس ايزنهاور في ٢٤/ نيسان ١٩٥٧.[٦٧] أما الرئيس الأمريكي أيزنهاور، فقد اعتبر في تصريح له في ٢٥ نيسان ١٩٥٧ استقلال الأردن وسلامة أراضيه أمرًا حيويًا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، وحذر الدول المجاورة من التدخل في الشؤون الداخلية للأردن، وتطبيقا لمبدأ أيزنهاور أمر الرئيس الأمريكي في اليوم نفسه الأسطول السادس بالتوجه إلى شرقي البحر المتوسط.[٦٨] ورست على مقربة من بيروت مراكب تحمل قوة مؤلفة من (١٨٠٠) رجل من رجال البحرية الأمريكية، بينما قامت قوات أخرى بتمارين دفاع جوي في عرض البحر.[٦٩]

وأعلنت صحيفة "نيويورك هيرالد تريبيون" الوثيقة الصلة بوزارة الخارجية الأمريكية، أن صدور الأوامر إلى الأسطول السادس بالتحرك هو مخاطبة منا إلى كل إنسان بلغة يفهمها الجميع، أن ارفعوا أيديكم عن الأردن.[٧٠] وقالت صحيفة "الديلي تلغراف" البريطانية المحافظة، إن هذا العمل يثبت للعالم أن أمريكا على استعداد لان تتصرف وحدها بعيدا عن الأمم المتحدة بالشرق الأوسط، تماما كما كانت تفعل في أوروبا وأمريكا الجنوبية، وفي أية منطقة أخرى تعتقد أنها حيوية لأمنها، وهذا يثبت باختصار أن الشرق الأوسط منطقة حيوية بالنسبة إلى أمريكا.[٧١]

ولم تحاول الولايات المتحدة الضغط على الحكومة الأردنية للقبول بمبدأ ايزنهاور بشكل مباشر، وإنما حاولت إيجاد طرق أخرى تؤدي الغرض نفسه، وهذا ما أوضحته الخارجية الأمريكية عندما صرحت مارجريت هجنس (Marguerite Higgins) أن الولايات المتحدة لن تربك الملك حسين بطلبها استقبال بعثة ريتشاردز كثمن للحصول على مساعدة مالية، وإذا طلب الملك حسين المساعدة فانه يستطيع الحصول عليها بعدة طرق، ونحن الآن نعد لتزويد الأردن بمساعدات عن طريق السعودية.[٧٢] وقام

الملك حسين بزيارة للسعودية وأجرى مباحثات مع الملك سعود الذي عاد من واشنطن، وفي نهاية المباحثات أصدر الملكان بلاغًا مشتركًا في ٢٩ نيسان ١٩٥٧، أكدا فيه على الصداقة والتعاون، وفي اليوم التالي أعلن الملك حسين رسميًا قبوا المساعدة المالية الأمريكية والبالغة(١٠) ملايين دولار.(٧٣) ويصف جيمس موريس في كتابه (الملوك الهاشميون) تلك الفترة بقوله: ".. وهكذا مضت الشهور وسار الأردن في طريقه، فالمعارضة مكبوتة ومضطهدة ولا تستطيع أن تفعل شيئًا، والحكم قوي وعنيف، وعندما خطا الأمريكان ليحلوا محل البريطانيين فتحوا صناديقهم، وبدأ نفوذهم يظهر في عمان، ووصلت الأسلحة الأمريكية إلى الجيش العربي، وانهالت المنح والقروض".(٧٤)

خَاتِمَةٌ

جعلت أزمة نيسان الأردن بؤرة للتنافس بين الدول العظمى في إطار الحرب الباردة، فبينما أعلنت الولايات المتحدة وقوفها إلى جانب الملك والحكومة، أعلن الاتحاد السوفييتي عن وقوفه إلى جانب القوى الوطنية المعارضة لمبدأ ايزنهاور. وفي (٣٠ نيسان) صدر تصريح لوزارة الخارجية الروسية جاء فيه: إن الوضع الأردني يهم الاتحاد السوفييتي ليس نتيجة للتغيرات الداخلية، بل لأن الأحداث في الأردن ظهرت نتيجة تدخل أجنبي شامل. بالأمس كانت مصر واليوم الأردن وغدًا سوف تصبح أي دولة عربية أخرى هدفًا للمؤامرة الإمبريالية، ومما يفهم تلقائيًا أن المسؤولية عن النتائج المتوقعة بهذا التصعيد الخطير للأوضاع تقع على عاتق القوى الغربية وبالأخص الولايات المتحدة.(٧٥)

وهكذا، انتقل الأردن من جديد إلى المعسكر الغربي، وقد احتوت الأزمة السياسية الأردنية على كل مقومات الحرب الباردة التي بدأت تحتدم في المشرق العربي. وأصبح الأردن ينتهج نفس السياسة العراقية والسعودية واللبنانية، ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقات السعودية المصرية في التدهور تدريجيا، وحدث العكس مع العراق والأردن النظامين الملكيين اللذين أصبحا في نظر الرياض حليفين بدل منافسين. وتحولت السعودية إلى قطب رئيس لموازنة السياسة المصرية المعادية للغرب في المنطقة، وظهرت ملامح انقسام بين الدول العربية بقيادة مصر، والدول العربية المعارضة لها بقيادة السعودية والعراق.

الهَوامِشُ:

(١) مصطفى، أحمد عبد الرحيم، **الولايات المتحدة والمشرق العربي**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٤٤، ابريل ١٩٧٥، ص١٤٤.

(٢) البشتاوي، عماد رفعت، **العلاقات الأردنية الأمريكية ١٩٤٦-١٩٦٧**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك،١٩٩٥، ص٩٥.

(٣) مصطفى، **الولايات المتحدة والمشرق العربي**، ص١٤٥.

(٤) **ايزنهاور**، داويت، **مذكرات ايزنهاور**، ترجمة، هيوبرت يونغمان، ١٩٦٢، ص٧٨.

(٥) **باونت**، ريتشارد، **حروب التدخل الأمريكي في العالم**، ترجمة منعم النعمان، ١٩٧٤، ص١١٥-١١٧.

(٦) **العظم**، خالد، **مذكرات العظم**، الدار المتحدة للنشر، بيروت،١٩٧٣، ص.٤٩-٤٩١.

(٧) **سعودي**، هالة أبو بكر، **السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي ١٩٦٧-١٩٧٣**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص ٦٣.

(٨) البشتاوي، **العلاقات الأردنية الأمريكية**، ص٩٨.

(٩) **محافظة**، علي، **العلاقات الأردنية البريطانية من تأسيس الإمارة حتى إلغاء المعاهدة ١٩٢١-١٩٥٧**، دار النهار للنشر، بيروت، ط.١،١٩٧٣، ص٢٧١. الغويين، فيصل، **التاريخ السياسي للعلاقات الأردنية المصرية (١٩٤٥-١٩٧٠)**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، مطبعة الأرز، ط١، ٢٠١٢، ص٢٠٧-٢٠٨.

(١٠) **جريدة الدفاع**، ١٩٥٧/١/٨، ايزنهاور، **مذكرات ايزنهاور**، ص٩٢.

(١١) القضاة، أحمد، **الأزمة السياسية في الأردن ١٩٥٧-١٩٥٨**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك،١٩٩٩، ص٦٨.

(١٢) المرجع السابق، ص٦٨-٦٩.

(١٣) جونستون، تشارلز، **الأردن على الحافة**، ترجمة فهمي شما، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩٦، ص٦٩.

Gubser, peter, Jordan cross roads of Middle Eastern events, profiles nations of contemporary middle, west view press, P.94

(١٤) الحسين بن طلال، **مجموعة وثائق رسمية للفترة ١٩٥٣-١٩٥٧**، عمان، ١٩٥٧، ص١٧٧-١٨٠.

(15) The Middle East journal, Washington, vol11, no2, spring 1957, p182.

(16) Satloff, Robert, from abuullah to Hussein: Jordan in transition, new studies in middle Easten history, Oxford university press, P.1962-163

(١٧) الحسين بن طلال، **مهنتي كملك، أحاديث ملكية**، ترجمة غازي غزيل، مؤسسة مصري، ١٩٧٨، ص٩٢.

(١٨) **جريدة الدفاع**، ١٩٥٧/١/١٣، ص١، ٢.

(١٩) النقطة الرابعة (point four)، هي البند الرابع من خطاب الرئيس الأمريكي هاري ترومان التي تختص بالبلدان المتأخرة اقتصاديًا، وتدخل في نطاقها منطقتي الشرق الأدنى والأوسط، وبالتالي البلدان العربية جميعها، وتنص على إيجاد برنامج جديد للاستفادة من التقدم العلمي والازدهار الاقتصادي اعانه على نمو المناطق المتأخرة اقتصاديًا، يموت، سهيل، النقطة الرابعة، عرض وتحليل، مطبعة الاتحاد، بيروت، د.ت، ص٥-١١.

(٢٠) القضاة، **الأزمة السياسية في الأردن**، ص٨١.

(٢١) **جريدة الجهاد**، ٢٧ شباط ١٩٥٧، ص١.

(٢٢) الشلبي، سهلية سليمان، **العلاقات الأردنية (١٩٥١-١٩٦٧)**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص١٧٦.

(٢٣) محافظة، **العلاقات الأردنية البريطانية**، ص٢٧٣.

(٢٤) نعمان أبو سالم، **الأردن ومؤامرات الاستعمار**، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٥٨، ص٤٧.

(٢٥) محافظة، **العلاقات الأردنية البريطانية**، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢٦) الشلبي، **العلاقات الأردنية البريطانية**، ص١٧٨.

(٢٧) كامل، ميشيل، **المؤامرة الأمريكية في الأردن**. (د.ت)، ص٢١-٢٢.

(٢٨) **مجلة الميثاق**، العدد (١٤) آذار١٩٥٧، ص١.

(٢٩) بلال، خالدة، **دور العراق والأردن في السياسة العربية ١٩٤٦-١٩٥٨**، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ١٩٩٣، ص٣٧٨.

(٣٠) **جريدة البعث**، العدد (٥٠)، ١٣ نيسان ١٩٥٧، ص١.

(٣١) **مجلة الميثاق**، العدد (٤)، آذار١٩٥٧، ص٢.

(٣٢) **قضية فلسطين، نصوص من تراث البعث ١٩٤٤-١٩٤٦**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١، ص١٩٣-١٩٤.

(٣٣) **محاضر مجلس النواب الأردني**، ١٩٥٧، ص١.

(٣٤) التنداوي، سمير، **إلى أين يتجه الأردن**، الدار المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص٣٢.

(٣٥) المصري، محمد، **الأردن ١٩٥٣-١٩٥٧، دراسة سياسية**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥، ص٢٣١.

(٣٦) التنداوي، **إلى أين يتجه الأردن**، ص ٣٢.

(٣٧) المرجع السابق، ص٣٣.

(٣٨) **مجلة الكفاح الإسلامي**، العدد (٥) كانون الثاني ١٩٥٧، ص٥.

(٣٩) **مجلة الكفاح الإسلامي**، العدد (١٧)، ١٢نيسان ١٩٥٧، ص٢.

(٤٠) المصري، **الأردن** ١٩٥٣-١٩٥٧، ص٣٠، القضاة، **الأزمة السياسية**، ص٧٠.

(٤١) منشورات حزب التحرير، **ملف النشرات السياسية ١٩٣٥-١٩٦٩**، (د.ت)، ص٩٤

(٤٢) القضاة، **الأزمة السياسية**، ص٦٩.

(٤٣) **محاضر مجلس النواب الأردني**، ١٩٥٧، ص١.

(٤٤) **محاضر مجلس النواب ١٩٥٧ الأردني**، ص٢.

(٤٥) القضاة، **الأزمة السياسية**، ص٧١.

(٤٦) المرجع السابق، ص.٧١

(٤٧) **التصريح الثلاثي**: بيان أصدرته الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا في ٢٥ آذار ١٩٥٠، عقب مؤتمر عقده وزراء خارجيتها في لندن للبحث في موضوع السلام والاستقرار بين الدول العربية وإسرائيل بمناسبة مرور سنة على توقيع الهدنة في رودس، وأكدت هذه الدول معارضتها سباق التسلح، ورغبتها في المعاونة على إعادة السلام انظر: موسى، سليمان، الماضي، منيب، **تاريخ الأردن في القرن العشرين ١٩٠٠-١٩٨٥**، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٨٨، ص٦٠٧.

(٤٨) **جريدة فلسطين**، ١٩٥٧/١/٤.

(٤٩) **جريدة فلسطين**، ١٩٥٧/١/٥.

(٥٠) **جريدة فلسطين**، ١٩٥٧/١/٢٠.

(٥١) **جريدة فلسطين**، ١/١٩ /١٩٥٧.

(٥٢) الحسين بن طلال، **مهنتي كملك**، ص١١٤-١١٥.

(٥٣) **الضباط الأحرار**: أطلقت مجموعة من الضباط على نفسها اسم (الضباط الأحرار) وكان هدفهم التخلص من (غلوب) باشا والضباط الانجليز، وبعد تعريب الجيش وعزل (غلوب) عن قيادة الجيش تسلم (الضباط الأحرار) المراكز القيادية، ورفِّع علي أبو نوار إلى رتبة لواء، وأخذ هذا التنظيم بالتدخل في السياسة وخاصةً بعد إقالة حكومة سليمان النابلسي، ورفض القيام بإخماد أية مظاهرات تقوم في البلاد. راجع: موسى، سليمان، **أعلام من الأردن**، توفيق أبو الهدى، سعيد المفتي، **دراسة في السياسة الأردنية**، المؤسسة الصحيفة الأردنية، عمان، ١٩٩٣، ص٢٣٠.

(٥٤) الحسين بن طلال، **مهنتي كملك**، ص١٣٧-١٤٥.

(٥٥) الغويين، **سليمان النابلسي ودوره في الحياة السياسية الأردنية ١٩٠٨-١٩٧٦**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية،٢٠٠٣، ص١٧٠-١٧١.

(56) Abidi, Aqil, Jordan Apolitical Study 1948-1957.Asia publishing House. Pombay, 965,P.143.

(57) Aruri, Nasser, Jordan, A study in political Development, 1921-1965, Martinus Nijhoff, The Hug. 1972, P.144.

(٥٨) الغويين، **سليمان النابلسي**، ص١٧٣-١٧٤.

(٥٩) المرجع السابق، ص١٧٣-١٧٤.

(60) Survey of international Affairs for 1956 -1958, P.173

(٦١) لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية المعاصرة ١٩١٧-١٩٧٠**، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥، ص٢٧٠.

(62) Aruri, Op. cit., P.145.

(٦٣) محمود، ممدوح، **الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص٢٢٨.

(٦٤) المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٦٥) سيل، باتريك، **الصراع على سوريا، دراسة للسياسة العربية بعد الحرب ١٩٤٥-١٩٥٨**، ترجمة: سمير عبده ومحمود فلاحة، دار طلاس، ١٩٨٣، ص٣٩٤.

(٦٦) الغويين، فيصل، **التاريخ السياسي للعلاقات الأردنية المصرية**، ص٢١٥.

(٦٧) البشتاوي، **العلاقات الأردنية الأمريكية**، ص١٠٦.

(٦٨) بونيدس، ميشيل، **فرق تخسر: ثورة العرب ١٩٥٥-١٩٥٨**، ترجمة خيري حماد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦١، ص٢٦٣-٢٦٤، ماير، جايل، **الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢، ١٩٥٢-١٩٥٨**، ترجمة، عبد الرؤف أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص٣٠٨.

(٦٩) البشتاوي، **العلاقات الأردنية الأمريكية**، ص ١٠٦.

(٧٠) أبو سالم، **الأردن ومؤامرات الاستعمار**، ص٦٢.

(٧١) المرجع السابق، ص٦٣.

(٧٢) البشتاوي، **العلاقات الأردنية الأمريكية**، ص١٠٨.

(٧٣) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٧٤) موريس، **الملوك الهاشميون**، المكتب العالمي للتأليف والترجمة، بيروت، د.ت، ص٢٤٦.

(٧٥) المرجع السابق، ص٢٥٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

موقف المملكة العربية السعودية من الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ – ١٩٨٢ في الصحافة السعودية

د. فهد عباس سليمان السبعاوي
مدرس التاريخ الحديث
قسم التاريخ – كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة كركوك – جمهورية العراق



مُلَخّصْ

يتناول البحث الموقف الذي تبنته المملكة العربية السعودية في عهد الملك خالد بن عبد العزيز (١٩٧٥-١٩٨٢) من قيام الحرب الأهلية في لبنان من خلال الصحافة السعودية، عن طريق الجهود الدبلوماسية التي بذلتها في تقريب وجهات النظر بين الأطراف المتصارعة، ومن خلال الدعم المادي وتقديم المساعدات الإنسانية للفئات المتضررة من تلك الحرب. وتأتي دراسة الموقف السعودي من الحرب الأهلية من خلال الصحافة السعودية الرسمية وغير الرسمية التي تناولت ورصدت تفاصيل دقيقة لأحداث تلك الحرب والتصريحات والبيانات الرسمية للمسؤولين السعوديين والجهود المبذولة لوقف نزيف الحرب الأهلية اللبنانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ يوليو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٩ نوفمبر ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ لبنان الحديث، إسرائيل، الحرب الأهلية اللبنانية، الدبلوماسية السعودية، سياسة إسرائيل

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041874

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فهد عباس سليمان السبعاوي. "موقف المملكة العربية السعودية من الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ – ١٩٨٢) في الصحافة السعودية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص ٣٠ – ٣٨.

مُقَدِّمَةُ

شهد لبنان منعطفًا خطيرًا في تاريخه المعاصر، تمثل بقيام الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، تلك الحرب التي يصعب تحديد هويتها، هل هي حرب طائفية أم اجتماعية واقتصادية، أو أنها حرب بين أطراف لبنانية – فلسطينية، أم هي حرب إقليمية، لكن هي في جميعها اجتمعت لتشعل نار الحرب الأهلية اللبنانية، دفع ثمنها أبنائها ليس باختيارهم فقط بل أصبحوا أيضًا أداة لإشعال فتيلها. فطوال الحرب الأهلية اللبنانية كان اللبنانيون أداة في أيدي الدول الإقليمية والدولية لتنفيذ خططها وأهدافها في المنطقة العربية، وأصبح لبنان ساحة صراع إقليمي ودولي ومكان لتصفية الحسابات بعيدًا عن أراضي هذه الدول الإقليمية والدولية. يتناول البحث الموقف الذي تبنته المملكة العربية السعودية في عهد الملك خالد بن عبد العزيز (١٩٧٥-١٩٨٢) من قيام الحرب الأهلية في لبنان من خلال الصحافة السعودية، عن طريق الجهود الدبلوماسية التي بذلتها في تقريب وجهات النظر بين الأطراف المتصارعة، ومن خلال الدعم المادي وتقديم المساعدات الإنسانية للفئات المتضررة من تلك الحرب. وتأتي دراسة الموقف السعودي من الحرب الأهلية من خلال الصحافة السعودية الرسمية وغير الرسمية التي تناولت ورصدت تفاصيل دقيقة لأحداث تلك الحرب والتصريحات والبيانات الرسمية للمسؤولين السعوديين والجهود المبذولة لوقف نزيف الحرب الأهلية اللبنانية.

١- ظروف ودوافع قيام الحرب الأهلية اللبنانية

أدت عوامل عديدة دورها في تنامي الاحتقان الداخلي في لبنان عام ١٩٧٥ وأدى ذلك بدوره إلى اندلاع الحرب الأهلية في هذا البلد، الأمر الذي نتج عنه تدخل قوى إقليمية وأجنبية في هذه الحرب، ومن بين تلك العوامل هو الخلاف حول المشاركة في الحكم والخلاف حول هوية لبنان ودوره في القضايا العربية وموقعه من الصراع العربي – الإسرائيلي[1]. وشكّل الوجود الفلسطيني في لبنان والموقف منه داخل لبنان دورًا مهمًا في

اندلاع تلك الحرب، فبينما كانت الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية والمسلمين تنادي بوجوب دعم المقاومة الفلسطينية للوقوف بوجه العمليات العسكرية الإسرائيلية وتحمّل جزءًا من أعباء هذه المواجهة العربية – الإسرائيلية كان الجانب الأخر يطالب بوضع حد للوجود الفلسطيني وإلزام الفلسطينيين باحترام قوانين الدولة والاتفاقيات المعقودة بين الطرفين من اجل عدم إعطاء ذريعة لإسرائيل بضرب قواعد الفدائيين في لبنان والمدن والقرى اللبنانية(٢).

وبهذه العوامل العديدة أصبح لبنان منقسم إلى معسكرين كبيرين (المعسكر الإسلامي) الذي تحالف غالبيته مع المقاومة الفلسطينية وانتظمت في داخله ميليشيات مسلحة ذات وزن عسكري لا يستهان به نظمتها بالأساس القوى الوطنية والتقدمية المتحالفة مع المقاومة الفلسطينية والتي سميت (الحركة الوطنية اللبنانية) بقيادة كمال جنبلاط(٣). ومعسكر (ماروني) الذي التفت غالبيته حول مليشيات الكتائب والوطنيين الأحرار والمنظمات المارونية المسلحة الأخرى والتي أطلق عليها لقب (الانعزاليين)، والتي شكلت (الجبهة اللبنانية) فيما بعد(٤).

شهد لبنان تأسيس العديد من الأحزاب السياسية ومن بينها الحزب الشيوعي اللبناني الذي يعود تأسيسه إلى عام ١٩٢٤ تحت تسمية (حزب الشعب اللبناني)(٥)، فضلاً عن الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي تأسس في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٣٢ بوصفه حزبًا عقائديًا غير طائفي(٦)، ومؤسس هذا الحزب هو أنطوان سعاده(٧). وإلى جانب تلك الأحزاب، عرف لبنان عدد من الأحزاب والمنظمات السياسية كان لها تأثير مباشر في الأحداث الداخلية التي شهدها لبنان قبيل اندلاع الحرب الأهلية. منها منظمة العمل الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي وحركة الناصريين المستقلين وحركة المقاومة أمل وغيرها(٨). هذا الخليط من الأحزاب اليسارية والناصرية والتقدمية سرعان ما تجمع في صيغة ائتلافية بعد اندلاع الحرب في لبنان تحت اسم (الحركة الوطنية اللبنانية) بزعامة كمال جنبلاط.(٩)

كما شهد لبنان تأسيس عدد من الأحزاب السياسية والتنظيمات المارونية المنضوية تحت الجبهة اللبنانية ومنها حزب الكتائب اللبنانية الذي تأسس في تشرين الثاني عام ١٩٣٦ بزعامة بيار الجميل، ولعب حزب الكتائب دورًا قياديًا لليمين المسيحي مع اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ ووقف بوجه المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية وقد أتهم الحزب بالمسؤولية في اندلاع الحرب في ١٣ نيسان ١٩٧٥(١٠). وحزب الوطنيين الأحرار الذي تأسس على يد كميل شمعون عام ١٩٥٨، عندما كان رئيسًا للجمهورية(١١).

وبرر مؤسسو الجبهة اللبنانية بان غاية الأحداث في لبنان هو القضاء على طائفتهم وان عليهم التكتل مارونيًا(١٢). أما أهداف هذه الجبهة من الحرب فتمثلت بالدفاع عن الصيغة اللبنانية ومواجهة تحالف الحركة الوطنية مع المقاومة الفلسطينية وعدت الجبهة أن منظمة التحرير الفلسطينية هي السبب الرئيس للمحنة اللبنانية(١٣). لذلك نرى أن للقوى اليمينية الانعزالية أهدافًا استراتيجية مبنية على السيطرة على لبنان من خلال الرد على الوجود الفلسطيني واستنزاف قدراته العسكرية خدمةً لهم وللامبريالية(١٤). وكذلك عزل القوى الوطنية اللبنانية عن المقاومة الفلسطينية وتوجيه ضربات إلى القوى الوطنية لإخضاعها وضمان استقرارها(١٥). وكذلك حماية ما عرف بـ (لبنانية) لبنان ومن ثم إبعاد لبنان عن محيطه العربي واقصائه عن تأدية دوره بالشكل المطلوب لمواجهة المؤامرات التي كانت تحاك ضده(١٦).

يمكن القول؛ بأن هناك توجهين واضحين حول أسباب الحرب في لبنان فمن ناحية هنالك الذين يقولون أن أسباب الحرب في لبنان هي أسباب داخلية من خلال الطائفية والانعزالية التي بثت فرنسا بذورها، وازدياد التناقضات الاقتصادية والاجتماعية(١٧). فضلاً عن ضعف السلطة المركزية وانشقاقها(١٨). وهناك مَنْ يرى أن أسباب الحرب خارجية ولا علاقة للبنانيين بها، فالحرب في مفهومهم هي (حرب الآخرين على ارض لبنان). فالعامل الخارجي موجود في جميع أزمات لبنان وله دورًا فعالاً منذ نشوب الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ ومرورًا بحرب ١٩٧٥(١٩).

بدأت المشكلة الطائفية في لبنان مع بداية التدخل الأجنبي في لبنان ولاسيما بعد فتنة ١٨٦٠ فبادرت الدول الغربية إلى التدخل الفعلي بالحجة الاستعمارية التقليدية، وهي المحافظة على الأمن وحماية الأقليات، فتطوعت فرنسا لحماية الموارنة، والنمسا لحماية الكاثوليك، وروسيا القيصرية لحماية الأرثوذكس، وبريطانيا لحماية الدروز(٢٠). ويأتي العامل الاقتصادي – الاجتماعي واحدًا من بين العوامل الممهدة لقيام الحرب الأهلية في لبنان، إذ لعبت الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين الطوائف وبين المناطق أي بين محافظتي بيروت وجبل لبنان من جهة وباقي المحافظات اللبنانية من جهة أخرى دورًا رئيسيًا في ازدياد التوتر بين اللبنانيين، وعلى الرغم من تعزيز موقع لبنان بوصفه مركزًا ماليًا أمنًا للبرجوازية العربية وبوصفه مصدرًا سياحيًا لأثرياء دول الخليج وكمعمل للتجارة مع الغرب ولبرالية الاقتصاد اللبناني وسوقه الحرة إلا ان هذه المكانة التي احتلتها لبنان كان لها آثار سلبيه إذ أدت إلى زحف العديد من العوائل إلى بيروت وظهور حزام فقر حولها في الكرنتينا وبرج حمود والنبعه والشياح وتل الزعتر.(٢١)

ومن جانب آخر، اختلف اللبنانيون بشدة حول التواجد الفلسطيني سياسيًا وعسكريًا في لبنان، وحول العمل الفدائي عند الحدود اللبنانية بعد عام ١٩٦٧ وذلك بسبب بروز المقاومة الفلسطينية على الصعيد العربي والدولي بعد حرب عام ١٩٦٧ وتسلمها زمام الفلسطينيين أينما كانوا في العالم العربي(٢٢). ثم تطور الوضع الفلسطيني في لبنان بعد أحداث عام ١٩٦٩ وتوقيع اتفاق القاهرة، إذ تحول الفلسطينيون من لاجئين في لبنان إلى قوة عسكرية مسلحة ومستقلة محليًا عن الدولة اللبنانية إذ

استطاعت أن تنتزع سلطة الاعتراف على المخيمات والدفاع عنها ضد الهجمات الإسرائيلية، وأصبح للفلسطينيين مراكز إعلامية وتدريبية وعسكرية في لبنان(٢٣).

وشكّل خروج منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن سنة ١٩٧٠ على أثر أحداث (أيلول الأسود) وتوجههم نحو لبنان عاملاً زاد من حدة الخلاف اللبناني حول الوجود الفلسطيني(٢٤). زد على ذلك هو مصلحة إسرائيل في إشعال الأزمة اللبنانية هو أثارة الفتنه والشقاق والتوتر بين اللبنانيين والفلسطينيين وذلك عبر العمليات العسكرية المتكررة (٢٥). فقد كانت سياسة إسرائيل منذ زمن طويل أن تجعل جيرانها يدفعون ثمن انطلاق العمليات الفدائية الفلسطينية ضدها من أراضيها لإرغام الحكومات الضعيفة على ضبط الفدائيين والسيطرة عليهم.(٢٦)

٢- اندلاع الحرب الأهلية في لبنان

شهد مطلع عام ١٩٧٥ اشتداد حدة الصراعات السياسية في لبنان وتحولها إلى صراعات مسلحة، ففي ٢٦ شباط ١٩٧٥، انطلقت تظاهرة شعبية صاخبة في مدينة صيدا(٢٧). إذ قام صيادوا الأسماك في صيدا بمسيرة تظاهرية احتجاجًا على الترخيص الذي أعطي لشركة بروتين لصيد الأسماك(٢٨)، التي كان يرأس مجلس إدارتها رئيس الجمهورية السابق كميل شمعون. والذي تملك بموجبه الحق في صيد الأسماك على امتداد الساحل اللبناني لمدة ٩٩ عامًا فعد الصيادون أن ذلك يشكل خطرًا على مصدر رزقهم(٢٩).

فتدخل الجيش بعنف لقمع المظاهرة بعد ما زعمت قيادته أطلاق النار عليه من قبل المتظاهرين وقتلت رقيبًا من أفراده، فرد الجيش بالمثل مما أسفر عن إصابة رئيس بلدية صيدا النائب السابق معروف سعد ومن ثم موته في ٦ أذار١٩٧٥، فضلاً عن مقتل أحد عشر متظاهرًا برصاص الجيش الذي تصدى لهم(٣٠). وفي ٢٨ شباط قامت مظاهرة احتجاج في بيروت نظمها تجمع الأحزاب الوطنية التقدمية وتقدمت بمطالب عدة تمثلت في تحقيق مطالب صيدا بشأن الأسماك وتعويض الأضرار ووضع قانون جديد لتنظيم الجيش وإجراء تحقيق جدي لمعرفة مطلقي النار على معروف سعد والدعوة إلى الإضراب العام والمستمر حتى تحقيق هذه المطالب(٣١).

وفي المقابل دعت الكتائب اللبنانية حلفاؤها إلى الخروج في مظاهرات دفاعًا عن الجيش وتأييدًا له. وفي اليوم التالي خرج أهالي صيدا والمقاومة الفلسطينية إلى الشارع وقطعوا الطريق الرئيسي الذي يربط المدينة بصور، وأطلقت المليشيات المحلية في صيدا والفدائيون الفلسطينيون من مخيم عين الحلوة الرصاص على وحدات الجيش التي تحركت في اتجاه المدينة لإعادة فتح الطريق مما جعل الجيش يقتحم صيدا، وأسفر تدخل الجيش عن مقتل خمسة من إفراده واحد عشر مدنيًا ولم يتوقف القتال إلا في ١ آذار ١٩٧٥ بعد ما تلقى أهالي صيدا تعهدات رسمية بسحب قوات الجيش من المدينة(٣٢). وتم بالفعل سحب الجيش وأقصي دوره في حفظ الأمن من صيدا بعد ما وجهت إليه الاتهامات بأنه يخدم مصالح مارونيّة ويعمل من أجل القضاء على المقاومة الفلسطينية(٣٣). ثم عقد مجلس الوزراء اللبناني برئاسة رشيد الصلح(٣٤). اجتماعًا طارئًا لبحث الأزمة ووافقت الحكومة اللبنانية في ٢ آذار على طلب إجراء تحقيق في الحادث وصرحت الحكومة أنها سوف تعيد النظر في مسألة منح امتياز الصيد لشركة بروتين على نحو يتوافق مع مصالح جميع الأطراف المعنية(٣٥). ثم أصدرت الحكومة قرارًا في (٤ نيسان) بعدم السماح لشركة بروتين بالصيد على بعد (١٥) كيلو متر على الأقل عن الشاطئ اللبناني وتعويض الصيادين المتضررين.(٣٦)

استمر مسلسل الأحداث في لبنان الأمر الذي نتج عنه اندلاع حرب أهلية، ففي ١٣ نيسان ١٩٧٥، عندما وصل رئيس حزب الكتائب بيار الجميل لحضور تدشين كنيسة جديدة في عين الرمانة في بيروت(٣٧). فانطلقت من أحد الأزقة سيارة واندفعت إلى صوب الكنيسة فقامت بضرب الحاضرين بالرصاص فلقي أربعة مصرعهم في الحال ومن ضمنهم جوزيف أبو عاصي المرافق الشخصي لبيار الجميل(٣٨). وبعد فتره وجيزة مرت حافلة تقل فلسطينيين عائدين إلى منطقة مخيم تل الزعتر القريبة من مكان الحادث بعد ما شاركوا في احتفالية نظمتها لهم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة)(٣٩). إذ كان قد أقيم في مخيم صيدا ذلك اليوم احتفالاً بالذكرى الأولى لعمليه فدائية ضد المستعمرات الإسرائيلية، فاعترضتهم مجموعه من أعضاء حزب الكتائب في عين الرمانة وأطلقوا الرصاص على الباص بكثافة فسقط ٢٦ قتيلاً و١٩ جريحًا(٤٠). وبدأ التوتر يتصاعد بشكل لا مثيل له وساعد على ذلك أن نفوس المواطنين في الأصل مهيأة نتيجة حملة التعبئة من جانب الكتائب ضد الوجود الفلسطيني في لبنان فضلاً عن التطورات التي رافقت أحداث صيدا واغتيال معروف سعد.(٤١)

وقد شكل مقتل الفلسطينيين في عين الرمانة بداية الصدام بين المقاومة الفلسطينية وحزب الكتائب وبداية الصراع المسلح في لبنان. ورغم نفي بيار الجميل مسؤولية حزبه في هذه الحادثة إلا أن منظمة التحرير الفلسطينية حملّت حزب الكتائب المسؤولية ووصفته بأنه: "عمل مدبر وجاء في خطة مدروسة ومحكمه التدابير بعلم قيادة حزب الكتائب".(٤٢)

ورغم محاولات التهدئة إلا انه سرعان ما أتسع نطاق الاشتباكات وتزايد الانفجارات وبدأت تستعمل المدافع والصواريخ في مناطق عين الرمانة والشياح وفرن الشباك والدكوانه فسقط نتيجة لذلك ٣٣ قتيلاً وعشرات الجرحى(٤٣). ونتيجة لهذه الأحداث قسم لبنان إلى منطقتين جغرافيتين متخاصمتين وبدأ الفرز السياسي والطائفي يعمل على تكريس زعامة لبنانية مسيحية في المنطقة الشرقية من بيروت مقابل زعامة فلسطينية مسلحة وأحزاب تقدمية وطنية في المناطق الغربية من بيروت وفي اليوم

ذاته تجاوبت الكتائب والمقاومة مع مساعي التهدئة الذي أمكن تحقيقه بفضل الأمين العام للجامعة العربية بتسليم الكتائب لاثنين من المطلوبين بتدبير حادثة عين الرمانة إلى السلطات اللبنانية[٤٤].

إلا أن الأزمة اللبنانية انفجرت مره أخرى مع استقالة حكومة رشيد الصلح في ١٥ أيار ١٩٧٥ بسبب ضغط الكتائب حول ضرورة مجيء حكومة قويه تخلف حكومة الصلح، والاستقالات الجماعية للوزراء من أعضاء حزبي الكتائب والوطنيين الأحرار[٤٥]. أعلن الرئيس اللبناني سليمان فرنجيه (١٩٧٠-١٩٧٦) في ٢٣ أيار ١٩٧٥ عن تأليف حكومة عسكرية من ستة وزراء برئاسة العميد المتقاعد نور الدين الرفاعي، إلا أنها سرعان ما قدمت استقالتها يوم ٢٦ أيار تحت ضغط المعارضة الإسلامية واليسارية الواسعة[٤٦].

عاش لبنان أزمة سياسية حقيقية تمثلت في سرعة تبدل الوزارات بسبب الخلاف حول عدم اشراك الكتائب في الحكومة رافقه تجدد القتال يوم ٢٨ حزيران ١٩٧٥ على جبهة الشياح وعين الرمانة واهتزاز بيروت بالصواريخ والمتفجرات في معظم أحيائها ليلاً[٤٧]. عندها عمد الكتائبيون إلى تجديد القتال في بيروت من أجل إنزال الجيش وسحق الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية فقصفوا منطقة الأسواق التجارية واندلعت النيران في جميع الأسواق من اجل جر الجيش إلى هذه المواجهة[٤٨]. وهنا دخل لبنان بمعارك عنيفة وتصفيات جسدية وتهجير مستمر واحتلال للحارات ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين في ١٤ كانون الثاني ١٩٧٦، لا سيما مخيم تل الزعتر الذي وصل تعداد سكانه إلى ٣٠ ألف نسمة[٤٩]. ولم تفلح جهود الوساطة السورية، بعد اللقاء الذي جمع الرئيس السوري حافظ الأسد والرئيس اللبناني سليمان فرنجية ورشيد كرامي وإعلان الوثيقة الدستورية[٥٠] في ١٤ شباط ١٩٧٦ لوقف حمامات الدم بسبب رفض الأطراف المتقاتلة لتلك الوثيقة[٥١].

٣- موقف المملكة العربية السعودية من قيام الحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٨٢)

أثار اندلاع الحرب الأهلية في لبنان قلق الدول العربية والإسلامية والأجنبية، وبخصوص الموقف السعودي، فقد أتسم بتمسك المملكة العربية السعودية بثوابت أساسية حيال الأزمة اللبنانية، وهي رفض تقسيم لبنان والحفاظ على وحدته واستقراره، وضرورة القيام بإصلاحات سياسية واقتصادية للتغلب على الأزمة، والإبقاء على المقاومة الفلسطينية وإزالة الخلافات بينها وبين لبنان والعمل على رفض تدويل الأزمة اللبنانية وعدّها قضية عربية[٥٢].

عبرت المملكة العربية السعودية عن بالغ قلقها، منذ بداية اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، وعلى الفور اصدر الديوان الملكي السعودي بيانًا عن الأحداث اللبنانية في ١٨ نيسان ١٩٧٥ جاء فيه: "إن الأحداث الجارية في لبنان الشقيق بين حزب الكتائب والمقاومة الفلسطينية تؤلم كل عربي وأن المملكة العربية السعودية تناشد جميع العناصر المخلصة من الطرفين أن يتحلوا بالصبر وأن يضعوا حدًا لهذه الاستفزازات التي لا يستفيد منها إلا العدو المتربص بالأمة شرًا، وترجو المملكة أن التعاون والوئام بين جميع العناصر لتتمكن من تحرير أرضنا واسترداد حقوقنا من أيدي العدو الغاصب".[٥٣]

إهتم الملك خالد بن عبدالعزيز[٥٤](١٩٧٥-١٩٨٢) بالقضية اللبنانية، واتصل بالرئيس اللبناني سليمان فرنجية أعرب عن قلق بلاده مما يجري في لبنان، وأكد وقوف بلاده على الحياد لتفويت الفرصة على الدول الراغبة في إغراق الدول العربية في هذه الحرب، وأوضح أن الحوار السياسي هو انجح الحلول لوقف نزيف الدم في لبنان[٥٥]. وأكد وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل أن بلاده تدعو إلى ضرورة اتفاق اللبنانيين وتوحيد الصف الداخلي والرجوع إلى التهدئة لوقف الاقتتال الداخلي[٥٦]، وأعرب ولي العهد السعودي الأمير فهد بن عبدالعزيز عن قلقه مما يجري في لبنان وبأن ما يحدث هو مأساة بكل ماتحمله الكلمة من معنى، وأوضح أن الحكومة السعودية مع كل حل يرمي إلى إيقاف الاقتتال بين اللبنانيين والفلسطينيين وأن الحل يكمن في توحيد المواقف للوصول إلى نتيجة مرضية للطرفين[٥٧].

أصدرت الحكومة السعودية بيانًا في نهاية نيسان ١٩٧٥ جاء فيه: "تشعر المملكة العربية السعودية بالألم البالغ والأسى العميق، إزاء الأحداث التي آلمت بلبنان الشقيق، وتنظر المملكة بقلق بالغ إلى ما يمكن أن يؤدي إليه استمرار هذه الأحداث، لقد حاولت المملكة في نطاق الجامعة العربية تجنيب لبنان المأساة التي حلت به والتي ذهب ويذهب ضحيتها أناس أبرياء ودماء غالية والتي عبثت وأودت بأمنه واستقراره... إن المملكة تؤمن أن الوحدة الوطنية في لبنان هي الركيزة الأساسية لأمنه واستقراره وسيادته وأن الحوار المسؤول الهادف بين الأطراف اللبنانية المعنية هو الأسلوب الوحيد الذي يستطيع لبنان من خلاله تجاوز المأساة والأحداث الدامية...".[٥٨]

!تهم الملك خالد أطرافًا خارجية في إشعال الحرب الأهلية في لبنان وأوضح أن إسرائيل هي المستفيد الأول من تلك الحرب، وهي الساعية إلى بث الفرقة والتناحر في سبيل تحقيق مخططاتها التوسعية في المنطقة ومنها ضرب المقاومة الفلسطينية الموجودة في لبنان[٥٩]، وأكد من جانبه أن المملكة العربية السعودية تتعامل مع لبنان العربي وليس الطائفي داعيًا إلى دعم عربي من أجل وقف تلك الحرب[٦٠]. إن توجيه الملك خالد الاتهام لإسرائيل بإشعال الحرب الأهلية في لبنان استند على ما جاء في تصريح رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين في مطلع آذار ١٩٧٥ قائلاً: "أن إسرائيل سترد على العمليات الفدائية الفلسطينية ردًا مختلفًا وسترد من داخل لبنان".[٦١] وجاء الموقف الذي تبناه الملك خالد ردًا على الشائعات حول دعم السعودية لفئة لبنانية دون أخرى، لثنيها عن مواصلة الجهود والدعوات لاحتواء

الأحداث اللبنانية، وأوضح الملك خالد أن بلاده ملتزمة بسياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى[٦٢].

ومن جهة أخرى؛ أكد ولي العهد السعودي الأمير فهد أن بلاده تدعم الحوار بين اللبنانيين، بوصفها الوسيلة المثلى لتجاوز هذه الأزمة ولإرجاع لبنان إلى ما كان عليه سابقًا.[٦٣] وفي الإطار نفسه، رحبت الحكومة السعودية بالجهود العربية وسعيها لتطويق الحرب الأهلية، وهو ما جاء على لسان الملك خالد بالقول: "أن يدنا ممدودة دائمًا لكل يد تعمل على إعادة التضامن وأن هذا الأمر يشغل حيزًا كبيرًا من اهتمام المملكة".[٦٤] وأكد ولي العهد الأمير فهد أن بلاده لا تتردد أبدًا في مساعدة اللبنانيين، وأن الحكومة السعودية تبذل جهودًا كبيرة مع شقيقاتها العربيات للمساهمة في إنهاء المأساة اللبنانية وإعادة الأمن والاستقرار إلى لبنان.[٦٥]

وحول الدعوات إلى إرسال قوات عربية إلى لبنان، دعمت المملكة العربية السعودية هذا المطلب بقوة وأصدرت بيانًا بهذا الخصوص: "إن المملكة العربية السعودية أيدت وتؤيد قرار الجامعة العربية بشأن إرسال قوات أمن عربية للإشراف على إحلال السلام في لبنان الشقيق، اعتقادًا منها بأن هذا الإجراء يوقف نزيف الدم العربي... وتناشد السعودية جميع الأطراف المعنية المتصارعة بوقف القتال لتتمكن القوات العربية من أداء مهمتها.[٦٦] وفي إطار الجهود السعودية لاحتواء الأزمة اللبنانية، استضافت السعودية القمة الثلاثية في مدينة جدة عام ١٩٧٥، التي ضمت مصر والسودان والسعودية، وأكد البيان المشترك على دعم الجهود العربية لوقف نزيف الدم اللبناني والعمل على عقد مؤتمر عام تشارك فيه الأطراف اللبنانية لهذا الغرض[٦٧].

وفي الإطار ذاته، ونتيجة لتأزم الوضع الداخلي في لبنان، دعت المملكة العربية السعودية الدول العربية إلى اجتماع طارئ لبحث الموقف في لبنان وتداعياته الخطيرة ليس على لبنان فحسب وإنما على المنطقة العربية في وقت تستمر فيه إسرائيل تنفيذ مخططاتها التوسعية.[٦٨] استمرت الأحداث تسير في لبنان بوتيرة مستمرة مع تصاعد العنف والقتل في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في ضبية وتل الزعتر، فقد أعربت السعودية عن قلقها البالغ من ذلك وأكدت في بيان رسمي أن اتخاذ موقف المتفرج مما يجري في لبنان لا يمكن السكوت عنه وأن المملكة ستبذل كل ما بوسعها من أجل إيقاف القتل والدمار الذي يتعرض له المدنيون العزل وتؤكد دعوتها الأطراف المتصارعة إلى الالتفات إلى هؤلاء المدنيين الذين وقعوا ضحية تلك الأحداث[٦٩]. ودعت الحكومة السعودية الدول العربية إلى إنقاذ الجرحى المحاصرين في تلك المخيمات محذرة في الوقت نفسه خشيتها أن تؤدي الأمور إلى تقسيم لبنان إلى فئات متناحرة وإغراق المنطقة في حروب طويلة الأمد[٧٠].

وبموازاة ذلك بعث الرئيس اللبناني الياس سركيس (١٩٧٦-١٩٨٢) رسالة إلى الملك خالد جدّد شكر بلاده للموقف الايجابي الداعم الذي تبنته المملكة العربية السعودية لاحتواء الأزمة اللبنانية وسعيها الحثيث من أجل إعادة الأمن والاستقرار إلى لبنان[٧١]. واستكمالاً للجهود السعودية، استضافت السعودية قمة عربية خلال الفترة ١٦_١٨ تشرين الأول ١٩٧٥ جمعت كل من الملك خالد وأمير الكويت صباح السالم الصباح والرئيس اللبناني الياس سركيس والرئيس السوري حافظ الأسد والرئيس المصري محمد أنور السادات ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، وتناولت القمة الأحداث الجارية في لبنان والعمل على إيقاف الحرب الدائرة وحماية الفلسطينيين المقيمين في المخيمات في لبنان، وصدر عن القمة عدة مقررات وهي:

١- وقف إطلاق النار وإنهاء القتال الدائر في لبنان.
٢- تعزيز قوات الأمن العربية والتي تقدر بـ(٣٠٠٠٠) مقاتل قوامها القوات السورية الموجودة في لبنان تحت أمرة الرئيس اللبناني وتنحصر مهمتها في فرض وقف إطلاق النار وحفظ الأمن الداخلي والإشراف على سحب المسلحين إلى أماكنهم قبيل بدء الحرب.
٣- إعادة الحياة الطبيعية إلى لبنان والتزام منظمة التحرير الفلسطينية باحترام سيادة لبنان وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.[٧٢]

يبدو أن المملكة العربية السعودية استطاعت جمع الزعماء العرب حرصًا منها على إيقاف الحرب الأهلية اللبنانية لما لها من نتائج عكسية تصل إلى باقي الدول العربية، وأصبحت المملكة تشكل محورًا مؤثرًا بفعل ثقلها السياسي والاقتصادي، وهو ما عبر عنه الرئيس اللبناني أمين الجميل قائلاً: "إن لبنان لا يستطيع الاعتماد فعليًا إلا على المملكة، وإنها أملنا الوحيد للخروج من المأزق الخطير، إذ ساهمت المملكة العربية السعودية في التخفيف من مأساة الحرب ومد يد العون والمساعدة إلى الشعب اللبناني ومشاركتها في قوات الردع العربية...".[٧٣] كما عبر السفير اللبناني في واشنطن عن تقديره للجهود التي بذلتها المملكة العربية السعودية ومساهمتها في تقديم المساعدة والوقوف إلى جانب محنة اللبنانيين.[٧٤]

وفي إطار الدعم المادي الذي قدمته المملكة العربية السعودية للبنان، فقد قدمت السعودية مبلغ مليون وأربع مائة ألف دولار كمساعدة عاجلة للشعب اللبناني، وقدمت أيضًا مساعدات غذائية وطبية إلى المحاصرين في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين خلال أحداث تل الزعتر.[٧٥] وتتويجًا للجهود الرسمية السعودية لاحتواء الأزمة اللبنانية، فقد توجه الملك خالد بزيارة رسمية لسوريا في ٢٥ كانون الأول عام ١٩٧٥، اجتمع خلالها مع الرئيس السوري حافظ الأسد وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وتناول المجتمعون الحرب الأهلية الدائرة في لبنان واتفقوا على ضرورة تسوية تلك الأزمة بما يتماشى مع سيادة واستقلال لبنان وحماية المقاومة الفلسطينية في آن واحد.[٧٦]

شاركت المملكة العربية السعودية في القمة العربية التي انعقدت في القاهرة في (٢٥ تشرين الأول عام ١٩٧٦)[٧٧] ممثلة بالملك خالد، وأكدت القرارات الصادرة عنها على الموافقة على مقررات القمة العربية السابقة في الرياض من حيث الالتزام بوقف إطلاق النار والحفاظ على أمن وسيادة لبنان والمصادقة عليه من قبل الزعماء العرب، كما أكدت على التزام الدول العربية بالعمل على اعمار ما دمرته الحرب في لبنان، وإنشاء صندوق لجمع النفقات المخصصة لقوات الردع العربية في لبنان تحت إشراف الرئيس اللبناني.[٧٨]

وهذا يعني أن المملكة العربية السعودية رحبت بالوجود السوري في لبنان كأمر واقع، ولم تستطع أن توفق بين الأطراف العربية المناوئة للسياسة السورية في لبنان مثل العراق ومصر، آخذة مصالح تلك الدول بنظر الاعتبار، إلا أن الجهود السعودية أسفرت بالتالي عن تعريب الأزمة اللبنانية وحصول القوات السورية الموجودة في لبنان على غطاء عربي للعمل ضمن قوات الردع العربية، والتي شكّل السوريّون معظمها.

أشاد ولي العهد السعودي الأمير فهد بالقرارات الصادرة عن القمة العربية وأكد أن تلك القرارات جاءت تتويجًا لقرارات قمة الرياض السابقة، بفعل الجهود التي بذلتها الدول العربية من أجل إيقاف دوامة العنف الدائر في لبنان[٧٩]. وفي موسم الحج ألقى الملك خالد كلمة عن الأحداث اللبنانية جاء فيها: "أنني أحمد الله سبحانه وتعالى أيها الإخوان، وقد انطفأت شرارة تدمي قلوبنا جميعًا هي شرارة الحرب الطاحنة في لبنان، حيث نحمد الله تعالى على تباشير السلام التي عمت أرجائه وعلى أن وضع حدًا لتلك المجازر البشرية الرهيبة التي ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء، ونحمد الله أن وفق إخوتنا في لبنان المخلصين ليتعاونوا ويتفهموا قضاياهم ويدركوا أن السلاح لا يمكن أن يحل المشاكل...".[٨٠]

وتقديرًا للجهود السعودية أشار بيار الجميل رئيس حزب الكتائب اللبنانية، في تصريح له إلى موقف المملكة العربية السعودية الداعم لوحدة لبنان ودورها في إيقاف نزيف الحرب الأهلية فضلاً عن مساعداتها الغذائية والطبية لضحايا تلك الحرب.[٨١] وردًا على ذلك ذكر ولي العهد الأمير فهد في حديث له أن بلاده لن تتوانى عن مساعدة أي دولة عربية وأن السعودية بذلت جهودًا حثيثة من أجل القضية اللبنانية وهذا نابع من اهتمامها بلبنان، وأوضح أن بلاده ستضع كل إمكاناتها للوقوف إلى جانب الشعب اللبناني وإعادة اعمار البنى التحتية التي تضررت بفعل الحرب،[٨٢] وأكد السفير السعودي في بيروت علي الشاعر أن بلاده تابعت الأحداث في لبنان منذ البداية وأسهمت بشكل كبير في إنهاء العنف المسلح بين اللبنانيين والفلسطينيين وإعادة الأمن والاستقرار إلى لبنان.[٨٣]

تعرض جنوب لبنان إلى غزو إسرائيلي في ١٤ آذار ١٩٧٨، التي عرفت بعملية الليطاني هدفها ضرب الوجود الفلسطيني في لبنان وتنفيذ المخطط الإسرائيلي بالسيطرة على نهر الليطاني.[٨٤] وعلى الفور استنكرت الحكومة السعودية العدوان الإسرائيلي وأكد الملك خالد وقوف بلاده الكامل إلى جانب لبنان فضلاً عن الفلسطينيين الموجودين في لبنان، فيما أكد وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان بن عبدالعزيز أن لبنان سيستعيد أمنه واستقراره بجهود أبنائه بعيدًا عن التفرقة الطائفية.[٨٥] وبموازاة ذلك كررت المملكة العربية السعودية دعوتها الأطراف المتقاتلة إلى وقف إطلاق النار، واستطاعت أن تجمع تلك الأطراف في مؤتمر (بيت الدين) في لبنان خلال الفترة ١٥-١٧ تشرين الأول عام ١٩٧٨، ومثّل المملكة وزير خارجيتها سعود الفيصل فضلاً عن وزراء الخارجية العرب، ودعا المؤتمر إلى الحفاظ على سيادة لبنان وإنهاء المظاهر المسلحة وتقوية الجيش اللبناني.[٨٦]

شهد لبنان تطورات أخرى، تمثلت بالاجتياح الإسرائيلي للبنان في ٥-٦ حزيران ١٩٨٢، هدفت إسرائيل من خلاله القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية وطرد الفلسطينيين من لبنان وإخراج سوريا من لبنان وتشكيل حكم ماروني قوي يوقّع معاهدة سلام مع إسرائيل.[٨٧]

لقد وضع الاجتياح الإسرائيلي الدول العربية في مأزق خطير ولم تستطع تقديم الدعم للبنان أو على الأقل الخروج بموقف موحد من ذلك الاجتياح، بسبب خروج مصر من دائرة الصراع العربي – الإسرائيلي عام ١٩٧٩ واندلاع الحرب العراقية – الإيرانية عام ١٩٨٠ والانحياز السوري إلى جانب إيران وتفاقم الخلاف بين العراق وسوريا، وهذا ما جعل المملكة العربية السعودية توجه أصابع الاتهام إلى الإدارة الأمريكية بدعمها لإسرائيل والعمل على تفتيت وتدمير لبنان.[٨٨]

وبخصوص الموقف السعودي الرسمي من الاجتياح الإسرائيلي، صرح الملك خالد، خلال ترأسه المؤتمر الإسلامي المعقود في مكة في حزيران عام ١٩٨٢ قائلاً: "إن العدوان الإسرائيلي لا يقتصر على أنه اعتداء على شعب آمن مستقر في وطنه الطبيعي، واستباحة أرضه وممتلكاته، وإنما هو استهتار بالمواثيق والأعراف الدولية، وتحدٍ صارخ للقرارات التي تتخذها الهيئات الدولية، كما يعد عدوانًا على الحقائق والقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية... إنني أناشد المجتمع الدولي بصفة عامة اتخاذ الإجراءات الحاسمة والكفيلة بوضع حد لهذه الممارسات الإرهابية".[٨٩] ودعا الملك خالد الدول العربية إلى التضامن والوقوف إلى جانب أشقائهم اللبنانيين والفلسطينيين الذين يتعرضون إلى حرب إبادة بشعة.[٩٠] وطالب ولي العهد الأمير فهد الدول العربية بوقفة حازمة إلى جانب الأشقاء اللبنانيين في محنتهم التي يمرون بها، مؤكدًا أن بلاده تؤمن بأن الحل العربي لأي قضية لا بد أن يعتمد على الإجماع العربي لتحقيق الهدف المنشود والقاضي بإخراج لبنان من أتون الحرب الأهلية المدمرة.[٩١]

خَاتِمَةٌ

تشير المعلومات الواردة في البحث إلى أن قيام الحرب الأهلية في لبنان في نيسان ١٩٧٥ لم يأتِ من فراغ، وإنما استند على جملة عوامل مهمة ساهمت إلى حد كبير إلى إشعال فتيل تلك الحرب، على أن الوجود الفلسطيني في لبنان شكّل أبرز العوامل المسببة للحرب، والمتمثل في انطلاق العمليات الفدائية الفلسطينية ضد إسرائيل، وهنا وجدت إسرائيل أن الحل الأمثل لوقف تلك العمليات هو تغذية المشاكل وتأجيج الصراعات الداخلية بين الفلسطينيين واللبنانيين.

وحول الموقف السعودي، فقد ارتكزت المملكة العربية السعودية في البداية على أسس ومبادئ في اتخاذ موقف واضح تجاه الأحداث الداخلية في لبنان، وهي الحفاظ على سيادة واستقرار لبنان وحماية الوجود الفلسطيني وتشجيع التقارب والتفاهم بين الفصائل المتصارعة واتخاذ جانب الحياد حتى لا يستغل من جانب دول أخرى كي تتدخل وتعمل على تعميق الفجوة بين الفلسطينيين واللبنانيين. إلا أن اشتداد حدة المعارك وتفاقم أحداث القتل والاختطاف وحصار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين دفع بالمملكة العربية السعودية إلى التدخل والابتعاد عن سياسة الحياد لوقف نزيف الحرب الأهلية والوقوف إلى جانب لبنان، من خلال تقديم الدعم المادي والمساعدات الإنسانية للفئات المتضررة من تلك الحرب. ساهمت المملكة العربية السعودية بجهود كبيرة في إيجاد الحلول اللازمة لإيقاف الحرب، حرصًا منها على الحفاظ على حياة المدنيين الذين كانوا عرضة للقتل والاختطاف والتهجير، الذي مورس من جانب الأطراف المتصارعة. واستطاعت المملكة العربية السعودية دعم الحوار بين الأطراف المتحاربة من خلال مشاركتها في المؤتمرات العربية وتأييدها لتشكيل قوة عربية تكون مهمتها الحفاظ على الاستقرار الداخلي في لبنان والإشراف على وقف إطلاق النار.

الهَوامِشُ:

(١) عبد الرؤوف سنو، **حرب لبنان ١٩٧٥-١٩٩٠**، تفكك الدولة وتصدع المجتمع، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، (بيروت، ٢٠٠٨)، ج١، ص٧٨.

(٢) أحمد خليفة، "**موقف إسرائيل من أحداث لبنان ودورها فيها**"، مجلة شؤون فلسطينية، ع(٦١)، بيروت، ١٩٧٦، ص٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ص٥٠-٥١.

(٤) نصار غلميه، أسباب وأسرار الحرب اللبنانية ١٩٧٥-١٩٧٦، (د.م، ١٩٧٦)، ص٢٩٥.

(٥) عبد الجبار حسن الجبوري، **الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩٥٨**، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٨٠)، ص١٧٧؛ إبراهيم محسن وآخرون، **دولة لبنان الكبير، (١٩٢٠-١٩٩٦)**، منشورات الجامعة اللبنانية، (بيروت، ١٩٩٩)، ص٢٥٩.

(٦) الجبوري، المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٧) غازي فيصل الراوي، **موقف الأحزاب اللبنانية من الوحدة العربية ١٩٤٦-١٩٥٨**، رسالة ماجستير (غير منشورة)، المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، جامعة المستنصرية، ١٩٧٧، ص ٨٧.

(٨) الجبوري، المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٩) أحمد أبو مطر، **حزب الله الوجه الأخر**، دار الكرمل للنشر والتوزيع، (عمان، ٢٠٠٨)، ص٣١.

(١٠) صالح خضر محمد وحمد حسن عبد الله طرفه، "**موقف حزب الكتائب اللبناني من الأوضاع الداخلية في لبنان ١٩٧٠-١٩٨٩**"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، ع(٣)، مج(٨)، جامعة كركوك،٢٠١٣، ص ٣-٥.

(١١) ميشال الغريب، **الصليبيون اللبنانيون**، (د. م، ١٩٧٧)، ص ٣٦٥.

(١٢) سنو، المصدر السابق، ج١، ص ٨٥.

(١٣) ليلى رعد، **تاريخ لبنان السياسي والاقتصادي ١٩٥٨ -١٩٧٥**، تقديم مسعود ظاهر، ط١، مكتب السائح، (طرابلس، لبنان، ٢٠٠٥). ص ٢٥٥.

(١٤) فتحية السعودي، **أحوال الفلسطينيين الصحية والاجتماعية في لبنان**، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٧٩)، ص ١١.

(١٥) منظمة الاشتراكيين الثوريين، **الوضع اللبناني والأزمة الوطنية – أفاق التغيير**، (د.م، د.ت)، ص٦٤-٦٥.

(١٦) سعد نصيف جاسم الجميلي، **التطورات السياسية في لبنان ١٩٥٨-١٩٧٥**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٤، ص ١٩٢.

(١٧) الياس سابا، "**الأزمة اللبنانية إلى أين**"، مجلة المستقبل العربي، ع (١٣٥)، ١٩٩٠، ص ٨٩.

(١٨) إيليا حريق، **السياسة والوفاق القومي في لبنان**، في زكريا وآخرون، المصدر السابق، ص٣٧٤.

(١٩) أحمد الرشيدي، "**قضية التدويل وصراع القوى في لبنان**"، مجلة السياسة الدولية، العدد ٥٥، ١٩٧٩، ص٦٥.

(٢٠) محمد طي، **لبنان في خريطة الامبريالية الجديدة**، (د.م، د.ت)، ص ٢٤.

(٢١) يحيى علي العلي، **التدخل الدولي في الشؤون اللبنانية منذ اتفاق الطائف عام ١٩٨٩ حتى ٢٠٠٣**، ط١، (دمشق، ٢٠١٠)، ص٥٨.

(٢٢) عبد المنعم المشاط، "**الفلسطينيون والحرب في لبنان**"، مجلة السياسة الدولية، ع(٤٣)، القاهرة، ١٩٧٦، ص٤١.

(٢٣) حسن الحسن، **الأنظمة السياسية والدستورية في لبنان وسائر البلدان العربية**، ط٣، (بيروت، ١٩٨١)، ص١٩٩.
(٢٤) محمد وطرفه، المصدر السابق، ص٣.
(٢٥) رعد، المصدر السابق، ص ٢١٩.
(٢٦) باتريك سيل، **الأسد الصراع على الشرق الأوسط**، دار الساقي، (د. م، ١٩٨٨)، ص ٤٤٣.
(٢٧) فتحي خلف الجبوري، **نشأة الحزب التقدمي الاشتراكي ومواقفه الداخلية والخارجية ١٩٤٩-١٩٧٥**، ط١، الدار التقدمية، (لبنان، ٢٠٠٩)، ص ٢٠٢.
(٢٨) شفيق الريس، **التحدي اللبناني ١٩٧٥-١٩٧٦**، دار المسيرة للنشر، (بيروت، ١٩٧٨)، ص٧٧.
(٢٩) روبرت فيسك، **ويلات وطن**، ط١٧، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، (بيروت، ٢٠٠٥)، ص ١١١.
(٣٠) الجميلي، المصدر السابق، ص١٩٤.
(٣١) منظمة التحرير الفلسطينية، **يوميات الحرب اللبنانية ١٩٧٦**، (بيروت، ١٩٧٧)، ج١، ص٨.
(٣٢) أحمد فتحي جمعة الحميد، **موقف الجمهورية العربية السورية من الحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٥-١٩٨٣**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل،٢٠١٢، ص٥٧.
(٣٣) سنو، المصدر السابق، ج١، ص ٢٦٩.
(٣٤) **رشيد الصلح**: سياسي ومحامي ورئيس وزراء لبناني اسبق. ولد في بيروت عام ١٩٢٦ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس الفرير والمقاصد ثم التحق بكلية الحقوق اليسوعية في بيروت وأتم فيها تحصيله الجامعي. أصبح رئيساً للوزراء في تشرين الأول عام ١٩٧٤ وحتى أيار عام ١٩٧٥ وقد تميزت فترة وجوده في رئاسة الوزارة باضطراب سياسي واجتماعي خطير مهد الطريق أمام اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في ١٣ نيسان ١٩٧٥. أي قبل استقالته بأسابيع. عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، الدار العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٨٦)، ج٢، ص ٨١٨.
(٣٥) جاسم محمد خضير الجبوري، **مجلس النواب اللبناني ١٩٤٣-١٩٧٥، دراسة تاريخية وثائقية**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٦، ص ٢٢٨.
(٣٦) الحميد، المصدر السابق، ص ٥٨.
(٣٧) **حرب لبنان، حصار بيروت – حرب الجبل**، مقتطفات من الصحف ووكالات الأنباء اللبنانية والعالمية، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص٧.
(٣٨) سنو، المصدر السابق، ج١، ص٢٦٩.
(٣٩) فؤاد مطر، **سقوط الإمبراطورية اللبنانية**، دار القضايا للنشر، (بيروت، ١٩٧٦)، ج١، ص ١١.
(٤٠) مصطفى طلاس، **مرآة حياتي**، ج٣، ١٩٦٨-١٩٧٨، طلاس للطباعة والنشر، (دمشق، ٢٠٠٧)، ص ١١٢١.
(٤١) مطر، المصدر السابق، ج١، ص ١١.
(٤٢) سنو، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٠.
(٤٣) مطر، المصدر السابق، ج١، ص ١٢.
(٤٤) مسعود الخوند، **لبنان المعاصر، مشهد تاريخي وسياسي**، ط٣، (بيروت، د.ت)، ص ٢٨٣.
(٤٥) **جريدة النهار**(اللبنانية)، ع(١٢٤٧٩)، ١٦ أيار ١٩٧٥.
(٤٦) الحميد، المصدر السابق، ص٦١.
(٤٧) محمد وطرفه، المصدر السابق، ص٦.
(٤٨) سمير فرنجية، "**الأزمة – والبديل**"، مجلة شؤون فلسطينية، العددان (٥٠-٥١)، بيروت، ١٩٧٥، ص١٧.
(٤٩) مطر، المصدر السابق، ج٣، ص١٢.
(٥٠) **الوثيقة الدستورية**: ويطلق عليها وثيقة الإصلاح السياسي عقدت في دمشق في ٨ شباط عام ١٩٧٦، عبارة عن مجموعة من الأفكار السياسية الإصلاحية، تم الاتفاق عليها من قبل الرئيس اللبناني سليمان فرنجية ورشيد كرامي بدعم من سوريا، كرست تلك الوثيقة رئاسة الطوائف الثلاث، إذ تضمنت مشروعًا يرتكز على المساواة في التمثيل السياسي بين المسيحيين والمسلمين، وهي جزء من وساطة سورية كانت تأمل من خلالها دعم الفلسطينيين لذلك الاتفاق لوقف الحرب الأهلية في لبنان. لتفاصيل أكثر يُنظر: عبد العزيز قباني، **لبنان والصيغة المأساة**، (بيروت، ١٩٨٢)، ص١٥.
(٥١) سنو، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٣.
(٥٢) المصدر نفسه، ص٢٣٢.
(٥٣) **جريدة الرياض**، ع(٣٠٠٨)، ٢٠ نيسان ١٩٧٥.
(٥٤) **الملك خالد بن عبد العزيز**: هو الابن الخامس في سلسلة أبناء الملك عبد العزيز آل سعود ورابع ملوك المملكة العربية السعودية، ولد في الرياض عام ١٩١٣، شارك في مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ حول القضية الفلسطينية، وعُين نائبًا لرئيس مجلس الوزراء عام ١٩٦٢، ثم وليًا للعهد في ٢٥ آذار عام ١٩٦٥، وتسلم عرش المملكة بعد اغتيال أخيه الملك فيصل في ٢٥ آذار ١٩٧٥. توفي في ١٣ حزيران ١٩٨٢. يُنظر: الكيالي، المصدر السابق، ج٢، ص٦٠٢.
(٥٥) سامي محمود، الملك خالد بن عبد العزيز، مسيرة الخير والعطاء، ط١، أبها، ٢٠٠٧، ص١٠٠.
(٥٦) **جريدة الرياض**، ع(٣١٦٦)، ٢٥ نيسان ١٩٧٥.
(٥٧) **جريدة عكاظ**، ع(٣٤٧٧)، ٤ آذار ١٩٧٥.
(٥٨) **جريدة عكاظ**، ع(٣٤٧١)، ٢٨ نيسان ١٩٧٥.
(٥٩) **جريدة عكاظ**، ع(٣٤٢٧)، ٢٣ نيسان ١٩٧٥.
(٦٠) **جريدة الرياض**، ع(٣٢٠٣)، ٢٧ نيسان ١٩٧٥.
(٦١) إبراهيم النجار وآخرون، **لبنان وآفاق المستقبل**، أوراق ومناقشات الندوة الفكرية التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ١٩٩١)، ص١٥٦.
(٦٢) **جريدة الرياض**، ع(٣٢٠٤)، ٢٨ نيسان ١٩٧٥.
(٦٣) **جريدة عكاظ**، ع(٣٤٧٩)، ٣ آذار ١٩٧٥.
(٦٤) **جريدة عكاظ**، ع(٣٤٧١)، ٢٨ نيسان ١٩٧٥.
(٦٥) **جريدة الرياض**، ع(٣٣٥٩)، ٣ تموز ١٩٧٥.
(٦٦) **جريدة الجزيرة**، ع(١٥٣١)، ٢٢ آب ١٩٧٥.
(٦٧) **جريدة أم القرى**، ع(٢٦٣٥)، ٢ أيلول ١٩٧٥.
(٦٨) **جريدة أم القرى**، ع(٢٦٣٩)، ٦ أيلول ١٩٧٥.
(٦٩) **جريدة أم القرى**، ع(٢٦٣٧)، ١٠ أيلول ١٩٧٥.
(٧٠) **جريدة أم الجزيرة**، ع(١٥٧٩)، ١٢ أيلول ١٩٧٥.
(٧١) **جريدة أم القرى**، ع(٢٦٤٥)، ١٥ أيلول ١٩٧٥.
(٧٢) **جريدة الجزيرة**، ع(١٦٢٨)، ١٨ تشرين الأول ١٩٧٥.
(٧٣) محمد عنان، **السعودية وهموم العرب**، المكتب العالمي للطباعة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٦٣-١٦٤.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٧٥) **جريدة الرياض**، ع(٣٤٠١)، ٢٠ تشرين الأول ١٩٧٥.

(٧٦) الريس، المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٧٧) سنو، المصدر السابق، ج١، ص٢٢٨.

(٧٨) **جريدة الرياض**، ع(٣٤٧٤)، ٢٥ تشرين الأول ١٩٧٥.

(٧٩) **جريدة الرياض**، ع(٣٤٧٥)، ٣ شباط ١٩٧٦.

(٨٠) دارة الملك عبد العزيز، **مجموعة مختارات الخطب الملكية**، ج٢، الرياض، ١٩٩٩، ص٣٦.

(٨١) **جريدة عكاظ**، ع(٣٩١٥)، ١٥ نيسان ١٩٧٦.

(٨٢) **جريدة الرياض**، ع(٣٨٥٨)، ٢ آذار ١٩٧٧.

(٨٣) **جريدة الرياض**، ع(٣٨٥٩)، ٧ آذار ١٩٧٧.

(٨٤) جمال سعد نوفان، "**الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢**"، مجلة آداب الفراهيدي، ع(١٣)، جامعة تكريت، ٢٠١٢، ص ١١٣.

(٨٥) جريدة الجزيرة، ع(٣١٨٣)، ٢٠ آذار ١٩٧٩.

(٨٦) سنو، المصدر السابق، ج١، ص٢٣٢.

(٨٧) عدنان حسين السيد، **التوسع في الاستراتيجية الإسرائيلية**، ط١، (بيروت، ١٩٨٩)، ص ١١٦. ولتفاصيل أكثر حول أسباب ودوافع الاجتياح الإسرائيلي للبنان ينظر: شوان خزعل رشيد الكاكائي، موقف الجمهورية العربية السورية من الحرب الأهلية في لبنان ١٩٨٢-١٩٩٠، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، ٢٠١٣، ص ص٤٠-٤٤.

(٨٨) سنو، المصدر السابق، ج١، ص٣١٠.

(٨٩) جريدة أم القرى، ع(٢٩١٣)، ٢٩ حزيران ١٩٨٢.

(٩٠) عبد الرحيم محمد العلمي، "**فلسطين والقدس الشريف في فكر وحياة الملك خالد بن عبد العزيز**"، مجلة دارة الملك عبد العزيز، ع(٢)، السنة(٣٦)، الرياض، ٢٠١١، ص ١١٩.

(٩١) مها معتوق، **وقائع الحرب الإسرائيلية -الفلسطينية في لبنان**، ط١، (بيروت، ١٩٨٣)، ص ص ١١٢-١١٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

إضراب الثماني أيام في الجزائر ٢٨ يناير – ٤ فبراير ١٩٥٧ معركة الجزائر الكبرى



أ.د. الطاهر جبلي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

إذا كان الفعل الاستعماري يستثمر ويوجه كل الإمكانيات المادية والمعنوية المتاحة له لتحقيق مشروع هيمنته على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإن العمل الثوري بالمعنى الشمولي لمفهوم الثورة استند على استراتيجية المواجهة على جميع الأصعدة وبمختلف الوسائل، واستفاد من البيئة والظروف الملائمة لإيصال أهداف وأفكار وتصورات المشروع الثوري والتحريري، ومن هذا المنطلق يُعَدّ الإضراب أحد وسائل وميكانيزمات التعبئة الشعبية لمقارعة الاستعمار من جهة، واشتراك مجموع الشعب في القضية الشعبية لمقارعة الاستعمار من جهة، واشتراك مجموع الشعب في القضية التي لم ترتبط يومًا بشخص أو بتيار أو بحزب، وإنما كانت دومًا ولا تزال قضية شعب تعرض لعقود طويلة لأكبر عملية اضطهاد ومسخ في التاريخ المعاصر، والتي بلغت أوجها مع اندلاع الثورة الجزائرية الكبرى. عرفت الجزائر خلال الثورة التحريرية في مرحلتها الثانية (١٩٥٦- ١٩٥٨) إضرابًا تاريخيًا شكل منعطفًا حاسمًا في حركة التحرر الجزائرية وصراعها مع فرنسا الاستدمارية -إضراب الثمانية أيام (٢٨ جانفي- ٠٤ فيفري١٩٥٧) هذا الحدث البارز في التاريخ الوطني يجهله الكثير من أبناء جيل الاستقلال، وعلى هذا الأساس إن هدفنا من وراء هذه الدراسة حول هذا الإضراب التاريخي هو الإجابة على الكثير من التساؤلات المرتبطة بموضوع هذا البحث، وكشف الوجه الحقيقي للسياسة الاستعمارية الفرنسية غير الإنسانية السافرة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ سبتمبر ٢٠١٣
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ يناير ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الثورة الجزائرية، الاستعمار الفرنسي، مؤتمر الصومام، الشعب الجزائري، المقاومة الجزائرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041873

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهر جبلي. "إضراب الثماني أيام في الجزائر (٢٨ يناير – ٤ فبراير ١٩٥٧) معركة الجزائر الكبرى".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٣٩ – ٤٨.

مُقَدِّمَةُ

إذا كان الفعل الاستعماري يستثمر ويوجه كل الإمكانيات المادية والمعنوية المتاحة له لتحقيق مشروع هيمنته على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإن العمل الثوري بالمعنى الشمولي لمفهوم الثورة استند على إستراتيجية المواجهة على جميع الأصعدة وبمختلف الوسائل، واستفاد من البيئة والظروف الملائمة لإيصال أهداف وأفكار وتصورات المشروع الثوري والتحريري، ومن هذا المنطلق يُعَدّ الإضراب أحد وسائل وميكانيزمات التعبئة الشعبية لمقارعة الاستعمار من جهة، واشتراك مجموع الشعب في القضية الشعبية لمقارعة الاستعمار من جهة، واشتراك مجموع الشعب في القضية التي لم ترتبط يوما بشخص أو بتيار أو بحزب وإنما كانت دوما ولا تزال قضية شعب تعرض لعقود طويلة لأكبر عملية اضطهاد ومسخ في التاريخ المعاصر، والتي بلغت أوجها مع اندلاع الثورة الجزائرية الكبرى.

إذ عرفت الجزائر في هذه المرحلة الحاسمة إضرابا تاريخيا شكل منعطفًا حاسمًا في عمر الثورة الجزائرية في صراعها مع فرنسا الاستعمارية، إضراب ٢٨ جانفي ١٩٥٧ هذا الحدث البارز في التاريخ الوطني يجهله الكثير من أبناء جيل الاستقلال وعلى هذا

الأساس إن هدفنا من وراء هذه الدراسة حول لإضراب الثمانية أيام هو الإجابة على جملة من التساؤلات: ما هي خلفيات الإضراب، ومَنْ هي الجهة التي دعت إليه؟ ما الذي كان يفكر قيه صانعو الحدث؟ وإلى أي درجة بلغ تجاوب الشعب الجزائري مع تعليمات قادة الثورة؟ وكيف كان رد فعل الساسة الفرنسيين؟ وما هي نتائجه وانعكاساته على العمل الثوري؟

أولاً: الظروف والأوضاع العامة عشية الإضراب التاريخي

١/١- على المستوى الداخلي:

إن الإدارة الفرنسية لا تريد الاعتراف بحقيقة ما يجري في الجزائر وتوهم العالم والرأي العام الفرنسي بأن تطبيق قانون "حالة الطوارئ" قد أفاد كثيرًا في الحد من انتشار الثورة وتحسن الوضع على حد قول الوالي العام "جاك سوستيل"، وأثناء هذه التصريحات الوقحة التي تتشبث بها الحكومة الفرنسية بتحسن الأوضاع، جيش التحرير الوطني يوسع العمليات العسكرية التي بلغت ذروتها في يوم (٢٠ أوت ١٩٥٥) حين وقع أكثر من هجوم جماعي لفرق جيش التحرير الوطني على المراكز العسكرية الفرنسية في كل من قسنطينة، سكيكدة، قالمة، القل، الخروب، ومدن أخرى، والمصادر الفرنسية نفسها تعترف بأن هذه الهجمات "بلغت من الشدة والعنف ما يجعلنا نعتقد أن أصحابها يستجيبون لمشاعر وطنية قوية".[١] وفتح يوم ٢٠ أوت واجهة حربية جديدة كبرى في الشمال القسنطيني، مما اضطر القيادة العسكرية الفرنسية إلى إعادة النظر وبشكل خاص في برنامجها العسكري لقمع الثورة، خاصةً بعد الهجمات العسكرية لجيش التحرير في الفاتح من أكتوبر ١٩٥٥ في مدن الغرب الجزائري: وهران، تلمسان، ندرومة، مغنية فالثورة بلغت أقصاها في الحدة والانتشار لتنذر بزوال حكومة "إدغارفور".

في هذه المرحلة الحاسمة تسفر الحملة الانتخابية لتعيين نواب المجلس الوطني الفرنسي المنحل عن تشكيل حكومة اشتراكية على رأسها "غي موليه – Guy Mollet" في (١٢ مارس ١٩٥٦). إن حصول حكومة السيد "غي موليه Guy Mollet" على كافة السلطات الخاصة يبرز بوضوح موقفه من القضية الجزائرية، مواجهة الثورة بكل الوسائل القمعية في أولويات برنامجه[٢] لأن الجزائر في نظره ما تزال ملكًا لفرنسا الاستعمارية وأن الشعور الوطني لأبناء الشعب الجزائري ليس له أية قيمة بالنسبة إليه.[٣]

المسيو "غي موليه" الرجل الاشتراكي ينحني بصفة مزرية أمام حملة (٦ فيفري ١٩٥٦) التي نظمها كبار المعمرين والتي عينت الوزير المقيم "روبير لاكوست – Lacoste Robert"، ومنذ ذلك الحين تتوجه كل جهود هذا الأخير إلى طلب الإمداد، وحشد قوي وتطبيق البرنامج العسكري الدقيق.

الحكومة الاشتراكية استجابت لمطالب الوزير المقيم "روبير لاكوست" بحيث شرعت في إرسال الإمدادات العسكرية، فلا يمر يوم دون أن تخلو موانئ الجزائر من البواخر القادمة من فرنسا محملة بالجنود والعتاد الحربي، فالإحصائيات العسكرية الرسمية توضح أنه في سنة ١٩٥٥ قدر عدد القوات الفرنسية بـ (١٥٠,٠٠٠) جندي لترتفع من صيف ١٩٥٦ بـ (٤٠٠,٠٠٠) جندي، و(١٠٠,٠٠٠) دركي، وفصائل الأمن الجمهوري وأعوان الشرطة، إضافة إلى حوالي (١٠٠,٠٠٠) من المدنيين الأوروبيين الذين أصبحوا يشكلون كتائب مسلحة (المليشيات)، وارتفعت الميزانية التي خصصت لحرب الجزائر في تلك الفترة إلى ما يزيد على المليار من الفرنكات في اليوم الواحد وهي تفوق أعلى نسبة في التكاليف التي تطلبتها الحرب في الهند الصينية.[٤]

لقد كلف توجه الحكومة إلى انتهاج هذه السياسة الراديكالية اتجاه الثورة وإرهاق الاقتصاد الفرنسي حيث أوردت جريدة أمريكية (CHICAGO DAILY NEWS): "إن الاقتصاد الفرنسي أصبح مزعزعًا بسبب النفقات الباهظة الرامية إلى محاولة إخماد الثورة".[٥] لقد تجاوزت متاعب حكومة "غي موليه Guy Mollet" التكاليف المادية، حيث تعددت إحباطاتها السياسية في الجزائر بانضمام شريحة نوعية من المجتمع الجزائري إلى الثورة في ربيع سنة ١٩٥٦، فقد ظل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، أحد المنابر السياسية لجبهة التحرير الوطني، الأمر الذي جعل هذا التنظيم يستجيب لنداء جبهة التحرير الوطني، الأمر الذي جعل هذا التنظيم يستجيب لنداء جبهة التحرير الوطني للقيام بالإضراب.[٦] بعد أن قامت السلطات الاستعمارية باعتقال وإعدام العديد من الطلبة بتهمة الانخراط في التنظيمات المسلحة لجيش التحرير الوطني، فكان قرار مقاطعة المؤسسات التعليمية الفرنسية في (١٩ مايو ١٩٥٦) حدثًا مميزًا ومعلمًا بارزًا في عمر الثورة الجزائرية، إذ تم التحاق الطلبة زرافات وفرادى بصفوف جيش التحرير، مما أعطى دعمًا كبيرًا للثورة من حيث التنظيم والتأطير والقيادة.

وإذا كان إضراب الطلبة قد جاء نتيجة لسياسة تعسفية فرنسية فهو رد فعل لابد منه بعد أن تعرضت هذه الطبقة المثقفة للضغط والخناق الشديدين، فإن التوجه إلى هيكلة الثورة وتنظيم الصفوف وضبط البنية المؤسساتية للعمل السياسي والعسكري كان وليد رغبة راودت العديد من قادة جبهة وجيش التحرير، فكانت الدعوة إلى عقد مؤتمر الصومام مؤتمر توكل إليه مهمة تنظيم الثورة سياسيًا وإداريًا وعسكريًا، لقد تجسدت الفكرة على أرض الواقع على ضفاف وادي الصومام في صيف ١٩٥٦، فقد تم عقد المؤتمر في شهر أوت بحضور العديد من قادة الثورة وتمخض جدول أعماله الذي دام أسبوعين عن اكتساب الثورة لأولى الهياكل التنظيمية ممثلة في مجلس وطني، ولجنة للتنسيق والتنفيذ، وتقسيم إداري وسياسي، ولجان فرعية ذات مهام محددة، كما تبدو أهمية هذا المؤتمر الذي يشكل منعرجًا حاسمًا من خلال امتلاك العمل الثوري لبعد إيديولوجي شرعي وذو أهداف واضحة المعالم.

إن هذه الإنجازات التي حققتها الثورة كانت لها انعكاسات وخيمة على حكومة "غي موليه" الأمر الذي جعله ينتهج سياسة خبطة عشواء تحت ضغط الوزير المقيم "روبير لاكوست" ومن ورائه غلاة المعمرين. لقد خرجت السياسة الفرنسية عن المألوف في الأعراف الدولية عندما قامت جهرًا وعلى مرأى ومسمع من العالم بعملية قرصنة جوية تمثلت في تحويل طائرة كان قد وضعها سلطان المغرب محمد الخامس تحت تصرف وفد جبهة التحرير الوطني يتمثل في وفد الزعماء الخمسة "أحمد بن بلة، محمد خيضر، حسين آيت أحمد، محمد بوضياف، مصطفى الأشرف".(٧) إن عملية القرصنة الجوية لم تكن سوى محاولة يائسة هدفت من ورائها الحكومة الفرنسية إلى شل النشاط السياسي للثورة وإضعاف معنويات جيش التحرير الوطني والشعب الجزائري.

وتجدر الإشارة إلى؛ أن تعامل الاستعمار مع الثورة حتى وإن بلغ في مراحل معينة الذروة في القمع واستعمال القوة، إلا أن الدارس المتمعن والمتابع لتطورات الكفاح يدرك أن هذه السياسة المتبعة من قبل الاستعمار لم تكن وليدة أعمال ظرفية أو جهود معزولة، إنما كانت طيلة عمر الثورة سياسة مدروسة وجهد دءوب حتى وإن تعاقبت حكومات وعين جنيرالات، وفي هذا الصدد فإن فرنسا لم تتوقف سنة ١٩٥٦ عن سياستها -كما ذكرنا سالفا- بل نجدها عن طريق حكومة "غي موليه" والوزير المقيم الاشتراكي النقابي القديم تعمد في نهاية ١٩٥٦ إلى ابتكار أسلوب جديد في عزل الثورة عن الشعب بإنشاء المناطق المحرمة في شكل محتشدات. وتكاد سنة ١٩٥٦ تنقضي حتى أصدرت السلطات الاستعمارية قرارًا (دراكونيا) بتاريخ (١٤ ديسمبر ١٩٥٦) يقضي بمنح سلطة الحفاظ على الأمن للعسكر أعطي بمقتضاه للجنرال ماسو "Massu" العائد لتوه مهزومًا من قناة السويس إثر مشاركته في العدوان الثلاثي على مصر على رأس فرقته العاشرة للمظليين كل الصلاحيات لاستعادة النظام بمدينة الجزائر ونواحيها.

إن هذا الملخص وإن يكتنفه بعض التقصير، إلا أنه يعطي صورة عن الوضع الداخلي المشحون بالتوتر والترقب والحذر الذي أصدرت فيه جبهة التحرير الوطني عن طريق لجنة التنسيق والتنفيذ قرارها التاريخي بإعلان عن إضراب الثمانية أيام.

٢/١- على المستوى الخارجي:

مع انقضاء العام الثاني للثورة وجدت السياسة الفرنسية في الجزائر نفسها أمام صعوبات داخلية وخارجية، وإن كما أسلفنا تناول المناخ السياسي العام عشية الحدث التاريخي في الجزائر، فإنه يجب الإشارة بالتطرق إلى التطورات السياسية التي عرفتها الساحة الدولية عمومًا والعربية خصوصًا والتي كانت لها انعكاسات إيجابية وسلبية على وتيرة العمل الثوري في الجزائر، فبعد أن أصبحت الثورة عبئًا اقتصاديًا ونقطة للممارسة السياسية في فرنسا، إذ كان موضوع السياسة الفرنسية في الجزائر ثغرة تستند إليها المعارضة الفرنسية للإطاحة بالحكومة القائمة في "المتروبول"،(٨) وازداد أيضًا عبئ المحافظة على المستعمرات التي تسري في شرايينها الرغبة في التحرر والتطلع للاستقلال. ولم يبق أمام أصحاب القرار السياسي في فرنسا سوى بدائل صعبة وخيارات فرضت نفسها على الواقع، الأمر الذي دفع بالحكومة الفرنسية إلى تسوية مسألتي استقلال كل من تونس والمغرب في ربيع ١٩٥٦ لتتمكن من التفرغ للثورة الجزائرية.

إلا أن الحسابات الفرنسية لم تكن دقيقة، فهاتان الدولتان الشقيقتان المستقلتان ضلتا تمنحان دعمًا ماديًا ومعنويًا للثورة حتى الاستقلال، كما أن الثورة الجزائرية كانت في هذه الفترة قد امتلكت وسائل جديدة ومنابر سياسية في العديد من الدول العربية، وفي إطار الكتلة الأفروأسوية الأمر الذي أجبر فرنسا على السعي لمواجهة الثورة في مختلف الجبهات الداخلية والخارجية، وأبرز مثال على ذلك العدوان الثلاثي على مصر في نوفمبر ١٩٥٦ الذي اشتركت فيه إلى جانب الكيان الصهيوني وبريطانيا وكان المكلف بالإعداد له في الكواليس الفرنسية الجنرال السفاح "شال Challe" بالتنسيق مع الصهيوني "شيمون بيراز Chimon Perez"، ورئيس الوزراء البريطاني "إدان Eden"، وحسب المؤرخ الفرنسي ذي الباع الطويل في تاريخ الثورة الجزائرية، أو حرب الجزائر كما يسميها "فإن مظليي الفرقة العاشرة بقيادة الجنرال "ماسو Massu" واصلوا حربًا ضد جمال عبد الناصر كانوا قد بدءوها في جبال الأوراس.(٩) ويواصل المؤرخ نفسه في تحليله للعدوان الثلاثي بأن تدخل الاتحاد السوفيتي وتردد الولايات المتحدة حرم القوات الفرنسية والصهيونية والبريطانية من انتصار كان سيمكن فرنسا من تدمير "مهد جبهة التحرير الوطني".(١٠)

ثانيًا: قرار الإضراب (الدعوى الخلفيات)

قبل أن نستعرض قرار الإضراب التاريخي الذي أعتبر ذروة المواجهة خلال ما عرف في الأدبيات التاريخية بـ "معركة الجزائر" لا بد أن نسلط الضوء على فكرة أشار إليها المؤرخ الفرنسي "هنري لومير"Henri le Mire"(١١) مفادها أن معركة الجزائر قد دارت أحداثها في سنة ١٩٥٧، إلا أن جهود جبهة التحرير الوطني لزرع تنظيماتها في العاصمة كانت قد بدأت في سنة ١٩٥٥ عندما كلف كريم بلقاسم وعمر أو عمران عبان رمضان بتنظيم العمل الثوري في الجزائر العاصمة، لكن دون الاستطراد في هذا الجانب ثمة سؤال يفرض نفسه حول فكرة الدعوة إلى الإضراب وخلفيات هذا القرار؟ إن المصادر التاريخية المتوفرة تعطي صورة واضحة على هذا التساؤل وإن ظلت الحاجة إلى التعمق في البحث تفرض نفسها دائمًا.

لقد كانت لجنة التنسيق والتنفيذ (C.C.E) نواة العمل الثوري بشقيه السياسي والعسكري في هذه الفترة إذ تجمع الكاتبات التاريخية على أن العربي بن مهيدي مسؤول العمليات المسلحة في الجزائر والتابعة للجنة التنسيق والتنفيذ (C.C.E) هو الذي طرح الفكرة على قائد تنظيمات العمل المسلح في العاصمة "ياسف

سعدي" وتم اتخاذ القرار من طرف عبان رمضان وبن مهيدي[١٢] بعد أن اتفقا مع الأعضاء الثلاثة الآخرين "كريم بلقاسم، بن خدة، سعد دحلب" على اعتبار العمل الثوري يجب أن يكون متعدد الأشكال والصورة، فقد كانت ثمة قناعة بأن عملية استعراضية لمجموع الشعب الجزائري يمكن أن تؤثر على الرأي الدولي العام، كما كانوا يعتقدون بأنه يجب في جميع الأحوال دفع الشعب إلى التعبير عن تنبيه ومساندته للثورة، فالمهمة ليست مرتبطة بشخص أو تيار أو حزب، إنما قضية شعب وإطاراته كما كان يحرص على ذلك عبان رمضان ويوافقه العربي بن مهيدي.

إن ضرورة العمل الجماعي كانت تفرض نفسها لأن تظاهر الشعب الجزائري بالملايين بكل وضوح إلى جانب جبهة التحرير الوطني سوف يجعل حجج الاستعماريين ضعيفة الوزن إن لم نقل معدومة، لكن أي إضراب وما شكله، لقد كان في نظر صانعيه عملية استعراضية كبرى سلمية وهادفة ستشهد البلاد في شكل مظاهرة بأيدي مكتوفة لعدم الذهاب بعيدًا نحو العنف والعنف المضاد.[١٣] إذا كانت فكرة الإضراب قد لقيت تجاوبًا وإجماعًا داخل لجنة التنسيق والتنفيذ، فإن النقاش اشتد عندما تعلق الأمر بتحديد مدة الإضراب، فبعد أن تم التفكير في مدة شهر حسب المجاهد "ياسف سعدي" فإن ابن مهيدي رجح مدة أسبوع واحد[١٤] لأن ثماني أيام مدة كافية في نظره ليصبح الحدث بارزًا إذ يجب انتظار ردود الفعل من تعسف وقمع لكن الشعب سوف يصمد والصدى في العالم يكون أعمق وأطول.[١٥] فحسب عبان رمضان أن هناك بديلين، إما المواجهة المباشرة الخطيرة العواقب أو فعل ذو نتائج إيجابية، ولخص ذلك في عبارة "عوض أن ننزل الشعب للشارع ونجعله يواجه الرشاشات سوف ندفع به إلى إضراب لم تشهد له الجزائر مثيلاً".[١٦]

رغم أن اتخاذ قرار الإضراب كان مخاطرة كبيرة كما صرح بذلك مخططيه، إلا أنهم قلبوا الموضوع بكل جوانبه وأخذوا بروح ثورية جميع الإمكانيات المتاحة، إذ أن العمل المتأني لم يكن كافيًا وحده، فالإضراب الذي شل الجزائر في ذلك الأسبوع التاريخي استفاد من وجود تنظيم سياسي وإداري جيد لجبهة التحرير الوطني الأمر الذي مكنها من الحصول على قوة أكثر ودعم مالي يجود به الشعب على ثورة آمن بها. لقد أعطيت الأوامر بجميع الأحياء في صفوف العمال والتجار وانتشر الناشطون في أحياء العاصمة وتمت تصفية بعض الأوروبيين إثر العمليات الناجحة التي قام بها المجاهدون وعلى رأسهم "علي لابوانت"، تلك العمليات التي هزت المشككين وحركة المتعاطفين وضاعفت من يقين المناضلين، بقيت الثغرة الوحيدة التي يمكن أن تفشل الإضراب تكمن في الحالة الاجتماعية والاقتصادية للكثير من العائلات التي تعوزها الحاجة المادية، لكن لجنة التنسيق والتنفيذ قررت جمع مبلغ (١٥) مليون فرنك قديم عملاً بفكرة "مال الشعب يعود إلى الشعب" مثلما كان يرى عبان رمضان، كما أمرت لجنة التنسيق والتنفيذ أن تساعد العائلات الأقل حاجة، العائلات الأكثر فقرًا. ورغم أن قادة الولايات كانوا قد بعثوا تقارير إلى لجنة التنسيق والتنفيذ يوضحون فيها بأنهم قد تعرضوا لمضايقة الجيش الفرنسي الذي تدعم بإمدادات معتبرة إلى أن لجنة التنسيق والتنفيذ اعتبرت هذا الأمر عاملاً إضافيًا في المضي نحو الإضراب لجلب أكبر عدد ممكن نحو العاصمة للتخفيف عن معاقل الثورة في الولايات الأخرى.[١٧]

ثالثًا: أهداف الإضراب

إن البحث عن دواعي الإضراب وأهدافه يعني الإجابة عن السؤال الآتي ما الذي كان يفكر فيه زعماء لجنة التنسيق والتنفيذ عندما اجتمعوا في (٢٢ جانفي ١٩٥٧) في (٣ شارع كاتون Caton) " في قلب العاصمة واتخذوا القرار التاريخي بالإضراب؟ إن الهدف المباشر هو محاولة استثمار حدث سياسي دولي يتمثل في جلسات نقاش هيئة الأمم المتحدة لصالح الثورة والقضية الجزائرية، فقناعة المخططين للإضراب ارتكزت على فكرتين أساسيتين أولهما أن الإضراب سيكون نجاحًا وانتصارًا للقضية الجزائرية التي ستدول عن طريق الأمم المتحدة وسيكون نجاح الإضراب عاملاً مساعدًا للوفد الدبلوماسي لتسجيل القضية في الجلسات المقبلة لهيئة الأمم المتحدة وما يؤكد هذا الطرح منشور أصدرته لجنة التنسيق والتنفيذ جاء فيه (بمناسبة نقاش هيئة الأمم المتحدة حول القضية الجزائرية يجب على الشعب الجزائري أن يقوم بالتعبير إرادته في الحرية والاستقلال هذه المظاهرة ستترجم على الخصوص عن طريق شن إضراب لمدة ثماني أيام في كل التراب الوطني وبمشاركة فعالة لكل الطبقات الاجتماعية بدون استثناء ...... سوف يعطي الشعب عن طريق هذه العملية قدرة لممثلينا في الأمم المتحدة لإقناع دبلوماسي الدول الأجنبية الذين لا تزال عالقة في أذهانهم أوهام حول السياسة الليبرالية لفرنسا في الجزائر...)[١٨].

وإلى جانب محاولة إحراز انتصار دبلوماسي على منابر أهم هيئة سياسية دولية، هدفت الثورة إلى تحقيق جملة من الأهداف على الصعيد الداخلي، فالإضراب في شقه السياسي محاولة أخرى لإلقاء الثورة إلى الشارع ليحتضنها الشعب وامتحان صعب أمام جبهة التحرير لتظهر بصفتها الممثل الوحيد والشرعي باسم الشعب والقضية الجزائرية [١٩] أمام طروحات وحجج الاستعماريين من غلاة المستوطنين ومتطرفي الجيش الفرنسي، أما الشق الاقتصادي فيكمن في كون الإضراب ضربة مباشرة وقاصية للاقتصاد الفرنسي.[٢٠]

رابعًا: أيام المواجهة

في يوم الاثنين (٢٨ جانفي ١٩٥٧) منذ الساعة الرابعة صباحًا أفرغنا الثكنات والمكاتب، الجيش كله وضع على الأرصفة، على الخامسة صباحًا حيث تستيقظ العاصمة عادةً لا شيء يتحرك في أحياء المسلمين، لم يتوجه أي عامل إلى عمله، قطارات العمال

تصل فارغة، التعليمة أتبعت في كل مكان) هكذا صرح الكولونال المتطرف "إيف غودار" " Godard–Yves صبيحة الإضراب التاريخي في يومه الأول.[٢١] الجزائر شلت كليةً ولجنة التنسيق والتنفيذ أعطت أوامرها التطبيقية لعدم الموازجة بين الإضراب والعمل المسلح لكي لا تعطي الفرصة للحكومة الفرنسية للإدعاء بأن الإضراب قد أخذ بعدًا تمرديًا في شكل عصيان مسلح، كما أوصت اللجنة أيضًا بعد رفع المطالب المادية لكي لا يؤول البعض بأن الإضراب تقليدي، إذن الإضراب في تصور مخططيه لا تمردي ولا نقابي إنما إضراب سياسي في إطار عملية استعراضية تهدف إلى الضغط على الاستعمار.[٢٢] وهو ما تحقق خلال الأسبوع من المواجهة السلمية من طرف الجزائريين ورد الفعل التعسفي القمعي من طرف الجيش الفرنسي وفلول المستوطنين.

إننا نستطيع أن نستشف مدى الاستجابة للإضراب الذي دعت إليه قيادة الثورة من المنابر الإعلامية الاستعمارية نفسها فيكفى تصفح كبريات الصحف الفرنسية الواسعة الانتشار مثل: (Le Monde)، و(L'observateur)، و (L'express) لكي نصل إلى نسبة استجابة شكلت نجاحًا كبيرًا للإضراب[٢٣] رغم الجهود الفرنسية لتكسيره قبل انطلاقته أو "قتله في البيضة" كما صرح بذلك "ماسو Massu"[٢٤] لكن الإضراب بلغت نسبته (90%) في الإدارات العمومية، مصالح البريد والسكة الحديدية، ورغم إدعاءات السلطات الفرنسية بأن الإضراب انتهى في يومين الأخيرين (٣-٤ فيفري ١٩٥٧) إلا أن نسبة المضربين ظلت نفسها وحتى التجار الذين كانت أبواب محلاتهم مفتوحة لم يلتحقوا بها رغم النهب الذي تعرضت له مما يؤكد أن الإضراب قد أحترم بدقة. كما أن الإضراب لم يبق حبيس الجزائر بل وجد صداه في أوساط العمال الجزائريين في فرنسا إذ أكدت اتحادية جبهة التحرير هناك أن نسبة المشاركة تراوحت بين (40%) إلى (80%) طيلة أيام الإضراب.[٢٥]

لا مناص في هذا المقام من الاعتراف بأن هذا العرض الموجز لسير الإضراب لا يعطي صورة كاملة وواضحة على الطابع الصدامي والمواجهاتي الذي أخذه الإضراب منذ ساعاته الأولى إلى أسابيع عديدة أعقبته، الأمر الذي يضطر الباحث إلى تقصي ردود الفعل الاستعماري اتجاه الإضراب. لقد كان صانعو الحدث في لجنة التنسيق والتنفيذ يدركون بأن تنفيذ إضراب بهذا الحجم لن يكون سرًا بهذه المادة الطويلة، وبالفعل فقد عرف روبير لاكوست بمشروع الإضراب الذي فضل التحرك بهدوء وحنكة ودهاء وبدأت الاستعدادات الفرنسية لتكسير الإضراب منذ الأيام الأولى لشهر جانفي.

في عشية (٦ جانفي ١٩٥٧) اتفقا صالان (Salan)، ولاكوست (Lacoste) حول الموضوع حيث أعطيت الأولية للعمل البوليسي وظهر أن التخلي عن ممارسة السلطات المدنية لصالح الجيش كان يجد تفاهمًا كبيرًا في ماتينيون (Matingnon) لأن الحكومة كانت هي أيضًا تريد تكسير الإضراب بأي ثمن بعد أن استثمرت الوضع العام في الجزائر بإحداث ضجة كبيرة حول الانعكاسات المأساوية "للإرهاب" ووجد شعار دعائي يقول "مظليي الفرقة العاشرة ضد واضعي القنابل" قبولاً كبيرًا في الأوساط الفرنسية.[٢٦] في ٧ جانفي صرح "غي موليه" عند إعطائه الجنرال ماسو قائد الفرقة العاشرة صلاحيات واسعة "ماسو" سوف أكلفك بحفظ النظام في هذه المقاطعة. "يقصد الجزائر العاصمة" وسوف تكون لك كل السلطات مع فرقتك، سوف تستعيدون زمام الأمر بأيديكم".[٢٧] وأكد هذا المنحنى الوزير المقيم لاكوست عندما صرح لماسو وفهوده كما يحلو للمؤرخين الفرنسيين تسميتهم، قائلاً "أعملوا دون أن تعيروا أدنى اهتمام للقوانين".[٢٨]

إن هذه الاستعدادات الفرنسية هي التي جعلت تصريحات الرسميين الفرنسيين تبدو متفائلة حول إفشال "مخطط المتمردين" و"عملائهم الشيوعيين" فقد بدا ماسو واثقًا من نفسه منذ اليوم الأول، ففرض انتشار الجيش في مداخل الجزائر ومخارجها، كما أمر بأن يقوم الملاك ومسؤولي المؤسسات العمومية بعمليات تفتيش وكان يعتقد أن الهدف الأول هو وقف عمليات التفجير لكنه نسي بأن جبهة التحرير الوطني كانت قد أوقفتها.

قام ماسو بتوظيف كل ما كانت تسمح به شعبيته في الأوساط الأوروبية لأحكام قبضته على العاصمة التي كان سيدها بدون منازع في تلك الأيام المصيرية، ومن أجل استعادة النظام تحصل ماسو من لاكوست على ورقة بيضاء وامتلك الضوء الأخضر فوجه اهتمامه إلى القصبة معقل الثورة وعرين بن مهيدي ورفاقه، فاستعان بأكفأ الضباط الذين أنجبتهم كلية سان سير (Saint-Syr) الشهيرة وأكثرهم دموية وتطرفًا اتجاه الشعب الجزائري وثورته وعلى رأسهم غودار (Godard) وبيجار (Bigeard) وروزات (Roizat) وترينكي (Quier Trin)،[٢٩] إلا أن جهود الثمانية آلاف جندي وهو قوام الفرقة العاشرة للمظليين مدعومة بالمستوطنين وفرق الشرطة لم تحقق ما كانت ترمي إليه مطامح الحكومة الفرنسية، الأمر الذي جعل رد الفعل الفرنسي في الأيام الأخيرة من الإضراب يأخذ أبعادًا جديدة، إذ أصبح المظليون يعمدون إلى فتح المحلات وإرغام التجار والعمال على العودة إلى العمل بالقوة، وحتى الأطفال طالهم الإغراء الفرنسي بالحلوى، وإنبجست في عقل "راوول سالان Raoul Salan" لقائد العام للجيش الفرنسي بالجزائر وصديقه الاشتراكي النقابي القديم الوزير روبير لاكوست نظرية التأثير البسيكولوجي لإفشال الإضراب فانتشرت فرق متخصصة وضع تحت تصرفها سالان كل ما تمتلكه الإدارة الفرنسية من إمكانيات،[٣٠] فأعدت منشورات، ووضعت ملصقات، وسارت سيارات بمكبرات الصوت، في أحياء العاصمة، وعرضت أفلام تمجد فرنسا، وظهر الجنرال سالان متفائلاً مرة أخرى عندما قال مدافعًا عن فكرته أو خطته "…. سوف يأخذ المظليون الأطفال من أيديهم وسيدلونهم على الطريق إلى المدرسة" إلى أن الواقع دحض تفاؤله وبدا طرحه حول علم النفس الطفولي كما تكتب

"Alleg–Henri" هنري ألاق" غير واقعي لأن الإضراب كان قد بلغ مداه"،[٣١] وعجزت ردود الفعل القمعية في شقها الدعائي السيكولوجي عن زرع الشك في نفوس الجزائريين رغم القدرة الكبيرة على الخداع والتضليل التي كانت تتمتع بها الأجهزة الاستعمارية والتي لا نجد لها نظيرًا إلا في ما كان يقوم به "غوبلز Gbelz" في ألمانيا.[٣٢]

فقد كانت برامج إذاعة الجزائر والخطابات المنبعثة من مكبرات الصوت تردد شعارات مخادعة مثل "قوات الأمن سوف تحميكم من المحاولات الإجرامية لجبهة التحرير الوطني، يا سكان الجزائر، جبهة التحرير تريد أن تمنعكم على العمل وتفرض غلق المحلات، وتريد تجويعكم ودفعكم إلى الشقاء، لكنكم لا تريدون هذا، ضعوا ثقتكم في قوات الجيش والشرطة، أظهروا بأنكم تريدون الحياة، ولا تريدون الموت جوعًا، وأظهروا بأنكم تثقون في فرنسا وفي الجيش الفرنسي، وأعلنوا بأن إرادتكم للسلم أقوى من إرادة جبهة التحرير للحرب".[٣٣] لقد كان الإضراب أول مفترق طرق عرفته حرب الجزائر، وكشف أن التباين في الطرح وأساليب المواجهة كان كبيرًا جدًا بين نخبة ثورية وضعت ثقتها في شعب يؤمن بثورته ونظام استعماري بقوة حاشدة ومؤسسات تترصد كل فعل وطني يهدف إلى تفعيل الثورة لتحقيق الاستقلال.

خامسًا: نتائج الإضراب وانعكاساته

١/٥- على المستوى الداخلي:

الإضراب التاريخي ترجم بعمق قرارات مؤتمر الصومام على أرض الواقع بإثبات الذات داخليًا وإسماع صوت الجزائر خارجيًا، وكان فرصة لتأكيد تلك الاستراتيجية الشاملة لمفهوم الثورة، ورغم الامتحان الصعب الذي مرت به جبهة التحرير الوطني، إلا أن أيام الإضراب كانت تأكيد على قدرتها للقيام بتعبئة شاملة وفعلية لمختلف شرائح الشعب الجزائري. فالأيام الثمانية كانت بمثابة استفتاء وطني عبر فيه الشعب الجزائري عن ثقته المطلقة وأكد تمسكه العضوي بجبهة وجيش التحرير الوطني، إذ أن الجبهة أثبتت على أنها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري وقضيته العادلة، وأزالت الغموض لدى الكثير من المهاجرين الجزائريين في فرنسا الذين كانوا يعتقدون بأن من يقود الثورة هم المصاليون،[٣٤] وبذلك حقق الإضراب التاريخي إجماعًا وطنيًا من حيث التعبئة التي كانت تهدف إليها جبهة التحرير الوطني على المستوى السياسي.

أما على المستوى العسكري، فإن قيادة الثورة نجحت إلى حد بعيد في إلقاء الثورة إلى الشارع رغم سياسة القبضة الحديدية التي انتهجتها السلطات العسكرية الفرنسية بالعاصمة. "مدينة الجزائر تحولت إلى ديان بيان فوثانية" ومعركة الجزائر أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك عن قدرة المجاهدين الجزائريين على تأكيد وجودهم وتحدي الآلة العسكرية الفرنسية، وحكومة باريس هي الأخرى فشلت في تطبيق سياستها المبنية على أساس إيجاد قوة ثالثة (عناصر من الأهالي يمثلون الشعب) كبديل فعلي بعد أن استنفذت السلطات الفرنسية كل طاقتها في العمل على تطبيق سياسة القبضة الحديدية، ومن بين المؤشرات التي توضح لنا مدى تأثير الإضراب وفعاليته على المستوى العام هو مغادرة الممثلين الأجانب لبعض المنظمات الإقليمية والدولية للعاصمة، أثناء فترة الإضراب وبعده خوفًا من ازدياد تدهور الوضع العام وبداية معركة الجزائر، وكان من بين الذين غادروا، ممثلي أعضاء السوق الأوروبية المشتركة.

إن إضراب الثمانية أيام كان أول مفترق طرق عرفته الثورة الجزائرية في عامها الرابع وقطيعة نهائية بين النظام الاستعماري الفرنسي والشعب الجزائري وإذا كان الإضراب العام قد حقق نتائج إيجابية على المستوى الداخلي شكلت منعطفًا حاسمًا في عمر الثورة، فإن المتتبع لأحداث الإضراب في كل مراحله يلاحظ أن هناك نتائج انعكست سلبًا على العمل السياسي والعسكري أيضًا. فالجزائر العاصمة تحملت القسط الأكبر من العواقب المأساوية مقارنة بالمدن الأخرى، فمدة الإضراب نتج عنها نقص كبير في عملية تموين الثورة إضافة إلى المتاعب التي واجهها الشعب بسبب نقص في مختلف المواد الغذائية من جراء عملية النهب المحلات التجارية عبر أحياء العاصمة.[٣٥] التجاوزات الرهينة التي واجهها الشعب على إثر الاعتقالات العشوائية الواسعة والتعذيب الفظيع الذي كاد أن يتخذ طابعًا مؤسساتيًا لا ينقصه سوى الاعتماد الرسمي في النصوص التشريعية والقانونية.

هذه الاعتقالات العشوائية بدأت دون تمييز بين مختلف الشرائح الاجتماعية والثقافية والعرقية [٣٦] وتشير المصادر الرسمية الفرنسية أن عدد المحبوسين بلغ (٢٤٠٠٠) خلال الأشهر السبعة الأولى لسنة ١٩٥٧، ومع ذلك يبقى هذا الرقم بعيدًا عن الواقع حسب تصريحات وشهادات الذين عاشوا الإضراب التاريخي، إضافة إلى كل هذا أن الثورة الجزائرية فقدت أبرز مفجريها بعد إلقاء القبض على البطل العربي بن مهيدي يوم (٢٣ فيفري ١٩٥٧) بالعاصمة وتعرضه لعملية تعذيب وحشي على يد السفاح "بيجار" لمدة أسبوع كامل،[٣٧] كما استشهد بطل معركة الجزائر (علي لابوانت) ورفقائه (ياسف عمار، حسيبة بن بوعلي، وبوحميدة محمود)،[٣٨] الإدارة الاستعمارية عن طريق مصالحها استطاعت كشف العديد من مناضلي جبهة التحرير الوطني الذين كانوا يعملون داخل أجهزة الإدارة الاستعمارية، مما أدى إلى فقدان عناصر مهمة في خلايا الجبهة، والأخطر من كل هذا فإن المصالح الفرنسية عن طريق مكتب الدراسات والاتصال (BEL) استطاعت إلحاق إصابات شديدة بشبكات الجبهة الحضرية من جراء اختلال نظام الاتصالات، كما اكتشف مقر لجنة التنسيق والتنفيذ بعد معركة العاصمة، مما أدى إلى مغادرة أعضائها للعاصمة يوم ٢٧ فيفري ١٩٥٧.[٣٩]

خروج لجة التنسيق والتنفيذ من العاصمة طرح مشكلاً آخر بالنسبة لقادة الثورة بحيث أن مؤتمر الصومام نص في أحد

قراراته بمبدأ أولوية الداخل عن الخارج، لكن الوضع الذي آلت إليه اللجنة بعد استشهاد العربي بن مهيدي ومغادرة أعضائها الآخرين أصبح العمل بمبدأ "أولوية الداخل على الخارج غير ساري المفعول وفي هذه الظروف الصعبة التي مرت بها الثورة والخلل الذي أصاب جهازها التنفيذي التقى قادة الثورة في أول اجتماع للمجلس الوطني للثورة الجزائرية في القاهرة بين (٢٠) و(٢٨ أوت سنة ١٩٥٧ لدراسة الوضع المتردي الذي أصاب الهياكل السياسية للثورة بعد معركة الجزائر وانتهى هذا اللقاء برفع عدد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ من (٥) أعضاء إلى (٩) أعضاء ورفع عدد المجلس الوطني للثورة الجزائرية إلى (٥٤) عضوًا وتم تعويض المفقودين بأعضاء جدد واتخذ المجلس قرارات هامة وخول جزء من صلاحياته للجنة التنسيق والتنفيذ.[٤٠]

٢/٥- على المستوى الخارجي:

إضراب الثماني أيام كان فرصة حقيقية لترجمة قرارات مؤتمر الصومام في جانبه الإعلامي، وعدم الاقتصار على الجانبين السياسي والعسكري، بل تدعيمهما بالجانب الإعلامي وإيصال صوت الجزائر للمؤتمرات الدولية والإقليمية والرأي العام العالمي.

وعلى الرغم من أن التغطية الإعلامية لإضراب الثماني أيام كانت موجودة داخليًا، فإن التغطية الخارجية هي التي كان لها صدى نظرًا لما أحدثته من نتائج إيجابية دعمت رصيد الثورة الجزائرية في إطار الاستراتيجية الشاملة للصراع مع فرنسا. إن ممثلي وكالات الأنباء ومراسلي الصحف الدولية في الجزائر أيام الإضراب تابعوا الحدث واطلعوا على كل الوسائل القمعية والتعسفية التي انتهجتها الإدارة الفرنسية الاستعمارية لتحطيم الإضراب، فالرأي العام الدولي اقتنع بأن القضية الجزائرية قضية عادلة وتأكد إلى حد بعيد من النوايا السيئة لفرنسا بخصوص القضية التي تدعي بأنها داخلية.[٤١]

كما أن الصحف الفرنسية بتغطيتها الإعلامية أحدثت شرخًا في الرأي العام الفرنسي ويظهر ذلك جليًا في تأثر الحياة السياسية في فرنسا بسبب التوتر السياسي الذي نجم عن الإضراب التاريخي، وانقسم الرأي العام بين مؤيد ومعارض للوجود الفرنسي في الجزائر، وهو ما أدى إلى إضعاف حكومة "غي مولييه".[٤٢] وبذلك استطاع قادة الثورة عن طريق إضراب الثماني أيام إيصال صوت الجزائر إلى منابر هيئة الأمم المتحدة، فالإضراب كان في الحقيقة عاملاً مساعدًا للوفد الدبلوماسي في تدويل القضية في الدورة العاشرة للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتاريخ (١٠ فيفري ١٩٥٧) والتي دامت أكثر من (١٥) يومًا وخرجت بتوصيات هامة وهو أن المشكلة الجزائرية تعتبر من المشاكل التي تنطبق عليها مبادئ ميثاق الأمم المتحدة في حق تقرير المصير هذا الموقف الحاسم على المستوى الدولي فند الادعاءات الفرنسية على أن الجزائر قطعة فرنسية، وعمق شرعية جبهة التحرير الوطني على أنها هي الممثل الوحيد للشعب الجزائري في كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي.

سادسًا: صدى الإضراب ومظاهر التضامن العربي مع الجزائر

الدول العربية الشقيقة لم تتأخر يومًا في تضامنها مع الشعب الجزائري وقضيته العادلة، فالإضراب التاريخي أحدث صدى عميقا سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي على حد السواء في أغلب الدول العربية. لم تنته أيام الإضراب التاريخي حتى وقف الأشقاء تضامنًا مع الشعب الجزائري في قضيته العادلة إيمانًا بالماضي والمصير المشترك، ففي تونس أعلن الشعب التونسي صبيحة يوم الأربعاء (١٩٥٧/٠١/٣٠) إضرابًا شاملاً لمدة نصف يوم تضامنًا مع الشعب الجزائري استجابةً لنداء الحزب الدستوري التونسي والإتحاد العام التونسي للشغل والكثير من المنظمات القومية الأخرى، كما أعلنت جمعية الطلبة الجزائريين الإضراب لمدة أسبوع كامل في نداء موجه للطلبة الجزائريين بتونس، وأعلنوا عن تمسكهم بالثورة ومساندتهم لإخوانهم في الجزائر، أما في القاهرة فقد أذاعت محطة صوت العرب بلاغًا وجهته جبهة التحرير الوطني إلى الشعب الجزائري تمجد فيه موقفه الرائع في تنفيذه لقرارات الإضراب التاريخي.[٤٣]

ومن مصر الشقيقة بعثت مشيخة الأزهر برقية تأييد لوفد جبهة التحرير الوطني في القاهرة باسم علماء الأزهر وطلبته، وأعلن في الأزهر عن إضراب يوم الخميس (١٩٥٧/٠١/٣١) تضامنًا مع الشعب الجزائري كما ناشد شيخ الأزهر جميع الشعوب المحبة للسلام بمناصرة القضية الجزائرية.[٤٤] أما في سورية فقد عقدت لجنة الاتصال للشعب العربي السوري اجتماعًا بدمشق يوم (٢٩ جانفي ١٩٥٧) درست فيه التطورات الدولية والأحداث التي تعيشها الجزائر، وقررت اللجنة في الأخير إضرابًا عامًا وشاملاً في جميع أنحاء القطر العربي السوري الشقيق، كما وجهت اللجنة نداء إلى كل الشعوب العربية تحث فيها تقديم المزيد من الإعانات المادية والمعنوية للشعب الجزائري، كما أرسلت اللجنة برقية إلى هيئة الأمم المتحدة تطلب منها إدراج القضية في جدول أعمال الجمعية العامة في دورتها القادمة.

أما في المغرب، فقد أعلنت المنظمات القومية في الرباط إضرابًا عامًا لمدة ساعة يوم (١٩٥٧/٠١/٣١) تأييدًا للشعب الجزائري، وقد استجابت الأمم المغربية استجابة كاملة لهذا النداء، أما في تيطوان فقد أرسلت جمعية نساء تطوان برقية تأييد للقضية الجزائرية إلى الكاتب العام للأمم المتحدة، كما قامت الجمعية بجمع التبرعات لفائدة الثورة الجزائرية. كما يجب الإشارة إلى؛ أن مظاهر التضامن مع الشعب الجزائري لم تقتصر على الدول العربية فقط، بل حتى لدى البعض من الفرنسيين الذي كانوا في الجزائر أيام الإضراب التاريخي، وما لاحظوه من الممارسات غير الإنسانية المتناقضة مع الأعراف الدولية في حق الشعب الجزائري.[٤٥]

سابعًا: الإضراب من خلال أهم المنابر الإعلامية الدولية

إن ممثلي وكالات الأنباء ومراسلي الصحف الدولية في الجزائر تابعوا أيام الحدث بمراحله، فالإضراب التاريخي الذي عرفته الجزائر بين (٢٨ جانفي) و(٠٤ فيفري) ١٩٥٧ تصدر الواجهة في الصحف الفرنسية وأصبح حديث الساعة في باريس.

جريدة "لموند" (Le Monde) عنونت مقالاً افتتاحيًا عن الإضراب التاريخي بعنوان "إضراب عام في الجزائر أين فتحت المحلات بالقوة"، وأهم ما جاء في المقال (بأن الدعوى إلى الإضراب لم تجد استجابة واسعة في المتروبول لكن الإضراب الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني بدا هذا الصباح شاملاً في الجزائر، أين كانت الجبهة قد دعت من جهتها إلى التوقف عن العمل الساعة (١٢) ليلاً وتمت الاستجابة لهذا الأمر باستعمال العنف... لقد كان استعراضًا للقوة عشية اجتماع هيئة الأمم المتحدة لمناقشة قضية الجزائر، النقاش الذي كان مقررًا ليوم الغد الثلاثاء، إذ كان استعراضًا للقوة في الوقت نفسه في وجه المسلمين الذين رفضوا الخوض في السياسة والداعية ... لقد بدأت الحركة بعد يومين من العمليات الدموية التي كانت في نظر منفذيها ضرورية من أجل إثارة المجموعة الأوروبية في الجزائر لكي تنفجر غضبًا أعمى يتم استثماره أمام الأمم المتحدة من طرف الداعية الوطنية).[٤٦]

كما أوردت الصحيفة نفسها مقالاً آخر بعنوان (اليوم الرابع للإضراب، الجنرال ماسو (Massu)، ينتظر هدفًا مزدوجا يحاول تحقيق العودة السريعة للعمل.) [٤٧] أما جريدة لوفيغارو (Le Figaro) أوردت مقالاً بعنوان "قبل نقاش هيئة الأمم المتحدة، تصعيد إرهابي لجبهة التحرير الوطني الشيوعية في العاصمة."[٤٨]

جريدة "لكسبراس (L'Express) هي الأخرى تابعت الإضراب حيث نشرت تحليلاً أسبوعيًا حول الشؤون الفرنسية بعنوان "بعد اجتماع الأمم المتحدة" ظهر فيه جليًا تأثر الحياة السياسية في فرنسا والجزائر من جراء التوتر السياسي الذي نجم عن الإضراب. ولعل أبرز ما يدعم هذه الفكرة تلك المقاطع المأخوذة حرفيًا من المقال الذي نشرته الصحيفة في واجهتها. (يجب قلب حكومة "غي موليه" هذا ما صرح به هذا الأسبوع العديد من الزعماء المعتدلين خاصةً "دوشي Duchet" لكن بعد اجتماع هيئة الأمم المتحدة ... الجمعية الوطنية تتمنى إثارة نقاش حول الجزائر.

لكن بعد اجتماع الأمم المتحدة، منفذي الاعتداء ضد الجنرال سالان ثم إيقافهم، وتم اكتشاف تنظيم مضاد للإرهاب في الجزائر، الأسماء والتوضيحات والقرارات أيضًا؟ لكن بعد اجتماع هيئة الأمم المتحدة، السيد موريس فور (Maurice Faure) يجب أن يذهب إلى تونس من أجل المصالحة، لكن بعد اجتماع هيئة الأمم المتحدة، والمعتدلون يريدون وضع الحزب الشيوعي خارجًا عن القانون والحركة من أجل التجمع الشعبي تطالب بالانضمام إلى الأوراتوم (Euratom)[٤٩] وإلى السوق المشتركة والحوار المفتوح حول إفريقيا السوداء استدعى مراجعة دستورية عاجلة لكن بعد اجتماع هيئة الأمم المتحدة هذا الأسبوع سمح للحكومة مؤقتًا بالإجابة على كل شيء وبغرض الصمت على كل شيء).[٥٠]

وفي تقرير مفصل لمراسل وكالة "أسوسياتد براس" (Assosiated Press) الأمريكية بتاريخ (٣٠ جانفي ١٩٥٩)، جاء فيه (بأن الإضراب العام الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني قد تجسم الأمس بصورة ملموسة في العاصمة) ويضيف المراسل "إنني لم أرى في حياتي مدينة يخيم عليها شبح الموت في وضح النهار مثل القصبة في إقفار شوارعها ورهبة السكون العميق النازل على دورها" ويضيف المراسل في تقريره أيضًا "ورغم التنظيمات المقدمة لمواصلة النشاط الاعتيادي دون خوف من الفدائيين لأن عشرة آلاف من جنود الاحتلال تحتل حسب دعاية ماسو (Massu) كل شبر من العاصمة"، هذه هي حالة العاصمة في يومها الأول من الإضراب.

أما كالة "رويتر" (Reuter) البريطانية في تقريرها الذي أوردته في (٣٠ جانفي ١٩٥٧) جاء فيه (أنه هناك إضراب حددت مدته بأسبوع بدأه الجزائريون ودعت إليه جبهة التحرير الوطني) ويضيف التقرير (أن ما يقرب من 90% من الحوانيت في المدن الرئيسية في الجزائر كانت مغلقة وأن 70% من الموظفين الذين ليسوا فرنسيين لم يذهبوا إلى أعمالهم) ويضيف بأن (الإضراب كان يشمل جميع أنحاء البلاد من مغنية على الحدود الجزائرية حتى تبسة على الحدود الشرقية)، (كما أن الناطق باسم الوزير المقيم "لاكوست" اعترف بأن القوات الفرنسية قد كسرت أبواب الحوانيت وأن الأوروبيين قاموا بنهب البضائع التي كان أصاحبها غائبين وذلك أمام مرأى القوات العسكرية).[٥١] إن المنعطف التاريخي الذي عرفته الجزائر أيام إضرابها التاريخي تناقلته الصحف والوكالات الدولية للأنباء، فالحدث تعدى إطاره الإقليمي والرأي العام الدولي اقتنع بما كان يحدث في الجزائر وأزال الستار على نية فرنسا السيئة.

خَاتِمَةٌ

لقد كان إضراب الثماني أيام منعطفًا تاريخيًا حاسمًا أوصل الثورة إلى نقطة اللا رجوع، وألقى منذ ذلك التاريخ بكل الثقل الشعبي الكامن وراء جبهة وجيش التحرير الوطني نحو التحرر والاستقلال. لقد نجحت معركة الجزائر في تحقيق غايتها السياسية بفضل تضحية الشعب الجزائري، وأحدثت ضجة سياسية وأخلاقية عالمية، ما زال العالم يذكرها ويشيد بها، وما قامت به فرنسا في الجزائر كان مخالفًا لكل القوانين والأعراف الدولية، حتى ديغول الذي لُقب "بمنقذ فرنسا" عند اعتلائه سدة الحكم بعد انقلاب ١٣ مايو ١٩٥٨ لم يكن مهتمًا في يوم ما بمصير الأقدام السوداء بقدر ما كان حريصًا على تراجع الجزائر المستقلة عن نشر الكتاب الأبيض الذي جمعت فيه أبشع المجازر والجرائم التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر حتى لا يقع لها ما وقع لألمانيا مع اليهود.

الملاحق

نداء الإضراب

أيها الشعب الجزائري

إن كفاحك البطولي ليرجع عهده إلى سنة ١٨٣٠.

إن الاستعمار الفرنسي يحاول منذ مائة وسبعة وعشرين عامًا أن يبديك، ويسحق شخصيتك ويقضي على عزتك ولكن دون جدوى إن الاستعمار الفرنسي ظل مائة وسبع وعشرين عامًا يقتل ويسحق ويعذب خيرة أبنائك الأبرار.

إن الاستعمار الفرنسي جعل من جزائرنا طيلة مائة وسبع وعشرين عامًا، موطن البؤس والرعب والخنق والكبت، لقد بقيت طيلة هذه المائة وسبع وعشرين عاما رافعا لواء الكفاح، لواء الجزائر المكافحة المجاهدة لواء جنود الأمير عبد القادر، لواء ثوار بني سناسن، وأولاد سيدي الشيخ والمقراني، وأبطال جبال أوراس (١٩١٦- ١٩٢٦)، وضحايا سطيف وقالمة وخراطة، وشهداء سيدي علي بوناب، ولواء جيش التحرير الوطني منذ أول نوفمبر ١٩٥٤.

أيها الشعب الجزائري

إن القيادة العليا لجيش التحرير الوطني الجزائري، التي هي مرشدك في النضال، والتي تعوزها ثقتك المطلقة بها، ترسل إليك هذا النداء لتنفيذ إضراب شامل لمدة ثمانية أيام في كامل التراب الوطني، إن واجبكم هو أن تستعدوا للقيام بهذا الإضراب الثوري العظيم في إجماع كامل، ووحدة لا انفصام لها، وأن من واجبكم أن تساعدوا بعضكم بعضا في هذا الإضراب وأنكم لتجعلون جميعًا من هذا الإضراب ظاهرة شعبية تشمل طول البلاد وعرضها من تبسة إلى مغنية ومن الساحل البحري إلى الصحراء الكبرى.

يا أبناء الأمة الجزائرية

من عمال وفلاحين وتجار وموظفين وطلبة وتلامذة، رجال ونساء وأطفال، إنكم ستبعثونها صرخة مدوية في وجه الاستعمار، صرخة تنبعث من أعماق ثورتنا العظيمة، عندما تنفذون إضرابكم التاريخي الأكبر، وأن القيادة العليا لجبهة وجيش التحرير الوطني الجزائري توصيكم بجمع حاجياتكم لهذه المدة، أعينوا بعضكم بعضا، شيدوا بناء الأمة الجزائرية الحرة المستقلة بالكفاح والتضامن

أيها الجزائريون، أيتها الجزائريات

إن نجاح هذا الإضراب سيكون معناه أمام العالم أنكم تعتبرون وفد جبهة وجيش التحرير الوطني هو المتكلم الأوحد للشعب الجزائري المناضل، إن تنفيذكم للإضراب الثوري العظيم بما فيه من نصب الكمائن في الطرقات ومن التخريب والاشتباكات والهجومات على المدن والمراكز العسكرية، سوف يكون الخطوة الحاسمة في سبيل النصر الأخير.

أيها الشعب الجزائري

لتقف صفًا واحدًا متراصًا وراء جيشك الفتي، وجبهتك العتيدة، لتنجح إضرابك العظيم، العزة للأبطال، والمجد للشهداء.

يحيا جيش وجبهة التحرير الوطني
تحيا الجزائر حرة مستقلة

الهَوامِشُ:

(١) **جريدة المقاومة الجزائرية**، العدد ٠٥، ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦، ص ٧,٦

(٢) أحسن بومالي، "**إضراب ٢٨ جانفي ١٩٥٧ الإجماع والتحدي**"، مجلة الذاكرة، العدد ٠٤، "١٩٩٦"، ص ٣٨.

(٣) **جريدة المقاومة الجزائرية**، "**مراحل الثورة الجزائرية نوفمبر١٩٥٤ – ديسمبر ١٩٥٦**"، العدد.١١. (١٩٥٦) ص٥.

(٤) أحسن بومالي، المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٩.

(6) Jaques Massu, La vraie Bataille D'Alger / France 1972, P.178

(٧) كرونولوجيا شهر أكتوبر، مجلة ٠١ نوفمبر، العددان (١٥٧ – ١٥٨)، ص٠٨.

(٨) كانت السياسة الفرنسية في الجزائر إحدى أهم النقاط الحساسة التي تتبناها المعارضة السياسية في فرنسا لتوجيه النقد و المطالبة بإسقاط الحكومة القائمة يسارية كانت أم يمينية، ولعل ما يبرز ذلك، ما أوردته الصحافة الفرنسية في منتصف الإضراب التاريخي حيث ذكرت جريدة "لكسبراس "l'Express" أن اليمينين طالبوا بقلب وإسقاط حكومة "غي موليه" لترددها في اتخاذ إجراءات رادعة حيال جبهة التحرير الوطني وإن كان التاريخ يثبت عكس ذلك. انظر:

L'Express 1 Fevrier1957

(9) Yves Courrier, La Guerre d'Algérie en Images France – Fayard, 1972, P. 76.

(10) Ibid, P 77.

(11) Henri Lemire, Histoire Militaire de la Guerre D'Algérie, Paris / Album Muchel, 1982, P.102.

(12) Jaques Simon, Une grève qui tournera mal «La Guérre D'Algérie ». Historia Magazine, n = 224 – 17 Avril 1972, Pp.948 - 953.

(13) Henri Aleg, «La Guerre D'Algérie», Paris, Temps Actuel, 1981-p323

(14) Jaques SIMON-OP.CITE P,P 948-953.

(15) Henri ALLEG, OP. CITE P 323.

(16) Yves COURRIER."La Guérre D'Algérie" Le Temps des Léopards France Fayard, 1969 P 451.

(17) Jaques SIMON-OP.CITE, Pp. 948-953.

(18) Henri ALLEG, OP. CITE, P. 324.

(١٩) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٦٠. انظر كذلك:

Hiner LEMIRE, OP CITE P. 103.

(20) Henri ALLEG, OP. CITE, P. 323.

(21) Yves GODARD, Les Paras dans la ville "Les Trois Batailles D'Alger", PARIS- Fayard, 1972. P. 250.

(22) Jaques SIMON-OP. CITE P, P. 948 - 953.

(٢٣) أحسن بومالي، **ذكريات ومآثر – إضراب الثمانية أيام (٢٨ جانفي – ٠٤ فيفري ١٩٥٧)**، مجلة أول نوفمبر – العددان ١٥٢/١٥١. سنة ١٩٩٧ – ص ٢٦-٢٧.

(٢٤) في ٠٧ جانفي ١٩٥٧ تم تسليم الجنرال "ماسو" مسؤولية تنظيم أمن العاصمة وتجنيد (٨٠٠٠) جندي لمحاربة خلايا جبهة التحرير الوطني وإعلان "روبير لاكوست" عن معركة العاصمة.

(٢٥) أحسن بومالي، المرجع السابق، ٢٦-٢٧.

(26) Henri ALLEG, OP. CITE. P. 425.

(27) Ibid. P. 425.

(28) Yves COURRIER, OP. CITE. P.452.

(29) Jaques SIMON, OP. CITE. Pp. 948 – 953.

(30) Henri ALLEG, OP. CITE. P 425 (31)

(31) Ibid. P.428.

(٣٢) غوبلز "GBLEZ" هو وزير الداعية في ألمانيا النازية وأحد المقربين من هتلر، كان شعاره "افتح -اكذب ثم اكذب حتى يعتقد الآخرون أنك تقول الحقيقة".

(33) Jaques SIMON, OP. CITE. Pp. 948 – 953.

(٣٤) أحسن بومالي، "**إضراب ٢٨ جانفي ١٩٥٧، الإجماع والتحدي**"، مجلة الذاكرة العدد (٤) منشورات المتحف الوطني للمجاهد (١٩٩٦). ص ٨٧.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٩٠.

(٣٦) كانت الاعتقالات العشوائية دون تمييز بين مختلف الشرائح الاجتماعية (أي عامة الشعب الجزائري)، والثقافية (الإطارات والطلبة والمثقفين) والعرقية (حتى غير الجزائريين تعرضوا للاعتقال) ومنهم: (موريس أودان Maurice Audin)، واليهودي الجزائري (هنري ألاق – Henri ALLEG)، ومدير جريدة Alger Republicam.

(٣٧) مقال "**البطل الشهيد بن مهيدي**"، جريدة المجاهد، العدد (١٩)- يوم ١٩٥٨/٠٣/٠١، ص ٦.

(٣٨) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٩١.

(٣٩) المرجع نفسه، ص ٩١.

(40) Mohamed HABRI-Les Archives de la Revoltion Algérienne. PARIS ed, Jeune Afrique 1981, P.175.

(٤١) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٤٢) انظر: الجريدة L'EXPRESS 1 Février 1957 n = 293 p1

(٤٣) مقال "**صدى الإضراب العظيم في الأقطار العربية**"، المقاومة الجزائرية، ١٧ فيفري ١٩٥٧، ص٨ - ٩.

(٤٤) علي الغربي أبو الوليد، **من أيام ثورة الفاتح نوفمبر ١٩٥٤**. أيام الـ٨ إضراب جانفي ١٩٥٧ – منشورات المتحف الوطني للمجاهد، بدون سنة، ص ٥.

(٤٥) الوزير الأسبق للجنرال "ديغول" وأستاذ القانون بجامعة باريس RENE CAPITAINE روني كابيتان، وهو أستاذ سابق للشهيد علي بومنجل على دروسه، قام احتجاجًا على الممارسات القمعية والتعسفية في حق الشعب الجزائري، ووجه رسالة شديدة اللهجة إلى السلطات الفرنسية ودخلت معه الجامعة في مظاهرات احتجاجية عبأت وراءها المنظمات الإنسانية والدولية والرأي العام حول القضية الجزائرية، ودعمت مواقف الثورة في الخارج.

(46) Le Monde – 29 Janvier 1957, P. 1.

(47) Le Monde- N=3741, Février 1957, P.1.

(48) Le Figaro –N = 3855, 28 Janvier 1957, P.1.

(49) Le Figaro- 30 Janvier 1957, P. 1.

(50) L'Express 1 Février 1957, P.1.

(٥١) **المقاومة الجزائرية**، ١٧ فيفري ١٩٥٧، ص ٣- ٤.

تقنيات الحرب في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار
الأسلحة والحيوانات

عبد الحميد فائز
باحث في الأنثروبولوجيا بسلك الدكتوراه
جامعة محمد الخامس
الرباط – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

نعمل في هذا البحث، استنادًا على مقاربة تاريخية وأنثروبولوجية، على دراسة التقنيات الحربية وأثرها على التنظيم الاجتماعي بالمجتمع البيضاني قبل الاستعمار، وسنركز تحديدًا، فضلاً عن التعرف على أهمية السلاح في إعادة إنتاج دوائر العنف، وتشكيل الخريطة السياسية والاجتماعية وتدعيم دواعي التغلب بين المجموعات القبلية المختلفة، وتشكيل قواعد محددة لموازين القوى بين هذه القبائل، على رصد الاستراتيجيات الحربية للمجموعات الرعوية، حيث تترجم مختلف تمظهرات العنف، والقواعد التي تتأسس عليها هذه الاستراتيجيات، وأساليب الإغارة، وأشكال الهيمنة المجالية، وما ينتج عنها من تمرس حربي، باختلاف غاياته ورهاناته. كما سنعمل أيضًا على تحليل شبكة الرموز المتصلة بهذه التقنيات، خاصة ما يتعلق منها، بقيم الفروسية والشرف ورمزية الحرب في منطقة بحثنا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٣ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
التقنيات الحربية، الأسلحة التقليدية، حيوانات الركوب، المجتمع البيضاني، المجتمعات الرعوية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041867

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد الحميد فائز. "تقنيات الحرب في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار: الأسلحة والحيوانات".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٤٩ – ٥٥.

مُقَدِّمَةُ

تبدو دراسة الأسلحة للوهلة الأولى من شأن المتخصصين في تطور صناعة الأسلحة من الخبراء التقنيين والاقتصاديين والسياسيين..، كما أن دراسة تطورها منذ العهود الغابرة يوحي بنوع من الأركيولوجيا التي لا تفيدنا كثيرًا في هذه الدراسة إلا في فهم علاقة الإنسان الأول بالسلاح. إن المدلول الأنثروبولوجي والتاريخي الذي نقترحه في هذا المقال، لتحليل وظائف السلاح في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار يتصل بمقارنة أثر هذه التقنيات الحربية على التنظيم الاجتماعي، السياسي والعسكري بمجال الدراسة، وهو تأثير يمتد إلى السلوكات الحربية للقبائل التي تسعى إلى "التسابق نحو امتلاكه"، وإن مثل هذه التعبيرات التي تستعمل في الميادين العسكرية الحديثة قد تفيدنا إلى حد كبير في تحليل عناصر الاتصال بين القدرة التقنية الحربية والتغيير في موازين القوى عند المجموعات القبلية من جهة أخرى.

إن دواعي الاشتغال الأنثروبولوجي والتاريخي على موضوع التقنيات الحربية المرتبطة بالأسلحة والحيوانات، يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، لا سيما أن دراسة التقنيات الحربية قد طالها الإهمال البحثي، باستثناء بعض الإشارات التي سنحيل عليها فيما بعد، ولم تعنى مجمل الدراسات التي اهتمت بمجال دراستنا بمحاولة البحث حول هذه التقنيات، فضلا عن دراسة العلاقة بين مختلف الجوانب التي تثيرها الإشكاليات المتصلة بها. لذلك لا تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فهم تأثير التقنيات الحربية على التنظيم الاجتماعي والسياسي ما قبل الاستعمار حصرًا، بما يعني ذلك الانتباه أيضًا إلى التصورات المحلية وشبكة الرموز الثقافية والاجتماعية التي تتصل برمزية السلاح، كما لا تتجه إلى تحليل طبيعة هذه التقنيات ووظائفها الحربية تحديدًا، أو علاقة العوامل

الخارجية في تغيير موازين القوى بين المجموعات القبلية. ونتيجة لذلك فإننا نعترف منذ البدء أن إهمال جانب من هذه الجوانب، وبالاستناد على محاولة تاريخية لرصد تطور أشكال التسلح في المجتمع البيضاني، واعتمادًا على تموجات التاريخ المحلي (حيث ساهمت مراحل تاريخية دون أخرى، كما سنوضح، في التمهيد لشروط إنتاج العنف) سنحاول أن نوضح جملة العناصر التي تتداخل فيما بينها في سبيل تقديم المرتكزات البحثية لدراسة التقنيات الحربية في المجتمع البيضاني.

أولاً: الأسلحة

يبدو لنا جليًا، كما نتفق، مع ما ذهب إليه الأنثروبولوجي الفرنسي بيير بونت، فإنه في المجتمعات الرعوية، لا يمكن للتقنيات الحربية الحقيقية أن تكون مدروسة خارج نطاق مجموع التقنيات الحربية[١]، ذلك أن إدراك هذا الترابط سيمكننا من فهم وظيفة هذه التقنيات في سياق أعم، فالحيوانات على سبيل المثال، التي تستعمل في الإغارات الحربية على الخصوص، يجري استعمالها على نطاق واسع في مختلف الأنشطة الإنتاجية، ومثله، فإن تجهيز هذه الحيوانات، يخضع لمتطلبات المجتمعات الرعوية، ويخضع حصرًا، في فترة الحرب، لشروط التجهيز العسكري.

إن السلاح يمثل بالنسبة لمجموع هذه التقنيات التي تحدثنا عنها أحد أهم التقنيات التي تسعى المجموعات القبلية المختلفة إلى امتلاكه، وبعبارة أخرى، فإن أهمية الأسلحة لا تنحصر في الوظيفة العسكرية الخالصة التي تحتلها بعض القبائل عند امتلاكه، وإنما تتجسد أهميته في إعادة الترتيب الاجتماعي بصفة خاصة، وإعادة تشكيل الخريطة الاجتماعية والسياسية بصفة عامة. إن السلاح، وبدون شك، هو الذي يقدم مظهر المجتمع في المجتمع، مع المناطق السكنية الخاصة، تراتبيته، سمات اللباس. لكن المعسكر أيضًا نسخة مصغرة من المجتمع صندوق رنين لهذه التعارضات، للإرث التاريخي، للصعوبات الاقتصادية وتصورات السلطة والقوة التي تعبرانها.[٢]

هذه "البنية الحربية" التي تعتمد على التسلح، لا يمكن إدراكها دون أن نتوقف عند أهمية السلاح ذاته في مجتمع البيضان في مستوى أول، وهكذا فإن الصور التي شكلها الرحالة الأجانب، ستساعدنا في تقديم وصف عام عن هذه الأهمية، ذلك أن أكثر ما أثار هؤلاء "المستكشفين"، إلى جانب عادات هذه المجتمعات وأعرافها ونمط عيشها...، صورة الحرب والتسلح في هذه المجتمعات، هذه الصورة النمطية العامة التي تنطلق من إيديولوجية خاصة لفهم المجتمعات ستعقل لا محالة هذا الإدراك الذي تعوزه الموضوعية التحليلية في كثير من الأحيان، مما حذانا إلى اعتماد الوصف الذي تتضمنه هذه النصوص أكثر من الاعتماد على التأويلات المصاحبة له.

لقد شغلت مضامين الحرب حيزا مهما من كتابات الرحالة الذين دونوا هذه الممارسات الحربية التي عاينوها عن قرب، وهو وصف قلما نجده في الكتابات المصدرية التي تعتمد على السرد أكثر من الوصف. لقد سجل لنا روبرت آدم الذي غرقت سفينته سنة ١٨١٠ على ساحل الصحراء على نحو خمسين ميلا شمال الرأس الأبيض وتم أسره من قبل إيمراكن على الأرجح، وقد أقام عند أولاد دليم عشرة أشهر، ثم عند أولاد أبي السباع، ثم وصل أخيرا إلى أكليميم حيث مكث هناك لمدة تزيد عن السنة، قائلاً: "ويستخدم العرب المنحدرون من الفروع الأقرب إلى البحر البنادق ثنائية الفوهة أو ذات الطلقتين وبعض الأدوات الحديدية المختلفة، التي جلبتها جزر الكناري والتي يعطون مقابل الحصول عليها جزءًا من قطعانهم. ويقال إنهم فرسان ممتازون وماهرون جدا في استخدام الأسلحة النارية والذين نادرًا ما يخطئون هدفهم حتى في حالة الجري بأقصى سرعة الحصان أو جمل الصحراء (المهري) وهم في حروب دائمة مع جيرانهم في الجنوب والشرق، ولكن بدون نتيجة مهمة، لأن عقم التربة في هذه المناطق الرملية، ترك القليل من دواعي الإغراء لغزو الأراضي".[٣]

يوضح لنا نموذج قبيلة أولاد أبي السباع تحكم الشروط العسكرية في التخصص الحربي للمجموعات القبلية الظاعنة، وهكذا، فإن قبيلة السباعيين التي حصلت على سلاح "الوروار" من الفرنسيين قد طورت تنظيمها الحربي والسياسي معا، أو بعبارة أخرى، فقد عززت تقنياتها العسكرية والحربية قدراتها السياسية والتنظيمية ووظائفها الاجتماعية. وهكذا فقد اتجهت القبيلة منذ امتلاكها لهذا النوع من السلاح إلى تغيير موازين القوى العسكرية في بلاد الساحل على الخصوص، والحالة هاته، فإنه في المجتمعات التي يظل فيها التسلح التقني ضعيفا، فإن امتلاك مجموعة دون أخرى له، سينتج عنه نوع من التراتب الاجتماعي والسياسي نتيجة "الغزو"، وهكذا فإن حالة أولاد بالسباع، التي ذكرنا، تمثل أكبر نموذج للتفوق العسكري عن طريق السلاح في مجال دراستنا، وهناك أيضا نتيجة أخرى لامتلاك التقنية الحربية، وتتعلق بما يطلق عليه ب "الحرب المعدية"، وفي ذلك ما يذكره محمد سالم بن الحبيب:" وبعد ذلك انجر أبناء أبي السباع للرقيبات. وكل مرة يأخذون لهم شيئًا من الإبل أو غير ذلك. والرقيبات صابرون واشتغلوا بشراء عدة الوروار واتفقت جماعتهم أن كل رجل بلغ ملكه ثمن وروار يشتريه وإن أبى تأخذه منه الجماعة قهرا وتشتريه وتدفعه له. فلما علمت الناس بذلك صارت التجار تتوارد عليهم من كل ناحية بالمدافع إلى أن حمل كثير منهم السلاح. فلما علم أبناء أبي السباع بأن الرقيبات مشتغلون في شراء السلاح، كثر كلامهم فيهم."[٤]

يعرض لنا الضابط فريرجان في كتابه عن موريتانيا أن أولاد بالسباع بعد "وقعة المونك" قد عرضوا على الإدارة الفرنسية، بعد أن احتجزوا بعثة بلانشيه في السنغال التحالف معها لأخذ ثأرهم من أهل آدرار، وقد مد الفرنسيون، كما في رواية فريرجان، أولاد

بالسباع بسلاح "الوروار".[٥] إنه لا مجال هنا لتزكية رواية فيرجان أو ضحدها، فهذه الرواية تفترض قراءات متعددة، غير أن إن اطلاع قبيلة أولاد أبي السباع بالتجارة في مطلع القرن التاسع عشر قد مكنهم من جلب عدد مقتدر من سلاح الوروار، "فقد قاد السباعيون القوافل التجارية ما بين حوز مراكش وسوس وبين بلاد شنقيط، وقد زاد من أهمية هذه التجارة وضمان أمن سبلها تملك السباعيين للسلاح كوسيلة لضمان وصول القوافل دون أن تتعرض للنهب"[٦]، وقد ذكر صاحب جوامع المهمات أن أبناء أبي السباع لما خرجت لهم عدة الوروار وحملوها، أول من أتاهم بها محمد سالم بن عبد الرحمن بن بعنك سنة ١٣٢٠هـ، فتطاولوا على عامة الناس في هذه الأرض. وشنوا الغارة على جميع أهلها شرقًا وغربًا".[٧]، ويذكر لنا بابه ولد سيديا أن ما شهدته المنطقة من ارتفاع منسوب الحروب في بلاد الساحل في القرن التاسع عشر: "وأما مزيد شوكة أهل الساحل من الرقيبات وأولاد بالسباع وغيرهم في هذه الأرض، أعوام دخول الفرنسيين لها فهو أمر عارض غير أمر المملكة، وكان من أسبابه وقوع الوروار والمدافع المعروفة ونحوها بأيديهم قبل سائر أهل هذه الأرض من البيضان... وغيره من فساد ذات بينهم"[٨].

هذه الإشارة التاريخية التي يوردها سيديا تتصل بعوامل محددة، حيث يرى بول باسكون أن الصحراء ما قبل الاستعمار كانت بمثابة كيس من القبائل متفرقة تتناحر فيما بينها ويسلب بعضها بعضا وتتعاقد ولا تقف في العمق أمام القوافل ولا تعيق مردودية التجارة. إن محيط الصحراء جنوب المغرب في سنة ١٨٨١ لم يكن محيطا مبهما حيث تسود القرصنة الغير المنتظرة والمعممة، بل كان غاية في التطور (...) في الصحراء منذ ١٨٢٠ حصل تبدل عام يعود جزء منه إلى حركة القبائل، وإلى ضعف المخزن العلوي وإلى المؤسسات الأوروبية على طول الساحل وإلى الدخول الفرنسي بالسنغال".[٩]

إنه يكفي الحديث عن ثلاث عوامل كبرى لتحديد مصادر التسلح عند البيضان، ويتعلق الأمر بداية بالمبادلات مع الفرنسيين في مستوى أول كما تفيدنا بذلك مختلف المراسلات التي تمت بين الأمراء البيضانيين وبين الإدارة الفرنسية، لقد جاء في بعض المراسلات التي أوردها بول مارتي في كتابيه عن إمارة الترارزة والبراكنة بعض الرسائل التي تضمنت بصفة صريحة طلب بعض الأمراء من الإدارة الفرنسية إمدادها بالسلاح الناري، ومن ضمن هذه المراسلات تلك التي تمت بين أمير الترارزة اعلي بن محمد لحبيب، وقد جاء فيها "إنه موجبه إعلامك أنه حمد الله على مجيئك وما جئت به من الخير والعافية وإعلامك أيضا أنه لا يهمك أمر في جهته إلا وفعل إن شاء الله ما دام حيًا وذلك من فعلك واستقامتك على ما فيه الصلاح بيننا وبينك وما بقي من العيال وراء البحر أحب أن تجعله دونه عاجلا إن أمكن ذلك وأريد منك أيضا أن تقرضني مائة بيصة لا بد منها وإن أمير آنذر قبلك والحمد لله.... ومدفع ولم يفعل وراج منك أن تفعل"، وضمن الاتفاقيات التي تمت بين أمراء الترارزة والبراكنة نجد عددا من البنود المتعلقة بحصول بعض الأعيان على أسلحة وهدايا من الفرنسيين، وقد تضمنت الاتفاقية التي عقدها أمير الترارزة اعل الكوري سنة ١٧٨٥ كما نشرها بول مارتي، بنودا حول الحصول على بندقيتين من "بوفمين"، ومائة رطل بارود...[١٠]

وقد عزز هذا التبادل إلى جانب إمداد البيضانيين بمؤن جديدة، في تحويل موازين القوى التجارية، حيث اتجهت الإدارة الفرنسية إلى تدمير الموانئ التي أنشئها البرتغاليون والبريطانيون، في سبيل التمهيد لتهجير هؤلاء الرحل إلى مدينة سان لوي السنغالية، وبذلك فقد عززت الإدارة الفرنسية هيمنتها الإقليمية من خلال مركز سان لوي[١١]، وقد كانت سياسة كوبولاني في موريتانيا ترمي إلى الحفاظ على موازين الكفة لصالح سان لوي ومحاربة "البيضان المتمردين"، خاصةً لما يتعلق الأمر بالمبادلات التجارية مع السنغال، والتي تُعدّ موردًا أساسيًا لاقتناء الأسلحة، فقد تأتى له ذلك من خلال عمليات الضبط التي مارستها الإدارة الفرنسية للحيلولة دون نهب القرى السنغالية من قبل كل من البراكنة وإدوعيش على الخصوص[١٢]، وبذلك فقد انتهجت الإدارة الاستعمارية في سان لوي حظرًا سياسيا على منابع التسلح الآتي من السنغال، خاصةً أن هذه الأسلحة كانت توجه للجهاد ضد الفرنسيين، وأن عددًا من الرماة السينغاليين كانوا يبيعون أسلحتهم للبيضان[١٣]، ولم يقتصر تعامل الأوروبيين مع أمراء البيضان، بل شملت المراسلات بعض الشخصيات القبلية، فقد جاء في رسالة مؤرخة في ١٣٦٦هـ الحمد لله وحده: "إنه من محمد يحظيه بن عبد الباقي إلى السيد كفر حاكم أرض البيضان سلام لائق بإعلاء مقامك...وإن البلاد خصب والحال ساكن وإننا وجهنا لك اعلي سالم ابن الفاضل فاعلم من أجل الجماعة وكبرائها... فاستوصي به خيرًا وكلما أتاك به فاحسم مادته وأن تعطيه حقه من العدة والتعلم"[١٤]، وفي رسالة أخرى لنفس الرجل جاء فيها:" إنه من محمد يحظيه بن عبد الباقي إلى كفر حاكم أراض البيضان سلام لائق بأعلا ما يكون من مقام أمثالك ومن موجبه أنه لم يطرأ من الخبر بعد قدوم كبتين بالنفوس إلا استقرار العافية بين أبي السباع وبني دليم وقد تمشينا في ذلك حتى مهد الله العباد والبلاد بالعافية والآن قد بعثت لك أني عبد العزيز وقومه بيده مدافع وروارين نريد بدلهم ونطلب من فضلك أن تمن علي بما أمكن لك من المدافع والتعمار للعيال وأن تمن علي بما يناسب قد وقدرك من بيت المال وبه وجب الإعلام والسلام"[١٥].

ومن جهة ثالثة ظلت الإمكانيات التقنية المحلية غير قادرة على مواكبة صناعة الأسلحة المتطورة إلا من بعض الأسلحة المتهالكة التي لم تستطع مجابهة التقنيات المستوردة أو الخارجية، لقد اقتصر السلاح فيما سبق أن ذكرنا على الأسلحة التقليدية المعروفة، كـ "المزاريك" والخناجر" والسكاكين"، وقد ظلت "لكشامة" إلى حدود القرن التاسع عشر أحد أهم البنادق التي عرفتها التقنيات العسكرية في بلاد البيضان، وهو نوع من الأسلحة

الرديئة التي يعتمد على تعبئتها بـ "البارود"، وتصدر هذه البندقية طلقة واحدة ليتم تعبئتها من جديد، وتوضع بجانب قطعة الرصاص قطعة صغيرة من قماش.

إن البحث عن تأريخ لعملية دخول الأسلحة إلى بلاد البيضان وتطوراتها اللاحقة، يحتاج إلى مباحث مضنية ودقيقة، فقد اطلع البرتغاليون عند وصولهم إلى السواحل الأطلنتية بالصحراء ورأس بوجدور إلى المتاجرة مع البرتغاليين[١٦]، وتفيدنا المصادر البرتغالية واليابانية خصوصا، بإشارات بالغة الأهمية عن جلب السلاح المسمى (Tanegashima) من اليابان، ويعتقد محمد ولد الأمير الذي حقق كتاب حوادث السنين، أن لكشامة تعود تسميتها إلى الأصل الذي ذكرنا، ولم يذكر ولد الأمير، عناصر الاتصال هاته من خلال المصادر التي أوردتها، إلا أنه استنتج من خلال اللفظ المتقارب بينهما أن نفس السلاح الذي صنعه اليابانيون هو لكشامة الذي امتلكه البيضانيون.

إننا نجد هذا الاتصال مثبتًا من خلال بعض المراجع المهمة التي اهتمت بالجزيرة اليابانية التي عرفت إنتاج هذا النوع المتطور من السلاح آنذاك، فلقد كتبت "أولوف ليندن" في كتابها المعنون "تانيكشيما: الوصول الأوروبي إلى اليابان"[١٧]، بتفصيل دقيق عن علاقة البرتغاليين بانتقال السلاح إلى مناطق أخرى من المستوطنات التي كانت تحتلها البرتغال[١٨]، ورغم أننا لا نجد هذه المصادر تؤكد على وصول السلاح الياباني إلى صحراء البيضان، إلا أننا نرجح أن استعمال "لكشامة" يعود لسنوات الاحتلال البرتغالي للسواحل، وبداية الاتصال التجاري مع البيضان في جزيرة أركين منذ ١٤٤٨"[١٩]، ويبدو أن وصول البرتغاليين إلى اليابان سنة ١٥٤٣ قد شكل بداية حصول البرتغاليين على السلاح الناري".[٢٠] ويبدو أن مثل هذه الاستنتاجات الأولية تحتاج إلى تدقيق أكثر لمعرفة القنوات التي تم بموجبها الحصول على "لكشامة".

تنتمي لگشامه إلى بنادق الصوان المسماة "لمكحلة" في المجال المغربي الممتد إلى وادي درعة، وقد اطلع على صناعتها الحرفيون المغاربة والجزائريون في مطلع القرن التاسع عشر، غير أن دخولها إلى هذين المجالين يسبق هذا التاريخ بكثير، وتتكون لگشامة، التي تجمع على لگشامات، من "الجعبة" التي تتصل بـ "القصبة"، بينما يسمى وميض طلق البارود بـ "أبخش" ويجمع على "أبخاش"[٢١]، بينما تتصل "الجعبة" بـ "اركيزة" المصنوعة من الخشب في الغالب، ويستعمل المحارب قطعًا من القطن الذي يستعمل في إشعال البارود بعد إضرام النار فيه"[٢٢]، ثم إن هذه "البنادق أو "المكاحل" وفيها يظهر التنوع الكبير، فإلى جانب البنادق الحديثة التي كان المخزن يشتريها من أوروبا كالمارتني والبنادق بالحربة كانت توجد المكاحل القديمة سواء المستوردة أو المصنوعة محليا كالمكاحل بالحجر "بوشفرة" التي تشحن من الفم وتدخل فيها حبة صغيرة من البارود مستديرة، تصنع كذلك في المغرب، وهذه الحبات غالبًا ما كانت أصغر من قطر الفم، فكانت تحاط بشيء من الصوف أو بورق الدوم "الليفة" حتى لا تسقط، وكان البارود يلف في الورق. وهذه المكاحل لا تتعدى رمايتها ٢٠٠م وتتوقف عن العمل إن تبللت بالماء وتنفجر في بعض الأحيان.[٢٣]

تحافظ بعض الأسلحة كـ "الكشامات" على الطابع التقليدي للحروب حيث لا تصيب هذه البندقيات الواحد إلا على بعد مسافات قريبة، وهو نوع من الأسلحة الضعيفة التي لم تطور التقنيات الحربية عند قبائل الصحراء، وبذلك استمرت الحروب في شكل إغارات متبادلة عن قرب يتناوب فيها المحاربون على إطلاق الرصاص من أمكنة قريبة على شكل أساليب تنتهج أسلوب الإغارة، كما يسمى محليًا بـ "الطيحة"[٢٤]، وقد تبنى المحاربون هذا الأسلوب في الهجوم على القوافل التجارية، كما يروي لنا كاميل دولز" كانت سمعة قبيلة أولاد أدليم التي كنت أنا ضيفا عليها في الصحراء الغربية هي أنها قبيلة شرسة ولم تكن هذه السمعة مكتملة، فكلما وجد أحد أولاد دليم فرصة للقتل أو النهب فإنه ينتهزها بتسرع ويخاف كل البيضان البدو نزواتهم المفترسة ولم تكن هذه السمعة مكتملة، فبينما نحن نسير شمالاً رأينا في الأفق قافلة قادمة في الاتجاه المعاكس، وبمشاهدة ركب الإبل المحملة عرفنا أن الأمر يتعلق بقافلة تجارية. فأرسلنا اثنين من الرجال كطلائع للتعرف على القادمين، وبعد نصف ساعة عادوا ليخبروا أن القافلة قادمة من تندوف وتنقل حملاً من التمور في اتجاه تيرس. تتكون القافلة من ثلاثين رجلاً وعشر نساء وأطفال عدة، وثمانية وأربعين جملاً بين الذكور والإناث يمتلكها بيضان من قبيلة أولاد الفلانيين.

اتخذ قرار الهجوم، وتوقف سير المخيم ونوعت الأحمال عن الجمال، ووضع النساء والأطفال في مأمن خلف منحدر، ثم تحضير السلاح الذي يتكون من مدافع بالحجارة تم الحصول عليها من السنغال وخناجر مغربية. وامتطى كل بيضاني جملاً واستأنفنا السير باتجاه القافلة. كل رجال المخيم كانوا مشاركين في الحملة كنا ثلاثين محاربًا وأقول كنا، لأنني ألزمت بمرافقة الفرقة لاستخدام السلاح الذي مددت به عند الضرورة، وبعامل الحذر وضعت في الخلف وكان لا يجوز لي استخدام السلاح إلا إذا ساءت الأمور على المهاجمين. وعندما صرنا على مسافة مائتين أو ثلاثمئة متر من القافلة قام إبراهيم بإشهار سلاحه في الجو مرددا "بسم الله"، ثم وضع مطيته في حالة تراخ سيرًا في اتجاه البيضان المتاجرين وقام جميع أولاد أدليم الاخرين بمتابعته في ذلك مع القيام بحركات مفجعة وأصوات مرعبة لإرهاب ضحاياهم. وبسبب رداءة الذخيرة والسلاح فقلما تصيب طلقة حتى من مسافة قصيرة وتصير قاتلة، ولكن الرعب عمل فيهم أكثر مما عملت ذخيرة المدافع المطلوقة. فلما عرف القادمون أن مهاجميهم هم أولاد أدليم أصابهم ذعر شديد وبدون التفكير في الدفاع تفرقوا لتوهم وتمكن أولاد دليم في وقت وجيز من القضاء عليهم بسرعة وبمعدل ثلاثة مقابل واحد كانت كل مقاومة مستحيلة.[٢٥]

وهكذا؛ فإن دراسة مفصلة للتقنيات الحربية في مجتمع البيضان تصف لنا أهمية السلاح في المجتمعات الرعوية، وهذه الأهمية تستند على رمزية السلاح المماثلة لقيم الشرف والرجولة، ومثله، فإن امتلاكه لا يشكل فقط قيمة رمزية تعتد بها المجموعات القبلية، وإنما تشتمل قيمة السلاح المتطور نسبيا، على إمداد القبائل بالوسائل المادية للتفوق والتجهيز العسكري، وبعبارة أخرى، فإن السلاح ينمي عند الرحل الحاجة إلى خلق التمايز الاجتماعي وخلق تراتبيات اجتماعية، وقد شهدنا من خلال نموذج قبيلة أولاد بالسباع في منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كيف أن القدرات الحربية المتمثلة في حمل السلاح الناري المسمى بـ "الوروار"، قد مكنت القبيلة من التوسع المجالي على حساب قبائل أخرى.

ثانيًا: الحيوانات

يمثل القطيع أحد أهم الموارد التي تسمح بالتجهيز الحربي للمجموعات القبلية، ففضلاً عن أن هذه الحيوانات تؤمن للمجموعات الرعوية وسيلة الغذاء والعيش، فإنها تمكنهم من التفوق الحربي على مجموعات أخرى، وقد لاحظ بونت أن الرعي الترحالي يسمح برصد وتجهيز عدد معتبر من "الحيوانات المركوبة"، الخيل والجمال. من وجهة النظر هذه، فإنه من الضروري التمييز في، إفريقيا، بين الرعاة من صنف "البدويين" الذين يتوفرون على مثل الحيوانات، وبين رعاة الماشية أو "الأبقار" في منطقة السافانا الذين لا يمتلكون هذا الامتياز وفي بعض الأحيان يستعيرون الأحصنة من جيرانهم، وينتج عن ذلك سلسلة من التقنيات العسكرية الأصيلة التي تتميز بأهمية "سلاح الفارس" أو الجمال، سرعة وحركة الإغارات، وعلى العكس، الاستعمال العسكري لحيوانات الركوب له نتائج".[٢٦]

يشير عبد الودود بن الشيخ إلى المكانة الخاصة التي تحتلها الخيول المسماة "المزحفة" التي تقدم لها كل يوم عدة أمداد من اللبن والزرع. هذه الخيول لا تملكها إلا الأسر كبيرة الشأن، وهي تربط بالقرب وينفق عليها: إن عبارة "مزحفة" تعني أنها "معطلة": بعض هذه الخيول... فمقابل خصال الخيول الأصيلة توجد خصال الفارس، هيبته براعته في مجال الفروسية وقدرته على القيام بحركات بهلوانية تثير الإعجاب في مجتمع البيضان. ويوجد تطابق حقيقي بين الفارس والفرس وبين كل واحد منهما ومالك الدابة، فهذه الأخيرة حاضرة ماديا، بوصفها ربيت مربوطة بجانب الخيمة، وموجودة رمزيا في حريم المالك، فهي ترمز إلى السمعة وأيضًا إلى شرف الشخص الذي يملكها، سواء ركبها أم لا.[٢٧] هذه الأهمية تنسحب على العلاقة بين المالك و قطيعه تصل درجة التماهي، التي وصفها بيير بونت في إحدى مقالته، حيث أن ضياع هذا الحيوان أو موته قد يؤدي بمالكه إلى الانتحار، وهو ما يعكس القيمة الخاصة للقطيع[٢٨].

فـ "للخيل عند القبائل البيضانية أهمية كبرى إلى درجة أن كل إمارة بيضانية قد جعلت لـ "مداركها" تسميات مختلفة فخيل إدوعيش تسمى الحمامات وأخرى تعرف "بالغزالات". وتسمى خيل أهل عثمان بن الفظيل بآدرار "الكشريات"، وخيل العبلات من مشظوف تسمى الجديات، وخيل لحمنات تسمى الجريبات، ومن فروعها الحوات وأمات الظفيرات والمعنكات. وتسمى خيل الترارزة: بينطات والسبعيات واكبيشات. واكريكبات خيل أولاد بوحمد، والزريكات لأولاد بالسباع[٢٩]، وهو ما يدفع البيضان إلى الاعتناء بالخيول والإبل الأصيلة، خاصة تلك التي تتمتع بأصالة النسب وقوة الحضور في المعارك وسرعة البداهة وسلاسة الحركة، إنها صفات تتماهى مع الفارس الذي يمتلكها، وكأن شرف المحارب متصل بشرفها، فإذا تمت إذايتها أو قتلها وكأنما أصيب الفارس أو قتل.

"كما أن الإبل بدورها تضطلع بأهمية خاصة عند المجموعات القبلية، فبها تقوم الدية، ومنها تعطى لمنيحة، وفي نحرها وعرقبتها إكرام الضيوف الكبار، وتستعمل في السباق، ولا تتم فتوة الموريتاني إلا إذا كان له جمل عتيق عليه عدة جيدة. وكانت القبيلتان إذا عادت إحداهما الأخرى فنهضت إليها يسأل: أين ذهبت الإبل؟ فإذا كان الجيش المغير قد استاقها كان المنتصر، وإذا كان العكس فمعناه أن المغار عليهم لم يهزموا. فلا يسألوا إذا أرادوا معرفة المنتصر، وإذا كان العكس فمعناه أن المغار عليهم لم يهزموا. فلا يسألون- إذا أرادوا معرفة المنتصر- عن عدد القتلى أو الجرحى وإنما عن الإبل من أخذها... كما يشتهر عند البيضان "وضع ميسم على الإبل وتتميز كل قبيلة بميسمها الخاص ويسمى "النار". ومن أشهر ذلك حرف القاف (ق) وهو ميسم اركيبات الساحل أما الكواسم أو الركيبات الشرقيون فيضعون حرف الكاف (ك). وتضع قبيلة كنتة "الحلكة" أي الحلقة. أولاد بالسباع يضعون (مك) وأهل الشيخ ماء العينين النقلي وأولاد أبييري وخاصة أهل شيخ سيديا يضعون الباء (ب)، وأهل بارك الله ميسمهم كإيدقب (لا) وأنواع الميسم أكثر من أن تحصى.[٣٠]

إن امتلاك هذه الحيوانات خاصة الخيل يوحي لنا على الأقل بأمرين اثنين: الأول تتضح من خلاله قدرة المجتمعات الرعوية على إنتاج التمايزات الاجتماعية حتى في امتلاك الحيوانات، وهو ما نلاحظه في مجتمعات رعوية عديدة، "فعند المغول كما عند المساي أو التوارق نجد تربية موجهة لنوع واحد أو نوعين من الخيول ذات الخصائص المحددة لفئات اجتماعية محددة، وفي مجتمع البيضان نجد أن الأمير يحتكر وظيفة تربية هذه الحيوانات المتميزة".[٣١]

هذه الخصائص مجتمعة تحيلنا على خاصية جماعية يتمتع بها القطيع عامة، إذ أن القدرات التدميرية الناتجة عن الغزو تصيب الحيوان في درجة أولى، وسنتوقف في المبحث الذي خصصناه لدراسة النهب، عن هذه القدرات حيث تتجه الغارات الحربية إلى إتلاف القطيع بدرجة أولى، إيمانًا منهم بأن القدرات الإنتاجية التي

يمنحها القطيع للجماعات الرعوية توازيها قوة القبيلة، وبعبارة أخرى، فإن أي مساس بالقطيع، ينتج عنه تدمير واسع للبنيات الإنتاجية للقبيلة. لقد تنبه بيير بونت إلى هذه الخاصية التي يتسم بها الغزو، وهو يستعير مفاهيم الماركسية، ذلك أن "الاستعمالات العسكرية لحيوانات الركوب لها نتائج على المجتمع الرعوي: تخصيص الحيوانات للركوب العسكري يسبب، بعض الضروريات على مستوى الإنتاج، تنظيم جديد وفي بعض الأحيان تركيز هذا الإنتاج. أيضًا فإن الغزو المغولي يتطلب إنشاء خسارات في بعض الأحيان للتدمير الواسع للقوى المنتجة السابقة، لمناطق الركوب، الرعي بالمناطق الآهلة. الاستعمال، في الغالب، امتلاك حيوانات الحرب، هم عادة، محجوزين لأرستقراطية ويشكلون بعدًا مهمًا لممارسة السلطة: عند توارق النيجر، فإن إعادة الإنتاج الأحصنة المسماة "بيكازان"، المخصصة للحرب. كانت مضمونة من طرف التركيز على من الجمال في "تاوشيت" لزعيم ديني أو "الشيخ". نفس الشيء في موريتانيا فإن الأمير يؤمن نوعًا من الاحتكار القبلي على الأحصنة التي تتردد على مستوى طرق التبادل، يراقب عدد من هذه الأحصنة، وبالخصوص الجمال المنتجة."[٣٢]

إن تجهيز الحيوانات للحرب بما فيه تهيئتها للقتال لا يقتصر على فترات الحرب دون السلم، وإنما تمثل عمليات التجهيز والتهيؤ حالة من التربية الخاصة التي تتمتع بها هذه الحيوانات، غير أنه في حالة الحرب، كما يلاحظ بونت، فإن تجهيز حيوانات "اظهر" كما في الحسانية يغير من طبيعة الإنتاج الذي يتركز، كما لم يفصل بونت، في السعي إلى امتلاك هذه الحيوانات بكل الوسائل الممكنة، ومن ضمنها الغزو واقتناء أنواع جديدة. ذلك أن "النمو والتخصص في الإنتاج الرعوي يخلق شروط التوسع في حدود المجتمعات الرعوية وخلق نوع من تقوية الاختطافات والغصب وارتفاع معارك اللصوصية".[٣٣] إن هناك تلازمًا واضحًا بين طبيعة الإنتاج الرعوي والغزو في المجتمع البيضاني، وتتبدى سماته الأساسية إذا ما تفحصنا القدرات الإنتاجية التي دفعت عددا من القبائل إلى تبني الوظيفة الحربية كقبيلة الرقيبات، حيث أن أحد أهم الأسباب التي جعلت من الرقيبات قبيلة محاربة هو "فائض الثروة الحيوانية"، ويبدو ذلك جليا من خلال نص الجوامع الذي ربط بشكل ميكانيكي بين تحول الوظيفة ونمو الثروة الحيوانية " حيث يقول " وذلك أن الرقيبات لما تناسلوا وكثر مالهم وانتشروا وصاروا قبائل شتى وناشبتهم أطراف الرماح اجتمعوا وتشاوروا في أمرهم"[٣٤]

إن تزايد إبل الركيبات قد عرضهم للغزوات المتكررة من طرف مجاوريهم أولاد دليم على الخصوص، ومثله، فإن "التحول الاقتصادي الركيبي القاضي بتربية الإبل قد أعطى فصائل القبيلة جبهة أوسع من أجل التطلع إلى أفق أكبر،" ولقد كان ركيبات الساحل أكثر معاناة لوجودهم الاضطراري بجوار أولاد دليم. وكان عليهم أن يتحملوا تبعات تحولهم التاريخي التدريجي إلى مربي إبل"[٣٥]. لا حاجة لنا في هذا السياق أن نفهم طبيعة الميكانيزمات الأخرى التي أدت إلى مثل هذا التحول من قبيلة "مسالمة" إلى "قبيلة حربية"، فهذه الأخيرة سنفصل فيها ضمن فصل لاحق، لكن ما يهمنا في هذا السياق أن طبيعة الإنتاج الحيواني تكسب المعارك الحربية حيوية كبرى، وهو ما يستدعي، تحليل الأبعاد الاقتصادية، التي تتضمنها مثل هذه القراءة، وبالعكس، فإننا نعتقد أن هذه المرتكزات الاقتصادية تستحق تحليلا أكثر، فالدعامة الاقتصادية بالنسبة لنا في هذا البحث لا تعدو كونها نتيجة للعوامل السياسية والاجتماعية على الخصوص، فحالة الرقيبات، التي ذكرناها، لا يمثل ضمنها العامل الاقتصادي المتعلق بتربية الإبل إلا جزءًا من جملة عوامل أخرى ذات طبيعة سياسية واجتماعية تتعلق بنظام التحالفات القبلية والتنافس السياسي على المجال، ولكن هذا لا يمنع من تحليل بعض العناصر ذات الصلة بموضوعنا، حيث أن نهب القطيع بالخصوص تترتب عنه تبعات تنظيمية تتصل بتقوية القدرات الدفاعية للقبائل المنهوبة، وهو ما يتأكد جليا عند القبائل التي تعرضت للنهب المتكرر للمواشي، إذ تنزع كل قبيلة لا إلى تركيز الإنتاج الحيواني، وفقط، وإنما تجهز عددًا من التقنيات لتجنب حالات النهب المتكررة، وبعبارة أخرى، فإن حيوية الغزيان الناتجة عن النهب تقوي من شروط الاستعدادات العسكرية عند القبائل. إن هذا التظاهر بالوظيفة العسكرية تفسره مجمل الآثار الاجتماعية التي تصاحب النهب إذ أن سرقة القطيع يولد عند الجماعات المنهوبة قدرة حربية خاصة، وقد ذكر بونت ما نصه:

"من خلال التعداد المجرد والسنوي للحوليات: سلب أكبر عدد ممكن من قطعان المواشي من هذه القبائل الكبيرة والتي تملك الكثير من الإبل. ففي النصف الثاني من القرن ١٨ عشر، وفي إطار الظرف التجاري الجديد أصبحت تنمية الإبل تفتح آفاق تطور واعد لتجارة القوافل، وهي الإمكانيات التي وعاها الركيبات، قبل ذلك وإن انحسار حركة التجارة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر سبب تنافسا متزايدا بين هذه القبائل المنمية للإبل، والتي كانت تحاول أن تعوض عن الأرباح التي كانت تجنيها من تجارة القوافل، عن طريق أعمال النهب. إن الركيبات الذين يتوفرون على ثروة كبيرة من الإبل، والذين هم طرف في تجارة القوافل التي تقودهم إلى ضفاف نهر السينغال وإلى السودان لم يبحثوا عن المواجهة مع أولاد غيلان، ولكن هؤلاء بدأوا بأعمال النهب ضدهم. إن تطور هذا الصراع الدموي، نتيجة انتشار الأسلحة الحديثة".[٣٦]

تكتسب الحيوانات الحربية (الخيل، الإبل)، في المجتمعات الرعوية مكانة خاصة، تستمدها من عدد من العناصر الرمزية والثقافية التي تتشبع بهما الثقافة الرعوية، إذ ينشأ من خلال ملازمة بعض الحيوانات للإنسان، في فترات السلم والحرب خصوصًا، نوع من التماهي بين المالك وحيوانه، كما أن هذه الثقافة تنسحب أيضا على دور حيوانات الركوب، وخاصة الأنواع الجيدة من الخيل والجمال، حيث يعكس الاعتناء بها حاجة

الإنسان البدوي إلى الاعتزاز بقيمه الحربية، ويتبدى ذلك جليًا من خلال الاعتناء الخاص بها. كما أن قيمتها تتمظهر في قدرتها على إظهار نوع من التمايز التراتبي والسياسي بين المجموعات الرعوية من جهة، وتهيئ ظروف جيدة للاستعداد الحربي وتقوية التقنيات الحربية عمومًا.

خَاتِمَةٌ

لقد عكس اهتمامنا بالتقنيات الحربية إدراكنا أن أدوات الحرب لا يمكن أن تنفصل عن مجموع الممارسات الاجتماعية والسياسية، خاصةً السلاح والحيوان. فبالنسبة لأدوات الحرب فقد ساعدنا تحديد المراحل الكبرى في وصف أهمية السلاح في المجتمعات الرعوية، وضمنها فقد حددنا مدخلين رئيسين لدراسة هذه الأهمية، الأول: تجسده القيمة الرمزية لامتلاك السلاح، بما يتماثل مع قيم الفروسية والرجولة الحربية اللذان يقدرهما المجتمع، ومن جهة أخرى في القيمة المادية التي يمنحها السلاح لممتلكيه، وقد قمنا بدراسة حالات قبلية خاصة، كأولاد بالسباع والركيبات، لنبين كيف أن السلاح كما يسمح بتدعيم القدرات العسكرية للقبيلة، فإنه قد خلق لنا، في الوقت ذاته دينامية عسكرية وسياسية في مجال البيضان. بينما مكنتنا دراسة أهمية الحيوانات في الأنشطة الحربية من استكناه طبيعة العلاقة بين الإنسان وحيوان الحرب، بما تعنيه هذه المماثلة بين قيم الشرف والفروسية، التي يجدها الرُحل انعكاسًا لاعتزازهم وشجاعتهم الحربية، من آلية تتجلى خلالها معالم التمايز الاجتماعي والسياسي.

الهَوامِشُ:

(١) Pierre Bonte, La guerre dans les sociétés d'éleveurs nomades, in: les Cahiers du Centre d'études et de recherches marxistes, N°133- Paris, 1977, p2.

(٢) ABDEL WEDOUD OULD CHEIKH, «Une armée de tribu ? Les militaires et le pouvoir en Mauritanie», The Maghreb Review, Vol. 35, n° 3, 2010, P. 339.

(٣) Robert Adams, Noueau voyage dans l'interieur de l'Afrique, fait en 1810, 1811, 1812, 1813 et 1814, ou Relation de Robert Adams, traduit par Chavelier de Fransans, L.G. Michaud, Paris, 1819, XX, p. 184.

(٤) محمد سالم بن الحبيب بن عبد الحبيب، **جوامع المهمات في أمور الرقيبات**، تحقيق: مصطفى ناعيمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط. ص ١٠٣.

(٥) Louis Frérejean, Mauritanie 1903-1911 : Mémoires et randonnées de guerre au pays des Beidanes, karthala, Paris, 1995, P. 55.

(٦) محمد دحمان، **دينامية القبيلة الصحراوية في المغارب بين الترحال والإقامة**، طوب بريس، الطبعة الأولى، الرباط. ص ١٢٢.

(٧) محمد سالم بن الحبيب، **جوامع المهمات في أمور الرقيبات**، مصدر سابق، ص ١٠٠.

(٨) بابه بن سيديا، **إمارتا إدوعيش ومشظوف**، تحقيق إزيدبيه ولد محمد محمود، نواكشوط، ١٩٩٢، ص ٩٦.

(٩) Paul Pascon, «Rapport consulaire Mathews: Introduction et annotation », in: Enjeux Sahariens, CNRS, (pp. 103-104).

نقلاً عن: محمد دحمان، **الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب**، مرجع سابق، ص ٨٧.

(١٠) Paul Marty, L'émirat des trarza, Paris, Leroux, 1919, p 172.

(١١) Boubacar Barry, Le royaume de Waalo, Paris, Maspéro, 1972, p 175.

(١٢) Geneviève Désiré-Vuillemin, *Mauritanie Saharienne (novembre 1903 à mai 1904) : suivi de L'opposition des traitants du Sénégal à l'action de Coppolani*, L'Harmattan, septembre 1999, p 74.

(١٣) *Myron J. Echenberg,* Les tirailleurs sénégalais en Afrique Occidentale Française *(1857-1960,) Karthala, 2009*

(١٤) رسالة مؤرخة بسنة ١٣٦٦هـ، بحوزتنا نسخة مصورة منها.

(١٥) رسالة غير مؤرخة، بحوزتنا نسخة مصورة منها.

(١٦) Henri Cordier, Histoire générale de la Chine: et de ses relations avec les pays étrangers depuis les temps les plus anciens jusqu'à la chute de la dynastie Mandchoue, P. Geuthner, Volume 1, 1920, p 99.

(١٧) Olof G. Lidin, The Arrival of Europe in Japan, Copenhagen Nordic Institute of Asian Studies Press, 2002.

(١٨) Ibid, p 4.

(١٩) colonel Modat, « Portugais, arabes et français dans l'Adrar mauritanien », Buelletin du comité d'etude historique et scientifique de l'Afrique occidentale Francaise,Oct-Dec, 1922, p 55

(٢٠) Mota Maria Antónia, Bacelar do Nascimento Maria Fernanda. «Le portugais dans ses variétés». In: *Revue belge de philologie et d'histoire*. Tome 79 fasc. 3, 2001. Langues et littératures modernes - Moderne taal- en letterkunde. P 935.

(٢١) إسماعيل ولد محمد يحظيه ولد الحسن، **الممتع المحيط من كلام أهل شنقيط**، الجزء الأول، دار الفكر، نواكشوط، ٢٠١٠ م، ص١٦٠.

(٢٢) سيدي هيبة التروزي، مقابلة بمدينة بوجدور.

(٢٣) ثريا برادة، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، بمطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص١١٧.

(٢٤) نفسه.

(٢٥) محمد بن بوعليبه بن الغراب، **من رحلات المستكشفين خلال القرن التاسع عشر إلى الامارات العربية في بلاد الصحراء: رحلات ماج جولز وفينسان**، جسور، ٢٠١٢، ص٤.

(٢٦) Pierre Bonte, «la guerre dans les sociétés d'éleveurs nomades», Op, Cit, P. 42.

(٢٧) بيير بونت، إمارة آدرار، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

(٢٨) Pierre Bonte, «classe et parenté dans les sociétés segmentaires», in: Dialectique, N°: 21, 1977, p 69.

(٢٩) المختار بن حامد، حوادث السنين، مصدر سابق، ص١١٢، هامش ٣.

(٣٠) نفسه، ص١٢٧ و ١٢٨، هامش ٨.

(□□) Pierre Bonte, « la guerre des sociétés… », op, cit 43

(□□) Ibidem.

(□□) Pierre Bonte,

(٣٤) نفسه، ص ٧٦.

(٣٥) نفسه، ص ٥٨.

(٣٦) بيير بونت، إمارة آدرار، مرجع سابق، ص٤٩٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الحياة الثقافية في مدينة تلمسان
خلال العهد العثماني



د. عبد الرحمن بالأعرج
أستاذ محاضر في قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

يستعرض هذا المقال التاريخ الثقافي لمدينة تلمسان خلال العهد العثماني، ويركز على البعد التاريخي مدينة تلمسان والأحداث السياسية التي شهدتها خلال الحكم العثماني، وأبرز المؤسسات التعليمية والثقافية، وأشهر العلماء الذين برزوا في العلوم الدينية بالخصوص. والمعلوم أن تلمسان من مدن الغرب الجزائري، وكانت حاضرة للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط (منذ عهد السليمانيين الأدارسة والمرابطين والموحدين إلى غاية العهد الزياني)، وقد استقطب المدينة التيارات الفكرية والثقافية من المشرق والمغرب والأندلس، ولما تم إلحاقها بالحكم العثماني خفت إشعاعها الفكري نظرًا لمجموعة من العوامل أبرزها هجرة علمائها إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وتدهور مؤسساتها التعليمية، وكثرة الاضطرابات السياسية. ورغم هذا الوضع إلا أنها بقيت من مراكز العلم في البلاد الجزائرية طيلة القرون الثلاثة التي حكم فيها العثمانيون البلاد، وظهر بها مجموعة من الأعلام في العلوم الدينية. وكان التصوف من بين المجالات التي برزن على الساحة الاجتماعية والثقافية، وصار ظاهرة شجعها العثمانيون، وصارت الزوايا التي غالبًا ما كان يؤسسها رواد الطرق الصوفية تقوم بدور هام في التعليم والخدمات الاجتماعية للعامة. وحافظت المساجد على دورها التعليمي والديني إضافة إلى المدارس التي كانت موجودة منذ العهد الزياني مثل المدرسة التاشفينية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ أبريل ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٥ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

المجتمع الجزائري، الحكم العثماني، الطرق الصوفية، تاريخ الجزائر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041870

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحمن بالأعرج. "الحياة الثقافية في مدينة تلمسان خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٥٦ – ٦٢.

مُقَدِّمَةٌ

يهدف الموضوع إلى إبراز الانتقال الذي شهدته مدينة تلمسان من كونها عاصمة لمملكة بني زيان ودارًا للعلم والعلماء، ومركزًا من مراكز الإشعاع الثقافي في المغرب الإسلامي، إلى مجرد مركز للحامية العثمانية في بايليك الغرب الجزائري، والأسباب التي أدت إلى ذلك، كما يهدف إلى التعريف بأبرز أعلام تلمسان خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر الميلادي إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي، وإثارة مجموعة من الإشكاليات التي يمكن أن تجد الإجابات من خلال توفير المادة الوثائقية اللازمة لدراسة مرحلة العهد العثماني في مدينة تلمسان، هذه المادة العلمية التي لا تزال طي الكتمان، وبحاجة إلى التنقيب والبحث عنها لمعرفة المزيد عن التاريخ الثقافي ولما لا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

١- إلحاق تلمسان بالحكم العثماني في الجزائر

شهدت عاصمة الزيانيين عدة اضطرابات سياسية مع مطلع القرن (١٠هـ/١٦م)، فازداد التنافس بين أفراد البيت الحاكم، كما شهدت السواحل هجمات الإسبان الذين ضيقوا الخناق على المهاجرين الأندلسيين الفارين من غرناطة منذ سقوطها سنة ١٤٩٢م، وطاردوهم حتى في بلاد المغرب.[1] وفي خضم هذه الأحداث ظهر نشاط اثنين من البحارة العثمانيين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، هما خير الدين بربروس وأخوه عروج مع مجموعة من مجاهدي البحر، حيث استنجد بهم سكان

المدن الساحلية الجزائرية للتخلص من الخطر الاسباني فلبوا النداء دون تردد.[٢]

ولما تم تحرير مدينة تنس في جوان ١٥١٧م، على رأس جيش مكون من ألف جندي عثماني ووحدات من المهاجرين الأندلسيين، ضد حوالي (٥٠٠) جندي أسباني، ثم مدينة دلس، حاول عروج تحرير مدينة تلمسان التي كانت تسودها الفوضى تحت حكم عميل الإسبان أبي حمو الثالث الذي استولى على العرش بعد إطاحته بأبي زيان، وتوجه نحو المدينة سالكًا طريقًا داخليًا والتقى مع الجيش الزياني المكون من ٦٠٠٠ فارس، و٣٠٠٠ من المشاة وهزم الملك أبو حمو الثالث ودخل عروج تلمسان وعين أبا زيان ملكًا عليها.[٣]

لكن هذا الملك رفض لاحقًا اتباع سياسة عروج فقرر هذا الأخير التخلص منه، ثم قام حاكم وهران الاسباني بمساعدة أبي حمو الثالث للعودة إلى تلمسان فحاصرها، والتجأ عروج وجيشه إلى قلعة المشور، ثم توجه ناحية الغرب لكن جيش أبي حمو ألحق به الهزيمة في موقعة المويلح قرب مغنية واستشهد عروج عن عمر (٥٠) سنة وذلك في مايو ١٥١٨.[٤] واستمر الوضع في تقلب في تلمسان، وتولى الحكم أبو حمو محمد عبد الله الثاني سنة ١٥١٨ وحاول الوقوف محايدًا بين الإسبان والعثمانيين لكنه لم يفلح.[٥]

وبقيت المدينة في تجاذب بين هؤلاء وأولئك في ظروف ميزتها محاولة السعديين الاستيلاء عليها، حيث جهز الشريف محمد المهدي مؤسس الدولة السعدية في المغرب الأقصى حملة بقيادة ابنه محمد الحران لفتح تلمسان والمغرب الأوسط سنة ١٥٥٠م، وحاصرها لمدة تسعة أشهر ودخلها وأجلى عنها العثمانيين وامتد حكمه حتى وادي شلف، ثم جهز حسن بن خير الدين جيشا لقتالهم وتمكن الجزائريون من إرجاعهم وراء حدودهم في المغرب الأقصى.[٦] ثم دخل الجيش العثماني تلمسان ونصب عليها الأمير الحسن بن عبد الله الثاني، وقرر الأتراك هذه المرة السيطرة الفعلية على المدينة وجعل سلطة الملك رمزية تحت رقابة حامية تركية مكونة من ١٥٠٠ جندي، لكن طائفة الحضر لم ترض بهذا الملك فقاموا بخلعه سنة ١٥٥٤م، وأعلن صالح رايس نهاية دولة بني زيان وانضمام تلمسان نهائيًا إلى إيالة الجزائر.[٧] وشهدت المدينة خلال حكم العثمانيين عدة أحداث لعل أبرزها ثورة الكراغلة سنة ١٧٣٨هـ وثورة درقاوة مطالع القرن التاسع عشر الميلادي.[٨]

٢-الزخم الحضاري لمدينة تلمسان

كانت تلمسان على مر عصورها الإسلامية منارة علمية ومركز إشعاع ثقافي في العالم الإسلامي عمومًا وفي بلاد المغرب على وجه الخصوص، وقد برز دورها الثقافي خاصةً في عهد الأدارسة والسليمانيين ثم المرابطين والموحدين إلى أن جاء عهد بني زيان وبني مرين حيث شهدت إنشاء الكثير من المؤسسات الثقافية والعلمية كالمساجد والمدارس والمكتبات. هذا وكانت تلمسان تقع على الطريق الرابط بين فاس وتونس من جهة وبين البحر وحواضر الصحراء من جهة أخرى ما جعلها ملتقى لكل الثقافات المشرقية والمغربية. ولو أن دورها هذا قد خفت في العهد العثماني نظرًا لتنقل عاصمة الحكم إلى مدينة الجزائر، إلا أنها احتفظت بكونها دار لكبار بيوتات العلم في البلاد الجزائرية.

٣-الملامح العامة للحياة الثقافية في تلمسان

يكاد يجمع المؤرخون المختصون في تاريخ الجزائر العثمانية على أن هذه الفترة كانت فترة ركود علمي، حيث فقدت كبرى الحواضر ومنها تلمسان مركزها وإشعاعها الثقافي التي كانت تتمتع به العصور السابقة خاصة الفترة الزيانية، لكن الملاحظ؛ أن المدينة بقيت محافظة على نصيب من مكانتها العلمية نظرًا لاستمرار مؤسساتها الثقافية في تأدية وظائفها وبروز مجموعة من العلماء، إضافة إلى الأندلسيين الذين كان لهم دور كبير في بعث الحركة الثقافية في مدينة تلمسان ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي، حيث هاجر مجموعة كبيرة من العلماء والأسر العلمية بتراثهم وعلومهم فضلاً عن تنشيطهم للحياة الاقتصادية والاجتماعية وإدخال نظم جديدة.[٩] ولا ينبغي أن نهمل دور بعض الحكام العثمانيين أمثال الباي محمد الكبير في الجانب العلمي والثقافي، حيث كانت له علاقة حسنة مع رجال العلم والثقافة، وأدخل مجموعة كبيرة من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكان له عناية كبيرة بالمؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس والزوايا.[١٠]

٤-المؤسسات الثقافية والتعليمية

إن ما ميز الحياة الثقافية في مدينة تلمسان هو الدور الكبير لمؤسساتها الثقافية والتعليمية، وكانت هذه المؤسسات تجمع بين الدور الديني والتربوي التعليمي، ولعل في مقدمتها المساجد التي بلغ عددها حوالي (٥٠) مسجدًا، كانت في معظمها صغيرة وكانت تعقد بها حلقات الدروس في العلوم الدينية، أما تحفيظ القرآن فكان يتم في الكتاتيب الملحقة بالمساجد، وأشهر مساجد المدينة قد تأسست في العهود الإسلامية الأولى وهي: مسجد أغادير[١١]، المسجد الكبير[١٢]، مسجد أبي الحسن التنسي،[١٣] مسجد أولاد الإمام[١٤]، مسجد إبراهيم المصمودي[١٥]، مسجد أبي مدين بالعباد[١٦]، مسجد سيدي الحلوي[١٧]. وكانت هذه المساجد تقوم بدورها الديني والثقافي والاجتماعي، كما وجدت مساجد أخرى بالأحياء وعادة ما كانت تلحق بها الكتاتيب[١٨] التي كانت مخصصة لتعليم الصبيان بعض المبادئ في الكتابة والقراءة وخاصةً تحفيظ القرآن، وكانت عبارة عن غرف بسيطة أثاثها مكون من حصير، وكانت أدوات الكتابة عبارة عن لوح خشبي مصقول ودواة وقلم من القصب وإناء للمحو.[١٩]

وكان إنشاء هذه المؤسسات خاصًا في الغالب أو كانت تبنى من قبل مجموعة من أولياء الصبيان، وخلال القرن (٨-٩ هـ/ ١٤-١٥م) ازدهرت الكتاتيب من حيث التنظيم والمواد المدرسة، وكان يشرف عليها مؤدبون ومقرئون.[٢٠] وقد استفادت مساجد المدينة من إصلاحات الباي محمد بن عثمان الكبير باي وهران وعنايته. أما المدارس، فكان في تلمسان زهاء خمس مدارس عُليا، إضافة إلى مدارس أخرى أقل شأنًا، وأشاد الحسن الوزان على الخصوص بعناية أهل تلمسان بتشييد المدارس والإنفاق عليها، رغم أنه قد حكم على أن فئة العلماء كانت من أفقر فئات المجتمع الأربع،[٢١] والمعروف أن زيارة الوزان تلمسان كانت عشية استقرار العثمانيين في الجزائر، ورغم قول بعضهم بأن تلك المدارس قد اندثرت من تلمسان فإن الفرنسيين قد وجدوا فيها بعد احتلالها خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي وهما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة ابني الإمام، والمعروف أن الباي محمد الكبير هو الذي أعاد لمدرستي تلمسان أوقافها وجددها[٢٢]. ومن هذه المدارس: مدرسة إبني الإمام[٢٣]، المدرسة التاشفينية[٢٤]، مدرسة أبي مدين شعيب الغوث بالعباد[٢٥]، المدرسة اليعقوبية.[٢٦]

واللافت للنظر هو وجود مدارس خاصة بالجالية اليهودية المقيمة في المدينة، حيث شكلت تلمسان أكبر منطقة لتجمع اليهود في الحواضر الجزائرية في العهد العثماني إضافة إلى الجزائر العاصمة، حتى أن أملاكهم في القيصرية بلغت (١٥٠٠) محل تجاري، وكان لهم (١٧) معبدًا، وابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي أصبح يهود الجزائر يتتلمذون على أيدي أساتذتهم من تلمسان.[٢٧] وكانت لهم مدارس خاصة بهم، وكان التعليم فيها ينقسم إلى مرحلتين في المرحلة الأولى القراءة والمرحلة الثانية الكتابة والحساب، وكانوا يكتبون التوراة وتاريخهم باللغة العبرية التي كانت منتشرة بينهم، كما أن الأسر اليهودية كانت ترسل أبناءها إلى الدول الأوربية لتعلم بقية العلوم.[٢٨]

وشكلت الزوايا إحدى المؤسسات الثقافية والاجتماعية والدينية الهامة[٢٩]، وكانت تابعة للطرق الصوفية وكان عددها في الغرب الجزائري أكثر انتشارًا من المناطق الأخرى وذلك يرجع إلى استمرار الجهاد في الغرب إضافة إلى القرب من المغرب الأقصى مهد الزوايا والمرابطين. لقد شكلت الزوايا مقر قيادة وتربية وتعليم كتدريس علوم الدين والفقه ومبادئ القراءة والكتابة إضافةً إلى كونها مقر نزول أبناء السبيل حيث نجد المأوى والمأكل، كما لعبت في المجال الاجتماعي دورًا هامًا في التوسط لقضايا قضائية بين السكان. ولعبت دورًا هامًا على المستوى الأرياف في ظل غياب المدارس.[٣٠] وكان يشرف على الزاوية شيخ، وهو الذي كان يتولى التعليم بها أو الإشراف على أساتذتها وكان يساعده في إدارتها وكيل وعدد من المتطوعين. أما مواردها المالية فكانت من مداخل وغلات الأوقاف التي كانت تتبعها، إضافة إلى الزكاة والهدايا والتبرعات.[٣١]

لقد وضعت الزوايا الكثيرة نظامًا ولوائح لطلابها نذكر منها أنه كان لها سجل يقيد فيه أسماء طلاب الزاوية، وأن الخدمة اليومية داخل الزوايا يقوم بها الطلاب بالتناوب، كما يتولى ناظر من ذرية مؤسس الزاوية الأحباس الموقوفة عليها، وكان المأوى في الزاوية وقف على الطلاب العزب، وكان لزامًا على الطلبة احترام المقدم والوكيل، وأن مَنْ يهمل واجباته أو يخل بالنظام المعمول به يعاقب، كما كانت الزاوية تُعَدّ وجبتين من الطعام في الغذاء والعشاء. وكانت تحرص على ضرورة المحافظة على مواعيد الدروس وحضور الاجتماع الأسبوعي، كما تكفلت بتحديد العقوبات لكل نوع من أنواع الحوادث والمخالفات، وكان طلبتها يقومون برعي ماشية الزاوية وخدمة الأرض الموقوفة عليها، إضافة إلى قيامهم بجمع الأموال للزاوية من القبائل.[٣٢]

ويمكن القول؛ بأن النظام الداخلي للزوايا لم يكن الهدف منه التنظيم فحسب، وإنما كان أيضًا للتربية، وتهذيب الأخلاق وغرس الفضائل، وتدريب التلاميذ على الحياة العملية.[٣٣] وأشتهرت تلمسان بالزوايا التالية: الزاوية اليعقوبية، وزاوية سيدي أبي مدين بالعباد التي كانت تهتم بالتعليم واستقبال الطلبة الوافدين وكان لها عدة أوقاف مغلة من البساتين والضياع، وزاوية سيدي الحلوي، وزاوية سيدي السنوسي[٣٤]. إضافة إلى زاوية عين الحوت شمال تلمسان واشتهرت بكونها مهد السليمانيين أبناء عمومة الأدارسة وهم من الأشراف العلويين،[٣٥] واشتهرت بزاويتها التي نشأت خلال القرن (٤هـ/١٠م)، واهتمام بايات الغرب بها وبأوليائها.[٣٦] ووجود هذه الزوايا دليل على وجود نشاط صوفي ملحوظ خلال العهد العثماني، حيث قام العثمانيون بتشجيع التصوف وعملوا على التقرب من رجال الزوايا رغبة منهم في دعم سلطاتهم.[٣٧]

وقد وقع في بداية دخول العثمانيين إلى تلمسان أن عارض رجال التصوف هذا التدخل في حين وقف بعضهم مؤيدًا له، ومن أشهر المعارضين الشيخ أحمد بن ملوكة التلمساني الذي ورد ذكره في كتاب دوحة الناشر لابن عسكر "أن عروج عندما ارتكب مجموعة من الفظائع لما دخل المدينة ثم خرج إلى جبال بني سناسن، فخاف أهل تلمسان من عودته واشتكوا لابن ملوكة ما وقع بهم فانقبض الشيخ وغضب وضرب الأرض بيده ودعا على عروج قائلاً: "اللهم لا تعده إلى تلمسان إن اتكالنا عليك"، وأن الله قد استجاب الدعاء ومات عروج مقتولاً".[٣٨] كما اشتهر الشيخ للو التلمساني الذي يقال أنه سخط على حاكم تلمسان حفيظ التركي وخرج من تلمسان.[٣٩] وكان هناك مجموعة من المرابطين في المدينة قد وقفوا موقف وسط من الحكم التركي، أي أنهم لم يعارضوهم لكن كانوا يتدخلون عندهم ويعظونهم، ومنهم الشيخ سيدي العبدلي الذي كان رجلاً صالحًا وكان يتوسط لسكان تلمسان

إذا اشتكوا من تعسف الأتراك، وكان يذهب إلى القائد محمد بن سوري التركي في مقره ويعظه ويطلب منه إصلاح شؤون سكان تلمسان.[٤٠]

وكان التصوف مرتبطًا بالزوايا التي أدت الدور الاجتماعي والتعليمي، وكانت هذه الزوايا تابعة لمجموعة من الطرق لعل أبرزها القادرية والدرقاوية.[٤١] وضمت مدينة تلمسان بالإضافة إلى المساجد والمدارس والزوايا عددًا هامًا من المكتبات وذلك لتسهيل عملية التعليم، وكانت المكتبة تقع عادة بالمسجد أو المدرسة وقدرت بحوالي (٢٠) مكتبة[٤٢]، وزاد رصيدها من الكتب بعدما حل الأندلسيون بالمدينة ناقلين معهم كتبهم.[٤٣] لقد كانت معظم المؤسسات الثقافية مستقلة عن السلطة المركزية، وكانت عملية تمويلها وتسيير وظائفها تتم عن طريق الأوقاف الدينية، وكانت هذه الأحباس عبارة عن بنايات وأراضي وبساتين ومحلات حرفية وتجارية إضافة إلى المخابز والحمامات، وكان يديرها وكلاء معينون من طرف الداي والباي، ولم تكن لهم مرتبات محددة بل كانوا يتقاضون مبالغ رمزية. كما كانوا يأخذون من المداخيل التي يشرفون عليها المبالغ اللازمة لمصاريفهم. وكانت مداخيل المؤسسات الوقفية توظف في دفع رواتب الأئمة وقراء الأحزاب والمؤذن وشراء الزرابي والفراش وثمن الترميمات وشراء الزيت للمصابيح. وكان القاضي يشرف على إدارة ومراقبة هذه المصاريف بمساعدة كاتب وعشرة أشخاص من سكان المدينة.[٤٤]

٥- التعليم

يُعدّ التعليم من العوامل المؤثرة في نمو الحياة الثقافية والحركة العلمية، وفي الوقت نفسه مظهرًا من مظاهر الازدهار الثقافي والعلمي، وكان يتم في المؤسسات التعليمية التي أنشئت في تلمسان، في الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا، وكان يمر عبر مراحل يتم فيها تحصيل مختلف المبادئ الأساسية للعلوم والمعارف ثم التعمق في المسائل الفرعية[٤٥]، ويمكن تقسيمها إلى:

الطور الابتدائي: حيث كان يلتحق فيه الأطفال بالكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة ومبادئ اللغة وحفظ القرآن، وكانت الأدوات الأساسية المستخدمة في هذه المرحلة تتمثل في الألواح الخشبية والأقلام القصبية والصلصال. وكان يقوم بعملية التدريس المؤدبون والطلبة والأئمة. وكان التعليم يتم مرتين في اليوم، الأولى في الصباح والثانية بعد الظهر، وكان عدد التلاميذ في حجرة الدرس حوالي (١٥) تلميذًا. وكان التلاميذ يدفعون للمدرسين نصيبًا من المال إضافة إلى بعض الهبات والهدايا التي كانت تمنح في المناسبات من طرف أولياء التلاميذ.

أما في **الطور الثاني**: فكان التلاميذ يتعلمون اللغة وفروعها كالنحو والصرف إضافة إلى علوم أخرى. في حين خصص الطور الثالث لتعليم العلوم الدينية المتمثلة في علم العقيدة وعلوم القرآن والفقه والحديث النبوي الشريف.[٤٦] وما يمكن قوله عن التعليم خلال هذه المرحلة هو غلبة الطابع الديني عليه، أما العلوم الأخرى كالطب والرياضيات والكيمياء فكانت أقل شأنا لكنها كانت موجودة لحاجة المجتمع إليها.[٤٧]

٦- من أعلام الفكر والثقافة في تلمسان خلال العهد العثماني

لم تخلو تلمسان من العلماء وأعلام الثقافة والتصوف في العهد العثماني، رغم التدهور الذي شمل المدينة، حيث انقلب بها الوضع من عاصمة لمملكة ومقر للملك والسلطان والحرف والصنائع والعلوم، إلى مجرد مدينة من مدن بايليك الغرب تسيطر عليها الحامية العثمانية. وقد حافظت الأسر العلمية على مكانتها وإنتاجها العلمي، وبرز مجموعة من العلماء ذاع صيتهم في المغرب والمشرق، والظاهر أن جلهم قد ولد ونشأ في تلمسان ثم انتقل منها إلى مدينة فاس التي كانت بمثابة العاصمة العلمية الجديدة للمغرب عامةً، وحافظت على تألقها الثقافي خاصةً خلال عهد السعديين، ومن أبرزهم نذكر:

١/٦- أبو العباس أحمد بن محمد العقباني: (أواخر ق١٠ هـ/ ق١٦م):[٤٨]

من بيت علم وفقه اشتهر بتولي أفراد أسرتهم القضاء لمدة تزيد على الثلاثة قرون من الزمن، وهو من فقهاء المالكية، كان مهتمًا بعدة علوم من علوم عصره، ولد في تلمسان وبها تعلم ونشأ ثم انتقل إلى فاس، حيث جلس للتدريس بجامع القرويين. قال عنه صاحب دوحة الناشر: "توفي بفاس في آخر العشرة الثامنة، وسلسلة سلفه سلسلة العلم والفضل".

٢/٦- محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني (٩٠٨- ٩٨١هـ/ ١٥٠٢ - ١٥٧٣م):[٤٩]

من أكابر علماء عصره، مفتي تلمسان وفاس، ولد وتعلم ونشأ في تلمسان ثم رحل إلى فاس سنة (٩٥٨هـ) فنال مكانة مرموقة عند السعديين وولوه خطط الإمامة، والخطابة والتدريس بجامع القرويين، وقدم إلى سوس صحبة السلطان عبد الله الغالب السعدي سنة (٩٨٠هـ)، فأقام بها معه سنة قدم خلالها للقراء بالجامع الكبير في تارودنت معارف غزيرة مستندة إلى دلائل متينة، فأخذ عنه الكثير من طلبتها. كما طالت أيام رياسته العلمية في فاس وانتقع به الكثير من الناس.[٥٠]

٣/٦- محمد بن شقرون التلمساني: (٩٠٨- ٩٨٣هـ/ ١٥٠٣-١٥٧٥م):[٥١]

عُرِفَ في المغرب "بمالك الصغير" وهو دلالة على مكانته بين معاصريه، وإلى جانب علوم الفقه، اهتم بعلوم أخرى كانت سائدة في عصره مثل المنطق، والفرائض والبيان وغيرها، ولد ونشأ وتعلم في تلمسان، وولي الإفتاء بها ومنها رحل إلى فاس سنة (٩٦٧هـ) فنال مكانة مرموقة عند الغالب بالله السعدي، فنصب له كرسيًا للتدريس داخل قصره "وقلده الفتوى ورئاسة العلم بمراكش

وسائر أقطار المغرب"، ولم يقتصر نشاطه العلمي على القصر الملكي بل تعداه ليشمل كثيرًا من العلماء وطلبة العلم في المغرب إلى غاية وفاته بفاس.

٤/٦- أبو العباس أحمد بن يعقوب العبادي تلمسان: (ت. ٩٨٠هـ/١٥٧٢م):(٥٢)

من أكابر علماء عصره، ولد ونشأ وتعلم في تلمسان، ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى واستقر في فاس سنة (٩٦٨هـ) مع جماعة من علماء تلمسان بسبب فتنة وقعت بينهم وبين العثمانيين، فحضي بمكانة مرموقة لدى حكام المغرب، فتصدر للتدريس في فاس مدة من الزمن، ثم رجع إلى تلمسان وكان بها وفاته.(٥٣)

٥/٦- أبو العباس أحمد بن يحي المقري (٩٨٦هـ-١٠٤١هـ/١٥٧٨-١٦٣١م):(٥٤)

مؤرخ وأديب عصره، محدث ومفسر ومتكلم، اشتهر في المغرب والمشرق. ولد في تلمسان وبها نشأ وتعلم ومنها انتقل إلى فاس سنة (١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) بحيث حضر مجلس علي بن عمران السملالي في جامع القرويين وناقشه في بعض مسائل الفقه الإسلامي، فاعترف له السملالي بالتفوق عليه وأقر له بقوه الحجة والبرهان والنباهة، ثم انتقل إلى مراكش في السنة نفسها، فعلم السلطان المنصور السعدي بمقدمة، فاستدعاه وقربه إليه وأكرمه، وربطت بينه وبين علماء المدينة علاقات علمية وودية، يذكرها هو نفسه في مؤلفاته. وفي منتصف سنة (١٠١٠هـ/١٦٠١م) عاد إلى فاس ثم غادرها بعد بضعة أشهر إلى مسقط رأسه تلمسان. وفي أوائل سنة (١٠١٣هـ/١٦٠٤م) عاد إلى فاس ثانية، فأسندت إليه سنة ١٠٢٢هـ خطة الفتوى والخطابة والإمامة في جامع القرويين، وبقي بها نحو خمسة سنوات، أي حتى سنة ١٠٢٧هـ التي قد تكون من أزهى سنوات أحمد المقري عطاءً وخدمة للعلم وأهله، أما الشق الثاني من حياته (١٦١٨-١٦٣١م) فهو خاص بالمشرق.

٦/٦- أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني كان حيا سنة ١٦٠٥هـ:(٥٥)

لم تفدنا المصادر بالكثير عن حياته لكنه يذكر في البستان(٥٦) قائلاً : "كان والدي معلمًا للصبيان ... وتخرج عليه أولاد كثيرون يحفظون كتاب الله العزيز ومن عادته (رضي الله عنه) ختم القرآن في كل يوم"، ودرس بالجامع الأعظم عند أبي السادات(٥٧) وقد تولى التدريس وإقراء القران الكريم بوصية من والده، وقد تخرج على يده الكثير ممن يحفظون القرآن وصار بعضهم علماء يدرسون العلم ومن آثاره: تحفة الأبرار وعار الأخبار في الوظائف والأذكار المستحبة في الليل والنهار، فتح الجليل في أدوية العليل لعبد الرحمن السنوسي، كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد، تعليق مختصر على الرسالة في ضبطها وتفسير بعض ألفاظها. لكن هذه الكتب فُقِدت، وكتابه المتبقي هو البستان في ذكر أولياء والعلماء بتلمسان الذي قام بنشره المحقق العلامة الدكتور محمد بن شنب وتضمن (١٨٢) ترجمة لعلماء وأولياء المدينة، واتبع فيه الترتيب الهجائي معتمدًا على مجموعة من المصادر ذكرها في نهاية كتابه.(٥٨)

٧/٦-محمد بن عبد الكريم المجاوي: (١٢٠٨- ١٢٦٧هـ):(٥٩)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن المجاوي الحسني ولد في تلمسان، وحفظ القران الكريم على والده كما تلقى على يده علوم اللغة العربية ثم التحق بفاس وأخذ عن علماء القرويين أمثال الشيخ حمدون بن الحاج السلمي، والحافظ الحجة الحاج الطيب ابن كيران وغيرهم، ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث أسندت إليه وظيفة القضاء إلى مارسها بنزاهة و كفاءة لمدة ربع قرن، وكان خلالها يتولى التدريس، ثم عاد إلى فاس تارة أخرى ليشتغل بالتدريس بجامع القيروان مدة، ثم انتقل إلى طنجة وتولى قضائها القضاء وظل فيه إلى أن وفاة أجله في ٢٣ رجب ١٢٦٧ هـ. تخرج على يده علماء كانت لهم كلمتهم في الثقافة والفكر من أمثال: الشيخ صالح الشاوي، محمد بن عبد الواحد بن سودة، والشيخ محمد العلوي قاضي فاس، والعلامة أحمد بن حسون قاضي وزان. وله مجموعة من الخطب الدينية والشعرية.(٦٠)

٨/٦-سعيد بن عبد الله المنداسي: (ت. ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م)

هو أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي أصلاً التلمساني منشأ ودارًا، قرأ في تلمسان على علماء عصره، ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى، فأقام في فاس وزار مراكش واتصل بالسلطان مولاي إسماعيل العلوي ومدحه وبالغ في مدحه فأكرمه السلطان، ثم عاد إلى تلمسان وتوفي بها وقيل في سجلماسة وهو الأصح سنة (١٠٨٨هـ/١٦٧٧م). وكان المنداسي ينظم الشعر المعرب والملحون معًا، وشعره الملحون قريب من الفصيح، واشتهر بقصيدته المعروفة بالعقيقة في مدح النبي (ﷺ) التي قام بشرحها الشيخ أبو راس الناصري بسبعة شروح أشهرها "الدرة الأنيقة في شرح العقيقة".(٦١)

٩/٦-محمد بن محمد عبد الرحمن التلمساني (ت. ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م)

نشأ في تلمسان وقرأ على علمائها، واعتنى بعلم التاريخ، ومن تآليفه "الزهرة النائرة فيما أجرى في الجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة"، وصف فيها حملة الإفرنج على الجزائر في عهد خير الدين، وطبع هذا التأليف في الجزائر سنة ١٨٤١م.(٦٢)

١٠/٦- القطب التلمساني:

لا نعلم شيئًا عن حياته سوى ما ذكره عنه الشيخ محمد الحسين الأندلسي البليدي أصلاً المصري المنشأ الذي هو من رجال القرن الثاني عشر الهجري في كتابه "المقولات العشر"، والظاهر أنه كان معاصرًا للبليدي أو أقدم منه حيث أن هذا الأخير ينقل عنه.(٦٣)

١١/٦- أحمد بن محمد بن هطال التلمساني:

هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد الشهير بابن هطال التلمساني، تولى وظيفة كاتب ومستشار ومبعوث في المهمات الخارجية لمحمد الكبير باي الإيالة الوهرانية، ولابنه عثمان بعد وفاة محمد الكبير، واستشهد في معركة وقعت بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوي سنة (١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م) في فرطاسة الواقعة بين واد مينا وواد العبيد، وخلف رسالة تاريخية عنوانها "رحلة محمد الكبير" طبعت في القاهرة سنة ١٩٦٩م.

خَاتِمَةٌ

إن الحديث عن التاريخ الثقافي لمدينة تلمسان خلال العهد العثماني هو ضرب من المجازفة العلمية، خاصةً في ظل شح المصادر التي تتعرض لهذا الجانب، ورغم العمق التاريخي والحضاري للمدينة التي تُعَدّ من مراكز العلم والثقافي في الجزائر خاصةً وبلاد المغرب عامةً، وكونها عاصمة لإقليم المغرب الأوسط ولمجموعة من الإمارات ودارًا لمملكة زناتة وعاصمة لبني زيان طيلة الفترة الممتدة بين القرنين (٧هـ-١٣م/ ١٠هـ-١٦م)، إلا أنها فقدت إشعاعها الفكري والثقافي في نهاية العهد الزياني، وظهور العثمانيين على السواحل الجزائرية، وضمهم للبلاد الجزائرية تحت حكمهم واتخاذهم من مدينة الجزائر الساحلية عاصمة لهم، ما تسبب في جعل مدينة تلمسان مجرد مدينة تقع على هامش إيالة الجزائر في الحدود الغربية تحت مراقبة حامية من الأتراك العثمانيين. هذا الوضع قد تسبب في ظهور الخلافات السياسية بين أعيان المدينة وبين الحاميات العثمانية مرارًا وتكرارًا، وقد حاول العلماء غير مرة التدخل لدى السلطة العثمانية المحلية من أجل فض الخلافات والنزاعات التي كانت تحدث بين الحين والآخر.

لقد كانت تلمسان خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخها مقصدًا للجاليات الأندلسية الوافدة فرارًا من اضطهاد محاكم التفتيش، وقد ساهم الأندلسيون في إثراء الحياة الثقافية للمدينة من خلال ما أدخلوه من مراد علمية جديدة ومصطلحات لغوية وتراث فني وموسيقي غني، إضافةً إلى تخصصهم في الهندسة والبناء وصناعة النسيج والعطور وغيرها من المهن التي تدخل في حيز الثقافة. أما عن النشاط العلمي، فقد حافظت المدينة على بعض مؤسساتها العلمية كالمساجد والمدارس والزوايا التي كانت نشيطة منذ العصر الوسيط، وبرز مجموعة من العلماء في العلوم الدينية والتاريخ والتصوف، لكن الملاحظ من خلال تراجمهم بأن أغلبهم قد فضل الرحلة باتجاه مدينة فاس في المغرب الأقصى، ويمكن القول بأن الإشعاع الثقافي لمدينة تلمسان قد انتقل إلى فاس خلال هذه المرحلة التاريخية بشكل ملفت، والسبب وراء ذلك الخلافات التي كانت تنشب بين العلماء والأعيان التلمسانيين والحامية العثمانية، وتضييق الخناق عليهم، ورغم ظلك تواصل العطاء العلمي والتدريس والتأليف وإن كان بشكل أقل مما كانت عليه المدينة في العصور السابقة.

الهَوامِشُ:

(١) صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٢٦.

(٢) محمد عمرو الطمار، **تلمسان عبر العصور**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٢٢٨.

(٣) عثمان سعدي، **الجزائر في التاريخ**، دار الأمة، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٣٧٤.

(٤) صالح عباد، المرجع السابق، ص٤٨.

(٥) الطمار، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

(٧) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص ٣٨٨.

(٨) بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، ج١، تح: يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٣٠٢.

(٩) أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري في العهد العثماني**، ص ٤٦١.

(١٠) بلبروات بن عتو، "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير بمدينة معسكر"، **حولية المؤرخ**، ع ٤/٣، ٢٠٠٥، ص ١٩٧.

(١١) التنسي، **تاريخ بن زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تح: محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٢٥.

(١٢) *Rachid Bourouiba, **l'art religieux Musulman en Algérie**, Sned, Alger, 1973, p .p. 71-72.*

(١٣) رشيد بورويبة، **الحياة الثقافية في العهد الزياني والمريني**، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي، ج٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٤٩٦.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٤٩٧.

(١٥) هو ابراهيم بن موسى المصمودي، أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة، أخذ علومه على الابلي وغيره ثم نزل تلمسان ولازم أبا عبد الله الشريف بالمدرسة اليعقوبية، وبعد وفاته أخذ عن سعيد العقباني بالمدرسة التاشفية، ثم انقطع للعبادة وللتدريس، ولما توفي دفن بضريح الأمراء الزيانين بجانب المدرسة اليعقوبية، أنظر: ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تح: محمد بن شنب، نشر عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٦، ص ٦٤-٦٦.

(١٦) **العباد**: قرية صغيرة قرب تلمسان وهي مدفن القطب أبي مدين. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج٢، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٤.

(١٧) هو أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان تولى قضاء اشبيلية في أواخر عهد الدولة الموحدية تم فر من القضاء وآوى إلى تلمسان في زي المجانين. انظر: يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج١، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٦٢، ص ١٢٧-١٢٨.

(١٨) هي جمع كتاب وهو مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة. حسن عزوزي، "التأليف في القراءات في المغرب والاندلس"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع ٣، ١٩٩٣، ص ٢٤١.

(١٩) لخضر عبدلي، **الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان**، أطروحة دكتوراه دولة، قسم لتاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠٠٥، ص ١٦٠.

(٢٠) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج١، ص ٢٦١.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٣٤.
(٢٢) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص٢٧٤-٢٧٥.
(٢٣) التنسي، **تاريخ بني زيان**، ص ١٣٩.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٤١.
(٢٥) بالأعرج عبد الرحمن، **العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك**، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ جامعة تلمسان، ٢٠٠٨، ص ٣٤.
(٢٦) التنسي، المصدر السابق، ص١٧٩-١٨٠.
(٢٧) الواليش فتيحة، **الحياة الحضرية في بايليك الغرب الجزائري خلال القرن ١٨م**، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ جامعة الجزائر، ١٩٩٤، ص ١٥٩.
(٢٨) شويتام، المرجع السابق، ص٤٨٤.
(٢٩) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص١٧١.
(٣٠) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص١٧١.
(٣١) مختار فيلالي الطاهر، **نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني**، دار الفن القرافيكي، باتنة (د.ت) ص٢٧٢٨.
(٣٢) المرجع نفسه، ص٩٨-٩٩.
(٣٣) الشريف كمال دحومان الحسني، **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع**، دار الخلدونية، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٩٨-٩٩.
(٣٤) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج١، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠٠١، ص ١٤٩.
(٣٥) عبد الرحيم بن منصور، **عين الحوت مهد بني سليمان أول ملوك تلمسان**، دار ابن خلدون للنشر، تلمسان، ٢٠١١، ص ١٠ وما يليها.
(٣٦) المرجع نفسه، ص ٧٨.
(٣٧) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج١، ص ٤٦٦.
(٣٨) المرجع نفسه، ص ٢٣٢.
(٣٩) المرجع نفسه، ص ٤٦٨.
(٤٠) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٤١) فيلالي مختار، المرجع السابق، ص٣٥-٥٣ صلاح مؤيد العقبي، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها**، دار البراق، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٣٠.
(٤٢) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٤٣) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج١، ص ٢٨٦.
(٤٤) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص ١٧٣.
(٤٥) عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص ٣٨.
(٤٦) أبو القاسم سعد الله، المرع السابق، هج١، ٢٧٣.
(٤٧) أبو القاسم سعد الله، ج٢، ص ٤٢٩.
(٤٨) محمد بن عسكر، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، ط٣، تح: محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٣، ص١١١.
(٤٩) ابن القاضي المكناسي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار النصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٠٦.
(٥٠) عادل نهويض، **معجم أعلام الجزائر**، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ١٩٧١، ص٧٨-٧٧.
(٥١) ابن القاضي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٥.
(٥٢) أبو القاسم محمد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت)، ص٤٩١. ابن مريم، المصدر سابق، ص٢٦١.
(٥٣) عادل نويهض، المرجع السابق، ص ٦٥.
(٥٤) الحفناوي، المرجع السابق، ج١، ص ٤٤.
(٥٥) ابن مريم، **البستان**، مقدمة التحقيق.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
(٥٧) نفسه، ٢٦٩.
(٥٨) محمد مرتاض، **من أعلام تلمسان مقارنة تاريخية فنية**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٤، ص٣٠٧.
(٥٩) الحفناوي، المرجع السابق، ص ٤٦٣-٤٥٦.
(٦٠) محمد مرتاض، المرجع السابق، ص ٣١٦-٣١٧.
(٦١) الحفناوي، المصدر السابق.
(٦٢) محمد مرتاض، المرجع السابق، ص ٥٢٦.
(٦٣) المرجع نفسه، ص٥٢٧-٥٢٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الأمير عبد القادر ومشروع الدولة الوطنية
قراءة حضارية



عبد الرحمان كريب
أستاذ مساعد في قسم التاريخ وعلم الآثار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

في إعادة بنائه للدولة الوطنية الجزائرية يستلهم الأمير عبد القادر الجزائري معالم تجربة الدولة الإسلامية الأولى في أسسها ومبادئها. ورغم التباين في الظروف والإكراهات المحلية والإقليمية، فإن الرؤية الحضارية لآليات البناء والمنهج تتيح لنا النظر إلى المشروع الأميري من زاوية أشمل وأعمق ترقى به إلى مصاف الحركات التغييرية على خط الدولة في طريق النهضة الحضارية الإسلامية. وهو بذلك حاول بكل قواه أن يقحم الشعب الجزائري في دورة جديدة من أدوار الحضارة ويهيئ له شروط الدخول إلى حلبة التاريخ. تتجاوز هذه المقالة الأسلوب السردي لحياة الأمير وشخصيته لتقدم قراءة حضارية -أي من ناحية السنن والقوانين التي تحكم اطراد الحضارات-ورصدًا عميقًا لحركة البناء التي شرع فيها ووضع لها إطارها العام وحدد تقاسيمها ولبناتها وفق تصور شامل وخلفية أيديولوجية إسلامية. وتؤكد أن معاني الدولة الوطنية موجودة بالقوة وبالفعل في حركة الأمير وفكرة، وتشير إلى التهافت المفاهيمي حول الوطنية التي لم تتبلور كمذهب سياسي إلا في أواخر القرن التاسع عشر، ولذلك تجزم أن الدراسة الموضوعية لمقاومة الأمير لا تهتدي إلى نتائج ذات قيمة علمية إلا إذا راعت لغة العصر وروحه. وبعد هذا المدخل المنهجي تنتقل المقالة إلى تحديد موقفه من الخلافة الإسلامية القائمة، ثم تبين مجال عمل الأمير الأساسي وهو الشعب الجزائري الذي كان يعاني من التمزق والتشرذم، والذي يُعَدّ في نظره القوة الوحيدة القادرة التي كان يراهن عليها للوقوف في وجه المد الاستعماري الفرنسي، ولكن لن يتم ذلك إلا بعد أن ينقله من التجزؤ الى الوحدة، وينشىء له دولة ذات مؤسسات وتشريع في مواجهة القبيلة والتقاليد والأعراف، ويسعى لأن يرتقي به إلى المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية للفكرة الدينية - الوطنية ويشكل سكانه نسيجًا اجتماعيًا متماسكًا، وتوحيده حول أهداف وطنية واحدة، وقد جعل من الجهاد والغيرة على الدين والبيعة وقيم العدل والمساواة أعمدة لبناء ما يصبو إليه.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٣	ديسمبر	٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر:	٠٨	أبريل	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
الأمير عبد القادر، الدولة الوطنية، الجهاد، الفكرة الدينية، الدورة الحضارية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041866

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد الرحمان كريب. "الأمير عبد القادر ومشروع الدولة الوطنية: قراءة حضارية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٦٣– ٦٩.

مُقَدِّمَةُ

يعتبر البحث في فكر الأمير عبد القادر حول الدولة ومشكلة الحكم موضوعًا قديمًا متجددًا تناولته الدراسات والأبحاث بالتحليل والبسط، فجاءت في بعض الأحيان مختلفة ومتناقضة، ورغم ذلك فإنها مازالت بعيدة عن الكلمة الأخيرة والقول الفصل حول القضية، بل إن بعضها يحتاج إلى عملية تقويم تعود بفكر الأمير وشخصيته وطبيعة مقاومته إلى إطارها الأصيل، وتحفظ لها بريقها وعبقريتها وانتماءها الحضاري. يُعالج هذ المقال إشكالية بناء الدولة الأميرية من منظور حضاري، وتبحث في الآليات التي وظفها الأمير في اعادة تركيب المجتمع، وبناء كيان الدولة الجزائرية من الخميرة المتوفرة لديه وهي الشعب، الذي ظل مغيبا عن الحكم عدة قرون، وتستحضر القيم والمفاهيم التي تشبع بها خطابه الديني والسياسي، وتجسد ت في سلوكه العملي

ومقاومته، وراهن عليها في خلق الروح الوطنية والتلاحم الشعبي والإحساس المشترك بوحدة المصير عند الجزائريين.

١- المشروع الحضاري للأمير

(أزمة مفاهيمية)

من المسلم به أن العلوم الإنسانية عندنا تعاني معوقات عديدة على مستويات عدة، منها تلك الصعوبة التي تواجهها في تحديد مصطلحاتها عامة، وصياغتها وفق منظورنا الثقافي، فعلى مستوى المفاهيم يواجه الباحث العربي أزمة حادة، ويؤدي تعقد المصطلحات وتشعبها، إلى جدل أدبي يبتعد فيه كثيرا عن منطق العلم والحوار الجاد، مثل النقاش الذي أثير ويثار غالبا حول مصطلحات: الدولة، الأمة، الوطنية، الحضارة، في حين أن هذه المجادلات لا تجلي الموضوع ولا تفك رموزه، بل في الغالب تجعله أكثر صعوبة وتعقيدًا. والسبب أننا لم نؤسس جهازًا مفاهيميًا نابعًا من خصوصيتنا السوسيو- معرفية والحضارية وفي نفس الوقت كان اقتباسنا واستيعابنا للمفاهيم الغربية بعيدا عن الصدق والامانة وبدون نقد علمي.(١)

ولما ترك المجال فارغا للأخر، وأقصد به الفكر الكولونيالي أوصنيعته من المستلبين حضاريًا، وجدنا أطروحات عديدة تروج لفكرة انعدام الدولة في الجزائر(٢) وتقفز على واقع تاريخي لا يمكن تجاوزه، لأن الايديولوجية الاستعمارية، بكل بساطة، ترفض أي شكل من أشكال الأمة لا ينسجم في تنظيرها مع المفهوم الغربي للدولة، وبذلك فهي تمهد للمشروع الصهيوني الصليبي الاستكباري وتزكيه، وتصب في اتجاه تنمية ما يسميه فيلسوف الحضارة المفكر مالك بن نبي بمعامل القابلية للاستعمار(٣) عند الفرد المسلم، وفي هذا الإطار فان الحوارات التي كانت تتم حول دولة الأمير عبد القادر هي جزء من الحرب التي ظلت دائرة بين فرنسا والجزائر في أحقاب مختلفة وبصور وأشكال متنوعة(٤) ووظفت أكبر وسائل الصراع حول الهوية، والتوجهات الحضارية الكبرى للأمة.

إن الوطنية (Nationalisme) بوصفها تعبيرًا عن ارتباط عاطفي عميق بالأمة، لم تظهر في اللغات الأوروبية على سبيل الاستعارة الحرفية من اللغة الفرنسية إلا في أعقاب الثورة الفرنسية، فقد عبرت يومئذ عن مفهوم دولة الأمة في مقابل دولة الملك، ولم تتبلور كمذهب سياسي إلا في أواخر القرن التاسع عشر،(٥) ومن هنا يتضح لنا جليًا ذلك الغبن والتهافت الذي يقع فيه بعض كُتابنا المخلصين في بحثهم عما يدلل، على مستوى الخطاب والكلمات، عن البعد الوطني لمقاومة الأمير والمقاومات الشعبية الأخرى ضد الاستعمار الفرنسي بصفة عامة، رغم أن مقاومة الأمير تبقى تشكل خصوصية نوعية واضحة المعالم لاعتبارات استراتيجية، ولأهدافها الكبرى المبنية على مفاهيم تشكل الأسس الفكرية والسياسية لمشروع الدولة الوطنية(٦) فهذه المعاني موجودة بالقوة وبالفعل في حركة الأمير وفكره.

إن السرد التاريخي للأحداث وتجميع الوقائع رغم أهميته في أية دراسة من هذا النوع وهو ديدن الدراسات التقليدية عندنا، لا يقدم إجابات شافية حول المشروع الحضاري للأمير عبد القادر ولا يشفي غليل الباحث بتصور عميق لأبعاد مقاومته، ومن ثَمَّ لابد من معالجة القضية في اطار علم الاجتماع وعلم النفس معًا، وفلسفة التاريخ أي التفسير العقلي لهذه الوقائع وإيجاد منطق التاريخ في مجرى الأحداث، ورد جزئيات الأحداث الى كلياتها، كما فعل ابن خلدون وغيره، وعليه لا يمكن أن نتصور دولة الأمير إلا في إطار المعطيات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للشعب الجزائري السائدة في تلك الحقبة التاريخية، ومعطيات الظروف السياسية المحلية والإقليمية والعالمية، بجميع اكراهاتها وتحولاتها، في سياق حضاري شامل لأن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته(٧) وأعتقد أن شخصية الأمير الكاريزمية، تسمح لنا بهذه القراءة الحضارية الاستراتيجية، فهو العالم الفقيه والقائد العسكري المحنك، والصوفي الملهم، والمفكر الفيلسوف، والمصلح الاجتماعي والمجدد أيضًا.

٢-بين الخلافة الإسلامية والدولة الوطنية

كانت الولاية الغربية وهران، تمثل مشكلة إدارية وسياسية في غاية التعقيد فالي جانب القبائل الكبيرة والقوية التي كانت تمارس نفوذا في عهد الأتراك والحاميات التركية الباقية في بعض المدن مثل معسكر، والكراغلة في تلمسان، كانت الولاية عرضة لتيارات الأطماع السياسية التي تحوم بها من كل جانب(٨) فالأتراك رموز الخلافة، وحماة ديار الإسلام، مع مرور أكثر من ثلاثة قرون لم يعودوا يحملون الهم والمحرك نفسه المتمثل في الوازع الديني، وانقلب الولاء الديني- السياسي إلى معارضة سياسية غير دينية(٩) وبعد أن تحولوا الى قوة قمعية ضد الجزائريين اشتد العداء والكراهية بين حلفاء الماضي وشركاء الجهاد ضد الصليبية الغربية وظهر ذلك جليًا في انتفاضات وحروب ضد السلطة التركية.(١٠)

ويكون الأمير قد حسم موقفه نهائيًا من بقايا الحكم التركي عندما رفض طلب باي وهران باللجوء والحماية، مذكرا عائلة محي الدين بما عاناه الشعب من المظالم والويلات التي انزلها بهم، أما اتجاه السلطان العثماني فقد شعر الأمير في النهاية، وبعد عدة مراسلات، أنه غير قادر على مساعدته، وأنى له ذلك وهو غير قادر على رد العدوان حتى على حدود إمبراطوريته. وعلى الجبهتين الغربية والشرقية تمكنت فرنسا من وضع حد للأطماع التونسية والمغربية في القطر الجزائري، بعد أن وضعت معاهدة طنجة الحبل حول عنق سلطان فاس. وهكذا وجد الجزائريون أنفسهم

وجها لوجه أمام الدخيل الفرنسي الذي أخذ في قضم أطراف البلاد الساحلية شيئًا فشيئًا، يواجهونه بقاعدة شعبية بسيطة، ينقصها التنظيم والتدريب ويسود صفوفها الانقسام بين القبائل والتنافس على الزعامة، وقد أدرك الأمير بنظره الثاقب وتحليله العميق أن هذه العوامل هي التي أضاعت على المقاومة الجزائرية فرصة طرد الغزاة ورميهم في البحر، وإقامة دولة وطنية محلية تحل محل الإدارة التركية المنهارة، وهذا الدور دور المنظم والموحد للصفوف هو الذي سيضطلع به الأمير. وهي مهمة تنوء بحملها الجبال الرواسي.؟ أما الخلافة الإسلامية التي لم يكن من الممكن في القرن التاسع عشر – قرن الاندفاع الاستعماري- تصور إطار سياسي قومي خارجها للشعوب الإسلامية[١١] فقد حرص الأمير على تأكيد روابطه وانتمائه للخلافة العثمانية سواء أثناء مقاومته أو حتي في هجرته.[١٢]

٣- البيعة:

(من الولاء للقبيلة إلى الولاء للوطن)

تتميز الدولة عند الأمير عبد القادر بكونها انبثقت عن إرادة شعبية وبيعة شرعية في عهد كانت فيه الدولة في العالم في العالم الاسلامي تعيش على الحكم الموروث والتقاليد [١٣] وفي فترة صعب تأليف مثل هذه الحكومات في المشرق والمغرب،[١٤] وقد شكلت القبيلة إلى حد ما، موطن الداء في المجتمع الجزائري كمؤسسة اجتماعية وسياسية تقف عائقًا أمام بلورة مشروع وطني يعتمد المركزية السياسية، فهي من خلال وظيفتها وهويتها تقف سدًا منيعًا أمام قيام وعي وطني فاعل وفعال،[١٥] فكان على الأمير تجاوز هذا العائق لتحقيق الاقلاع الحضاري، لأن النظام القبلي الذي كان يؤطر المقاومة قد أثبت عجزه في مقاومة الاستعمار اذ ظهرت المقاومة الشعبية محدودة الطاقات التعبوية[١٦] وهذه الرابطة القبلية التي وحدت بعض القوى المحلية في حركة المقاومة، ومكنته من القيام برواية حماسية وملاحم بطولية، لم تكن كافية لتأهيل شعب ليؤدي رسالة تاريخية، ومهمة حضارية[١٧] كان المجتمع الجزائري غنيا بأفكاره وأشخاصه وثرواته، ولكن شبكة علاقاته الاجتماعية قد تمزقت، ولذلك فان تأسيس هذه الروابط هو الانجاز التاريخي الأول الذي يجب أن يقوم به المجتمع ساعة ميلاده ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به الأمير عبد القادر هو ميثاق البيعة الذي يربط بين الامام ورعيته، فالمجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد وانما هو اشتراك هؤلاء الافراد في اتجاه واحد من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية، وهي هنا في الحالة الاستعمارية الجزائرية تتمثل في تحقيق التحرر الوطني والاندماج الاجتماعي والسياسي، وهذا كما يقول مالك بن نبي يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة[١٨]

اقترح محي الدين على أهل غريس مبايعة ابنه الحاج عبد القادر فقبلوا بإمارته مسرورين وعقدوا له البيعة الأولى يوم (٠٣ رجب ١٢٤٨ه/ ٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م) وذلك تحت شجرة الدردارة.

ونص البيعة كما ينقلها صاحب التحفة[١٩] موجه للعرب والبربر على حد سواء، وينص على أن الإمارة الإسلامية قد آل امرها الى عبد القادر بن محي الدين وبذلك صار متكفلاً بإقامة الحدود الشرعية لنفع العباد وعمران البلاد ورفع راية الجهاد، ويدعوهم الى تقديم الطاعة وأداء البيعة ونبذ الخلاف.[٢٠] فالبيعة الشرعية كعقد اجتماعي، لها قيمة سياسية عظمى، اذ جاءت لتقيم قاعدة الولاء السياسي وتؤصل للعلاقة بين الأمير والشعب الجزائري، وترسم معالم مرجعية سلطانية ذات ظلال راشدية، فقد حملت نصوص البيعة نفحات النبوة ومفردات العهد الأول الذي شهد تأسيس المجتمع المسلم المدني: الإمام، الكتاب والسنة، السمع والطاعة وامتثال الأوامر ولو على النفس والولد وحتى المكان تحت الشجرة يستدعي ذلك الجو الإيماني الأول في ظلال الآية الكريمة (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ).[21] لقد خاطبهم محى الدين قائلا إليكم سلطانكم الذي أشارت إليه نبوءات الأولياء والهامات الاتقياء، هذا هو ابن الزهراء فأطيعوه كما أطعتموني واجتنبوا جفاءه، نصر الله السلطان نصر عزيز مقتدر".[٢٢] وقد تمت مبايعته كسلطان لبناء دولة، لا كقائد حرب ومعارك فقط. وهكذا كانت الجماهير تعلن عن بداية إمارة إسلامية تقوم على الكتاب والسنة[٢٣] والمتدينون كانوا ميالين إلى منح تأييدهم القوى إلى رجل دعاهم للحرب من أجل العقيدة.[٢٤]

كان الأمير باعث الوطنية الجزائرية فقد وصل خطابه اعماق الشعب وهز صوته أركان الوطن فإذا بريح الوطنية تطوي المسافات وتجتاز الحدود القبلية والطرق الصوفية والاقليمية لتصبح شعلة واحدة تحرق وجه العدو الدخيل[٢٥] وكان هدفه الأسمى هو أن يجعل الجزائريين شعبًا واحدًا باستمالتهم إلى المبادئ الاسلامية واستدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة وإيقاظهم من الغفلة.[٢٦] لقد نجح الأمير في جعل الشعب يتجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية[٢٧] وعندما يرجع المرء إلى ظروف المبايعة يلاحظ أننا أمام بعث لتقليد كاد حكام المسلمين أن ينسوه وهو الخضوع لإرادة المحكومين ودعوتهم للتعبير عن اختيارهم بمحض الحرية ويعتبره البعض نموذجًا مأمولاً لتولي المسؤولية وممارسة السلطة في البلاد العربية ومرجعية تاريخية لتأسيس حكم وطني،[٢٨] ومن جهته يكون الأمير قد عبر عن التزامه الدستوري بقوله "أنني لن أعمل بقانون غير قانون القرآن ولن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن والقرآن وحده فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لنفذت فيه الحكم".[٢٩]

لقد توجه الأمير بخطابه إلى كل القبائل وكل الزوايا والطرق الصوفية دون استثناء وكل الجهات، فقد تجاوز خطابه حدود القبيلة والجهة إلى الشعب، إلى المواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماؤهم القبلي والصوفي أو الجهوي، وربما لم تعرف الجزائر قائدًا من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل[٣٠] كان الأمير يتحرك كرجل دولة إسلامية وطنية لا كرجل طريقة أو جهة أو قبيلة،[٣١] فقد بذل جهوده في توحيد القبائل المتنافرة ليكون منهم دولة حديثة ودعا زعماء البلاد المعاصرين له إلى الوحدة الوطنية كان الهدف الأسمى والأشمل له جعل الجزائريين شعبًا واحدًا،[٣٢] وفي مواعظه كان الجميع يجددون يوميًا حرارة الغيرة الحربية والدينية التي كانت تتقد داخل صدورهم فكان عبد القادر بذلك كأنه منبع رئيسي من الضوء والحرارة لقومه[٣٣] إن الأمير إخطار نموذجًا جديدًا يواصل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في سطوعه الأول[٣٤] ذلك المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية لفكرة، ويؤذن بميلاد فجر جديد.[35] وقد أدرك الاستعمار الفرنسي بحسه الحضاري والانتروبولوجي أنه أمام بعث جديد ودورة أخرى من أدوار الحضارة، ولذلك نجد أن أشرس المعارك التي قادها، كانت تدور حول منع الأمير من إكمال مشروعه السياسي، الهادف إلى دعم بنية الدولة الجزائرية، القائمة ترابًا وتاريخًا ومجتمعًا، بجهاز حكومي يعطيها قوة المناورة السياسية والمفاوضة الاستراتيجية إلى حين استعادة البلاد لسيادتها[٣٦] أي يحول دون أن تستكمل الجزائر بناءها المؤسساتي كدولة كاملة السيادة، وتحقيق وحدتها الاقليمية والسياسية، وأن يشكل سكانها نسيجًا اجتماعيًا متماسكًا ليدخل التاريخ من جديد.

٤- المساواة والعدل:

(تنمية الاحساس بالوطن)

أعلن نص البيعة على القطيعة مع أساليب الحكم السابقة، القائمة على الاستبداد المالي والسياسي، ولذلك كان أهم مبدا من مبادئ الدول الحديثة، تسلحت به دولة الأمير عبد القادر هو مبدأ المساواة. فالقضاة هم وحدهم الذين لهم حق إصدار الأحكام عكس ما كان عليه الامر عند الأتراك، والقاضي يحكم حتى في قضايا تهم الجيش، والسكان لهم الحق في التقاضي، ويتقدمون بشكواهم للأمير حتى ضد الآغا. إن سياسة المساواة التي تشبع بها الأمير كانت كفيلة بأن تحقق الشعور بالوحدة الوطنية، فقد كان حريصًا أشد الحرص على سير العدل وفقًا للشريعة الاسلامية، وعلى أن تكون جميع قوانين الدولة مستقاة من الكتاب والسنة، وعلى الطابع الديني التقليدي للمواسم، وكون رئيس الدولة من علماء الدين، وهذه الاعتبارات تجعل من دولة الأمير عبد القادر دولة إسلامية تذكرنا بعهود الخلفاء الراشدين في أزهى عصور الإسلام، ولكن الأمير الذي ولد في بيئة دينية محافظة، سرعان ما أدرك أن دوره بعد أن أمسك بزمام السلطة هو بناء دولة عصرية تقوم على جيش منظم وإدارة محكمة وعادلة[٣٧] بديلة لتلك المتهالكة، تؤطر التكوين الطبيعي لميلاد المجتمع الجديد.

أخذ الأمير يوسع من حدود دولته شيئًا فشيئًا، فقد منحته الظروف، كما منحتها للمسلمين من قبل أثر صلح الحديبية، فسحة للبناء الداخلي، ولعل أعظم الانجازات هي تلك التي تتحقق زمن السلم والاستقرار، ولذلك ود الأمير لو أنه كان لمدة أطول، فقد مكنته معاهدة "تافنة" من الهدوء الذي كان ضروريًا له لينظم جيشه، ويضع أسس دولته، ويقيم المصانع، ويبني مجتمعًا جديدًا،[٣٨] ولتعزيز قواته العسكرية وتنظيم دولته من خلال الإصلاحات الإدارية والتنظيمات العسكرية الآتية:

- قسمها إداريًا إلى ولايات وكل ولاية يديرها خليفة، وقسم الولاية إلى عدة دوائر ووضع على رأس كل دائرة قائدًا يدعى برتبة آغا، وتضم الدائرة عددًا من القبائل يحكمها قائد، ويتبع القائد مسؤول إداري يحمل لقب شيخ.
- أنشأ جهازًا قضائيًا يتسم بالدقة ويقوم على العدل وأعطى سلطة واضحة للقاضي الذي يمثل الشرعية وجعله يستمد نصوصه من القرآن، وبذلك انتعشت العاطفة الدينية لدى السكان، وشعر الجميع بالأمن والعدل والوحدة، وهذا الشعور هو القوة الحقيقية التي مكنته من الصمود أمام الترسانة العسكرية الفرنسية الحديثة مدة قياسية.
- اعتمد على الشورى المأثورة عن السلف الصالح، فقد كان يستفتي العلماء حتى من خارج الجزائر، وكان يجمع الناس ليسمع رأيهم في الأمور الخطيرة كالحرب والسلام والمصالحة، وأسس لذلك مجلسًا للشورى يتكون من أحد عشر عضوًا يمثلون مناطق مختلفة، ومجلسًا وزاريًا مصغرًا يضم: (رئيس الوزراء، نائب الرئيس، وزير الخارجية، وزير الخزينة الخاصة، ووزير الأوقاف) وهذا النظام الاداري التصاعدي الذي وضعه الأمير متجاوزًا النظام الإداري العثماني يبين مدى إدراكه لحاجة أفراد مجتمعه لنظام يرتقي بهم من عهد الاقطاع والقبيلة إلى عهد التعايش الاجتماعي والالتزام نحو بعضهم البعض ونحو الدولة.[٣٩]
- كما أنشأ جيشًا نظاميًا ودعم قوته العسكرية بإقامة ورشات للأسلحة والذخيرة وبناء الحصون على مشارف الصحراء، حتى يزيد من فاعلية جيشه، وطور التعليم، كما نظم الميزانية وفق مبدأ الزكاة، وفرض ضرائب إضافية لتغطية نفقات الجهاد، وتدعيم مدارس التعليم. وبهذا أسس الأمير للدولة الجزائرية الحديثة والعصرية، لتأطير القوى الوطنية في اتجاه الهدف الحضاري المنشود.

٥- الجهاد والوحدة الوطنية

كان هدف الأمير الأساسي إيقاظ وإذكاء الضمير الوطني بجعله الجهاد في سبيل الله وسيلة والوحدة الشعبية هدفًا[٤٠] ولهذا فان معنى الجهاد عنده لا يتوقف عند الدفاع المسلح عن قضية عادلة بل له فلسفته وأبعاده كباقي العبادات الأخرى[٤١] وفي مفهومه الديني للجهاد قد اتضح عنده الربط بين جهاده وجهاد الصحابة والخلفاء في سبيل الدعوة الاسلامية[٤٢] كان الأمير مؤمنا بان الدين هو العنصر الوحيد القادر على إعطاء الفعل والتصرف الانساني- كالمقاومة - أبعادها الحقيقية واتجاهاتها الصحيحة والمقبولة،[٤٣] وقد حدد القرآن الكريم والسنة المطهرة أهداف الجهاد بوضوح، فأولها استرداد الأرض السليبة وإرجاعها إلى أهلها لتعود دارًا للإسلام تمارس فيها الشعائر بكل حرية كما بين الله تعالى في سورة الحج: (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**)،[٤٤] فكان الجهاد واجب يؤكده عليه وعيه بدينه كما أن الأمير لم يكن غافلا عن رأي علماء الدين وأهميته في جهاده وقد راسل بعضهم يستشيرهم في أمور الناس والعلاقة مع العدو، كما راسلهم يطلب منهم دعوة الناس للجهاد واستخدام نفوذهم الروحي عند السكان من أجل مصلحة الدين والوطن.[٤٥] ويعتبر الجهاد بالنسبة للأمير الدافع الأول في مقاومته والوسيلة الفضلى لزرع الثقة في نفوس جنده، وواجبًا مقدسًا أمر الله به للدفاع عن النفس والأوطان،[٤٦] وكان يعرف جيدًا مدى نار التعصب التي تشتعل في صدر كل مسلم وكان يعرف أيضًا أن ما قد لا يحققه حب الوطن ستحققه بالتأكيد الغيرة على الدين لذلك قرر أن يجعل من هذا الشعور الأخير حجر الزاوية في الصرح الهائل الذي تجاسرت عبقرتيه هو وحده على تصوره.[٤٧] فعبد القادر تجسيد لمبدأ عاطفة دينية عظيمة وهي في الجزائر العاطفة السياسية الوحيدة التي وحدت السكان وقد تمثل هذا المبدأ في الجهاد،[٤٨] ويأخذ الجهاد أيضًا بعدًا دينيًا أصيلاً وهو الجهاد ضد الكفار وهوما يفرض بنفسه توسيع دائرته ليشمل كل المسلمين مهما كان انتماؤهم الجغرافي والقبلي.[٤٩]

كان الدين هو المركب (بكسر الكاف) الحضاري بين عناصر المعادلة، وأنه من المتفق عليه بين مؤرخي الحضارات، أن دورة الحضارة تبدأ حين تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، غير أن إنسان ما بعد الحضارة، لن يكون قادرًا على إنجاز عمل حضاري إلا إذا تغير جذريًا، ويجعل من إعادة البناء الحضاري أمرًا ممكن التحقيق. ومن عمق الحقيقة الدينية تلك المشاعر المتأججة حبًا في الأرض وحبًا في الوطن الجديد الذي رسم حدوده الأمير وجعل عليه قضاته وخلفاءه وممثليه واعترف له العدو بحدوده، جعلت الناس يضحون ويتبعون راية الأمير،[٥٠] ولذلك كانت أكثر الاحكام صرامة وردعية متى كان الذنب المرتكب في حق الوطن أو الدين، كقضايا التعاون مع العدو، والجوسسة، وخرق الحصار المضروب عليه. وقد كان المبدأ الذي يسير عليه متى اشكل عليه الأمر في قضية توقف عن إصدار الحكم وهو الفقيه العالم، وكاتب علماء فاس ومصر.

كان التجنيد يعتمد على تطوع الوطنيين، وكان المنادون يثيرون في النفوس الحمية والشهامة ونخوة الدفاع عن الإسلام وعن الأرض والعرض، ولذلك كان نمو عدد المقاتلين وزيادته مطردًا لأن الحماس الشعبي للجهاد كان عظيمًا،[٥١] ولعل من أهم الميزات الخاصة بالأمير أنه المقاوم الوحيد منذ الاحتلال حتى عام ١٩٥٤ الذي ربط الجهاد وتحرير الأرض بمبدأين ضحى في سبيلهما حتى النهاية وهما وحدة التراب الوطني والسيادة الوطنية،[٥٢] كان هدفه الأسمى إعادة الأمة المجاهدة المحاربة للوجود والمعتمدة على الجيش النظامي لا الجيش المرتزق الذي كان سائدًا في عصره،[٥٣] ودمج المجتمع الجزائري وتوحيده حول أهداف وطنية واحدة، وصار بذلك الأمير عَلَمًا على دولة ناشئة لها امتداد حضاري أساسه الدين الاسلامي في شموليته ومعاينة السامية التي توحد الشعب الجزائري وتصهره في بوتقة واحدة. إنه ليس من الغريب بعد كل الذي ذكرناه أن نجد كل قوى الشر تتحالف ضد الأمير ومشروعه الحضاري، فقد حاربت هذه الدولة الوليدة كما يقول أبو القاسم سعد الله "رحمه الله" جيوش فرنسا والمعمرون، وسلاطين المسلمين وعلماؤهم النائمون، كما حاربتها ظاهرًا وباطنًا الكنيسة والماسونية الصهيونية باعتبارها حركة جهاد إسلامي متوثب فيه انتعاش ونهضة للإسلام الراكد إذا انتصرت.[٥٤]

خَاتِمَةٌ

تخلص الدراسة إلى نتائج هامة، منها؛ أن الدين والوطنية في فكر الأمير وحركته هما وجهان لعملة واحدة، وأن محاولة الفصل بين المفهومين عند بعض الباحثين مرجعه القصور الحاصل في استيعاب نظرة الإسلام الشاملة للحياة كما كان الأمير يدركها كقوة مؤطرة لحركة المقاومة الوطنية الجزائرية، وهذه المعضلة المنهجية هي التي حالت دون كثير من المحاولات والولوج إلى أغوار هذه الشخصية العميقة وفك رموزها، وهي التي حملت هم الوطن الجزائري ردحًا طويلاً من الزمن. ومنها أن ميثاق البيعة كعقد شرعي والذي ربط بين الأمير والشعب الجزائري هو النواة التي سعى حولها أن يعيد نسج الشبكة المهترئة للعلاقات الاجتماعية لهذا المجتمع، ويرمم ما تمزق منها طوال قرون التخلف والانزواء على أطراف التاريخ وهوامشه، وكان الجهاد في أسمى معانيه أداة لصهر المجتمع في كيان واحد، وشحذ فعاليته التحررية وتفجير طاقاته الحضارية في بناء الدولة.

وضع الأمير الولاء للدولة في مواجهة الرابطة القبيلة لأن هذه حالت دون أن ينجز المجتمع الجزائري رسالته التاريخية في تحقيق الانعتاق من الاستعمار وبدء اقلاعه الحضاري، فقد كان الأمير يقاتل بتركيبة قبلية ظلت تحكمها العصبية، وقد حالت فرنسا بكل ما أوتيت من قوة ومكر وديبلوماسية دون أن يأخذ مشروع الأمير مداه الأقصى حين تمكنت من محاصرته عسكريًا واقتصاديًا، ولكن أعتقد أيضًا أن الأسباب الجوهرية لتوقف حركة الأمير هي النتائج المحققة نسبيًا على المستوى الاجتماعي، فقد أفشلت النعرات القبلية الانصهار الكلي للقبائل المكونة لجيشه في حركة تحررية واحدة وجعلت بعضها ينقلب عليه. وأخيرًا؛ إن التكالب الداخلي والخارجي الذي تعرضت له دولة الأمير ومشروعه ذي الأبعاد الحضارية الكبرى جعل أمدها قصيرًا، ولو طال العهد لازدهرت الدولة الوليدة وعرفت الجزائر ومعها بلاد المغرب وجهة حضارية أخرى.

الهَوامِشُ:

(١) حمزة بلحاج، **الأمير عبد القادر ومنهج التغيير ومنظومة القيم**، مجلة الثقافة، وزارة الاتصال والثقافة، العدد١١٤، ١٩٩٧، الجزائر، ص٢٩.

(٢) من أمثال أ.برنارد يقول: (يمكننا القول بدون مبالغة بأن الجزائر لم توجد قبل مجيء الفرنسيين ...لقد أسسناها من العدم وأعطيناها شخصيتها)، راجع:

A. BENARD- L'histoire de l'algerie-t2-del'histoire des colomnies-PLOM-1930. P33

(٣) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، ص١٥٢.

(٤) عبد الله شريط، **مع الفكر السياسي الحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص١٠٠.

(٥) علي بن محمد، **الوطنية كمفهوم وكمصطلح**، جريدة الشروق اليومي، ٢٠١١/١١/١٤، العدد ٣٤٧٣، ص١٥.

(٦) عمار يزلي، **الظروف السوسيو-تاريخية لمقاومة الأمير عبد القادر: الخلفيات والمرجعيات**، ضمن مؤلف جماعي، **تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر**، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكرية في الجزائر، دار القدس العربي، ط١، ص٣٥.

(٧) مالك بن نبي، المرجع السابق، ص١٩.

(٨) إسماعيل العربي، **المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٢، ص٢٧.

(٩) عمار يزلي، المرجع السابق، ص٤٠.

(١٠) طيبي محمد، **الجزائر عشية الغزو الاحتلالي**، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٩، الجزائر، ص١٦٢.

(١١) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص١٩.

(١٢) يُنظر حول هذه النقطة: مولود قاسم نايت بلقاسم، "**الأمير عبد القادر والخلافة العثمانية**"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، السنة الثالثة عشر، عدد(٧٥)، ماي –جوان١٩٨٣، ص٩-٥٠.

(١٣) عبد الله شريط، المرجع السابق، ص٩٨.

(١٤) أديب حرب، **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري**، دار الرائد للكتاب، ج١، ط٢٠٠٤،٢، ص٨٩.

(١٥) الطيبى محمد، المرجع السابق، ص١٦٨.

(١٦) محمد مدان، **المرجعية السوسيو-تاريخية للسلطة السياسية في الجزائر**، مطبعة ابن خلدون، تلمسان،٢٠١٠، ص٥٣.

(١٧) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مرجع سابق، ص٢٠.

(١٨) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط١٩٨٦،٣، ص١٨.

(١٩) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، ج١، ط٢، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٦٧، ص154-157.

(٢٠) نص البيعة حرره مجلس العلماء في (٠٣ رجب ١٢٤٨م).

(٢١) **سورة الفتح**، الآية رقم (١٠).

(٢٢) تشرشل هنري شارل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، ص٥٨.

(٢٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٢٤) المجرع نفسه، ص٦١.

(٢٥) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٩٢، ص268.

(٢٦) محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ج١، ص٦٥.

(٢٧) عبد الله شريط، المرجع السابق، ص١٠٢.

(٢٨) ناصر الدين سعيدوني، **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للأبداع الشعري، ٢٠٠١، ص٢٠٣.

(٢٩) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص٥٩.

(٣٠) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص١٣٠.

(٣١) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، القسم الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١٩٨١،٢، ص١٣٠.

(٣٢) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، المرجع السابق، ص٢٧٨.

(٣٣) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص63.

(٣٤) المرجع نفسه، ص٢١٦.

(٣٥) أبو القاسم، **الحركة الوطنية**، ص٢٧٤.

(٣٦) طيبي محمد، المرجع السابق، ص١٣.

(٣٧) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص١٥.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٢١.

(٣٩) المرجع نفسه، ص٢٣.

(٤٠) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، المرجع السابق، ص٢٧٤.

(٤١) حامد الجار، "**الجهاد وأبعاده الروحية والسياسية والاجتماعية في حياة الفرد والمجتمع**"، في ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي العاشر، ١٩٧٦، مج ٣، دار البعث (١٩٨٠/١٤٠٠)، ص٢٧٨.

(٤٢)أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، مرجع سابق، ص١٢٩.

(43) MIMOUNE.R L'homme dans la vie et loeuvre de lemire abdelkader dans lannales de luniversite dalger n4, P.53.

(٤٤) سورة الحج، الآية (٣٩-٤٠).

(٤٥) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ص٢٧١.

(٤٦) أديب حرب، المرجع السابق، ص٣٧٣.

(٤٧) هنري تشرشل، المرجع السابق، ص٦٢.

(٤٨) المرجع نفسه، ص٣٤.

(٤٩) عمار يزلي، **الظروف السوسيو- تاريخية لمقاومة الأمير عبد القادر: الخلفيات والمرجعيات**، ص٤٩.

(٥٠) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، المرجع السابق، ص268.

(٥١) محفوظ قداش، "**جيش الأمير عبد القادر**"، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص ٥٤-٥٦.

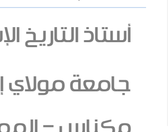
(٥٢) محمد الطيب العلوي، **مظاهر المقاومة الجزائرية من عام ١٨٣٠ إلى نوفمبر ١٩٥٤**. ط١، دار البحث، ١٩٨٥. ص٣٨.

(٥٣) عامر البغدادي، **دولة الأمير عبد القادر الجزائري** (١٨٣٢-١٨٤٨): **دراسة في نظام الحكم في الإسلام**، رسالة ماجستير كلية الشريعة، جامعة أم درمان، السودان، ١٩٨٧، ص٦٥.

(٥٤) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ص٢٩٦.

النص التاريخي
بين القراءة التأويلية والهرمنيطيقا

أ. د. إبراهيم القادري بوتشيش



أستاذ التاريخ الإسلامي
جامعة مولاي إسماعيل
مكناس - المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يصبو هذا البحث إلى فتح ملف نحسب أنه لم يعالج بكيفية دقيقة في الدراسات التاريخية، ويتعلق الأمر بالتساؤل حول مدى إمكانية تطبيق الهرمنيطيقا في مجال التاريخ، وإلى أي حد يمكن للمؤرخ أن يستثمرها كمنهج علمي يتم توظيفه لتأويل النص التاريخي، بعيدًا عن كل تعسف أو تجاوز يجعله يفقد وظيفته الأساسية. وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة أقسام؛ عالج القسم الأول مفهوم الهرمنيطيقا التاريخية، خلصنا من خلاله إلى أن الهرمنيطيقا تحيل على معنى العلم المبني على قواعد وأسس تجعل من التأويل والتفسير في مجال التاريخ بناءً متناسقًا ومتلازمًا مع الواقع التاريخي العياني، يؤكده ويعضده، ولا يخرج عن سياقه المنطقي، ويكون هدفها تنظيم استراتيجية منطقية للقراءة التأويلية للنص التاريخي عبر ضوابط ومحددات علمية ومنطقية. وفي القسم الثاني أثار البحث سؤال إمكانية قابلية النص التاريخي للتأويل، انتقد فيه المنحى الإقصائي للنص التاريخي من دائرة تأويل النصوص الأدبية، انطلاقًا من عدة معايير اختزلناها في وجود المعنى المضمر في لغة النص التاريخي، وخلفياته الإيحائية، وورود بعض النصوص التاريخية مؤولة أصلاً، فضلاً عن ألقاب وكنى الحاكم، ورموز شاراته، والألوان التي تتميز بها رايات الدول وشعاراتهم، ودلالات الأسماء القبلية والطوبونيمية. أما القسم الثالث فتصدى لمعالجة الضوابط العلمية التي تكوّن العناصر الأساسية لبناء هرمنيطيقا تاريخية، ويكمن أبرزها في فهم أبعاد النص وسياقه التاريخي، وحاجة المؤول إلى دراية بأهم التجارب الكبرى في تاريخ البشرية، والقراءة النسقية الشمولية، والتقيد بمقصدية النص، وعدم تناقض المعنى المؤول مع الواقع، واحترام منطق النص وبنيته الداخلية، فضلاً عن اعتماد التحليل اللغوي للنصوص في مستوييها الصوتي والدلالي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ يونيو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

النص التاريخي، هرمنيطيقا تاريخية، الكتابة التاريخية، الإسطوغرافيا، المؤرخ

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041879

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إبراهيم القادري بوتشيش. "النص التاريخي بين القراءة التأويلية والهرمنيطيقا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص ٧٠ – ٧٧.

مُقَدِّمَةُ

حول مفهوم الهرمنيطيقا في مجال التاريخ

تتعدد المفاهيم التي يحملها مصطلح "الهرمينيطيقا"، والدلالات المترتبة عن ذلك في الحقول المعرفية التي تتقاسمه. فقد استعمل في الأصل كمصطلح مدرسي لاهوتي، كان يقصد به العلم المنهجي الذي يروم تفسير نصوص الكتاب المقدس الغامضة المعاني، المستعصية على الفهم من طرف المتلقي الذي يشعر إزاءها بنوع من الاغتراب، الأمر الذي يستلزم فهما وإدراكًا عميقين للوصول إلى معانيها[1]. وعلى مستوى النقد التاريخي تعرف الهرمينيطيقا حسب البعض[2] بأنها نظرية نقد التفسير التي تفيد في مقاربة النص من خلال استجلاء المعنى المتستر وراء معناه الحرفي، وذلك من خلال استقصاء الظروف التي أنتجت النص، والمناخ البيئي الذي انبلج منه، والثقافة السائدة التي يُعَدّ انعكاسًا

أمينًا لها. بينما يقتصر البعض على توظيفها في حقل التحليل النفسي وعلاقته بالتاريخ كأداة منهجية يتم من خلالها كشف وسبر أغوار نفسية إحدى الشخصيات التاريخية، لتأويل سلوكاتها التي جعلتها تنهج هذا المسلك أو ذاك؛ وفي هذا الصدد ورد في موسوعة علم النفس[٣] أن "الهرمينيطيقا هي تفسير النصوص الدينية والفلسفية والحقوقية، وأنه حقل أفسح المجال أمام دراسات متعددة في حقل التحليل النفسي التطبيقي"، وقد تم توظيفها من قبل بعض الباحثين لتحليل بعض الشخصيات "الكاريزمية" في التاريخ بناء على مقولات فرويدية.[٤]

بيد أن دلالة المصطلح توسعت لتصبح علمًا عامًا في الفهم، ومنهجًا لتفسير ظواهر العلوم الإنسانية. وقد حاول رواد الهرمنيطيقا الكلاسيكية أن ينفذوا من خلالها إلى باطن الوجود والروح الانسانية، متجاوزين البناء اللغوي المتقوقع حول نفسه في عملية تأويل النصوص وتفسيرها، حتى أن "ديلتاي" ذهب إلى حد القول أن "فن الفهم يتمركز حول تفسير بقايا الوجود الإنساني المحفوظة في الكتابة".[٥] وقد ارتبطت الهرمنيطيقا في الأدب باسم "هيدجر" الذي أسس ما يعرف بالهرمنيطيقا الفينيمينولوجية لارتباطها بماهية ظواهر الوجود الإنساني في صلته بظواهر الوجود نفسه، وسيلته في ذلك اللغة ذاتها. في حين ارتبطت الهرمنيطيقا الفلسفية باسم "جادمر"، وهي صنف يتسع ليشمل فهم وتفسير كل ما هو قابل للفهم والتعقل. وتتميز الأولى والثانية معًا في أن معنى النص يتجاوز بنيته الشكلية، ويكشف عن الوجود، وبالتالي فإنه يقتضي تجاوز ثنائية الذاتية والموضوعية.[٦]

وإذا كانت مفاهيم الهرمنيطيقا تتعدد حسب تنوع الحقول المعرفية النفسية واللغوية والفلسفية واللاهوتية، فإن ما نتوخاه في هذه الورقة من مفهومها، يتمثل في "علم التأويل"،[٧] أي ذلك العلم المبني على قواعد وأسس تجعل من التأويل والتفسير في مجال التاريخ بناءً علميًا متناسقًا ومتلازمًا مع الواقع التاريخي العياني، يؤكده ويعضده، ولا يخرج عن سياقه المنطقي. وبعبارة أخرى فإن الهرمنيطيقا التاريخية (نسبة إلى التاريخ)، تعني محاولة تنظيمية للفعل التأويلي، أو هي بكلام آخر، محاولة بناء علمي لعملية التأويل التاريخي، يكون هدفها تنظيم استراتيجية منطقية للقراءة التأويلية للنص التاريخي، عبر ضوابط ومحددات علمية ومنطقية. إنها نسق فكري يتعامل مع النص بناء على منطق ضمني، وقيمة محورية يستطيع المؤول من خلاله أن يدرك عنصر التنسيق والوحدة باللجوء إلى الحدس لا بمفهوم التوهم العابر، بل بمعنى القناعة التي تستقر في النفس بعد طول المعاشرة والاستئناس مع النص.[٨]

ولعل هذا ما ينسجم مع المفهوم اللغوي للتأويل، فقد ورد عند ابن منظور[٩] أن التأويل هو "التدبير والتقدير"، وهو مفهوم يؤكد الهامش الذي يترك للذات المؤولة، ولكنه هامش يستلزم الحكمة والتمنطق في التأويل. وبهذا المعنى المتسم بالحكمة ورد في القرآن الكريم، إذ تردد (١٥) مرة: (٨) مرات في سورة يوسف،[١٠] ومرتين في سورة الكهف،[١١] ومرة واحدة في كل من سورة الأعراف،[١٢] وسورة الإسراء،[١٣] وسورة النساء،[١٤] وسورة يونس،[١٥] وآل عمران.[١٦] والحاصل أن فضاء الهرمنيطيقا التاريخية ينظم العلاقة المنطقية بين ثلاثة مكونات:

١- **المرسل** أو **الباث**، وهو الذي تأسس منه النص التاريخي بشكله التعبيري واللغوي.

٢- **المتلقي**، وهو قارئ النص في زمان ومكان محددين، تختلف قراءته حسب محيطه الثقافي، ومكونات شخصيته.

٣- **الموضوع المؤول**، وهو النص التاريخي في حد ذاته بكل ما يختزنه من حمولات دلالية.

ومن المكونين الأولين (الباث والمتلقي) يتشكل "**حوار**" حول المكون الثالث الذي هو الموضوع المؤول. وداخل هذا "الحوار" تتدرج صورتان: التأويل "التجريبي" الذي يشرح فيه المؤول نصًا معينًا انطلاقًا من معايير معروفة يقوم بتطبيقها، والتأويل "الجاهز" الذي يؤوله المؤول انطلاقًا من تصور مسبق. وبينما يحاول الأول فهم النص وتأويله عن طريق "التجربة" بجعله نصًا يمكن إخضاعه لمجموعة من القواعد التي يراد تطبيقها عليه، يجنح الثاني إلى فرض تصور خاص تتبناه الذات المؤولة، انطلاقًا مما تزعمه بقدرتها على فهم النص وتأويله ربما أكثر مما فهمه الباث نفسه أو قصده، وفي هذه الحالة يمكن للحوار بين المتلقي والموضوع المؤول أن يكون حوارًا من جانب واحد (One side conversation) لا يترك المجال للنص أن يفصح عن معناه بنفسه، بحيث تسيطر عليه الذات المؤولة، وتوجهه حسب سلطتها المعرفية وتحكم توجهاتها.[١٧]

في ضوء هذه المعطيات، كيف يمكن للهرمنيطيقا في مجال التاريخ أن تنظم العلاقات بين تلك العناصر الثلاث المكونة للعملية التأويلية، بطريقة تستهدف تقليص شبح الإدراك الخاطئ للنص، وملامسة التأويل الصحيح؟ وكيف يمكن تجاوز التأويل الجاهز؟ وهل يمكن للمؤرخ أن يبني تصورًا تأويليًا دون الوقوع في مطبات أو مزالق؟ هل يمكنه أن يبحث -كما فعل "فيكو" عن المفتاح والقاعدة المبطنة التي يستطيع بها المؤرخ العبور من ظاهرة إلى أخرى عن طريق ما يسمى بقانون التحويل؟[١٨] أي تحويل المعنى الذي قصده الباث إلى المعنى الذي اجتهد فيه المتلقي/ المؤول؟

لا سبيل لإنكار الصعوبات التي تعتور عملية التفكير في تأسيس قواعد تأويلية (هرمنيطيقا) بشكل عام، وتلك حقيقة وقف عندها "بول ريكور" حين خلص إلى القول بعدم إمكانية وجود هرمنيطيقا جامعة أو نظرية تأويلية شاملة، لأن قواعد التأويل - حسب وجهة نظره -تتسم بالتمايز والاضطراب.[١٩] ونحن لا نصادر هذا الرأي الذي رغم وجاهته، فإنه يحفزنا على التساؤل التالي: ألا يمكن القيام بمساهمة أولية لوضع ضوابط تؤطر الفعل التأويلي؟

وإذا كان الأمر كذلك، فهل ينطبق ذلك بالأحرى على مجال التاريخ؟

هل النص التاريخي قابل للتأويل؟

يذهب "هانس روبرت ياوس" إلى التأكيد على أن مجال التأويل ينطبق على الشعر دون النثر، بل إن بعض الباحثين أقروا صراحة أن الكتابة التاريخية غير قابلة للتأويل لعدم وجود غموض في النص التاريخي، على عكس النص الشعري ومختلف أنواع الإبداعات التي يخترقها الغموض واللبس، مما يستدعي الفعل التأويلي.[٢٠] ولم يتزحزح موقف المدرسة الكلاسيكية الإسلامية من جيل المؤرخين الأوائل عن هذه القاعدة، اذ وضعوا خطوطًا حمراء بين "الكلام المفصل والمبين" الذي هو قاعدة التأليف التاريخي عندهم، وأي شكل يستدعي احتمالات التأويل كالاستئناس بالرموز أو الفنون التشكيلية، أو منطق المجاز في الآداب العربية؛ لذلك لم يتجاوز مجرى التاريخ في دائرة اهتماماتهم أعمال "الإنسان المتعاقد" حسب تعبير الأستاذ العروي[٢١]، فالتاريخ حسب هذا الاتجاه يدرس الإنسان كإنسان مجرد، دون الاهتمام بما يندرج ضمن مخلفاته الإيحائية والتعبيرية.

والملاحظ؛ أن بعض المتشددين من المفكرين القدامى مثل الجرجاني وغيره قد ضيقوا بدورهم مساحة التأويل على المؤول، اذ لا يحق له تأويل أي نص هو لسان حال المتكلم الذي يمتلك السلطة وحده في تحديد معاني كلامه، ويترتب عن ذلك أنه لا يبقى للمتلقي أي دور في التدخل في المعنى الذي أراده صاحب النص، لأنه وليد معان مسؤولة عن تمظهرها سالفًا.[٢٢] وعلى نفس المنوال سار بعض الباحثين المعاصرين انطلاقًا من حجة مقنعة، هي أن النص الذي يصل المتلقي لا يكون بالضرورة ناقلاً أو مستنسخًا نفس الأفكار التي أراد صاحب النص التعبير عنها أصلاً، ولذلك ينبغي التمييز بين ما يسمى بقصدية الفعل وقصدية التبليغ.[٢٣]

رغم وجاهة هذه الآراء القديمة منها والحديثة، فإننا نعترض على هذا المنحى الإقصائي للنص التاريخي من دائرة التأويل من عدة وجوه:

١ -هيمنة النص التاريخي الصامت والمعنى المبتور في الإسطوغرافيا:

تنبث في المصادر مجموعة من النصوص التاريخية التي لا تفصح بدقة عن معانيها، وهو ما يمكن أن ننعته بالنصوص الصامتة أو النصوص المبتورة التي تخفي وراء السطور والمصطلحات أو وراء المعنى المبتور مجموعة من الحقائق المتسترة. ومعلوم أن صناعة المؤرخ لم تعدّ تقتصر على تقميش النصوص وجمعها ثم عرضها بطريقة جافة بعد ذلك، بل تكمن مهمته الأساسية في استنطاق النصوص، خاصةً بالنسبة لهذا النوع من النصوص الذي يستدعي تدخل المؤرخ عبر التفسير والتأويل.

٢ - ظرفية إنتاج خطاب النص:

إن بعض النصوص التاريخية -كأي نصوص مكتوبة -تتكون من مجموعة من المصطلحات المركبة، المتضمنة لمجموعة من المعاني المحددة بلغة النص وظروف إنتاج الخطاب، وكافة أشكال المعرفة المنتمية لحقل النص، ناهيك عن حضور وعي الناص فيه،[٢٤] وكل هذه المجموعة من المعطيات المحيطة بالنص التاريخي لا تجعله يعبر عن نفسه، مما يستدعي "تدخل" المؤرخ للوقوف على حقيقته وجوهره، وهو ما يفرض عليه الدخول في عملية التأويل. وفي هذا المنحى دعا "مارك بلوخ" إلى ضرورة تجاوز المؤرخ -عند تعامله مع النص - حدود الخط واللغة التي كتب بها، إلى التعمق فيه عبر شبكة الذهنيات، والمعتقدات السائدة عصر كتابته.[٢٥]

٣ -النصوص المؤولة أصلاً:

إن معظم النصوص التاريخية نصوص وصلتنا مؤولة أصلاً في مصطلحاتها ومعانيها، فالنص التاريخي -مثل كافة أشكال الكتابة- يتأثر بقضايا العصر، ويتلون بالمناخ الثقافي السائد. كما أن الانقسام المذهبي الذي نشأ في "دار الإسلام" رفع من إيقاع التأويلات بين الفرق الإسلامية، فظهر ما يعرف بالتأويل الباطني الذي تبناه الشيعة، والتأويل السني الذي مثله السنة، ناهيك عن تأويلات المعتزلة والخوارج والتيارات الصوفية، وكان التنافس بين التيارات المتصارعة يغذي مسألة التأويل باستمرار.[٢٦]

٤. سيادة النص المحابي:

إن التاريخ المدون كما وصل إلينا هو تاريخ المنتصرين الذي يعبّر فيه النص عن وجهة نظر النخبة الحاكمة، أو بعبارة أخرى فإنه يمثل النص السلطوي الذي تم إنجازه تحت إكراهات سياسية وضغوطات مهيمنة، أو إغراءات سخية تدفعه إلى منطقة التزلف والمغالطة وتزوير بعض الحقائق، وإقصاء الثقافة المعارضة، مما يجعله مشحونا بالألغاز والخبايا التي تستدعي التأويل عن طريق استحضار النص المضاد للنص الرسمي أو ثقافة المعارضة إن وجدت، حتى يكون التأويل صحيحًا.[٢٧]

٥. المعنى المضمر للنص:

إن المعنى الظاهري أو الصريح للنص التاريخي يخفي وراءه معنى مضمرًا وجب البحث عنه عن طريق التأويل. وقد لمّح ابن خلدون[٢٨] إلى ذلك في مقدمته حين أشار إلى المعنى الظاهري والباطني، فقال عن التاريخ أنه "في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات وعلم بكيفيات الوقائع وأساسها عميق". وفي المعنى نفسه يقول الجرجاني بكلمات معبرة أيضًا: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وضرب آخر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللغة وحده، ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة. ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار

الكلام على الكتابة والاستعارة والتمثيل".[٢٩] معنى ذلك أن المحمول المعلوماتي كما يعكسه ظاهر النص يبقى مضببًا، فتكون بعض النصوص بسبب ذلك لعبة مزدوجة لنظامين، أحدهما تقريري واضح، والآخر خفي مضمر يفسح للمؤرخ مساحة التأويل، لذلك وجب الاستعانة بأدوات ومفاهيم لسنية، تمكن من النفاذ إلى منطقه الداخلي وتجاوز بنيته السطحية. كما أن التأويل في التاريخ يصبح مشروعًا عندما يكون المعنى الحرفي للنص غير معقول، أو يبدو مضطربًا أو منافيًا للوقائع التاريخية المعروفة.[٣٠] ففي هذه الحالة لا يمكن للمؤرخ الحصيف أن يصمت أمام مشهد تاريخي غير عادي، لا تزكيه المعطيات ولا يقبله العقل. وفي غياب أي شاهد ملموس، يضطر للجوء إلى التأويل، لكن عبر ضوابط ومحددات كما سنذكر في موضعه.

٦ -**انقطاع السند**: وما يسببه ذلك من استفهام لدى المؤرخ، وهو استفهام مسبوق باستغلاق، وهذا الاستغلاق غالبًا ما يكون مقترنا بالكوارث الطبيعية التي تحدث في التاريخ مثل انهيار سد مأرب، أو مخلفات الهزائم في المعارك التاريخية الكبرى حيث يقف المؤرخ أمام هذه الأحداث مستغربًا مستعبرًا لفك اللغز التاريخي.[٣١] وفي هذه الحالة ينبغي عدم التسرع في التعميم والتمييز بين التفسير القائم على مسلمة مشتركة بين الباحثين، والتأويل الذي يستلزم معاشرة طويلة حتى يحصل الاستئناس مع النص المؤول، والقدرة على التمثل وعلى تخيل وسيلة القياس، ومن ثم يجب على المؤرخ الذي يسعى لتأويل نصوص تفتقر إلى السند أن يكون متحرزًا، وأن يتبنى الحذر في عملية التأويل، لأن إطلاق العنان للمؤول قد تجعل خياله التأويلي يحلق بعيدًا عن الوقائع الحقيقية، فينتفي الاتجاه العلمي الصحيح.[٣٢]

٧ . **بعد انفتاح علم التاريخ على سائر العلوم الأخرى**، أخذت تقتحم مجاله نصوص جديدة تنتمي إلى حقول معرفية متنوعة المشارب كالأدب والفقه والأنتروبولوجيا وعلم النفس واللسانيات إلخ ... وقد لعب هذا الانفتاح دورًا أساسيًا في التوجه نحو التأويل في التاريخ، ذلك أن نصوصًا تندرج في مثل هذه الحقول المعرفية تستلزم بطبيعتها عملية التأويل. كما أن بعضها يمثل وجهة نظر قوى المعارضة، لكن بخطاب يعتمد على الرمز والتمويه كالتعبير بكلام ينسب إلى الموتى، أو بالخوارق والكرامات الصوفية، أو التعبير بالأحلام أو بالمعنى المضمر، أو باستعمال صيغة المبني للمجهول في رواية الخبر. وبالمثل يرد الكلام في العديد من أمثال هذه النصوص "التاريخية" على لسان الحيوانات، وهو تعبير لا تفرضه الضرورة التعليمية التي يستهدفها صاحب النص فحسب كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين[٣٣]، بل أيضًا لتفجير جملة من المكبوتات السياسية والاجتماعية لديه. وجل هذه الصيغ التعبيرية تُعَدّ أشكالاً نصية تاريخية مجازية قابلة للتأويل، حتى أن بعض الباحثين[٣٤] اعتبروا أن الكشف عن المعنى المضمر وفك الرموز من القضايا الجوهرية التي تختص به الهرمنيطيقا، ولا يتم كشف المعنى المضمر إلا من خلال الحوار الذي يفتحه المتلقي مع النص.[٣٥]

٨ . **التورية**: يوجد في التاريخ الصوفي بعض المتصوفة والأولياء الذين اعتمدوا على التأويل، أو الفعل الذي يستدعي التأويل الباطني أو الظاهري وسيلة للبحث عن جوهر الحقيقة أو التصريح بها؛ وفي هذا السياق، يذكر صاحب كتاب "التشوف" جملة من التأويلات التي كان يؤولها المتصوف الشهير أبو العباس السبتي (القرن ٦ هـ)، صاحب مذهب "الوجود الذي ينفعل بالجود" على حد تعبير الفيلسوف ابن رشد؛ ولا غرو فقد كان حسب المؤلف المذكور "يتأول الركوع في الصلاة بالمشاطرة"، أي مقاسمة الأثرياء لأموالهم وممتلكاتهم مع الفقراء والمعوزين، "والسلام من الصلاة تعني الخروج من كل شيء"، أي التنازل عن كل ما يملك الإنسان قصد سد حاجة الغير. بل كان يؤول كل حركة في الصلاة بتأويل خاص يدور حول مذهبه في الجود والإحسان.[٣٦] وكان له من براعة الكلام واستعمال الرمز وإخفاء مقاصد المعاني ما جعله يشتهر بفن "التورية"، أي التمويه والتستر عن ذكر المقاصد، الأمر الذي يستدعي تدخل المؤرخ لتفكيك طلاسم هذه التوريات التي تحويها نصوصه، وتأويلها بما ينسجم مع الواقع التاريخي.

٩ -**الإيحاء**: يُعَدّ الإيحاء إحدى الحوافز التي تجعل المؤرخ يلجأ إلى التأويل، فثمة أعمال فنية كالصور واللوحات والتماثيل، توحي بالعديد من التأويلات للمؤرخ، وكذلك الحال بالنسبة لفن النحت، والموسيقى، والأشكال التعبيرية الفنية كالرقص، والموسيقى، والأهازيج، والحركات الفلكلورية، وأشكال الهندسة المعمارية والنقوش التي تزين جدران البيوت، والزخارف التي تتميز بها صناعة الخزف والأواني، كل هذه الأعمال الفنية الإيحائية وغيرها تسمح بهامش واسع من التأويل.

١٠ -**الرموز والألوان**: يوجد في التاريخ العربي، العديد من الرموز والألوان التي لها دلالات ارتبطت ببعض الأسرات الحاكمة كاللون الأسود بالنسبة للعباسيين، والأبيض للأمويين والموحدين، والأخضر للفاطميين، وكل هذه الألوان تفتح باب التأويل. كما أن شعارات الدول وألويتهم وراياتهم تستدعي التأويل أيضًا. وقد فطن المؤرخون القدامى لذلك: فهذا ابن الخطيب يجسد الفكرة في معرض حديثه عن لواء العباسيين فيقول عنه: "وهو لواء يدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعًا وراية تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعًا"، ثم يعلق على ذلك بقوله: "وتأويل هذين الاسمين: الظل والسحاب، أن الدعوة تطبق الأرض وتعممها كما يطبقها ويعمها السحاب والظل".[٣٧]

١١-**علامات الألقاب والكنى وشارات الملك:** تصبح بعض الألقاب الخلافية بدورها موضوعًا للتأويل، ومن هذا القبيل لقب الخليفة العباسي المستكفي، فقد "قيل أن اللقب مقرون بالضعف وقلة النجابة"،[٣٨] وهو تأويل يزكيه بقاء الخليفة المذكور سنتين فقط في سدة الحكم (٣٣٣ ـ ٣٣٤). وفي المنحى نفسه كانت كنى الخلفاء موضوعًا للتأويل، فقد لقب الخليفة الأموي معاوية بن

يزيد أو معاوية الثاني الذي لم يحكم سوى بضعة شهور بلقب "أبي ليلى". ويعطي ابن الخطيب المدلول التأويلي لهذه الكنية بقوله: "وذكر أن هذه الكنية تجريها العرب على المضعوفين".[٣٩] مما يؤكد على ما تحمله الكنى من دلالات رمزية رغم أن التأويل الذي طال الخليفة الأموي المذكور كان خاطئًا، والراجح أنه نسج بناء على الروايات التاريخية المدسوسة على الأمويين. وتبقى الشارات بدورها موضوعًا للتأويل مثل شارات الملك وشارات الجيوش والحشم ورموز الأزياء، وكذلك المسكوكات التي تصبح زخارفها قابلة للتأويل، وكل هذه الأشكال وغيرها من القضايا التاريخية تفتح أمام المؤرخ باب التأويل.

١٢ - **دلالات الأسماء القبلية الطوبونيمية** حيث يذهب البعض إلى إمكانية تأويل أسماء الأعلام والأماكن التي تتضمنها النصوص انطلاقًا من دلالات الأنساب والقبائل، أو العلامات الطوبونيمية. وقد مكن هذا المنهج التأويلي في الكشف عن عديد من الألغاز المرتبطة بالتاريخ وتفسير دلالات جغرافية الأماكن.

نخلص من حصاد التحليلات السابقة؛ أن المؤرخ يضطر أحيانًا إلى تأويل النص كلما تعلق الأمر بمعنى مضمر يخفيه المعنى الصريح، أو في حالة غموض النص أو إمكانية حمله دلالات رمزية قابلة للتأويل، وهي نتيجة فطن إليها القدامى فصنفوا فيها مصنفات مثل كتاب "تأويل متشابه الأخبار" للمؤرخ البغدادي،[٤٠] و"قانون التأويل" للفقيه المؤرخ أبي بكر بن العربي، و"الكشاف عن حقائق التأويل" للزمخشري. وتنهض هذه المؤلفات وغيرها قرينة على شيوع التأويل في العصور الإسلامية السالفة، كما أن عناوينها تشي بأن المؤرخين القدامى فطنوا إلى ضرورة وضع "قوانين" أو قواعد للتأويل. فهل يمكن في ظل القراءات التأويلية السائدة اليوم تحديد ضوابط يسير المؤرخ على هديها في عملية التأويل، مما يسمح بتأسيس علم تأويل تاريخي أو هرمينيطيقا تاريخية منصفة و"محايدة" تكون صمام أمن من المنزلقات التأويلية في الكتابة التاريخية المستقبلية؟

نحو تأسيس هرمينيطيقا تاريخية من خلال بعض الضوابط

ثمة حقيقة جوهرية تطرح أمام المؤرخ عند كل عملية تأويلية تأتي من خلال تعامله مع الماضي، سواء كان ماضيًا بعيدًا أم قريبًا؛ ذلك أنه بمجرد ما يبدأ في عملية التأويل، تصبح علاقته مع النص علاقة اغتراب، ويدخل مع الموضوع المؤول في سياق اجتماعي ثقافي غريب عليه، يعيش في زمن ومكان لا ينتمي إليهما، وهنا تأتي مهمة الهرمنيطيقا في تجاوز هذا الاغتراب التاريخي عن طريق ما يسميه البعض بعملية المواءمة (Appropriation) التي تجعل ما كان غريبًا وبعيدًا عن المؤول يصبح في ملكه، فيصير بذلك منتميًا إلى "العالم المعاش" (The Life-world) الذي ينتمي إليه صاحب النص حسب تعبير "هوسلر".[٤١] لكن ما هي معايير هذه المواءمة التي يستقيم بها التأويل التاريخي؟

لقد كان الجرجاني على صواب حين نبّه إلى خطورة التأويل، خاصة أن بعض المؤولين "صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين وأكثر ... وهو على ذاك الطريق المزلة الذي ورط كثيرًا من الناس في الهلكة".[٤٢] مع ذلك، ومع الاعتراف بهذه الصعوبات التي تعتور المؤول، والتي قد تجرفه إلى مهاوي الخطأ، ألا يمكن الاجتهاد في وضع معايير علمية تؤسس لهرمنيطيقا تاريخية كما حددناها سلفًا؟ إذا كان من الصعب تحديد وصفة جاهزة تتأسس عليها هرمنيطيقا تاريخية، فلا أقل من تقديم بعض الضوابط التي نزعم أنها قد تساهم في بنائها إذا تظافرت جهود المؤرخين لسبر غور هذا الحقل ومنها:

١-**بالنسبة للنص موضوع التأويل**: ينبغي أن يشكل وحدة تتسم بالتناسق والكمال والشمولية والانتظام،[٤٣] لأن المؤرخ إذا انطلق من نص يغلب عليه التفكك أو التناقض والاضطراب والابتسار والتقطع، فإن النص ذاته يصبح غير قابل للتأويل، وكل سعي وراء ذلك يكون مجرد لغط أو "كماليات" فكرية.

٢ -قبل تأويل النص، يجدر بالمؤرخ تأمله اعتمادًا على **تصورات ذهنية ومعارف أولية** تعطي للمؤول أبعاد النص المؤول، ونقط الارتكاز كما يذهب إلى ذلك "جاك لوكوف".[٤٤] وعلى هذه الأرضية يمكن أن تبني عملية التأويل عبر أسئلة افتراضية واستثمار للمصطلحات التي يكون قد استأنس بها، فضلاً عن العلامات والرموز الدالة.[٤٥]

٣-**الفهم الكافي النص التاريخي** الذي يستدعي بانغلاقه التأويل، وهذا الفهم يتشكل من خلال ما يقوم به المؤرخ من عمليات المقايسة والمقابلة والمعارضة والترتيب، انطلاقًا من مجموع المستندات التي يجمعها، أو ما يسميه البعض بمسند البحث، يحتك بها ويستأنس بها حتى تصبح لديه نوعًا من المعتاد والمألوف، فيصبح في عقله تصور يعكس النظام الضمني لتلك المستندات، تقوده إلى حكم يستنبط منه مجموعة من الأقيسة بهدف إعادة تركيب تلك المجموعة في شكل كله مغلقة على حد تعبير العروي، وإذا نجح في هذا المسعى يكون بذلك قد فهم النص. وتعد هذه القاعدة مشتركة عند كل المؤولين رغم الاختلاف في النتائج. ومعلوم أن الجرجاني قد شدد على ضرورة الفهم قبل أي تأويل، واعتبر أن تعدد التأويلات وتضاربها ناتج عن عدم حصول الفهم الكافي لدلالات الألفاظ في سياقها أو سوء تقدير للصيغ النحوية المبنية عليها.

٤ ـ حاجة المؤول إلى **معرفة تاريخية تحيط بأهم التجارب التاريخية الكبرى للبشرية** المادية منها والروحية، وذلك قصد استلهام المعنى الذي يحاول استخراجه من النص التاريخي المؤول، فالتاريخ الصرف يكتب حسب كلمات "رينان" بعاملين: "الحالة العامة للنفس البشرية، وبالحوادث والعوارض التي تتداخل مع الأسباب العامة لتحديد مسار الأحداث".[٤٦]

٥ . **تجاوز القراءة السطحية للنص التاريخي إلى قراءة شمولية** تقوم على النظرية الكلية الفاحصة، مع مراعاة التقيد بمقصدية النص، وعدم التسرع والتعميم. وقد كان العلماء المسلمون على حق حين وقفوا من التأويل موقف من لا يرضى بمجرد الظن.

٦-**البحث عن المعنى المضمر في النص**، أي المعنى غير المصرح به في الجملة اللغوية المنطوق بها.(٤٧) وفي هذا الصدد ساق الأستاذ عبد الله العروي مثالاً مفيدًا عن مؤرخين كتبا عن حياة المسيح وهما " ستراوس " و" رينان "، إذ وقف الأول عند ظاهر النص وصار يحكم به على أقوال الآخرين، في حين أن الثاني كان يتطلع إلى الحقيقة النفسية التي تتجاوز، بل ربما تتناقض مع المعنى الظاهري للنص.(٤٨)

٧ -**احترام القراءة السياقية للنص** من خلال وضعه في سياقه المرجعي أي سياق التاريخ. فالمعنى المراد تأويله يحتاج إلى معنى آخر يثبته، وعلى المتلقي أن يرصد معنى للمعنى الذي أثبته في لحظة التأويل، ونعني بذلك ضرورة استحضار ظروف إنتاج الخطاب، وربط النص بثقافة المحيط الذي أنتجه، أي ما يسميه نصر حامد أبو زيد بتاريخانية المعرفة والتأويل. وفي إطار استحضار ظرفية إنتاج الخطاب، ينبغي التمييز بين تاريخية المؤلف وتاريخية النص، فتاريخية المؤلف تتمثل في ظروفه ووضعه السوسيو- اقتصادي والنفسي، وكذا التيارات الثقافية والحزبية التي كان ينخرط فيها. أما تاريخية النص فهي الحقيقة التاريخية التي يفصح عنها النص باعتبار أن ما يطرحه يكون موجها لأناس يعيشون في عصر له خصوصياته الثقافية والدينية والاجتماعية.

٨-مراعاة **انعدام وجود تناقض المعنى المؤول مع معطى الواقع**، وإلا فقد التأويل مصداقيته،(٤٩) فالتأويل التاريخي يجب أن ينتهي إلى التعاضد مع الواقع لا التنافر معه، لأنه يكمل صورة الواقع أو الحقيقة التي يبحث عنها المؤرخ.

٩ -**عدم إسقاط الحاضر على الماضي** في عملية التأويل التاريخي، فالنص يؤول حسب اختلاف ظروف البث وظروف الإنصات، وإن كان البعض يرى صعوبة التحرر من المحيط الثقافي للمتلقي.(٥٠)

١٠- **احترام منطق النص وبنيته الداخلية** ومقارنته بنصوص خارجية إذ لا يستقيم تأويل نص ديني كنص السير والمغازي على أنه نص ينزع نحو تضخيم تيار روح الجاهلية على سبيل المثال، أو تأويل هوية شخص اعتمادا على علامة اسمه فحسب، دون تكلف عناء البحث في مصادر أخرى.(٥١) وتقوم المقارنة الخارجية (النص المبرر بنص خارجي) بدور المدعم للمؤول، وكلما تعددت وسائل المقارنة -بالشواهد المكتوبة وغير المكتوبة -، كلما كان التأويل أكثر رجحانا.

١١ -كما أن تأويل النص يحتاج إلى **التحليل اللغوي في مستوييه الصوتي والدلالي**، فبتفحص الجانب الصوتي في المصطلحات الواردة في النص، يلاحظ الباحث على سبيل المثال فرقًا واضحًا بين سكان إسبانيا المسلمة ونظرائهم في اسبانيا المسيحية، فالأوائل عرفوا نسقًا صوتيًا تتجلى فيه بعض الأشكال الصوتية الموروثة عن العربية كاستبدال حرف (S) بالشين و(k) بالقاف، والخلط بين (E) و(I)، وفك المجموعات الصامتة بصائت من نفس جرس صائت المجموعة المجاورة، وبتر بعض أجزاء السبق من الكلمات الإسبانية.(٥٢)

في هذا المنحى، سبق أن وظفنا الآلية الصوتية في دراسة سابقة،(٥٣) لا مانع من اتخاذها كنموذج في هذه الدراسة: فعند معالجتنا لإشكالية وجود أو عدم وجود كنيسة في المغرب خلال القرن الثاني عشر الميلادي، استوقفنا نص يذكر فيه البيدق(٥٤) أنه في سنة (٥٥٠هـ/١١٥٥م) قام الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي "بغرس بحيرة أمام "شنطلولية ". وقد تبيّن لنا من خلال التحليل أن شنطلولية تعني كنيسة (Saint Eulalie)، لأن البيدق كان ينطق بعض الكلمات بالدارجة التي تستعمل حرف الشين مكان حرف (S)، وتأكدنا من تعوده على النطق بهذه الطريقة من خلال مصطلحات أخرى أورد نطقها بنفس المخرج الصوتي مثل كلمة "سينيور" التي نطقها "شينيور" (بالشين).(٥٥) إن مراعاة هذه الاختلافات الصوتية ودلالاتها يُعَدّ أداة مهمة تسعى -بامتياز -إلى الحيلولة دون السقوط في مزالق التأويل الخاطئ، لأن المعنى قد يتغير أحيانا حسب اختلاف مخارج الأصوات. وغير خاف أن لسانيات الخطاب تقدم أدوات للتأويل من حيث الوقوف على ظرفية إنتاج الخطاب والعلاقات التواصلية بين عناصره، خاصة علاقة القائل بقوله، وعلاقة كل ذلك بالمقول، فضلا عمّا تقدمه من مختلف آليات البرهنة والاستدلال والجدل والإقناع.(٥٦)

١٢ . **الابتعاد عن التأويل الموجه** المنطلق من مقولات جاهزة أو تصورات قبلية، والتحرر من أي احتواء للذات المفسرة، ووهمها بالقدرة على التأويل انطلاقا من توجهات معينة، ويمكن في أقصى الحالات تبني ما اسماه "إيكو" بالطوبيك الذي يمثل عند المتلقي الأشكال الأولى لمقاربة المعنى وفق خطاطة يتبناها هذا المتلقي، ويباشر وفقها عمليات التأويل اللاحقة.(٥٧)

١٣. **تجاوز التأويل المأدلج**: إن كل فعل تأويلي يفقد مصداقيته إذا اقترن **بالإسقاط الإيديولوجي المقنع**، والتقييم الشكلي الاعتباطي الذي يعمل على تجويف النص التاريخي من دلالته، وتحويله إلى هيكل فارغ لا قيمة له. وقد جرّ التأويل الإيديولوجي إلى عدة متاهات أوجزها المفكر إحسان سركيس في كتابه "التأويل التاريخي ودور الفرد" حين عرض لاختلافات وجهات التأويل المأدلج بين حزب الشعبيين الاشتراكيين الروسي الذي ذهب إلى حد نفي دور الزعماء والأفراد في التاريخ وتأويل تقدم الأحداث التاريخية على أنها تتطور لا بنفوذ بعض العقول والإرادات المنعزلة، وإنما بالفعل المتبادل لعدد من القوى

الاجتماعية المتداخلة، وأصحاب التأويل البطولي الذين يرون في الفرد "كمية مهملة" في التاريخ. ويورد في ذات الوقت آراء "بليخانوف" في نفي التأويل الفردي القاطع، والتأويل الاجتماعي السطحي، ومحاولته التوفيقية في الجمع بينهما عن طريق مقولة الحرية والضرورة.(٥٨)

١٤. **مراعاة معاني الدلالات الرمزية في النسيج الثقافي**: عند افتراض وجود دلالة رمزية في النص التاريخي، فإن تأويل المؤرخ يغدو ضروريًا، لكن يتحتم عليه الأخذ بعين الاعتبار ما تعكسه الدلالة للرمزية في الفكر، ومدى تجدرها في الثقافة العربية إذا كان النص المؤول يهم التاريخ العربي، وبما تختزنه تلك الثقافة من مأثورات ومعتقدات شعبية ومتخيل اجتماعي، على أن يكون النص مكونًا من جملة معاني تربط بينها الدلالة المباشرة التي تحيل عليها الوحدات المكونة له.

والحقيقة أنه مهما حاولنا وضع ضوابط للارتقاء بتأويل النص التاريخي إلى المستوى العلمي المأمول، فإنه يصعب حصرها أو الاتفاق كلية على مواصفاتها، لأن بعض النصوص التاريخية يشوبها التعقد، كما أن بعضها قد ينفلت من هذه "القواعد" لعدم انطوائها على معنى واحد يمكن أن يصاغ حوله إجماع مثل النصوص المناقبية الغارقة في الرموز، المحلقة في فضاء الغيبيات، والمشحونة بالمواقف المتنوعة والمقاصد المختلفة، مع تداخل الواقع مع المتخيل، مما يتمخض عنه تأويل يصبح هو نفسه موضوع تأويل، ليدخل في سلسلة من التأويلات اللامتناهية التي لا يمكن وصفها أكثر من أنها اجتهادات مفيدة. وفي هذا الإطار تدخل محاولات الأستاذ محمد مفتاح، رغم أنه اعتمد في تأويلاته على من أسماهم "بالعقلانيين" من الأسلاف والمتصوفة، ولذلك كان محقًا وأمينًا حينما كان يردف إلى أحكامه المؤولة عبارة "إذا صحّ هذا التأويل".(٥٩) وهو النهج نفسه الذي سرنا على هديه في دراسة سابقة حين حللنا موقف المتصوفة من أزمة المجتمع الموحدي ونظرتهم إلى كيفية التحول الذي ينشدونه، إذ تبيّن أنهم كانوا يرومون إلغاء المجتمع القديم كلية وتدشين مجتمع جديد، استنادًا إلى روايات مناقبية تدل جميعها على فكرة "البعث" من جديد؛ يتجلى ذلك في الروايات الكرامية التي تتردد دائمًا في كتب مثل كتاب التشوف لابن الزيات حول الماء والبحر والحج والحوت، إذ أن هذه الظواهر تعكس في الثقافة العربية - الإسلامية التطهر وتجديد القوى الروحية و"ميلاد" جديد للإنسان، وهو ما تدعمه وقائع السياق التاريخي المتولد من الأزمة نفسها.(٦٠)



خَاتِمَةُ

خلاصة القول؛ أن الحديث عن هرمنيطيقا تاريخية مسألة شائكة ومعقدة لتعقد النصوص ذاتها. وقد أثبت البحث بالحجة قابلية بعض النصوص التاريخية للتأويل شريطة التقيد بضوابط قد تساعد في بناء " لم التأويل التاريخي" بناء علميًا متكاملاً، وفي هذا السياق تأتي أهمية وضع فهم وإدراك النص ومعاشرته والاستئناس به، وتأسيس معجم للرموز التاريخية على غرار ما قام به (Chevalier Jean)(٦١) كمسألة ملحة في الأبحاث المستقبلية حول تأسيس هرمنيطيقا في مجال التاريخ.

الهَوامِشُ:

(١) سعيد توفيق، "**هرمنوطيقا النص الأدبي بين هيدجر وجادمر**"، مجلة نزوى، عدد (٢)، مارس١٩٩٥، ص٨٤.

(٢) لا نجلوا وآخرون، **النقد التاريخي**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، طبعة الكويت، ص١١٨.

(٣) الترجمة العربية للدكتور فؤاد شاهين.

(٤) راجع: محمود اسماعيل، **قراءة نقدية في الفكر العربي المعاصر ودروس في الهرمنيطيقا التاريخية**، مصر العربية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص٩٣ وما بعدها، ثم ص١٢١ وما بعدها.

(٥) سعيد توفيق، م.س، ص٨٤.

(٦) نفسه، ص٩٠.

(٧) محمد بن عياد، "**التلقي والتأويل**: **مدخل نظري**"، مجلة علامات، عدد ١٠، ١٩٩٨، ص٩.

(٨) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، ج٢: المفاهيم والأصول، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٢، ص٣١٣.

(٩) يقول: أوّل الكلام وتأوّله: دبّره وقدّره وإن كان يلاحظ أنه خلط بين التأويل حسب هذا المعنى والتفسير حيث أضاف: "وأوله وتأوله" فسّره. انظر: **لسان العرب**، دار المعارف ج١، ص١٧٢.

(١٠) انظر: الآيات: رقم ٦، ٢١، ٣٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠١، ١٠٠.

(١١) انظر: الآيتين رقم ٧٨ و٨٢.

(١٢) انظر: الآية رقم ٥٣.

(١٣) انظر: الآية رقم ٣٥.

(١٤) انظر: الآية ٥٩.

(١٥) انظر: الآية ٣٩.

(١٦) انظر الآية: ٧. وكل الاحصائيات السالفة الذكر تمت عبر قرص السيديروم: Holy Coran, Ver 6.o، انتاج شركة صخر.

(١٧) سعيد توفيق، م.س، ص٩٠.

(١٨) عبد الله العروي: م.س، ص٣١٢.

(١٩) اقتباسًا من: محمد بن عياد: م.س، ص١٨.

(٢٠) نفسه، ص٩.

(٢١) **مفهوم التاريخ**، ص٣١٦.

(٢٢) حميد لحميداني، "المقصدية ودور المتلقي عند عبد القادر الجرجاني". بحث نشر ضمن أعمال ندوة "قضايا المصطلح في الآداب والعلوم

الانسانية"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة الندوات ١٢، ج١، سنة ٢٠٠٠، ص١٤٨.

(٢٣) نفسه، ص١٥٤.

(٢٤) نصر حامد أبو زيد، **إشكاليات القراءة وآليات التأويل**، البيضاء، المركز الثقافي العربي (ط٢)، ص٢٥٤.

(٢٥) وجيه كوثراني، **"مارك بلوخ: التاريخ: دراسات البشر في الزمن لا في الماضي"**، مجلة منبر الحوار، بيروت ١٩٩٨، ص٧٨

(٢٦) محمد أركون، **تاريخية الفكر العربي**، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت ١٩٨٦ (ط١)، ص١٥.

(٢٧) نفسه، ص١٧٢.

(٢٨) **المقدمة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت (ط٣)، (د.ت) ص٤.

(٢٩) **دلائل الإعجاز**، تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٨، ص٢٠٢.

(٣٠) عاصم الدسوقي، **البحث في التاريخ**: **قضايا المنهج والإشكاليات**، بيروت ١٩٩١، دار الجيل، ص٧٦.

(٣١) عبد الله العروي، م.س،ج٢، ص٣١٢.

(٣٢) نفسه، ص٣١٥.

(٣٣) عبد الفتاح كيليطو، **الحكاية والتأويل**: **دراسات في السرد العربي**. دار توبقال للنشر، البيضاء ١٩٨٨، ٣٦.

(٣٤) نصر أبو زيد، م.س، ص٢٠.

(٣٥) نفسه، ص٣٦.

(٣٦) ابن الزيات، **أخبار أبي العباس السبتي**، نشره أحمد التوفيق على هامش كتاب التشوف، منشورات كلية الآداب، الرباط ١٩٨٤، ص٤٥٣.

(٣٧) **أعمال الأعلام**. القسم المشرقي، ج١، ص٢٥٧، عن: تحقيق رابح المغراوي، (أطروحة مرقونة)، قسم الدراسة، ٣٩٢

(٣٨) نفسه، ص١٩٤. عن المرجع السابق، ص٣٩٣.

(٣٩) نفسه، ص ١٩٤، عن المرجع السابق، ص٣٩٢.

(٤٠) حاجي خليفة، **كشف الظنون**، مجلد ١، ص٣٣٥.

(٤١) سعيد توفيق، م.س، ص٩٢.

(٤٢) **دلائل الإعجاز**، ص٢٨٦.

(٤٣) عبد الله العروي، م. س، ج٢، ص٣١٤.

(٤٤) عن: عفيف عثمان، **"الذاكرة والتاريخ من خلال كتاب المؤرخ جاك لاكوف"**، مجلة منبر الحوار ١٩٩٨، ص٩٤-١٠٥.

(٤٥) كما فعل عبد الفتاح كيليطو في حكاية الجمل مع أبي سهل، انظر: م.س، ص٦٥، ٦٦.

(٤٦) **حياة المسيح**، ص٤٧: عبد الله العروي، م.س، ج٢، ص٣١٣.

(٤٧) بنعيسى أزاييط: **"من تداوليات المعنى المضمر: اللسانيات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق"**، بحث نشر ضمن كتاب اللسانيات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق، منشورات كلية الآداب بمكناس، سلسلة الندوات ٤، سنة ١٩٩٢، ص٥٦.

(٤٨) عبد الله العروي، م.س، ج٢، ص٣١٣.

(٤٩) **"حرية التأويل عند أمبريتو إيكو"**، ملحق "العلم الثقافي" بتاريخ ٩ يناير ١٩٩٩، ص١٢، عمود ٢.

(٥٠) رضا الزواوي، **في الفكر الجدلي: دراسة تحليلية نقدية للنصوص**، ص١٧ وما بعدها.

(٥١) انظر: عبد الفتاح كيليطو، م.س، ص٦٢، حيث اعتمد في تأويله لأصل المتصوف أبي سهل القرشي بأنه من مكة، علمًا بأن ثمة أسماء مشتركة بين المغاربة والمشارقة قد توحي بهذا التأويل ولكنها قد تكون غير صحيحة.

(٥٢) الحسين بوزنيب، **"التحليل اللغوي منهاج لاستنتاج جوانب حضارية"**: بحث نشر ضمن أعمال ندوة التاريخ واللسانيات: النص ومستويات التأويل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٢٠، سنة ١٩٩٢، ص٤٢.

(٥٣) إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، بيروت ١٩٩٨، دار الطليعة، ص٨٣.

(٥٤) **أخبار المهدي بن تومرت**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر ١٩٨٦، ص١١٤.

(٥٥) نفسه، ص٦٩.

(٥٦) الحسين المجاهد، **"صورة السودان في الخطاب التاريخي المغربي خلال القرن ١٦ هـ، نموذج مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لعبد العزيز الفشتالي"**، نشر ضمن أعمال ندوة التاريخ واللسانيات: النص ومستويات التأويل، مرجع سابق، ص٣١.

(٥٧) سعيد بنكراد **"السيميوزيس والقراءة والتأويل"**، مجلة علامات، عدد ١٠، ص٥٠.

(٥٨) للمزيد من التفصيل، انظر: احسان سركيس، **التأويل التاريخي ودور الفرد**. دار دمشق للطباعة والنشر (دون تاريخ)، ص٣٤، ٣٥

(٥٩) راجع مقاله: **"السياسة الحيوانية: قراءة في كرامات أبي يعزى"**، بحث نشر ضمن أعمال ندوة: التاريخ واللسانيات المشار إليها سلفا، ص٨٠.

(٦٠) للمزيد من التفاصيل حول الموضوع، راجع: إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، بيروت ١٩٩٤، دار الطليعة ص١١٢ وما بعدها.

(٦١) Jean Chevalier, Dictionnaire des Symbols. Paris –Rabat, Lafont, 1982.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

تاريخ نشأة المدارس التعليمية في الغرب الإسلامي
من خلال الروايات التاريخية المختلفة



د. بشير مبارك
أستاذ التاريخ الوسيط
المركز الجامعي عبد الله مرسلي
تيبازة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ
عرف المغرب الإسلامي مؤسسات تعليمية عديدة، والتي تمثلت عمومًا في الكتاتيب والمساجد، ودور العلم، قبل أن تعرف المدارس التعليمية، وفقدت أهميتها بعد أن عرف العالم الإسلامي مؤسسات تعليمية بديلة (المدارس) خلال القرن الخامس الهجري. إن الباحث يحتار وهو يحاول وضع تاريخًا محددًا لانفصال الدراسة عن المسجد، فالرأي الأول يذهب إلى أن المدارس ظهرت مع نهاية القرن الثامن الهجري في خراسان، والثاني يرى أن أهل نيسابور هم أول مَنْ أقام المدارس، أما الرأي الثالث فيرى أن أول مَنْ أقامها نظام الملك الطوسي. واستمر هذا التضارب حول زمن ظهورها في الغرب الإسلامي فهناك مَنْ يجعل مهدها في الأندلس، وهناك مَنْ يجعله بطرابلس والبعض الآخر يجعلها بفاس، وهذه الدراسة محاولة للتوضيح.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٣٠ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ مارس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
المؤسسات التعليمية، الكتاتيب، دور العلم، دار الحكمة، تاريخ الظهور

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041877

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
بشير مبارك. "تاريخ نشأة المدارس التعليمية في الغرب الإسلامي من خلال الروايات التاريخية المختلفة".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٧٨ – ٨٩

مُقَدِّمَةُ
لقد عرف المغرب الإسلامي مؤسسات تعليمية عديدة، أين كانت تلقن مختلف فنون العلم، والتي تمثلت عموما في الكتاتيب[1] والمساجد، ودور العلم، قبل أن تعرف المدارس التعليمية، حيث مثّلت المؤسسات التعليمية الأولى عند العرب على عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين من بعده والفترة الموالية لخلافتهم (الفترة الأموية ثم العباسية) وما تلاها من عصور.

وكانت المؤسسات التعليمية من العوامل الهامة التي أثّرت في الحياة العلمية بالغرب الإسلامي، والشيء الملاحظ على الدراسات المتخصصة أنّها لم توليها اهتمامًا كبيرًا بالمنطقة، وإن وجدت فهي قليلة، وهذا ربما راجع لصعوبة الكتابة في مثل هذه المواضيع، إضافة إلى نقص المادة العلمية، لذا نجد أن أغلب الكتابات قد وجّهت اهتماماتها نحو الكتابة عن الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والإدارية ولم تهتم كثيرًا بالناحية الفكرية والثقافية والعلمية، ومن بين الدراسات القليلة التي اهتمت بالحياة الثقافية نذكر دراسة رفيق خليقي "البيوتات العلمية الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية القرن الثالث الهجري إلى نهاية القرن التاسع الهجري"، ودراسة فاطمة مطهري" تاهرت الرستمية دراسة حضارية"، ودراسة بكير إبراهيم بحاز حول الحياة الفكرية والاقتصادية للدولة الرستمية (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٩٩-٩٠٩م).

إنّ ما يلاحظ على الدراسات السالفة الذكر أنّها لم تفرد لموضوع "المدارس التعليمية" دراسة خاصة مستقلة، وإنما جاء الموضوع ضمن دراسات عامة. اعتبارًا لذلك كان موضوع ظهور المدارس بالمغرب الإسلامي هو محور بحثنا هذا الموسوم بـ: "تاريخ نشأة المدارس التعليمية بالغرب الإسلامي من خلال الروايات التاريخية المختلفة" والتي أسعى من خلالها محاولة رسم لوحة عن مكان وتاريخ ظهور المدارس التعليمية بالمنطقة.

تتمحور الإشكالية التي يطرحها البحث ونحاول الإجابة عليها في: المدارس التعليمية بالغرب الإسلامي للبحث في: الإطار الزماني والمكاني لظهور المدارس بالمنطقة؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية يترتب علينا الإجابة عن تساؤلات فرعية من أهمها:- ما مفهوم المدرسة؟ متى عرف العالم الإسلامي نظام المدارس مشرقًا ومغربًا؟ وأي منطقة كانت سباقة لظهورها؟ أسئلة تطرح نفسها بإلحاح في هذه الدراسة المتواضعة حول المنشآت التعليمية بعالمنا الإسلامي.

وللإجابة عن إشكالات البحث وتساؤلاته كان لا بد من اعتماد واستخدام منهج تاريخي معين بالرجوع إلى المادة العلمية المبثوثة في مختلف أنواع المصادر التاريخية التي تناولت الموضوع أو طرقته في إحدى جوانبه، وحينما يتعذر علينا الحصول على المادة التاريخية نميل إلى استقراء مختلف الأفكار واستنتاج بعض الحقائق وذلك بمقارنة النصوص التاريخية مع بعضها البعض

نشأة المدارس التعليمية في الغرب الإسلامي

لقد كانت المساجد من بين أهم المؤسسات التعليمية التي كان يتلقى فيها المسلمون تعليمهم، فاعتبرت أول معاهد التعليم في الإسلام، تلقى فيها المسلمون أصول الدين ومبادئ الإسلام،[٢] فاعتبر المسجد من أكبر معاهد الدراسة آنذاك، فلم تكن المساجد مخصصة للعبادة فقط، بل كانت تؤدي أعمالا مختلفة، فكانت مكانا للعبادة في المقام الأول، تقام فيها الصلوات وتخطب فيها الخطب، ومحكمة للتقاضي، وفيها يبايع الخلفاء، وفيها يبنون سياساتهم، وفيها يدعى القوم للجهاد، وتوزع الغنائم، هذا بالإضافة إلى دورها التعليمي، فعقدت فيها حلقات الدراسة والتدريس، مثلما كان عليه الحال بمسجد عمر بن العاص[٣] بمصر[٤]، ومسجد الكوفة ، والحرم المكي والمدني وغيرها من المساجد التي قامت مقام المدارس والجامعات في ذلك العصر،[٥] فكانت من بين الأماكن التي ارتادها طلبة العلم ورواد المعرفة قبل إنشاء المدارس في الإسلام،[٦]

أما الكتاتيب فكان الصبيان يرتادونها في بداية مرحلة تعليمهم وعرفت أيضا باسم مجالس الأدب أو الحوانيت،[٧] ويتضح من خلال كتب النوازل الفقهية أن هذه المرحلة تبدأ عندما يبلغ الصبي سن التمييز فيما بين الخامسة والسادسة من عمره[٨] كان لها دور هام وأساسي في عملية التعليم، لذا اعتبرت بمثابة المؤسسة التعليمية الأولى عند المسلمين حضرت الصبية لمرحلة التعليم بالمسجد[٩]. إضافة إلى دور العلم التي عرفت بدور الحكمة، أشهرها دار الحكمة في بغداد[١٠] ودار العلم بالموصل ودار العلم بالقاهرة،[١١] كانت هذه الدور مراكز للنشاط العلمي والثقافي. لقد أدّت المساجد والكتاتيب ودور العلم دورها التعليمي، لكن بدأ هذا الدور يزول تدريجيا، وفقدت أهميتها كمراكز تلقن فيها العلوم، بعد أن عرف العالم الإسلامي مؤسسات تعليمية بديلة تمثلت في "المدارس" مع بداية القرن الخامس الهجري (١١م). إنّ المدرسة من بين أهم المؤسسات التعليمية التي عرفها العالم الإسلامي، وهي مما حدث في الإسلام، لم تكن معروفة زمن الصحابة ولا التابعين كما وضحت لنا ذلك بعض النصوص التاريخية "المدارس مما حدث في الإسلام ولم تكن معروفة زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة...".[١٢]

لقد أوردت لنا بعض الدراسات الحديثة والمعاصرة أقدم النصوص الأدبية والتاريخية التي ذكر فيها مصطلح "درس أو مدرسة"، فمن النصوص الأدبية نذكر على سبيل المثال ما أورده سعد أطلس فيقول: إن أقدم النصوص الأدبية التي نجد فيها ذكر المدرسة وبمفهومها الاصطلاحي قول: دعبل الخزاعي (٢٤٦هـ/٨٦٠م) في قصيدة يرثي فيها آل البيت وما لقوه من تعذيب وما لحق معاهد العلم والدين جراء قتلهم:

مَدَاْرِسُ آيَاْتُ خَلَتْ مِنْ تِلَاْوَةٍ *** وَمَهْبَطِ وَحْيٍ مَقْفَرَ اَلْعُرْصَاْتِ[١٣]

ومن دون شك أنه يقصد بلفظة "مدارس" تلك البنايات التي كانت تشاد وتقام لإقراء وتلاوة القرآن الكريم وليس تلك التي نحن بصدد الحديث عنها، لأنها ستظهر بما يقارب القرنين من زمن دعبل الخزاعي، ويذكر لنا كذلك أقدم نص تاريخي ذكر فيه مصطلح - مدرسة- وذلك باعتماده على ما أحصاه المستشرق البروفيسور وستنفلد (wustenfeld) في أحد كتبه التي ألّفها حول الإمام الشافعي، عند قوله:"...شيّد الإمام أبو حاتم البستي الأديب المحدث المشهور مدرسة دارًا في بست[١٤]، وجعل فيها خزانة كتب، وغرفة للطلاب، وخصص مبالغ مالية وأرزاق للغرباء من طلاب العلم فيها..." ،[١٥] وأورد لنا أحمد فكري نصًا يعتبر من أقدم النصوص التي ذكر فيها مصطلح "مدرسة"، فيشير إلى أول إشارة لمصطلح مدارس في كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، وذلك في المقدمة حين وصف المؤلف فيها العناء الشديد الذي كان يلاقيه في جمع مادة كتابه حيث قال: " إنه تفقّه وتأدّب وتزهّد وتعبّد وإنه فقّه وأدّب وخطب على المنابر... وذكر في الجوامع واختلف إلى المدارس" [١٦]، فما مفهوم المدرسة ؟

إذا ما أردنا تحديد مفهوم "مدرسة" مفهومًا صحيحًا وواضحًا، يجب أن لا نكتفي بضبط المعنى لغويًا فقط، لأنه غير كاف لفهمه بشكل صحيح ودقيق، لذلك ارتأينا أن نتطرق إلى كل المعاني وفي مقدمتها المعنى اللّغوي، ثم المعنى الاصطلاحي، فالمعنى المعماري ثم الفكري، حتى نكون في الأخير قد وفقنا في تحديده ولو نسبيًا.

أما المدلول اللّغوي، فقد زودتنا بعض معاجم اللّغة التي اعتمدنا عليها، المتمثلة في لسان العرب لابن منظور، ومختار الصحاح لأبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م) ، وكتاب جمهرة اللّغة للأزدي (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م) بمعلومات للوصول إلى اشتقاقه ومعانيه، فذكرت أن الكلمة مشتقة من الفعل "دَرَسَ" وأصله أرامي بمعنى قرأ،[١٧] يختلف فحواه حسب توظيفه في الجمل منها "دَرَسَ الشيء، والرسم يَدْرُسُ دُرُوْسًا وَاَلْدَرْسُ أثر اَلْدَاْرِسِ"، قال ابن الهيثم "دَرَسَ اَلْأَثَرُ يَدْرُسُهُ دَرْسًا" وَ"دَرَسَتْهُ اَلْرِيْحُ تَدْرُسُهُ دَرْسًا" أي محته، ويقال كذلك: "دَرَسْتُ اَلْثَوْبَ أَدْرُسُهُ دَرْسًا فهو

مَدْرُوْس وَدَرِيْس "أي أَخْلَقْتُهُ، ومنه قيل للثوب اَلْخَلَقْ، ويقال: "دَرَسَ اَلْطَعَامَ يَدْرُسُهُ" إذا دِيْسَ،[١٨] ويقال: "دَرَسْتُ القرآن وما أشبه" أي أَدْرُسُهُ دَرْسًا، و "دَرَسَ البعير يَدْرُسْ" إذا ابتدأ فيه الجرب وَ"دَرَسَتْ الجارية إذا حاضت" و"اَلْدَرِيْسُ" الثوب الخلق،[١٩] ومنه "دَرَسَ القمح" أي داسه بالنورج[٢٠]، وفي اشتقاق آخر يخص الكتابة والقراءة فيقال: "دَرَسَ الكتاب يَدْرُسُهُ دَرْسًا وَدِرَاسَةً وَدَارَسَهُ" أي حتى انقاد لحفظه، وقيل: "درست" قرأت كتب أهل الكتاب ودارست ذاكرتهم،[٢١] و"درسه الكتاب" أي جعله "يَدْرُسُهُ" وَ "دِرَاسَةُ الكتاب مُدَارَسَةٌ" أي قرآه مشتركين،[٢٢] وقيل أن إدريس عليه السلام سمي بذلك – إدريس – لكثرة دراسته كتاب الله تعالى[٢٣]، ويقال: "دَرَسْتُ الكتاب أَدْرُسُهُ دَرْسًا" أي ذللته بكثرة القراءة حتى خفَ حفظه علي[٢٤] و"اَلْمِدْرَاسْ" بكسر الميم ودال ساكنة و"اَلْمِدْرَسْ" بكسر الميم ودال ساكنة وضم السين، أي الموضع الذي يدرس فيه أو البيت الذي يدرس فيه القرآن الكريم ، والمدرس الكتاب، و"اَلْمُدَارِسْ" بضم الميم الذي قرأ الكتب ودرسها، ويقال: "مُدَارِسُ اليهود" و "اَلْمُدَارِسْ" صاحب دراسة كتبهم، "واَلْمَدَارِسْ" هو البيت الذي يدرسون فيه، ويقال: دَارَسْتُ الكتب وتَدَارَسْتُهَاْ وادَّرَسْتُهَاْ أي دَرَسْتُهَاْ[٢٥].

وورد المصطلح في القرآن الكريم دالاً على القراءة في قوله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ"،[٢٦] وقوله تعالى أيضًا: "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَنْ لَا يَقُولُواْ عَلَى ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ".[٢٧] وسمي الدرس حلقة وذلك أن الطلاب كانوا يتحلقون على شكل حلقة، أي أنّهم كانوا ينتظمون على شكل عقد أو حلق حول شيخهم، وكانت الحلقة تضيق أو تتسع أو تتضاعف تبعا لعدد الطلاب[٢٨]. إذن مصطلح مدرسة له اشتقاقات لغوية عديدة يختلف معناها حسب توظيفها، مشتق من الفعل درس، هذا عن المدلول اللّغوي، فماذا عن المدلول الاصطلاحي؟

أما عن مدلولها الاصطلاحي، فهي ذلك الموضع الذي يدرس فيه القرآن الكريم وغيره، عرفها أبو رأس الناصري (١١٦٥/١٢٣٧هـ-١٧٥١/١٨٢١م) في كتابه عجائب الأسفار ولطائف الأخبار: "المدرسة المتعارفة عندنا الآن هي التي تبنى لدراسة العلم أي لتعليمه وتعلمه..."[٢٩] ويذكر منها مدرسة ولدي الإمام في تلمسان[٣٠] ومدرسة القشاشين بالجزائر- جزائر بني مزغنة-[٣١] ومدرسة المحمدية بأم العسكر[٣٢]، والمدرسة هي البيت الذي يعلم فيها المدرس المقرئ[٣٣] فهي مكان إقامة الدرس، أو مكان الدرس والتعليم، وبالتالي فهي تلك الدور والمباني المشادة التي يقصدها طلاب العلم للتعلم والدراسة، يتولى التدريس فيها معلمون وأساتذة لقاء مرتبات تدر عليهم من الدولة.[٣٤]

أما من الناحية المعمارية، فهي مؤسسة أقيمت كموضع لتلقين العلوم، تضم بيتًا للصلاة، وسكنى للطلبة، "تتألف في الغالب من طابقين، بها غرف أو حجرات صغيرة، لها مرافق ضرورية تابعة لها، كخزانة الكتب أو المكتبة"[٣٥] "وعدد غرفها تتفاوت من مدرسة لأخرى، أقيمت بها قاعات فسيحة تتناسب مساحاتها مع الغرض الذي أعدت لأجله مثل خزانات الكتب، وقاعات التذكير والدروس، وقاعات تناول الطعام، وجلوس المدرسين والنظار والمشرفين والكتبة، وتضم كذلك مباني أخرى كالمطبخ والحمام والمخبز، والشيء الملاحظ أيضًا أنها كانت تضم ضريحًا أو أكثر، وقد عمّت هذه الظاهرة على جميع مدارس العالم الإسلامي"،[٣٦] كما سنرى ذلك خلال تطرقنا لمدارس المغرب الأوسط، والمدرسة معماريًا هي بناية تشبه المسجد الجامع والدور مخصصة للدراسة تتاح فيها الفرص للطلبة من أجل التخصص في علم من العلوم أو فن من الفنون.

ويرى البعض في تحديد المصطلح مفهومًا مغايرًا لما تطرقنا له سابقًا، حيث يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المدرسة أولاً تعني تلك المؤسسات العلمية والأمكنة التي يتلقى فيها الطالب علومًا مختلفة، وفي المقام الثاني تعني عند هؤلاء "المذهب الفكري"، فقد يكون لشخص ما مدرسة إذا ما نحا منحى خاصًا به في بحوثه أو في كتاباته فنسمع بالمدرسة الأفلاطونية، التي يقصد بها تلك الطريقة التي أثبتها أفلاطون في فلسفته أو على من سار على فكره واتبع طريقه، وكذلك مدرسة أبي حنيفة في القياس،[٣٧] فمَنْ سار على طريقه في استنباط الأحكام معتمدًا على القياس نسب إلى مدرسته، ونسمع كذلك عن المدرسة الفيثاغورثية حيث جرت العادة عند الفيثاغورثيين انساب الإنتاج إلى مؤسس المدرسة،[٣٨] كما قد يكون لمجموعة من الناس مدرسة خاصة - مذهب فكري خاص- وقد يكون لمدينة ما مدرسة تعرف بها فيقال: مدرسة الكوفة، ومدرسة البصرة في النحو مثلاً، كما نسمع عن المدرسة الأيونية نسبة إلى منطقة يونيا على السواحل الغربية لتركيا الحالية والمطلة على بحر إيجة حيث استوطنها مؤسسي هذه المدرسة منهم طاليس (٧٥٢/ ٤٩٧ قبل الميلاد) الذي اشتهر بالهندسة خصوصا،[٣٩] كما قد يكون لقطر ما من الأقطار مدرسة، فيقال مدرسة الحجاز[٤٠] للفتوى، ومدرسة الشام[٤١] في أنظمة الحكم والمذاهب السياسية، كما قد يكون لأمة ما مدرسة فيقال: المدرسة اليونانية في التفكير الفلسفي، والمدرسة الرومانية في التشريع،[٤٢] هذا النوع من المدارس - مدارس المذاهب الفكرية- ظهرت في أقطار الدولة العربية الإسلامية، وبالخصوص في الحجاز ومكة المكرمة ، حيث عاش الرسول (صلى الله عليه وسلم) معظم حياته وبها نزل الوحي، ومن أشهر أصحاب هذه المدارس مدرسة معاذ بن جبل[٤٣] الذي خلّفه الرسول(ﷺ) بها ليفقه الناس في دينهم ، ومن أتباعها الإمام الشافعي.[٤٤]

إذن للمدرسة مفاهيم مختلفة منها المفهوم اللّغوي، والمفهوم الاصطلاحي، والمفهوم المعماري، والمفهوم الفكري، والسؤال المطروح هو: هل اتفقت الروايات التاريخية أم تضاربت حول

مكان وتاريخ ظهور المدارس التعليمية بالعالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا؟

نظرًا لما حظي به التعليم من رعاية وتشجيع من قبل الرسول(ﷺ)، وازدياد إقبال الناس على طلب العلم، كان من الطبيعي أن تكون أماكن مخصصة لذلك، ومادام موضوعنا يتعلق بالمدارس التعليمية فلا بأس أن نتطرق للأماكن التي خصصت للتعليم قبل ظهور المدارس، فكانت البداية كما ذكرت لنا بعض النصوص، بدار الأرقم بن عبد مناف[45] التي اعتبرت كأول موضع خصّص لقراءة القرآن وتدارسه، حيث اجتمع فيها الرسول(ﷺ) مع أصحابه حتى عرفت – الدار- " بدار الإسلام الأولى"، ثم انتقل التعليم إلى المساجد بتوجيه من الرسول الكريم، فعلم الصحابة بمسجد قباء، ثم جلس الكثيرون للتعليم بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة.[46]

من دون أن ننسى دور الكتاتيب في تعليم الصبية وتحضيرهم للتعلم في المسجد، وكذلك دور العلم التي أنشأها الخلفاء . مع مرور الوقت بدأت الدراسة تنفصل عن المسجد ليصبح لها وضعا مستقلا، وهنا نقف أمام إشكاليتين، الإشكال الأول ما هي الأسباب التي أدت إلى هذا الانفصال؟ وما هو تاريخ انفصال الدراسة عن المسجد؟

فأما الأسباب التي أدت إلى انفصال الدراسة عن المسجد، فربما تغيير أساليب التدريس وكثرة الحلقات التي صاحبها الكثير من التشويش على المصلين في مكان يفترض منه أن يكون مهيأ للعبادة، فكان لا بد أن يخصص مكان معين للتدريس، وكذلك تطور العلوم بإدخال مواد دراسية أخرى أضيفت إلى القرآن الكريم خصوصا موضوعات علم الكلام المقترنة بالنقاش الحاد والجدل الطويل الذي قد يخرج أصحابه أحيانا عن الأدب الذي يجب مراعاته في المسجد، فكان من أكبر الأسباب التي دعت إلى انفصال الدراسة عن المسجد، إضافة إلى عبث الصبيان الصغار الذين لا يتحفظون من النجاسة مما جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان في المسجد، وحتى لا يتم إهمالهم كان لا بد من التفكير في إيجاد بديل كأماكن للتدريس منفصلة عن المسجد، ولكن ما يهمنا هو تراجع دور المسجد في التعليم وانفصال الدراسة عنه، فمتى كانت بداية هذا الانفصال؟

كانت بداية الانفصال مع ظهور مؤسسات تعليمية جديدة تمثلت في "المدارس التعليمية"، لكن الباحث أو المؤرخ يحتار وهو يحاول أن يضع تاريخًا محددًا لانفصال الدراسة عن المسجد بعد ظهور هذا النوع من المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، فيجد صعوبة في وضع تاريخ محدد لظهورها، كما يجد نفسه تائها وضائعا بين مجموعة أراء يحاول كل صاحب رأي دعم رأيه وموقفه ودحض الآراء والمواقف الأخرى، وأمام هذه الضبابية يضطر الباحث لعرض كافة ما اطّلع عليه من أراء حول تحديد أول تاريخ لنشأة المدارس التعليمية في العالم الإسلامي، ومن ثَمَّ يعمل على مقارنتها بهدف اختيار الرأي الأقرب إلى الصواب الذي يسنده الدليل وتدعمه الحجة بنصوص التاريخ.

فالرأي الأول يذهب أصحابه إلى أن المدارس ظهرت مع نهاية القرن الثاني هجري (٨٠٠م) في خراسان[47] "فأول مدرسة أسّست في خراسان أسسها المأمون العباسي في نهاية القرن الثاني الهجري أيام ولايته"،[48] لكن ربما هذه المؤسسة التعليمية لم ترق إلى المدرسة بالمفهوم السالف الذكر.

والرأي الثاني يرى أصحابه أن أهل نيسابور هم من كان لهم السبق في إقامة المدارس التعليمية بالعالم الإسلامي أواخر القرن الثالث الهجري (٩م) وبداية القرن الرابع الهجري (١٠م)، واعتمدوا في ذلك على مجموعة من النصوص التاريخية التي تشير إلى إنشاء المدارس في النصف الأول من القرن الرابع هجري (١٠م) في نيسابور، لكن أصحاب هذا الرأي يتفقون على أن نيسابور هي المهد الأول للمدارس ويختلفون حول أول مدرسة بها، فتباينت الآراء بين مدرسة ابن فورك، والمدرسة البهيقية[49]، والنصوص التي سنذكرها تبين هذا الاختلاف، فمثلا تورد لنا بعض الدراسات الحديثة أن مدرسة أبا بكر محمد بن الحسن بن فورك هي الأقدم في نيسابور، حين تذكر قول الصفدي "بنيت في نيسابور مدرسة لأبي بكر محمد بن الحسن بن فور(ت ٤٠٦هـ/١٠١٥م)"[50] فأقدم مدرسة بنيسابور هي مدرسة ابن فورك حسب هذا الرأي والتي يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة (٤٠٦هـ/١٠١٥م) وترى النصوص الأخرى أن المدرسة البهيقية المنسوبة إلى أبي بكر البهيقي المتوفي سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٦م)[51] هي الأقدم "وأول مدرسة بنيت على هذا الشكل كانت في نيسابور وهي المدرسة البهيقية "[52] وتؤكد بعض الدراسات الحديثة هذا القول "ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي، وكانت المدرسة الأولى بهذا العهد المدرسة البهيقية بنيسابور..."،[53] وحسب هذا الرأي فإن المدرسة البهيقية هي الأقدم في نيسابور، كما تورد لنا بعض النصوص المدرسة التي بنيت للإسفراييني[54] "... بنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور..."،[55] وإن صحّ قول أحمد فكري الذي نقل النص عن الصفدي تكون مدرسة ابن فورك هي الأقدم عهدا من المدرسة البهيقية.

أما الرأي الثالث الذي اتّفق عليه أكثر المؤرخين كابن خلكان أو حتى أصحاب الدراسات الحديثة، فيذهب أصحابه إلى أن أول من بنا المدارس في الإسلام هو نظام الملك الطوسي[56] وزير الملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس الهجري (١١م) بمدينة بغداد عندما أنشأ المدارس التي حملت اسمه – المدارس النظامية – "...وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبعة وخمسين وأربع مائة وفي سنة تسعة وخمسين جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله تعالى، فلم يحضر فذكر الدرس أبو نصر بن الصباغ صاحب الشامل عشرين يوما ثم جلس الشيخ أبوا إسحاق بعد ذلك..."[57]. إن صاحب هذا النص يجزم بأن نظام الملك

الذي استوزره السلاجقة من سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) إلى سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) هو أول من أنشأ المدارس، فبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو[٥٨] حتى قيل "له في كل مدينة بالعراق وخرسان مدرسة "[٥٩] والنظامية كانت أشهرها على الإطلاق حيث رفعت من شأن صاحبها وأذاعت صيته، شرع في بنائها سنة (٤٥٧ هـ/١٠٦٣م) وفرغ منها سنة (٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦م).[٦٠]

من خلال النصين اللّذين أوردناهما سابقًا لابن خلكان والمقريزي، يظهر لنا التضارب في الآراء حول أول من أنشأ المدارس في الإسلام، حيث نجد أن ابن خلكان يجزم بأن نظام الملك هو أول من أسس المدارس في العالم الإسلامي، وفي المقابل يقرر المقريزي بأن أهل نيسابور هم أول من أنشئوا المدارس ويعترف في نفس الوقت أن المدرسة النظامية كانت ذات أهمية عن باقي المدارس، وسارت أغلب الدراسات الحديثة على نفس النهج في تضارب الآراء، وأغلبها تذهب إلى أن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس، ولهذا يجد الباحث صعوبة في وضع تاريخ ومكان محددين لظهور أول مدرسة إسلامية.

لكن رغم هذا يمكننا الركون إلى تأييد الرأي القائل: أنّ أولى المدارس في العالم الإسلامي ظهرت بنيسابور، وخاصة إذا سلمنا بما أورده صاحب كتاب الخطط حيث يقول: "وأوّل من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البهيقية ..."،[٦١] والنص الأخير يسقط ويدحض توجه أصحاب الرأي القائل بأن نظام الملك هو أول من أسس المدارس في الإسلام، وأن المدرسة النظامية هي أول مدرسة بالعالم الإسلامي، خاصة إذا علمنا أن نظام الملك استوزر للسلاجقة سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م)وسنة بناء مدرسة ابن فورك بنيسابور يعود إلى ما قبل سنة (٤٠٦هـ/١٠١٥م)، وخلال هذه الفترة لم يكن نظام الملك قد خرج للحياة، إضافة إلى تاريخ وزارته لدى السلاجقة المتأخرة جدا عن تاريخ بناء مدرسة ابن فورك، وبالتالي لا يمكننا الركون إلى هذا الادعاء والتسليم به، لأمر واحد هو وجود نصوص تاريخية تدحض وتنفي هذا الادعاء، رغم أن لأصحاب هذا القول- بأن نظام الملك هو أول من أسس المدارس في الإسلام - له ما يبرره، فالمدرسة النظامية كانت ذا أهمية عن باقي المدارس السالفة الذكر بنيسابور وغيرها.

أما زمنيًا، فالمدرسة في الإسلام لم تعرف قبل القرن الرابع الهجري[٦٢] بعد ذلك اقتدى المسلمون بأهل نيسابور ونظام الملك في تأسيس المدارس وعملوا على تعميمها، حيث أسست المدارس في كل أنحاء العالم الإسلامي (العراق، خراسان، شبه الجزيرة العربية، الشام، الأندلس، وباقي المدن الإسلامية)، وانتقلت حركة بناء المدارس إلى مصر بعد قرن من زمن ظهورها بنيسابور في العصر الأيوبي، حيث قام صلاح الدين الأيوبي بتأسيس العديد من المدارس، وأقدم المدارس هناك حسب ما ذكرت لنا النصوص المدرسة الناصرية[٦٣] ثم تليها المدرسة القمحية[٦٤]، "وأول مدرسة أحدثت بالديار المصرية المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضًا".[٦٥]

ومما تقدم يمكن أن نوجز القول بأن المدرسة في العالم الإسلامي نشأت مع بداية القرن الخامس الهجري (١١م)، في نيسابور ثم خراسان، فبغداد، فالشام ثم باقي أقطار الدولة الإسلامية بما فيها المغرب الإسلامي الذي وصلته المدارس في فترة متأخرة نسبيًا عن المشرق الإسلامي. هذا عن ظهور المدارس بالمشرق الإسلامي، فمتى ظهرت بالغرب الإسلامي؟ وهل اتفقت الروايات حول تاريخ ومكان محددين لظهورها في المنطقة؟

إن ظهور المدارس بالغرب الإسلامي كان من بين حسنات ما نقله الرحالة المغاربة الذين جابوا بلاد المشرق وترددوا على معاهده العلمية، وأصحاب الرحلات من المغاربة يعدون بالعشرات وما تركوه لنا من أثر تقاييدهم وكتاباتهم في السفر يتفاوت قيمة وأهمية، ومن دون شك أن فريضة الحج في الإسلام كانت من أعظم بواعث سفر المغاربة إلى الحجاز، وكان بعضهم بعد أداء الفريضة يقصد الكثير من المدن الكبرى بالمشرق كدمشق وبغداد، فيقومون بتدوين مشاهداتهم، حيث وصفوا تجوالهم في هذه الأقطار بذكر البلاد وما احتوت عليه من معالم، وذكر المعاهد الجليلة والمنشآت البارزة، وقد سار على هذا الطريق الكثير من الرحالة المغاربة الذين أعجبوا بالمنشآت المعمارية المشادة هناك، منها المدارس التعليمية وبالخصوص المدارس النظامية، ومن هؤلاء نذكر ابن جبير الذي زار أشهر الحواضر العباسية فذكر مدارسها والأوقاف التي حبست عليها، ويذكر مدارس مكة المكرمة قائلاً؟ "وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة"[٦٦] وفي موضع آخر يصف لنا أحسن مدارس المشرق الإسلامي "ومن أحسن مدارس الدنيا مدرسة نور الدين، رحمه الله وهي قصر من القصور الأنيقة ... فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين".[٦٧]

يعتبر موضوع ظهور المدارس بالغرب الإسلامي من أهم المواضيع التي أثارت جدلاً بين المؤرخين في العصور الوسطى، واستمر هذا الجدل بين الباحثين وأصحاب الدراسات الحديثة، وعلى وجه الخصوص حول تحديد التاريخ الذي عرفت فيه المنطقة المدارس التعليمية، وسنحاول تتبع النصوص التاريخية التي تناولت الموضوع بكل حيثياته، حتى نتمكن من معرفة تاريخ انتقال المدارس التعليمية من المشرق الإسلامي إلى الغرب الإسلامي بتحديد زمان ومكان ظهورها.

إنّ هذا الجدل الحاصل حول تاريخ ظهورها، ربما كان نتيجة لتباين واختلاف الروايات في المصادر التي طرقت الموضوع، ومن هؤلاء السلاوي في كتابه" الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى"، وابن أبي زرع الفاسي في "الأنيس المطرب بروض القرطاس" وابن مرزوق التلمساني في "المسند الصحيح". فالإشارات الواردة عند السلاوي تفيد بأن المدرسة المغربية عرفت خلال العصر المرابطي، كمدرسة الصابرين التي شيّدها يوسف بن تاشفين[٦٨] ومدرسة الوجاج بن زلو اللّمطي[٦٩] بلاد السوس

الأقصى،[٧٠] لكن هذه الأخيرة ربما كانت كرباط وليست مدرسة، ويذهب صاحب الأنيس المطرب إلى أن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور[٧١] هو أول من أنشأ المدارس، فيذكر أنه بنا المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والأندلس والمغرب "حصّن البلاد وضبط الثغور، وبنا المساجد والمدارس في إفريقية والمغرب والأندلس"،[٧٢] أما صاحب "المسند الصحيح" فيخالف تماما ما ذكره صاحبي الروايتين السابقتين– السلاوي وابن أبي زرع- حيث نجده يقرر بأن المغرب لم يعرف المدارس إلا على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني الذي بنا مدرسة الحلفائيين بفاس " قد قدمنا أن إنشاء المدارس كان غير معروف في المغرب حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس وبعدوة القرويين منها..."،[٧٣] وبذلك يكون ابن مرزوق قد أكد بأن المغرب الإسلامي عرف المدارس التعليمية خلال العهد المريني ونفى نفيا قاطعا وجودها قبل هذا العهد.

وفي المقابل هناك أراء نقيضة لكل الروايات السابقة حيث تشير بعض الدراسات أن المدرسة المغربية تأسست لأول بسبتة، حيث تذكر أنها ظهرت بها سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م).[٧٤]

أما الأندلس،[٧٥] فكانت تخلوا من المدارس حسب بعض النصوص، وخصوصًا خلال الفترة المتقدمة عن ظهورها بالعدوة المغربية "ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد"،[٧٦] وبالتالي فإن الأندلس قد عرفت المدارس في فترة متأخرة عن الحفصيين والمرينيين، ويذكر البعض أن أول المدارس أسست بغرناطة[٧٧]سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)[٧٨] ومن دون شك أن إقامة المدارس عرف انتعاشا كبيرا بعد هذا التاريخ، حيث شيدت بها مدارس عديدة في كل من قرطبة، واشبيلية، وطليطلة وقيل أن غرناطة لوحدها بلغ فيها عدد المدارس حوالي سبع عشرة مدرسة كبرى ومائتان وعشر مدراس صغرى.[٧٩]

لكن رغم هذا التضارب الواضح في الآراء حول تاريخ تأسيس أول مدرسة بالغرب الإسلامي، إلا أنه يمكننا وضع تاريخ ومكان افتراضيين لظهورها، وذلك بالرجوع إلى مختلف النصوص التاريخية التي طرقت الموضوع.

لقد أوردت بعض كتب الرحلة أن أول مدرسة أقيمت بالغرب الإسلامي، هي المدرسة المنتصرية التي بنيت بطرابلس الحفصية بين سنتي (٦٥٥- ٦٥٨هـ/١٢٥٧-١٢٦٠م) في موقع محاذي ومتاخم للديار المصرية وبعيد جغرافيا عن عاصمة الموحدين مراكش[٨٠] "وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا رحمه الله تعالى وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعا وأظرفها صنعا"،[٨١] وفي نفس الفترة أسست أول مدرسة بمراكش سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ويظهر أن إقامتها تزامنت مع مدرسة طرابلس الغرب، خلال هذه الفترة نشطت حركة السنّة وتجدد انبعاثها في المغرب الإسلامي وكثر ضغطهم على الموحدين خاصة، وأخذ المذهب المالكي يسترجع مكانته ودوره الريادي في بلاد المغرب هذا الوضع سمح وساعد على نزوح فقهاء المذهب المالكي من الأندلس بعد سقوط المدن الأندلسية واستقروا ببلاد المغرب حيث احتضنهم المرينيون والزيانيون والحفصيون.[٨٢]

من خلال النص السابق يتضح؛ أن طرابلس الحفصية كانت القاعدة الأولى لانطلاق بناء بقية مدارس الغرب الإسلامي، وبذلك يجعلنا نتجاوز النصوص السالفة الذكر. وقد فسّرت بعض الدراسات الحديثة هذا التباين في الآراء بإرجاعه إلى النصوص المصدرية المتعلقة بظهور المدارس والتي جاءت متأخرة إذ تعود إلى الفترة المرينية، وحسب هذه الدراسات فإن استعمال مصطلح (مدرسة) في المصادر اكتنفه بعض الغموض وبالتالي قد وقع انزلاق في استخدامه دون التدقيق في معناه ودلالته وأبعاده، كما أرجعته إلى اندثار المباني التعليمية السابقة للفترة المرينية وغياب التنقيبات الأثرية التي تجعل الباحث يفتقر إلى معطيات دقيقة، من شأنها أن تكشف عن شكل تلك المباني وتخطيطها ووظائفها.[٨٣] وبالتالي فمع غياب الشواهد الأثرية والغموض الذي يكتنف المصطلحات المتداولة في مختلف المصادر، يمكن القول أن الغرب الإسلامي قد عرف هياكل تعليمية قبل تأسيس دولة المرينيين، لكن هذه الهياكل لم ترق من حيث الشكل والتنظيم والتمويل والتصميم المعماري والوظيفة إلى مفهوم المدرسة التعليمية بالمفهوم الذي حددناه سابقًا . من خلال ما سبق يتضح لنا؛ أن ظهور المدارس في الغرب الإسلامي قد عرف تضاربًا وجدلاً حول أول المدارس التي أسست بالمنطقة، فهناك مَنْ يجعل مهدها في الأندلس وهناك مَنْ يجعله بطرابلس والبعض الآخر يجعلها في فاس.[٨٤]

لقد اهتم السلاطين الحفصيون والمرينيون والزيانيون بإقامة المدارس التعليمية، حيث دشّن مؤسس الدولة الحفصية أبو زكرياء مشاريعه الفكرية بتأسيس المدارس وجمع الكتب "اشتغل أولاد الأمير أبو إسحاق بالملك والدنيا واشتغل منهم الأمير أبو زكرياء ببناء المدارس واقتناء الكتب وجمعها وضم أنواع العلوم لها حتى الوعظ...وقلت هذه المدرسة التي بنا الأمير أبو زكرياء هي المدرسة التي تأنق في بنائها وأقام بها مسجدا وجلب لها الرخام الحسن الشكل البديع ورتب لها المساكن للطلبة وأوقف عليها حبسا وكان ينظر في أكمل ما يقوم بمدرسها وطلبتها وقومتها..."،[٨٥] ورغم أننا لا نعرف تاريخ تأسيسها، إلا أنه يمكننا القول بأنها تأسست قبل سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) وهي سنة وفاة الأمير الحفصي أبي زكرياء، وتابع خلفه مشروع بناء المدارس التعليمية من بعده، حيث عرفت تونس العديد من المدارس منها: مدرسة قرب القنطرة، والمدرسة التوفيقية، ومدرسة ابن تافراجين الواقعة قرب قنطرة ابن ساكن داخل باب السويقة بتونس.[٨٦]

وأغلب الظن أن جُل مدارس المغرب الأدنى أسست من أجل تثبيت المذهب المالكي باعتبار مدرسة الفقه المالكي في كامل

المغرب الإسلامي تونسية المبدأ، إذ كان الحسن بن علي التونسي[٨٧] أول من أدخل الفقه المالكي إلى المنطقة، وأيضا الدور الذي لعبه علماء المذهب من المغرب الأدنى الذين زاروا المشرق وأخذوا عن صاحب المذهب – مالك بن آنس- وأبرز فقهاء وعلماء المذهب، كالبهلول ابن راشد القيرواني (١٨٣هـ/٧٩٩م)[٨٨] وسحنون بن سعيد (٢١٠هـ/٨٢٥م)[٨٩] الذي يعد بمثابة المؤسس الأول لمدرسة الفقه المالكي بإفريقية.[٩٠]

أما بالمغرب الأقصى، كانت المدرسة كسلسلة متصلة الحلقات، افتتح عهدها السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني[٩١] بتشييده مدرسة الحلفائيين التي كانت كأول مدرسة تبنى بفاس على العهد المريني (٦٦٧-٦٨٤هـ/١٢٦٨-١٢٨٥م) وذلك حوالي سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) كانت مجهزة بخزانة كتب كبيرة، وسميت كذلك بمدرسة الصفارين[٩٢] أو المدرسة اليعقوبية نسبة إلى مؤسسها السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق،[٩٣] كما بنى السلطان أبو الحسن مدرسة طالعة سلا[٩٤] ومدرسة مراكش العظمى وتذكر لنا المصادر إنجازاته في هذا المجال "ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله...وبنى رحمه الله عدة مدارس منها المدرسة العظمى بمراكش...ومنها المدرسة العظمى بطالعة سلا قبل المسجد الأعظم منها بناها رحمه الله على هيئة بديعة"،[٩٥] وواصل بناء المدارس في جل حواضر المغرب الأقصى والمغرب الأوسط "ثم أنشأ رضي الله عنه في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة... وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان...وكلها قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغريبة"[٩٦] وواصل خلفه من بعده مسيرته هذه حيث أنشئت العديد من المدارس منها مدرسة فاس الجديدة أو المدرسة البيضاء التي بناها أبو سعيد المريني سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، ومدرسة العطارين التي بنيت على عهد أبي سعيد عثمان وتم ذلك على يد الشيخ عبد الله بن القاسم المزوار بفاس "...ثم أنشأ مولانا السلطان أبو سعيد والد إمامنا رضي الله عنه مدرسة العطارين...ثم أنشأ نفعه الله تعالى المدرسة المختلفة بالعدوة عدوة الأندلس من فاس وهي مدرسة الصهريج ثم أنشأ المدرسة الكبرى، مدرسة الوادي...ثم المدرسة الكائنة جوفي جامع القرويين وتعرف بمدرسة مصباح...".[٩٧]

والظاهر أن المدارس كانت كثيرة بفاس حيث قدرت بعض النصوص عددها حوالي إحدى عشرة مدرسة " في فاس إحدى عشرة مدرسة للطلاب..." ،[٩٨] وبالجملة كانت هذه المدارس قمة في الجمال حيث جلب لها الرخام من الجزر الأوربية كما جلب لها أحسن الفنانين والرسامين والزواقين "...جيدة البناء كثيرة الزخرف بالزليج والخشب المنقوش بعضها مبلط بالرخام وبعضها بالخزف المايورقي وتحتوي كل مدرسة على عدة حجر...وكلها من تأسيس ملوك بني مرين"،[٩٩] والمدرسة البوعنانية التي أقامها أبو عنان ابن أبي الحسن (٧٥٧هـ/١٣٥٦م) وصفت لنا بعض النصوص جمالها وروعتها "وتمتاز إحدى هذه المدارس-البوعنانية- بروعة فائقة سعة وجمالا وهي من بناء السلطان أبو عنان المريني يرى فيها بركة فاخرة من رخام"،[١٠٠] ثم المدرسة المصباحية التي أنشئت سنة (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)[١٠١] بفاس أطلق عليها اسم المصباحية نسبة إلى أول أستاذ بها وهو أبو الضياء مصباح بن عبد الله.[١٠٢]

ثم تواصلت عملية بناء المدارس بالمغرب الأقصى على عهد دولة بني مرين في باقي المدن بعدما كان جلها بفاس، حيث أسّست مدارس في مراكش وسلا ومكناس[١٠٣]، وكان جل أساتذة هذه المدارس مالكيي المذهب، تصفها لنا النصوص وتعطينا صورة واضحة عنها، خصوصا ما تعلق بمحتوياتها وتسييرها "هذه المدينة قصبة كبيرة كأنها مدينة...وفي القصبة مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى للطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة وقاعة في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما سبق وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة ويتقاضى الأساتذة مرتبا قدره مائة أو مائتا مثقال..."[١٠٤] أما فيما يخص فن الزخرفة فقد استعملت فيها فسيفساء جميلة تغطي الجدران "وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة...وفناء المدرسة المكشوف كله بالزليج اللّماع...".[١٠٥] كانت تلقى الدروس في هذه المدارس صباحًا ومساءً حيث يتقاضى المدرسون مرتباتهم، وكان الطلبة معفيين من دفع مصاريف الدراسة لمدة سبع سنوات.[١٠٦]

أما عن ظهور المدارس في المغرب الأوسط فكان متأخرًا عن ظهورها بالمشرق الإسلامي بنحو قرنين من الزمن، وبنحو قرن من الزمن عن المغربين الأقصى والأدنى، فأول مدرسة عرفت بالمغرب الأوسط كانت مع بداية القرن الثامن الهجري (١٤ م)، والملاحظ أن جل المدارس وأشهرها أقيم بالعاصمة تلمسان، بلغ عددها خمس مدارس منها ما أسّس من قبل السلاطين الزيانيين ومنها ما أسّس من قبل السلاطين المرينيين أيام الاحتلال "وتوجد بتلمسان مساجد عديدة...وخمس مدارس جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء...شيّد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس"[١٠٧] وكانت مدرسة ولدي الإمام أول مدرسة تؤسس بالمغرب الأوسط أقامها السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول سنة (٧١٠هـ/ ١٣١٠م) وعين الأخوين أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى للتدريس فيها " والشيخان الفقيهان أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى...نزلا تلمسان في أيام السلطان المرحوم أبو حمو موسى ابن السلطان المرحوم أبو سعيد ابن أمير المسلمين ابن يحيى يغمراسن بن زيان فأكرم مثواهما وابتنى لهما مدرسة مسماة بهما داخل باب كشوط"[١٠٨]، ثم المدرسة التاشفينية كثاني مدرسة تؤسس بالمغرب الأوسط أقامها السلطان الزياني أبو تاشفين عبد الرحمن الأول[١٠٩] خلال فترة حكمه الممتدة بين (٧١٧-٧٣٧هـ/ ١٣١٨-١٣٣٧م)،[١١٠] ومدرسة العباد هي ثالث مدرسة، بعد مدرسة ولدي الإمام والتاشفينية أقامها السلطان أبو الحسن المريني أثناء احتلاله للمغرب الأوسط " ثم أنشأ رضي الله عنه – أبو الحسن- في كل بلد من المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة، فأنشأ بمدينة تازى قديما مدرستها الحسنة...وبالعباد ظاهر تلمسان..."[١١١]

شيدت المدرسة عام (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)، ومدرسة سيدي الحلوي كرابع مدرسة تؤسس بالمغرب الأوسط أنشأها السلطان المريني أبو عنان ابن أبي الحسن بجانب مسجد وضريح الولي الصالح أبي عبد الله الحلوي[١١٢] سنة (٧٥٤هـ/١٣٤٣م)،[١١٣] ثم المدرسة اليعقوبية كخامس مدرسة، بعد كل من مدرسة ولدي الإمام والتاشفينية ومدرسة العباد وسيدي الحلوي، أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني الذي تولى الحكم خلال الفترة الممتدة بين (٧٦٠-٧٩١هـ/ ١٣٥٨-١٣٨٨م) أقامها سنة (٧٦٥هـ/١٣٦٣م)[١١٤] وسميت باليعقوبية نسبة إلى أبي يعقوب والد السلطان أبي حمو موسى الثاني لقربها من ضريحه[١١٥]، ومدرسة منشر الجلد التي أسست خلال القرن التاسع الهجري (ق١٥م) ذكرها صاحب البستان خلال ترجمته لسيدي محمد بن عمر الهواري "... فجئت إلى مدرسة منشار الجلد".[١١٦]

إنّ أهم ما يلاحظ على مدارس المغرب الإسلامي أنها انتشرت خصوصًا في الحواضر الكبرى فاس، وتونس، وتلمسان، وهي من إنشاء السلاطين والأمراء بالدرجة الأولى.[١١٧] إذن المدارس التعليمية من بين أهم المؤسسات التعليمية التي عرفها العالم الإسلامي مع بداية القرن الخامس الهجري (١١م)، بعدما كانت الدراسة مرتبطة قبل ظهورها بالمساجد والكتاتيب، لها عدة مفاهيم لغوية واصطلاحية ومعمارية، وحتى فكرية، أنشئت لغايات كثيرة منها الدينية والعلمية والسياسية، ظهرت أول مرة في نيسابور ثم الشام فمصر فالغرب الإسلامي، وجدت في البداية من أجل المذهب الشافعي لمواجهة المد الشيعي ثم عمّم تأسيسها على كل المذاهب السنية.

خَاتِمَةٌ

من خلال هذا الدراسة، يمكننا الخروج بالنتائج التالية:

- عرف العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى مؤسسات تعليمية عديدة، تمثلت عمومًا في الكتاتيب والمساجد ودور العلم، قبل أن تعرف المدارس التعليمية.
- تضاربت الآراء واختلفت حول ظهور المدارس التعليمية بالعالم الإسلامي سواء بالمشرق العربي أو المغرب العربي.
- كان لظهور هذا النوع من المؤسسات صلة وثيقة بانتشار الدين الإسلامي.
- تأثر منطقة المغرب بالأفكار المشرقية منها المدارس.
- عرف الغرب الإسلامي هذا النوع من المؤسسات بنحو قرنين من زمن ظهورها بالمشرق، أما ظهورها بالمغرب الأوسط فكان متأخرًا عن المشرق الإسلامي بنحو قرنين من الزمن، وبنحو قرن من الزمن عن المغربين الأقصى والأدنى.
- إنّ ما يميز مدارس الغرب الإسلامي عن مدارس المشرق الإسلامي أنّ الأولى وجدت عامة من أجل المذهب الماكي، أما الثانية فوجدت من أجل المذهب الشافعي.
- اتخذت المدارس تسميات مختلفة بين أسماء سلاطين كالمدرسة التاشفينية في المغرب الأوسط، وأسماء علماء كمدرسة ولدي الإمام، وأسماء رجال التصوف كمدرسة أبي مدين شعيب، وأسماء المناطق المدن كمدرسة فاس ومازونة.
- كان لنظام الوقف دورًا بارزًا في إنشاء واستمرار المدارس.
- تنوعت العلوم المدرسة بمدارس المغرب الإسلامي ما بين العلوم النقلية والعقلية.
- سادت طريقة الإلقاء والشرح في التدريس، حيث كان المدّرس يحدد كتابًا من الكتب المشهورة في أحد أصناف العلوم ويعيّن أحد الطلبة النجباء للقراءة وفي نفس الوقت يشرح وعلى الطلبة الآخرين المتابعة والإصغاء وتدوين الأمور المهمة.
- ساهمت المدارس بالمنطقة في انتشار العلوم وازدهار الحياة العلمية.

الهَوامِشُ:

(١) مشتق من كتب والمكتب بضم الميم وسكون الكاف وكسر التاء أو المكتب بضم الميم وفتح الكاف وكسر التاء مع التشديد هو الذي يعلم التلميذ الكتابة، حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج٠٤، دار الجيل بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩١، ص ٤٠٢.

(٢) حسين أمين، **"المعاهد والمؤسسات العلمية في العالم الإسلامي"**، مجلة الثقافة العربية، العدد العاشر، أكتوبر ١٩٨٠، ص٤٧.

(٣) عمرو بن العاص ابن وائل الإمام أبو عبد الله، ويقال أبو محمد داهية قريش ضرب به المثل في الفطنة والدهاء، أسلم في السنة الثامنة للهجرة له أحاديث عديدة، (ت. ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، **سير أعلام النبلاء، ج٠٣**، أشرف على تحقيقه وإخراج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، حقق الجزء الثالث، محمد نعيم العرقوسي ومأمون صاغرجي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥.

(٤) كانت تسمى قبل الطوفان جزلة ثم سميت مصر، اختلف في معنى تسميتها بمصر فقيل إنها سميت بذلك نسبة ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب وهو مصر الأول وقيل سميت نسبة لمصر الثاني وهو مصرام بن يعراوش الجبار بن مصريم الأول، وقيل نسبة إلى مصر الثالث وهو مصر بن بنصر بن حام بن نوح، ومصر اسم أعجمي لا ينصرف، وقال آخرون هي إسم عربي وهي مدينة منيعة على النيل، ومصر في كلام العرب تعني الحد بين الأرضين ، فيقال : اشتريت الدار بمصورها أي بحدودها، وقيل سميت مصر بمصر لمصير الناس إليها واجتماعهم بها، فجمع المصر من البلدان أمصار، ينظر، المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد (ت. ٨٤٥هـ)، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ج٠١**، مؤسسة الحبلى وشركاه للنشر والتوزيع، دون تاريخ، ص ١٩ – ٢١- ٢٢.

(٥) أحمد **أمين**، **ضحى الإسلام، ج٠٢**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة، ١٣٤٣هـ، ص٥٢.

(٦) حسين أمين، المرجع السابق، ص٤٧.

(٧) أحمد عبد **الرزاق** أحمد، **الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى العلوم العقلية**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص١٨.

(٨) كمال أبو مصطفى، **جوانب من حضارة المغرب الأوسط من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة** شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص١١٣.

(٩) بشير رمضان التليسي، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(١٠) بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وفتح الدال المهملة وفي آخرها ذال معجمة، سميت بغداد بهذا الاسم لأن كسرى أهدي إليه خصي من المشرق فأقطعه بغداذ وكان له صنم يعبده بالمشرق يقال له البغ، فقال ذلك الخصي بغ داذ يعني أعطاني الصنم، وكان عبد الله بن المبارك يكره أن يقال لها بغداد، بالذال المعجمة، فإن بغ شيطان وداذ عطية الشيطان وهو شرك قال، إنما يقال بغداد بالدالين المهملتين، ومباني بغداد كلها بالقصب والطوب والكلس والجبس، أرخص ما فيها التمر والأرز وقصب السكر تصعد لها المراكب ببضائع الهند، ينظر، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١٥٨.

(١١) حسين أمين، المرجع السابق، ص٤٨.

(١٢) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٦٣.

(١٣) محمد سعد أطلس، **التربية والتعليم في الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٥٧، ص١٢٢.

(١٤) مدينة من بلاد كابل بين هراة وغزنة كثيرة الأشجار والأنهار، ينظر، ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(٦٠٨هـ/ ٦٨١هـ)، **وفيات الأعيان وأعيان أبناء الزمان، ج٠١**، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه محمد محي الدين بن عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٨، ص٤٥٤.

(١٥) محمد سعد أطلس، المرجع السابق، ص١٢٢ - ١٢٣.

(١٦) أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها العصر الأيوبي، ج٠٢**، دار المعارف مصر، ١٩٦٩، ص١٥١.

(١٧) كلوس كريزر وآخرون، **معجم العالم الإسلامي**، ترجمة الدكتورة ج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨، ص٥٩٨.

(١٨) ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، قدم له العلامة الشيخ عبد الله العلايلي وأعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، المجلد٠٢، دار الجيل بيروت، دار لسان العرب بيروت، ١٩٩٨، ص ٩٦٨.

(١٩) الأزدي ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن البصري (ت. ٣٢١هـ)، **كتاب جمهرة اللّغة، ج٠٢**، مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٤٥هـ، ص٢٤٥.

(٢٠) محمد فريد وجدي، **دائرة المعارف القرن العشرين، مجلد** ٠٤، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧١، ص٢٨.

(٢١) ابن منظور، المصدر السابق، ص٩٦٨.

(٢٢) محمد فريد وجدي، المرجع السابق، ص٢٨.

(٢٣) ابن منظور، المصدر السابق، ص٩٦٨.

(٢٤) نفسه، نفس الصفحة.

(٢٥) نفسه، نفس الصفحة.

(٢٦) **سورة الأنعام**، الآية رقم (١٠٥).

(٢٧) **سورة الأعراف**، الآية رقم (١٦٩).

(٢٨) أحمد فكري، المرجع السابق، ج٠٢، ص١٤٤.

(٢٩) محمد بن أحمد أبي رأس الناصري، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج٠١**، تقديم وتحقيق محمد غالم، منشورات cr asc، ٢٠٠٥، ص ١٨٨، سعيد بوفلاقة، **"مدينة الجزائر رواسي للفن والتاريخ"**، مجلة الثقافة، عدد١١، ٢٠٠٧، ص٩٣-٩٤.

(٣٠) أوردت كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العام عدة تعاريف لها سنذكر بعضها، اسم تلمسان بربري وهو تحريف صيغة جمع وهو تلمسان أو تلمسن بكسر التاء وسكون اللام وكسر الميم ومفردة ومعناها جيب ماء أو ينبوع فيكون معنى اسم تلمسان مدينة الينابيع وهذا المعنى يتلائم مع إقليم تلمسان لكثرة مائها، هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط وأم بلاد زناتة اختطها بنو يفرن زعم بعض سكانها أنها أزلية البناء وأن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليه السلام بناحية أقادير منها، اسمها في لغة زناتة مركب من " تلم و سين" ومعناها تجمع بين اثنين يعنون بين البر والبحر، أو الصحراء والتل ويقال "تلشان" وهو مركب من "تل" ومعناه لها و"شان" أي لها شأن، لها خمسة أبواب "قبلة باب الجياد وشرقًا باب العقبة، وشمالاً باب الحلوي وباب القرميدين، وغربًا باب كشوط، يُنظر، ابن مريم المديوني التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٩، لسان الدين ابن الخطيب

السلماني (٧١٣هـ-٧٧٦هـ)، **كتاب معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المغرب، المحمدية، دون تاريخ، ص ١٨٣-١٨٤، العبدري محمد، **الرحلة المغربية**، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص٢٧-٢٨.

(٣١) مدينة عليها سور تقع على البحر إسمها يعني الجزر لأنها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة ويابسة ، ويرى البعض أن تسميتها ترجع إلى جزر صخرية كانت أمامها حيث كانت تقيم قبيلة بربرية تدعى بني مزغنة فسمي المكان جزائر بني مزغنة ثم تنوسي اسم القبيلة وبقيت الجزائر، ينظر، الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**،ج٢، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص٣٧.

(٣٢) نسبة إلى بانيها أبي الفتوحات المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان فاتح وهران، ينظر أبو رأس الناصري، المصدر السابق، ص١٨٨.

(٣٣) محمد فريد وجدي، المرجع السابق، ص٢٨.

(٣٤) إسماعيل سامعي، **معالم الحضارة العربية الإسلامية مدخل نظم علوم زراعية صناعة اجتماعيات وفنون وتأثيرات**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٣١٢.

(٣٥) صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٣٩.

(٣٦) أحمد فكري، المرجع السابق، ص١٢١.

(٣٧) أنور الرفاعي، المرجع السابق، ص٥٣٥.

(٣٨) علي عبد الله الدفاع، **لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، ١٩٨١، ص٨٠.

(٣٩) علي عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص٧٩.

(٤٠) الحجاز عبارة عن، مكة والمدينة واليمامة، وهو قطعة من جزيرة العرب، وهو ما بين بحر القلزم وبحر الهند وبحر فارس والفرات وبعض بادية الشام ، وسمي الحجاز لأنه حجز بين نجد وتهامة ولامتداده بينهما، يُنظر، القلقشندي أحمد بن علي (ت. ٦٨١هـ)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المجلد الرابع، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص٢٥٠- ٢٥٢.

(٤١) اختلف في تحديده فقيل أن حده من القبلة إلى البر المقفر، تيه بني إسرائيل وبر الحجاز والسماوة إلى مرمى الفرات بالعراق، حده من الشرق السماوة والفرات وحده من الشمال البحر الرومي وحده من الغرب حد مصر، سميت الشام شاما وذلك: "أن نوحا عليه السلام لما قسم الأرض بين بنيه لحق قوم من بني كنعان بن حام بن نوح عليه السلام بالشام فسميت الشام حين تشاؤموا إليها من أرض بابل، ينظر، القلقشندي، المصدر السابق، ص٧٧-٧٨.

(٤٢) أنور الرفاعي، المرجع السابق، ص٥٣٦.

(٤٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن سعد بن علي بن أسد بن سادرة بن يزيد بن جشم بن الخزرج، شهد العقبة وهو شابًا روى الحديث عنه الكثيرون منهم ابن العباس وجابر وابن عمر وغيرهم، توفي معاذ بقصير خالد من الأردن سنة (١٧هـ أو ١٨هـ) وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، يُنظر، الذهبي، المصدر السابق،ج١، أشرف على تحقيقه وإخراج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، حقق الجزء، حسين الأسد، ص٤٤٣-٤٤٥.

(٤٤) أنور الرفاعي، المرجع السابق، ص٥٣٦.

(٤٥) هو عبد الله بن الأرقم ابن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة القرشي الزهري، من مسلمة الفتح فحسن إسلامه، يُنظر الذهبي المصدر السابق، ج ٢، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط، ص٤٨٢.

(٤٦) أحمد فكري، المرجع السابق، ص١٤٣.

(٤٧) تعتبر مدينة نيسابور قاعدة لخرسان، ومن مدن خرسان المشهورة نذكر مدينة نسا، مدينة مرو قاعدتها أيام السلاجقة وفي صدر الإسلام، ثم مدينة بلخ قاعدتها أيام الأكاسرة، يُنظر ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١٧٤.

(٤٨) جورجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣**، طبعة جديدة علق عليها وراجعها الدكتور حسين مؤنس، دار الهلال، ١٩٧٣، ص٢٠٠.

(٤٩) بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعد الهاء المفتوحة قاف وهي قرى مجتمعة بنواحي نيسابور على عشرين فرسخا منها، وقريتي خسرو وجرد من قراها، ينظر ابن خلكان، المصدر السابق، ص٥٨.

(٥٠) أحمد فكري، المرجع السابق، ص٩٩.

(٥١) أحمد عبد الرزاق أحمد، المرجع السابق، ص٢٧.

(٥٢) أنور الرفاعي، المرجع السابق، ص٥٤٠.

(٥٣) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص ٥٦٨.

(٥٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي جلس للإقراء بالعراق وخرسان توفي بنيسابور سنة (٤١٨ هـ/ ١٠٢٧م) ثم نقل إلى إسفرايين ودفن بها، ينظر، ابن خلكان، المصدر السابق، ص٠٨-٠٩.

(٥٥) ابن خلكان، المصدر السابق، ص٠٨-٠٩.

(٥٦) أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي بن العباس الملقب بنظام الملك قوام الدين الطوسي، اشتغل بالحديث والفقه كان وزيرًا لألب أرسلان الذي دبر أمره فأحسن التدبير ولما مات ألب هذا وطّد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان، يُنظر، ابن خلكان، المصدر السابق، ص٣٩٥.

(٥٧) نفسه، ص٣٩٦.

(٥٨) أحمد أمين، ضحى الإسلام، المرجع السابق، ص٤٩.

(٥٩) أحمد عبد الرزاق أحمد، المرجع السابق، ص٢٨.

(٦٠) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٦٣.

(٦١) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٦٣.

(٦٢) نفسه، نفس الصفحة السابقة.

(٦٣) عرفت بالمدرسة الناصرية ثم عرفت بابن زين النجار أحد أعيان الشافعية ثم عرفت بالمدرسة الشريفية كما عرفت بدار ثم صارت سجنا تعرف بالمعونة فهدمها السلطان صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م) وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية وكان حينئذ متولي الوزارة للخليفة وكانت أول مدرسة عملت بديار مصر، ينظر، المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٦٣.

(٦٤) تقع بجوار الجامع العتيق كان يعرف موضعها بدار الغزل وهو قياسرية يباع فيها الغزل حتى هدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية وكان الشروع سنة (٥٦٦هـ/

١١٧٠م) وهي مدرسة للفقهاء المالكية يتحصل لهم من ضيعتهم التي بالفيوم فصارت تعرف بالمدرسة القمحية، ينظر المقريزي، نفسه، ص٦٤.

(٦٥) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٦٤.

(٦٦) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، تقديم سليم بابا عمر، موفم للنشر، ١٩٨٨، ص٢٥٥.

(٦٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٥٧.

(٦٨) إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص٣١٤.

(٦٩) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص١٣٧.

(٧٠) هو بليدات صغيرة منها مدينة صغيرة تدعى تارودانت وهي حاضرة السوس وإليها يجتمع أهله وأخرى تدعى زجندر، يُنظر، المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص٢٥٩.

(٧١) هو أمير المؤمنين عبد الله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي لقب بالمنصور، ولد بمراكش سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) كني بأبي يوسف، بويع سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) توفي سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م)، يُنظر، ابن أبي زرع الفاسي علي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، المطبعة الملكية الرباط، ص٢٨٣-٢٨٤-٢٨٥.

(٧٢) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٧٣) ابن مرزوق محمد التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص٤٠٦.

(٧٤) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص٣٢٥.

(٧٥) الأندلس بفتح الألف وفتح الدال المهملة وسكون النون بينهما وضم اللام ثم سين مهملة، تقابل المغرب وبينهما بحر الزقاق، هي على شكل مثلث، يُنظر، أبي الفدى عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت. ٧٣٢هـ)، **تقويم البلدان**، اعتنى بتصحيحه وطبعه وينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص١٣٥.

(٧٦) أحمد عبد الرزاق أحمد، المرجع السابق، ص٢٢.

(٧٧) أشهر بلاد الأندلس وقيل اسمها الصحيح إغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانة، حصينة مملكتها في الجنوب وشرق مملكة قرطبة، تشبه دمشق وتفضل عليها، ينظر، أبي الفدى، مصدر سابق، ص٧٧، المقري أحمد بن محمد التلمساني (ت. ١٠٤١هـ)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، حققه وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محي الدين بن عبد الحميد،ج٠١، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٤٩، ص١٤١.

(٧٨) ألفرد بال، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم**، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص٣٥١.

(٧٩) أحمد عبد الرزاق أحمد، المرجع السابق، ص٢٢.

(٨٠) حاضرة المغرب الأقصى بناها يوسف ابن تاشفين في أرض صحراوية حيث جلب لها الماء، يُنظر، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٨١) التجاني أبو محمد بن أحمد، **رحلة التجاني**، قدم لها العلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٨٢) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص٣٢٥.

(٨٣) صالح بن قربة، المرجع السابق، ص١٣٨.

(٨٤) مدينة فاس حاضرة المغرب اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة، توافد إليها العلماء من قرطبة حاضرة الأندلس باضطراب أحوال بني أمية بعد موت أبي عامر، ومن القيروان بعدما عاث فيها العرب، وهي متوسطة بين مدن المغرب الأقصى منها إلى كل مدينة من مراكش وسبتة وسجلماسة تلمسان، يُنظر المراكشي عبد الواحد بن علي (ت. ٦٤٧هـ)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، ص٢٥٧، أبي الفدى، المصدر السابق، ص١٢٣.

(٨٥) ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب (ت. ٨١٠هـ/١٤٠٧م)، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨، ص١٥٥-١٥٦.

(٨٦) كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص١١٩.

(٨٧) فقيه سمع من مالك وسفيان الثوري وغيرهما يعد من الطبقة الأولى لأصحاب مالك، سمع منه البهلول بن راشد القيرواني وأسد بن فرات وسحنون، روى الموطأ عن مالك توفي سنة ١٨٣هـ، يُنظر، ابن فرحون المالكي نور الدين (ت. ٧٩٩هـ)، **الديباج المذهب لمعرفة أعيان علماء المذهب**، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص٢٩٢.

(٨٨) أبو عمرو من أهل القيروان سمع من مالك والثوري والليث بن سعد، ويعد من أصحاب الطبقة الأولى قيل عنه أنه وتد من أوتاد المغرب، ولد سنة١٢٨هـ وتوفي سنة ١٨٣هـ وقيل سنة ١٨١هـ، ينظر، ابن فرحون المالكي، المصدر السابق، ص١٦٦.

(٨٩) هو عبد السلام أبو سعيد سحنون بن حبيب التنوخي، أصله شامي من حمص، اسمه عبد السلام ولقب بسحنون، سمي سحنون باسم طائر حديد لحدته في المسائل، أخذ العلم بالقيروان من مشايخها كبهلول بن راشد وعلي بن زياد، توفي سنة ١٦٠هـ وقيل سنة ١٦١ هـ، نفسه، ص٢٦٣-٢٦٧.

(٩٠) أحمد عبد الرحمن عبد اللطيف وآخرون، **الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادئ**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، تونس، ١٩٨٧، ص٥٣.

(٩١) هو أمير المسلمين يعقوب بن الأمير عبد الحق بن أبي بكر بن حمامة بن محمد الزناتي ثم المريني، مولده سنة ٦٠٧هـ وقيل ٦٠٩هـ يكنى بأبا يوسف ولقب المنصور بالله، ينظر ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص٣٨٨.

(٩٢) أحسن زقور، **أبحاث في المخطوطات تحقيق مخطوطات العلوم الإسلامية، أبوا العباس أحمد الونشريسي ومخطوطه المنهج الفائق في علم الوثائق**، منشورات دار الأديب، وهران، ٢٠٠٧، ص٦٩-٧٠.

(٩٣) عبيد بوداود، **انتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق ١٣-١٥م) ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، السنة الجامعية، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص٢٢١.

(٩٤) سلا رباط يرابط به المسلمون عليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة وقد خربت، يُنظر ابن حوقل، المصدر السابق، ص٨٢.

(٩٥) الناصري السلاوي أبو العباس أحمد، **كتاب الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى الدولة المرينية**، ج٣٠، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف صاحبي السعادة جعفر الناصري و أمحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ص١٧٤-١٧٥.

(٩٦) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص٤٠٦.

(٩٧) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص٤٠٦.

(٩٨) ليون الإفريقي، المصدر السابق، ج٠١، ص٢٥٢.

(٩٩) ليون الإفريقي، المصدر السابق، ج٠١، ص٢٥٢.

(١٠٠) نفسه، نفس الصفحة.

(١٠١) ألفرد بال، المرجع السابق، ص٣٥٣.

(١٠٢) أحسن زقور، المرجع السابق، ص٦٩-٧٠.

(١٠٣) مكناس مدينة اشتهرت بالزيتون، بينها وبين فاس أربعون ميلاً، ينزل من جبال غمارة التي في شرقها نهر فلفل، يُنظر ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١٤١.

(١٠٤) ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص ١٣٠-١٣١-١٣٢.

(١٠٥) ليون الافريقي، المصدر السابق، ص١٣٢.

(١٠٦) ليون الافريقي، المصدر السابق ص٢٢٧.

(١٠٧) نفسه،ج٠٢، ص١٩.

(١٠٨) ابن خلدون يحيى أبي زكرياء، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج٠١**، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠، ص١٣٠.

(١٠٩) خامس السلاطين أسرة بني عبد الواد ملوك تلمسان اسمه الحقيقي عبد الرحمن بن موسى غطت كنيته على اسمه ولد سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، بويع سنة (٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، بالملعب خارج باب كشوطة، نشأ نشأة فاسدة بين العلوج فاقتبس منهم كل الرذائل، تآمر وإياهم على قتل أبيه فاغتالوه، تولى الحكم مكانه (٧١٨هـ/١٣١٨)، ونفى آل بيته إلى الأندلس خوفًا منهم على نفسه وجعل حكومته إلى علج من نصارى الأندلس وهو هلال القطلاني، يُنظر، ابن خلدون يحيى مصدر سابق، ص٢١٥، عبد الوهاب منصور، **أعلام المغرب العربي، ج٠١**، المطبعة الملكية الرباط، ١٩٧٩، ص٢٩٤-٢٩٥.

(١١٠) التنسي محمد بن عبد الله، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان (تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)**، حققه محمود بوعياد، صدر عن وزارة الثقافة، ٢٠٠٧، ص١٤٠-١٤١.

(١١١) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص٤٠٦.

(١١٢) هو الشيخ أبوا عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان من كبار العباد قيل أنه كان يبيع الحلوى ويتصدق بثمنها لذا سمي بالحلوي، ينظر، ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ص١٢٧-١٢٨.

(١١٣) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص٣٢٢.

(١١٤) رشيد بورويبة وآخرون، **الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٤٣٨.

(١١٥) الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص٣٩٩.

(١١٦) ابن مريم، المصدر السابق، ص٢٣٠.

(١١٧) كمال مصطفى، المرجع السابق، ص١١٧.

الأوضاع السياسية والفكرية في تلمسان خلال العهد الزياني ما بين القرنين (٧ – ٩ هـ/ ١٣ – ١٥م)



هادي جلول
أستاذ التاريخ الوسيط
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

إن الجوانب المختلفة للحياة البشرية شديدة الترابط، ويؤثر كل منها في غيره ويتأثر به، ومن هنا كان لزامًا على من يدرس جوانب النشاط الإنساني في بيئته ما، أن يمهد بالحديث عن بقية الجوانب، وذلك مدخل ضروري حتى يصل الباحث إلى نتائج علمية موثقة مبنية على دراسة متكاملة، ومن هذا المنطلق جاء هذا التمهيد عن الحالة السياسية والفكرية، ليتسنى لي فهم النشاطات والمجّهودات الفذة التي قام بها الفقهاء، والعلماء التلمسانيون في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح في جميع المجالات. إذ أمعنا النظر في الحروب السياسية، والوقائع المتسلسلة، والانهزامات المتتالية لدولة بني عبد الواد الزيانية، وجدنا انه لم ينل أهلها فتورًا، ولم يتخلل صفوف أبناءها فشل في توطيد عزمهم على تأسيس دولتهم ولم شتات قبائل المغرب الأوسط، وتكوين قوة سياسية تمكنهم من استرجاع المجد الزياني، وأن تصبح فيما بعد مركز إشعاع حضاري يضرب بها المثل، فكان لزامًا علينا أن نتساءل كيف كانت الأوضاع التي عاشها السياسي والمفكر في جو مشحون بالحروب؟ وهل أثر ذلك في الحركة العلمية في أوساط المجتمع التلمساني في العصر الوسيط؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها حاولت أن أقدم صورة مبسطة حول الأوضاع السياسية والفكرية آنذاك داخل المجتمع الزياني.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٧	نوفمبر	٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	مارس	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
المغرب الأوسط، الأسرة الزيانية، الدولة المرينية، الحفصيون، علماء تلمسان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041885

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
هادي جلول. "الأوضاع السياسية والفكرية في تلمسان خلال العهد الزياني ما بين القرنين (٧ – ٩ هـ/ ١٣ – ١٥م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٩٠ – ٩٧.

مُقَدِّمَة

إن الجوانب المختلفة للحياة البشرية شديدة الترابط، ويؤثر كل منها في غيره ويتأثر به، ومن هنا كان لِزاما على من يدرس جوانب النشاط الإنساني في بيئته ما، أن يمهد بالحديث عن بقية الجوانب، وذلك مدخل ضروري حتى يصل الباحث إلى نتائج علمية موثقة مبنية على دراسة متكاملة، ومن هذا المنطلق جاء هذا التمهيد عن الحالة السياسية والفكرية، ليتسنى لي فهم النشاطات والمجّهودات الفذة التي قام بها الفقهاء، والعلماء التلمسانيون في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح في جميع المجالات، وأنه ليس من الممكن أن أتطرق إلى جميع الأوضاع وجزئيتها خلال فترة طويلة من الزمن مملوءة بالأحداث كما هي مفصلة ومبينة في كتب التاريخ.

لاشك أن مدينة تلمسان، كان لها تأثير سياسي وحضاري واسع النطاق خلال العهد الزياني، الذي تطورت فيه سياسيًا ونمت عمرانيًا، وانتعشت اقتصاديًا وازدهرت فكريًا، وخاصةً حينما تغلبت على فترات الضعف، والهيمنة الأجنبية التي أصابها، إذ أمعنا النظر في الحروب السياسية، والوقائع المتسلسلة، والانهزامات المتتالية لدولة بني عبد الواد الزيانية، وجدنا أنه لم ينل أهلها فتورًا، ولم يتخلل صفوف أبناءها فشل في توطيد عزمهم على تأسيس دولتهم ولم شتات قبائل المغرب الأوسط، وتكوين قوة سياسية تمكنهم من استرجاع المجد الزياني، وأن تصبح فيما بعد مركز

إشعاع حضاري يضرب بها المثل في تلك الحقبة التاريخية من الزمن، فكان لزامًا علينا أن نتساءل كيف كانت الأوضاع التي عاشها السياسي والمفكر في جو مشحون بالحروب ؟ وهل أثر ذلك في الحركة العلمية في أوساط المجتمع التلمساني في العصر الوسيط؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها حاولت أن أقدم صورة مبسطة حول الأوضاع السياسية والفكرية آنذاك داجل المجتمع الزياني.

١- الأوضاع السياسية

كان للضعف الذي أصاب الدولة الموحدية،[١] بعد معركة "العقاب" سنة (٦٠٩هـ /١٢١٢م).[٢] وسقوطها أن ظهرت على أنقاضها ثلاث دول متقاسمة مجالها الجغرافي، دولة "بني أبي حفص" في إفريقيّة سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)، وعاصمتها تونس،[٣] ودولة "بني مرين" في المغرب الأقصى سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، وعاصمتها فاس.[٤] كان المغرب الأوسط من نصيب الدولة الزيانية،[٥] الذي تمكن مؤسسها "يغمراسن بن زيان"[٦] من إرساء معالمها وإضفاء صبغة الهيبة، والملوكية على عائلته البدوية، التي كان ماضيها متواضعًا جدًا،[٧] لما ضعف أمر الدولة الموحدية في المغرب فإن بني عبد الواد الذين كانوا يحكمون تلمسان وولايتها شقوا عصا الطاعة ونبذوا دعوتها معلنين استقلالهم بالمغرب الأوسط، متخذين من تلمسان عاصمة لمملكتهم.[٨] ولم تقنع أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، بل حاولت ضم بقية التركة الموحدية إما بادعاء أنها تمثل استمرارية للدولة الموحدية، كما هو الأمر بالنسبة للدولة الحفصية، أو رغبة في التسلط والزعامة، على الملك، وعرش زناتة كما هو الحال بالنسبة للدولتين المرينية والزيانية،[٩] وعلى الرغم من أن هذا الصراع لم يغير الخريطة الجيوسياسية جذريًا، ولم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة والمستمرة على بقية الدول بسبب توازن القوى.

خلف هذا الصراع حالة من عدم الاستقرار السياسي، والأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها وأهدر طاقات كبيرة كان من الأجدر استغلالها في مواجهة العدو النصراني الذي كان يتربص الدوائر بالمنطقة، ويقتطع مناطق الأندلس الواحدة تلو الأخرى، ويشكل خطرًا ظل يتصاعد على السواحل المغاربة،[١٠] وكان هذا حال سائر البلاد العربية التي شهدت تاريخ طويل من التمزق والتشرذم، وذلك من أجل السيطرة وفرض الوجود بكل قوة، وسوف أحاول أن استعرض أهم الأوضاع السياسية التي عاشها المجتمع الزياني، حتى استطيع إعطاء صورة واضحة، حول الصراعات التي كانت دائرة آنذاك، سواء داخل البلاط الزياني، أو مع الجارتين الغربية والشرقية، والت ساهمت ولعبت دور جد مهم في ازدهار الحركة الفكرية حتى اصبحت تلمسان مقصد طلاب العلم، والفقهاء وغيرهم من أهل الفنون، وفي مختلف التخصصات.

٢- التدخل المريني

قضت الدولة بني عبد الواد ردحًا من الزمن، في مقاومة الخطر المريني، الذي كان يهددها من الجهة الغربية، ومن أبرزها وأصعبها فترة الحصار الطويل الذي تعرضت له حاضرتها تلمسان (٦٩٨هـ - ٧٠٦هـ/ ١٢٩٩م-١٣٠٧م)،[١١] وكان بين المرينين، والزيانين بُغض ناشئ عن الجوار في الموطن، ثم في الملك، وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة، وليس من غريب الأمور، إن بادر حكام فاس بشن هجومهم نحو تلمسان،[١٢] كان بنو مرين هم المبادرون بتسيير الحملات العسكرية ضد أراضي الدولة الزيانية، والتي عرفها أواخر القرن السابع الهجري، وطوال القرن الثامن الهجري، والتي كانت غالبًا ما تنتهي باحتلال أراضي واسعة من بلاد المغرب الأوسط، بما ذلك عدة مدن ومحاصرة العاصمة تلمسان،[١٣] فلم ينتهوا من معاداة تلمسان، ومهاجمتها قصد الاستيلاء عليها، فاستطاع أبو يوسف يعقوب المريني، من محاصرتها سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٩)،[١٤] مدة تزيد على ثماني سنوات، ذاق أهلها أقصى المِحن والآلام، وذهب بهم الجوع إلى استباحة ما لا يؤكل،[١٥] وبعد مقتله على يد أحد مواليه،[١٦] وعادت الحياة لدولة بني زيان، حيث عرفت الاستقرار مع السلطان "أبي تاشفين الأول"،[١٧] لم تنعم بهذا الاستقرار طويلاً، حيث تم الاستيلاء عليه من قبل السلطان المريني "أبي الحسن بن لبي سعيد"[١٨] سنة (٧٣١هـ/١٣٣١م) وتربع على العرش واتبع سياسة والده، مع بني زيان خصومه، وتوجه إلى مدينة تلمسان عاصمة بني زيان، وعندما لم يستطيع اقتحام أسوارها، قام ببناء مدينة "المنصورة" بعد أن هدمها التلمسانيون عندما انتهى الحصار الطويل،[١٩] لتصبح مقرًا له ولحاشيته، ويشدد من خلالها الخناق على مدينة تلمسان. ودام الحصار أكثر من ثلاثين شهرًا، قاوم بنو زيان أثناء ذلك، مقاومة شديدة.

عاش سكان تلمسان تحت طائلة هذا الحصار سنوات عسر لم يشهد لها مثيلاً من قبل، وماذا عساهم أن يفعلوا، وهم يترقبون الموت في كل لحظة؟ وهنا يأتي التضرع إلى الله والإنابة إليه، والالتفاف حول الصالحين والأولياء أحياء وأمواتا وانتظار الفرج،[٢٠] ولم يدخلها إلا بعدما تفطن لمصدر المياه التي تزود المدينة، وبذلك اختفى رسم الدولة الزيانية وزوال نفوذهم، وحل محلهم بنو مرين في إدارة المغرب الأوسط، مدة زمنية زادت عن ثني عشر سنة، وهو الاختفاء الطويل في تاريخ بني زيان.[٢١] توفى السلطان أبو الحسن المريني سنة (٧٥٢هـ/١٣٥١م) فخلفه ولده أبو عنان فارس ٧٥٣هـ إلى٧٥٩هـ،[٢٢] وأن أول ما تقدم إليه من الأعمال أن غزا يومئذ تلمسان،[٢٣] بدأ الضعف يدب في هيكل الدولة المرينية بسبب المنافسات بين أمراءها على العرش، هذا الوضع دفع بني عبد الواد إلى إحياء دولتهم من جديد، على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني(٧٦٠-٧٩١هـ /١٣٥٩-١٣٨٩م).[٢٤]

توالت الحروب والوقائع والانهزامات على هذه الدولة، فإنه لم يفشل أبنائها الذين وطدوا عزمهم على استرجاع هذا المجد على يد أحد أفراد الأسرة الزيانية، على يد هذا البطل المغوار،[٢٥] وبهذا فشل مشروع السلطان أبي عنان في توحيد المغرب، ووراثة عرش الموحدين، كما فشل مشروع والده من قبل، لأن الدولة المرينية لم تتبنى إصلاحًا دينيًا، كما فعل المرابطون والموحدون من جهة،[٢٦] وأمام حب الوصول إلى العرش الذي لم يكن مفروشا بالورود، كانوا يستعملون في سبيل الوصول إليه كل الطرق المتاحة، المباحة منها وغير المباحة.[٢٧] دخلت تلمسان منذ هذه الفترة في دوامة من الصراع المسلح والدسائس السياسية المتنوعة، عادت على بني زيان، بالضعف وصارت تخضع للنفوذ المريني الذي صار بيدهم السلطة في المنطقة، يضعون على العرش من يريدونه، ويخلعون مَنْ لا يلبي رغباتهم.[٢٨]

٣- مشاكل داخل الأسرة الزيانية

استطاع بني مرين بعد فترة من الزمن من إيجاد وسائل أخرى تساير ظروفهم الداخلية، من أجل إبقاء نفوذهم على الدولة الزيانية، ومن اجل جعل البلاط الزياني ومن فيه في خدمتهم، وقد نجحت هذه السياسة إلى حد ما، حين جرت السعايات بينه وبين ولي عهده المولى أبي تاشفين بأمور يسمج ذكرها، فرأى إطفاء شر تلك السعايات بأن خلع نفسه لولي عهده، وتوجه إلى المشرق في البحر مظهرًا للحج،[٢٩] وعمدوا إلى تأليب "أبي تاشفين" (٧٩١هـ-٧٩٥هـ /١٣٨٩م-١٣٩٢م) على أبيه "أبي حمو موسى" الذي دخل معه في صراع، كان من نتائجه مقتل الوالد (٧٩١هـ/١٣٨٩م)،[٣٠] بمساعدة المرينيين، أثار ذلك حفيظة البيت الزياني، بعدما أصبح يخطب لسلاطين بني مرين على المنابر التلمسانية، وذلك مباشرة بعد مراسيم دفن والده، بمساعدة مرينية، فصار يخضع لنفوذهم لأنهم أصحاب انتصاره ونعمته في التربع على العرش الزياني.[٣١]

أزاح معارضوه من الأسرة، لكن البيت الزياني، لم تعجبه هذه الاستكانة والهيمنة المرينية الجديدة، فلم يستسلموا للأمر الواقع، فثار أخوه أبوزيان بن حمو،[٣٢] حاكم مدينة الجزائر، تقدم نحو مدينة تلمسان وحاصرها سنة (٧٩٢هـ/١٣٩١م)، يريد إسقاط أخيه، يريد إسقاط أخيه أبي تاشفين، وخلع الهيمنة المرينية ونفوذها من عاصمة بني زيان، ولما وصل إلى مدينة تازا سمع بوفاة أخيه بسبب مرض لم يمهله كثيرًا، ومبايعة أبو ثابت بن أبي تاشفين، وعين الوزير احمد بن المعز وصيا عليه، لأنه صغير السن، كما برز عنه أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو المشهور بابن الزابية مطالبًا بالعرش، فضلاً عن أبي بن أبي حمو الثاني، القابع بجيوشه أمام أسوار مدينة تلمسان ومن ورائه السلطة المرينية.[٣٣]

نستنتج من خلال الأحداث التاريخية أن التوتر والصراع بين المغرب الأوسط والمغربين الأدنى والأقصى كان السمة البارزة، الأمر الذي ترك حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني والذي كاد يكون مطبقًا، كما أن آثار هذا الصراع لم يقتصر على الأسر والعروش السلطوية، بل خيمت على عموم السكان الدولة بمختلف شرائحهم. وما أجج أكثر هذه الحالة، الصراعات الداخلية على السلطة بين فروع الأسرة الزيانية، بل وحتى داخل الفرع الواحد[٣٤] وأذكى هذه الصراعات تدخل العرشين الحفصي والمريني لصالح طرف على حساب الطرف الأخر لزعزعة أركان الدولة، والظفر بتأييد من يصل إلى العرش . ومن جملة هذه الصراعات نذكر خروج الأمير محمد بن زيان بدعم من النصارى،[٣٥] على شقيقه يغمراسن سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٥م)، انتهت بفشل المحاولة ومقتل الأمير[٣٦] كما خرج الأمير أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ضد الده السلطان أبي حمو موسى الأول سنة (٧١٨هـ/١٣١٦م)، وقتله إياه مع مجموعة، من معاونيه وأقاربه داخل القصر الزياني، بحجة تفضيل السلطان ابن عمّه برهوم على ابنه.[٣٧]

شهد المغرب الأوسط في الفترة الممتدة من سنة (٧٦٢هـ/١٣٦١م) و(٧٨٣هـ/١٣٨١م) صراعًا طويلاً بين أبي حمو موسى الثاني، وابن عمه أبي زيان سعيد الذي طلب الدعم والمساندة من الأطراف المعادية للسلطة[٣٨] وكان من نتائج هذا الصراع انقسام الدولة إلى شطرين، شرقي وغربي. الأول تحت سيطرة أبي زيان، والثاني تحت نفوذ أبي حمو موسى الثاني، وهذا ما جعل الدولة لقمة صائغة في أفواه المرنيين[٣٩] تكررت الظاهرة سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، فنشب صراع بين السلطان أبي حمو موسى الثاني وابنه الأكبر أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني(٧٩١هـ/١٣٨٩م-٧٩٥هـ/١٣٩٣م) المطالب بالعرش، فانتهى الصراع بمقتل السلطان الزياني وابنه الأصغر ابن عمير سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م).[٤٠] ويظهر من خلال هذه الأحداث خاصّةً الأخيرة منها، أنّ السّلطة المرينيّة أصبحت تتحكّم في بلاد المغرب الأوسط إمّا بشكل مباشر عن طريق إخضاع تلمسان لسلطتها، أو بشكل غير مباشر عن طريق المساهمة في تنصيب سلاطين موالين لها، اصطنعتهم لهذا الغرض وهم من أسرة بني عبد الواد،[٤١] أي بمفهوم آخر تحقيق الهيمنة المرينيّة على المغرب الأوسط بسواعد زيّانيّة، بعدما عجز المرينيّون تحقيقها عسكريًا.[٤٢]

وهكذا شاعت الصّراعات داخل الأسرة الحاكمة الواحدة - وهذين النموذجين على سبيل المثال لا الحصر- خاصّةً خلال القرن (٩هـ/١٥م)، وممّا ساهم في إشاعتها وإذكائها التدخّل الحفصي والمريني في ترتيب شؤون البيت الزّياني لما يوافق مصالحهم، وذلك لصالح طرف على حساب طرف آخر لزعزعة أركان الدّولة الزيانية،[٤٣] وقد أنجر عن ذلك الوضع داخل الأسرة الحاكمة إلى انقسامها إلى طامع للملك ومعارض له، وأشتعل القادة لا بسياسة

الدّولة، بل انهمكوا في الدّسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات، وكثرة الصّراعات الدّاخليّة والفتن والفوضى، وانعدام الاستقرار السّياسي.[٤٤] لعبت الوشاية وحب التسلط وشهوة الزعامة دورًا رئيسًا في إشعال نار الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة،[٤٥] فبالرغم من هذه الصراعات الداخلية للبيت الحاكم في تلمسان وثورات القبائل العربية،[٤٦] والزيانية ضد السلطة المركزية في تلمسان والهجومات المتكررة من قبل الجارتين الشرقية والغربية، وهيمنتها على الدولة الزيانية فترات عديدة من الزمن.

إن دولة بني زيان وعاصمتها تلمسان كانت تحتل مركزًا سياسيًا وتجاريًا وعلميًا متميزًا بين حواضر المنطقة.[٤٧] وإذا أمعنا النظر في الحروب السياسية والوقائع المتسلسلة والانهزامات المتوالية لدولة بني عبد الواد الزيانيين، وجدنا أنه لم ينل أهلها فتور ولم يتخلل صفوف أبناءها فشل في توطد عزمهم على تأسيس دولتهم بلم شمل شتات قبائل المغرب الأوسط وتكوين قوة سياسية تمكنهم من استرجاع المجد الزياني.[٤٨] تداولت على تلمسان أيدي مختلفة في عصر التفكك، فكانت تارة حفصية، وتارة زيانية، وتارة مرينية، فسادها التشتت السياسي، وفشت فيها الحالات المشحونة بالاضطرابات، كالخوف وعدم الأمن وإسالة الدماء، والتبست الأمور على سكانها، وكل يمر يوم يزداد الحال سوء واضطرابًا، وكل يوم يسمع لسكان أن واليًا هزم وواليًا نصب، حتى كانت قائمة الولاة شريطًا طويلاً في مدة وجيزة.[٤٩]

٤- التدخل الحفصي

لم تكن الدولة الزيانية دولة شرعية في أعين بني حفص، الخلف الشرعي لخلفاء مراكش، فكانوا لهذا السبب يعتبرون أنفسهم ورثة الحكم الذي كان يباشره أسلافهم على مدينة تلمسان، وليس من الغريب إذن إن تعددت الحروب بين المغرب الشرقي والمغرب الأوسط،[٥٠] فابتداءً من سنة (٦٣٩هـ /١٢٤١م)، سعى بنو حفص إلى تأكيد حقوقهم المشروعة، فحاصروا العاصمة الزيانية وأذووا أهلها متخطين حدود العنف القصوى في معاملتهم،[٥١] تلخص الصراع الحفصي الزياني في رغبة السلطة الحفصية في السيطرة على باقي بلاد المغرب الإسلامي باسم الشرعية الموحدية، وهذا ما جعل المغرب الأوسط أولى اهتماماتها .فكانت الحملة التي شنها السلطان الحفصي أبو زكريا على تلمسان في أواخر سنة (٦٣٩ هـ/١٢٤١م)، وأوائل (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) إشارة انطلاق هذا الصراع الذي انتهى بصلح بعد أن حاصر المدينة وعث فيها فسادًا وتخريبًا، فارضًا على يغمراسن الدعوة باسم الحفصيين.[٥٢]

تحرك السلطان الحفصي أبو فاس عبد العزيز سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م) بحملة عسكرية صوب تلمسان متذرعًا بأن يخلصها من ظلم حاكمها، وحجته في ذلك سيرة السلطان الزياني، عدوانية غير محمودة، وحاصرها فهرب منها السلطان الزياني تاركا إياها للجيش الحفصي.[٥٣] فأقام بها العاهل التونسي مدة قصيرة، ثم عين عليها محمد بن تاشفين الثاني، المعروف بابن الحمراء،[٥٤] بدأ عهده تحت رعاية بني حفص، لا يشق لهم طاعة ولا يرد لهم طلبا واستطاع بهذه السيرة، وان يتجنب ويلات الحرب، كما تمكن بحسن سلوكه وسداد رأيه أن يجلب إليه محبة الرعية، ويجمع تأييدها حوله ويوحد صفوفها تحت سلطانه، وسرعان ما أحس بالاستقرار والقوة، أعلن عن خلع رداء الهيمنة الحفصية بقطع الخطبة للسلطان الحفصي، واستعد لمجابهته، بتعبئة القبائل العربية والزيانية وتحصين عاصمته، لأنه يعلم بأن أبا فارس لن يسكت على ذلك، وخاصة بعد أن أصبح اسمه يذكر على منابر تلمسان وفاس وغرناطة.[٥٥] وألغى ذكر اسم سلطان بني حفص على منابر مساجد المغرب الأوسط في خطبة الجمعة.[٥٦]

٥- الأوضاع الفكرية

وفما يخص الناحية الفكرية والعلمية في مدينة تلمسان، فقد شهدت حركة دؤوبة ونموًا مطردًا، لأن الحياة السياسية القلقة، التي عاشتها حاضرة بني زيان، في بعض الفترات من تاريخها، لم تؤثر بشكل مباشر على الحياة العقلية السائدة في المدينة، أو تعرقل نموها، فقد تميز الزيانيون بعنايتهم بالثقافة والعلم ورعايتهم للآداب والفنون وتقديرهم لأصحابها، وتشجيعهم على الدرس والتأليف، واحتضانهم لصفوة العلماء والأدباء والفقهاء والوافدين من حواضر المغرب الإسلامي،[٥٧] لم يكتفي طلابها بالمعارف العلمية المحلية بل جابو أقطار الدول الإسلامية في المشرق والأندلس، وتتلمذوا على أشهر علماء ذلك العصر، مما زاد تلمسان إشعاعًا علميًا احتكاك الحضارة الأندلسية بالحضارة الزيانية فانتشرت الحركة الثقافية من تأليف في شتى العلوم وازدهرت حلقات العلم والجدل والمناظرات، وأنجبت تلمسان العديد من العلماء في العلوم الدينية واللسانية والاجتماعية والطبيعية بفضل رعاية ملوكها للعلماء والعلم، وتوفير لهم مناخ المناسب للبحث والإبداع،[٥٨] يرجع الفضل في تمهيد الحركة الفكرية إلى جهود المرابطين والموحدين في مجالات الثقافة والعلم والأدب، الذين فتحوا أفاق فكرية واسعة، أتاحت للحياة الثقافية في عهد بني عبد الواد الزيانيين، وأثناء السيادة المرينية ونفوذها مزيدًا من الازدهار والنضج، فقد أولى أمراء وسلاطين هذا العصر اهتمامًا كبيرًا وعناية فائقة بالجانب الثقافي والعلمي، بتشجيع العلم والنهوض به، واحتلت العلوم الدينية محل الصدارة.[٥٩]

كثرت الفتن والاضطرابات في المغرب الأوسط ورغم ذلك بقيت سوق الثقافة الإسلامية نافعة، إن كان يظهر فيها شيء من الفتور، ويرجع ذلك أن بني زيان ولاسيما، أبي حمو موسى الثاني، نهضوا بها نهضة واسعة ودفعوا دفعة قوية، فأمكنها ان تثبت هذا

الثبات أمام الاضطرابات المتتالية، ضف إلى ذلك اتصال التلمسانين بالأندلسيين المهاجرين.[٦٠] ودعم ذلك إحداث الوسائل المعززة للجانب الفكري والثقافي المتمثل في إنشاء المؤسسات الفكرية من مدرس ومعاهد، وإسناد التدريس لأشهر رجال العلم، وتعمير المكتبات، وتكريس المجالس العلمية، وعقد الندوات والمناظرات فيها، وتدعيم الرحلات العلمية، فضلاً عن الوظيفة التي قامت بها المساجد في أداء رسالتها وكذا الزوايا والربطات الأمر الذي كان له الأثر الطيب والبارز في دفع الحركة الفكرية في المجتمع.[٦١]

كان ملوك بني زيان رغم حروبهم الداخلية، ورغم الاضطرابات التي تسود البلاد أحيانًا، يحبون العلم ويقربون العلماء ويكرمون رفادة الأدباء، وكثير منهم كان ينظم الشعر الجيد ويضرب في الآداب بسهم صائب، ومنهم من كان ينفق فيسرف في الإكرام والعطاء والهبات لمَنْ يستحق ومَنْ لا يستحق حتى اختلت الأمور المالية بسبب سخائه [٦٢] سعيد بن أبي حمو الثاني.[٦٣]، قد أكتسب المجتمع التلمساني، ثقافة واسعة ورقيًا حضاريًا أخرجه من طور البداوة إلى طور الحضارة، فأعطى بمختلف عناصره أهمية كبيرة للحياة الاجتماعية ومظاهرها، وللحركة الفكرية والثقافية، ونشر المعرفة وتعميقها بواسطة التعليم.[٦٤]

ازدهرت العلوم الإسلامية وكثر الإقبال عليها، ولاسيما كانت تمكن الطلبة من الحصول على وظائف هامة في القضاء وفي الدواوين الإدارية، وغير ذلك من المناصب التي كان الناس يتهافتون عليها، إلى جانب العلوم الإسلامية انتشرت علوم الفلك والرياضيات والطب والكيمياء وغيرها انتشارًا كبيرًا، وحظيت الدراسات اللغوية، وما يتفرع عنها من العلوم والآداب، بإقبال طلبة العلم، وازداد الاهتمام باللغة وبالبلاغة من طرف العلماء.[٦٥] إن تلمسان كانت دائمًا بلد علم وعلماء ومركز سنة وجماعة، وكان بنو زيان من رعاة العلوم، فاستقدموا أهل العلم والأدب، وخاصةً الشعراء، وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء على مثال ما كان يفعله جيرانهم ومنافسوهم بنو مرين وبنو وطاس، وكذلك كثر في تلمسان أهل التصوف، والصُلحاء والعباد.[٦٦] ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن ازدهار الحياة الفكرية والعلمية في تلمسان ارتبط بالمناخ السياسي بصورة يصعب فصلها، بل أنها تدين في كثير من تقدمها وتطورها للعامل السياسي الذي يتعهدها.

خَاتِمَةٌ

إن الاضطراب السياسية الّتي مرّت بها تلمسان عاصمة المغرب الأوسط عبر القرون الثلاثة والتي جاءت كنتيجة حتمية لهجمات الدولة الحفصية من الشرق تارة، وهجمات المرنيين من الغرب تارة أخرى، إضافة إلى الفتن التي لا تكاد تنطفئ حتى تشتعل مرة أخرى، كما كانت تزاحمها في الوقت نفسه عدة قبائل محلية، غير أن بني زيان كان نجاحهم في سياستهم الداخلية أكثر، إذ قربوا إليهم بعض رؤساء القبائل واتخذوهم حلفاء ضد القبائل الثائرة على سلطتهم، وبهذه السياسة نجحوا في توطيد دعائم دولتهم، فما إن أعلن الحفصيون استقلالهم في تونس حتى أعلن بنو زيان استقلالهم في تلمسان. ومما سبق نستنتج أن السياسة العامة لدول المغرب الإسلامي (الحفصية، المرينية، الزيانية) هي سياسة المحافظة على التوازن وعدم السماح لأي منها بالانفراد بالسيادة والسيطرة، وعلى ان موقع الدولة الزيانية في الوسط كلفها الكثير من المتاعب وألحق بها عدة خسائر وحال بينها وبين الاهتمام بمشاريعها الداخلية ومواجهة القرصنة الأوروبية واعتداءاتها المتكررة على شواطئ البلاد، كما حال دون قيامها بتقديم مساعدات عسكرية لمسلمي الأندلس الذين كانوا يعانون في تلك الفترة من الظلم والاضطهاد الإسباني، كان له أثر على الحياة الاجتماعية والثقافية في أغلب فتراتها، إلا أنه رغم ذلك نجد عناية حكام بني عبد الواد بالثقافة والعلوم، والآداب، والفنون، كانت كبيرة، إذ قربوا إليهم العلماء، وشجعوهم على التدريس، وأغدقوا عليهم الأموال، وبنوا لهم المدارس، والمساجد، والزوايا، كما عملوا على توفير الجو المريح والملائم للطلبة كل ما من شأنه أن ييسر لهم سبل التحصيل والمعرفة، وبالتّالي يمكن القول أن التقهقر الفكري والعلمي لا يرتبط حتمًا بالتدهور السياسي.

الهَوامِشُ:

(١) أسّسها المهدي بن تومرت ابتداءً من سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م)، وعاصمتها مرّاكش، واستطاعت أن توحّد المغرب الإسلامي، إلا أنّ انهزامها في معركة العقاب بالأندلس سنة (٦٠٩هـ/١٢٦٩م)، وثورة بني غانية، من الأسباب الّتي عجّلت بسقوطها سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) على يد المرينيّين. يُنظر: عبد الواحد المرّاكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق صلاح الدّين الهوّاري، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص١٣٦-؛ ابن أبي الزّرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطّباعة والوراقة، الرّباط، ١٩٧٣، ص١٨٣-؛ أبوبكر علي الصّنهاجي البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص٧-؛
Rachid bourouiba Ibn Tumart, SNED,Alger,1982,P9

(٢) **العقاب**: موضع بالأندلس بين جيان وقلعة رباح وقعت فيه معركة بين الموحدين والأسبان انهزم الموحدون فيها سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، يُنظر الروض المعطار في خبر الأقطار- محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ١٩٧٥، ص ٤١٦.

(٣) نسبة إلى الشّيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، من قبيلة هنتانة إحدى بطون المصامدة، ويعد أبي زكرياء يحيى الأوّل مؤسّس الدّولة الحفصيّة سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)، والّتي استمرت إلى غاية دخول الأتراك سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م. يُنظر: محمد العروسي المطوي، السّلطنة الحفصيّة تاريخها السّياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٢٦، ص٨٥-؛ محمد الأندلسي الوزير السراج، **الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة**، ج٢، تحقيق: محمّد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص١٤٠.

(٤) ينتمون إلى بني واسين إحدى بطون زناتة البربرية، أسقطوا مرّاكش عاصمة الموحّدين وأسّسوا دولتهم على أنقاضها في عهد يوسف يعقوب (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م). يُنظر: محمد ابن مرزوق، **المسند الصّحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص١٠٧.

(٥) عبد الحميد حاجيات، **أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع للكتاب، الجزائر ١٩٨٦ ص٢٢-٢٣.

(٦) بويع أمير المسلمين يغمراسن بن زيان، وأوضح للخلافة الحسينية الآثار، ورفع لمن ضل عن سبيل هداها أعلى منار، فابتهج الدهر بوجوده، تولى الحكم من سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) إلى سنة (٦٨١هـ/١٢٨٣م)، يُنظر **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، مقتطف من **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، لمحمد بن عبد الله التنسي، تحقيق محمود عياد، المؤسسة الوطنية للكتاب،١٩٨٥، ص ١١٥، وروض **النسرين في دولة بني مرين** لأبي إسماعيل بن الأحمر، المطبعة الملكية، الرباط، ص٤٥-٤٩.

(٧) أبي زكريا يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، ج١، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦، ص٢٠٤-٢٠٧.

(٨) محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥، الجزائر، ص٧٣.

(٩) جمال الدين بوقلي حسن، **الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،١٩٨٥، ص١٦.

(١٠) عبد الحميد ابن أبي زيان بن شنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، الطباعة الشعبية للجيش (د.ت) ص١٠.

(١١) محمد بن رمضان شاوش المرجع السابق، ص٧٣، يُنظر كذلك علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ص ٣٨٥.

(١٢) جمال الدين بوقلي حسن، **الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد**، المرجع السابق، ص١٦

(١٣) عبد الله شريط ومحمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، طبع مكتبة البعث، قسنطينة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥، ص١٠٠ - ١٠٣.

(١٤) يوسف بن عبد الحق المريني، **أبو يعقوب (٦٣٨-٧٠٦هـ /١٢٤٠-١٣٠٧م)**، يُنظر إلى أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، المرجع السابق، ص٢١.

(15) G. Marcais, Tlemcen, libraire Renouard .Paris, 1950, p57

(١٦) عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٣٠٧.

(١٧) أبو تاشفين الأول حكم ما بين (٧١٨-٧٣٧هـ/ ١٣١٨م-١٣٣٧م)، يُنظر: التنسي، المصدر السابق، ص١٣٩، ابن الأحمر، المصدر السابق، ص٥١.

(١٨) عن حركة أبي الحسن المريني: يُنظر ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ط دار الفكر ٢٠٠، ج٧ ،٣٨١، ٣٣٩، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البـ يضاء١٩٩٧، مج١، ج٣، ص١٢٣.

(١٩) عن هذه المدينة يُنظر:
Marcais (W.G), les monuments arabes de Tlemcen; librairie thorin; paris1903;pp192,201

(٢٠) بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين٧-٩هـ /١٣-١٥م**، دراسة في التاريخ السوسيو- ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع- الجزائر، ٢٠٠٣.

(٢١) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج١، ص٤٧.

(٢٢) أبي عنان ولقبه المتوكل على الله، بويع في تلمسان في حياة أبيه، في شهر ربيع الأول عام ٧٤٩هـ ومات مغتالاً، ودفن بجامع المدينة البيضاء، وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر، كان فارسًا شهمًا شجاعًا بطلاً مجربًا، يقوم في الحرب مقام جنده، وكان فقيهًا يناظر فيه العلماء، انظر: **موسوعة أعلام المغرب**، لمحمد حجي، ص٧٥٩، **أبو حمو موسى الزياني: حياته وأثاره**، تأليف عبد الحميد حاجيات، ص٣٤. وابن مريم المديوني، المصدر نفسه، ص٢١٥.

(٢٣) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٥، ج٢، ص١١٠-١١١.

(٢٤) عن شخصية السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، يُنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج٧، ص٤٨٢، عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، خصه بدراسة عن حياته وأثاره، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج٢، ص١٨٠-١٨١.

(٢٥) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص١٧٩.

(٢٦) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص٥٣.

(٢٧) نفسه، ج٢، ص٦٧.

(٢٨) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٧، ص٣٠٧.

(٢٩) محمد بن عبد الله التنسي، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان**، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، والمكتبة الوطنية الجزائرية، ١٩٨٥، ص١٨٠.

(٣٠) نفسه، ص١٨١.

(٣١) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص٦٦.

(٣٢) يُنظر عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص٦٦، يُنظر: محمد بن عمرو الطمار، **تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٢٠٩-٣٠٠، ومبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج٢، ص ٤٥٤،٤٧٠، وإسماعيل بن الأحمر، المصدر السابق، ص٥٩-٦٠.

(٣٣) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٧، ط بولاق، ص٣٠٧.

(٣٤) بوزيان الدراجي، **نظم الحكم في دولة بن عبد الواد الزيانية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة١٩٩٣، ص٣٢-٣٦.

(٣٥) استعان بهم يغمراسن في جنده وكان دائمًا متباهيًا بقدراتهم العسكرية، يُنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر** (المصدر السابق)، ج٧، ص ١١٣.

(٣٦) نفسه، ص١١٣

(٣٧) اصطفى السلطان أبو حمو ابن عمه برهوم وتبناه وقربه لما تميز به هذا الأخير من صرامة ودهاء، نفسه، ص١٣٩، يُنظر كذلك، يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص٢١٤-٢١٥، والتنسي، المصدر السابق، ص١٣٨.

(٣٨) يحي ابن خلدون، **بغية الرواد**، نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفرد بل، ج٢، مطبعة فونتانا، الجزائر، ب.ط، سنة١٩١١، ص١٢٢، عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر** (المصدر السابق)، ج٧، ص١٦٩.

(٣٩) عبد الحميد حاجيات، "**السلطان أبو حمو موسى الثاني: سياسته وأدبه**"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ب.ط، يوليو١٩٦٨، ص٢٥.

(٤٠) عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر**...، ص١٩٤-١٩٥، أيضًا، عبد الحميد حاجيات أبو حمو... المرجع السابق، ص١٤٠. مبارك الميلي، المرجع السابق، ج٢، ص٤٦٠.

(٤١) عبيد بوداود، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين (٧-٩هـ/١٣-١٥م): دراسة في تاريخ السوسيو-ثقافي**، دار الغرب، الجزائر، ٢٠٠٣، ص١٦١.

(٤٢) عبد العزيز فيلالي، المرجع السّابق، ج١، ص٥٩.

(٤٣) عبيد بوداود، **التصوف**.... المرجع السابق، ص١٦٣.

(٤٤) مولاي بلحميسي، "**نهاية دولة بني زيّان**"، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد (٢٦)، السنة (٤)، ١٩٧٥، ص٣١.

(٤٥) أبي العباس احمد بن حسن الشهير بابن الخطيب أو ابن قنفذ، **شرف الطالب في انس المطالب**، ص١٦.

(٤٦) عبد العزيز فيلالي، المرجع السّابق، ج١، ص١٧، ويُنظر خالد بلعربي، **الدولة الزيانية في عهد السلطان يغمراسن دراسة تاريخية وحضارية (٦٣٣-٦٨١ هـ/ ١٢٣٥-١٢٨٢م)**، مطبعة الريان، تلمسان، ط١، ٢٠٠٥/١٤٢٦.ص٩٥، ويُنظر عبيد بوداود، **التّصوّف**...المرجع السّابق، ص١٧١.

(٤٧) شوقي الجمل، **المغرب الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر**، ص٢٣.

(٤٨) الشريف أبي عبد الله محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**، ص٣٠-٣١.

(٤٩) جمال الدين بوقلي حسن، **الإمام ابن يوسف السنوسي، وعلم التوحيد**، ص٢١.

(٥٠) المرجع السابق، ص١٦.

(٥١) يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق ألفرد بل، بيير فونتانا، الجزائر،١٩٠٣، المجلد الأول، القسم الثاني، ص١١٣.

(٥٢) الزركشي، (أبوعبد الله محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ، (٨٨٣هـ/١٤٧٨م): **"تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية"**، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، سنة ١٩٦٦، ص٢٩.

(٥٣) محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص٢٤١.

(٥٤) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص١٩٥.

(٥٥) المطوي محمد العمروسي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦، ص٤٣٢.

(٥٦) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٠.

(٥٧) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج٢، ص٤٩٧.

(٥٨) عمورة عمار، **موجز في تاريخ الجزائر**، ص٨٦.

(٥٩) الشريف عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع والأصول**، ص٣١.

(٦٠) **تلمسان عبر العصور**، محمد بن عمرو الطمار، ص٢١١.

(٦١) الشريف عبد الله بن محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، المصدر نفسه، ص٣١.

(٦٢) أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص٣١.

(٦٣) سعيد بن أبي حمو الثاني حكم في الفترة الممتدة (٨١٤-١٤هـ/ ١٤١٢-١٤١٢م)، راجع: **كتاب الجزائر** ـ توفيق المدني، ص٥٠٠-٥٠١.

(٦٤) عبد العزيز الفيلالي، المرجع نفسه، ج١، ص٥٥.

(٦٥) العلامة الإمام أبي العباس أحمد بن حسن الشهير بابن قنفد، تحقيق عبد العزيز صغير درخان، **مشرف الطالب في اسنى المطالب**، ص١٦.

(٦٦) ابن الاحمر، **تاريخ الدولة الزيانية في تلمسان**، تحقيق هاني سلامة، ص٤٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

أثر الحالة السياسية في المغرب الإسلامي على الحالة العلمية خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين
العلامة الونشريسي نموذجًا

د. محمد بن حمو
أستاذ في قسم التاريخ وعلم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

العلاّمة أحمد بن يحيى الونشريسي من علماء الجزائر توفي سنة ٩١٤هـ عاش في العهد الزياني في مدينة تلمسان وتلقى العلم على يد علمائها، وبعد أن بلغ أربعين سنة حدث له سوء تفاهم مع السلطان فاتجّه إلى المغرب الأقصى وبالتحديد إلى فاس عاصمة العلم والعلماء، فأمضى بها بقية حياته، ودرَّس هناك إلى أن توفي ودفن بها، وقد تخرّج عليه عدة علماء، كما ألّف عدة مؤلفات لا يزال الكثير منها مخطوطاً، فيما حقق بعض منها. كما تطرقنا في المقال أيضًا إلى الوضعية السياسية والعلمية خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين وهي الفترة التي عاش فيها المؤلف. الهدف من المقال التعريف بعلماء المغرب الإسلامي بشكل عام، وبعلماء المغرب الأوسط بشكل خاص، فيندرج المقال ضمن تراجم علماء المغرب الأوسط، الذين غُيِّبوا ولم يعودوا معروفين في الأوساط العلمية، أو أن المغاربة لم يهتموا بهم إلى حد الآن إما جهلاً بقيمتهم أو تقاعسًا في التعريف بهم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٨ مايو ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ سبتمبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الونشريسي، المغرب الإسلامي، دولة بني حفص، دولة بني زيان، دولة بني مرين

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041878

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد بن حمو. "أثر الحالة السياسية في المغرب الإسلامي على الحياة العلمية خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين العلامة الونشريسي نموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص ٩٨ – ١٠٧.

مُقَدِّمَةُ

نود في هذا المقال أن نتطرق إلى حياة العلاّمة أحمد بن يحيى الونشريسي، حياته، طلبه للعلم، شيوخه، هجرته إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، شيوخه هناك، طلبته الذين تخرجوا على يديه، تدريسه وأخيرًا مؤلفاته، مع الإشارة في البداية إلى الحياة السياسية والعلمية في المغرب الإسلامي بشكل عام من خلال الفترة التي عاش فيه المؤلف، والتطرق لمحاولة التعرف على تأثير الظروف السياسية على الجانب العلمي. قبل أن نشرع في الكلام على الونشريسي وحياته وما يتعلق به، لا بد أن نتطرق إلى الحالة السياسية والثقافية في المغرب الإسلامي، ثم نركز على كل من تلمسان وفاس حيث عاش المؤلف، وهذا لابد منه لمعرفة البيئة والتيارات التي أثرت على تحصيله وسيرته ورحلته إلى فاس، بالإضافة إلى محاولة تسليط الضوء على تأثير السياسة على الجانب العلمي. بعد ضعف الدولة الموحدية بسبب هزيمتها في معركة العقاب في الأندلس سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م) في عهد الناصر، انقسمت صفوف رجالها ووقع الانكسار الذي لا يُصلح بين خلافتها ومشيختها، وأخذت كل منطقة من مناطق المغرب تحاول الاستقلال عن الدولة، ونتج على إثر هذا انقسام سياسي جديد جزَّء المغرب إلى ثلاثة دول مستقلة، وهي دولة بني حفص في المغرب الأدنى، ودولة بني زيان في المغرب الأوسط، ودولة بني مرين في المغرب الأقصى.

أولاً: الحالة السياسة في بلاد المغرب بعد الدولة الموحدية

إن الكلام على الحالة السياسية في المغرب الإسلامي من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر هجريين يطول جدا لتداخل الأحداث وكثرتها، والتي اتسمت في معظمها بالحروب والمكائد والتصارع على الكرسي، مما جرّ المغرب إلى الهاوية والتي تمثلت في ضعف الدول وتسلطها على بعضها البعض، بالإضافة إلى التدخل المسيحي الصليبي ومحاولة القضاء على الإسلام وعلى هذه الدويلات المتصارعة، وسنحاول هنا أن نتكلم على أهم الأحداث التي مر بها المغرب خلال هذه المرحلة دون التفصيل في ذلك، لأن الهدف من هذه الدراسة هو إعطاء تصور للحالة السياسية للمغرب الإسلامي الذي وُلد فيه ونشأ العلامة الونشريسي، ولمعرفة العلاقة بين الحالة السياسية والحالة العلمية والثقافية والتي ولا شك لها أثرها على المستوى العلمي للعلماء.

في مستهل القرن السابع هجري كان المغرب الإسلامي لا يزال يعيش في ظل الوحدة التي فرضتها الدولة الموحدية منذ قرابة قرن من الزمان، غير أن الضعف الذي بدأ يدب فيها جعل بعض الحركات الاستقلالية تنتهز هذه الفرصة للحصول على بعض الامتيازات كالحكم الذاتي وتسيير شؤونها بنفسها، وظهر هذا الضعف جليا بعد هزيمة الموحدين بقيادة الناصر في معركة العقاب بالأندلس سنة (٦٠٩هـ/١٢١٣م)، وما سبق ذلك من أزمة ابني غانية اللذين تكالبا على تونس وسائر بلاد إفريقية وملكوها، وما تلى ذلك من حروب متكررة مع قبائل بني مرين الذين استطاعوا أن يهزموا الموحدين سنة (٦١٢هـ/١٢١٦م) أي بعد ثلاث سنوات فقط من هزيمة العِقاب[١]، وهذا ما عجّل ظهور بعض الدويلات أولها دولة بني حفص ثم دولة بني زيان إلى أن سقطت الدولة الموحدية رسميا بسقوط عاصمتها مراكش على يد المرينيين الذين خلفوهم على العرش، وبهذا قُسّمَ المغرب الإسلامي إلى ثلاث دويلات متنافسة فيما بينها حول محاولة توحيد المغرب، فكان من نصيب بني حفص المغرب الأدنى وعاصمتهم تونس، وكان لدولة بني زيان أو بني عبد الواد المغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان، وأما بنو مرين فاستقروا في المغرب الأقصى واتخذوا من مراكش ثم فاس عاصمة لهم، وبما أن الأحداث تتداخل كثيرًا بين هذه الدويلات بسبب محاولة توسع كل واحدة منها على حساب الأخرى فإني سأحاول ذكر أهم الأحداث دون التفصيل الكبير فيها، مراعيًا في ذلك التسلسل التاريخي لهذه الدويلات حسب تاريخ استقلالها.

١/١- بنو حفص (٦٢٥هـ-٩٨١هـ/١٢٢٨م-١٥٧٣م):

كان أول ظهور لهم على مسرح الأحداث لما توجه الناصر ابن المنصور الموحدي لاسترجاع إفريقية من يد ابن غانية وقدم بين يديه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي* على رأس الجيش واستطاع هذا الأخير أن يهزم ابن غانية ويستولي على معسكره، ثم إن الناصر قرر الرجوع إلى المغرب مركز ملكه واختار عبد الواحد كخليفة له على تونس وقَبِل أبو محمد ذلك مضطرا وكان ذلك سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٧م)،[٢] وبقي في الولاية إلى أن توفي بها سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م)، فخلفة ابنه أبو زيد الذي لم تطل ولايته فعُزل من طرف الخليفة الموحدي وأُرسل بعد ذلك إلى تونس الأخوين أبو زكريا وأبو محمد عبد الله، فوليَ عبد الله تونس وجعل أخاه على قابس ثم وقع الخلاف بينها فأقبل أبو زكريا إلى تونس ودخلها وملكها سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م)، ووجه أخاه إلى إشبيلية[٣]، وكانت هذه هي البيعة الأولى له على تونس، ولعل من الأمور التي جعلت الحفصيين يستقلون بتونس وشجعهم على ذلك ما قام به الخليفة الموحدي إدريس المأمون بن يعقوب المنصور من نبذ المذهب الموحدي ولعن المهدي وعدم ذكر اسمه في الخطبة وإزالته من الدنانير والدراهم وتغيير المذهب كليا، ثم إنه أمر بقتل كل أشياخ الموحدين، وكانت هذه الأحداث سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م)،[٤] وبقي أبو زكريا في الحكم إلى أن كثرت الفتن بالمغرب، منها الحروب الدائمة بين المرينيين والموحدين، ومنها خروج الدولة الزيانية عن الحكم الموحدي سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، فبويع أبو زكريا البيعة الثانية سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٥م)، وذُكر اسمه في الخطبة وتسمى بالأمير، وبايعه الكثير من الأمراء منهم زيان بن مردنيش صاحب شاطبة وأرسل له البيعة مع الأديب المحدث الحافظ أبو عبد الله محمد بن الفقيه العلم المشتهر بابن الأبار وأنشد القصيدة السينية الفريدة التي أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا[٥]

في سنة (٦٣٩هـ/١٢٤٢م)، اتجه أبو زكريا إلى تلمسان فافتتحها[٦]، وأصبحت تلمسان تابعة للحفصيين وبايعته بعض الدويلات في المغرب الأقصى أيضًا[٧]، ولما توفي أبو زكريا خلفه ابنه أبو عبد الله محمد سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م وتلقب بالمستنصر واتخذ لقب الخلافة وتخلص من المترشحين للسلطة[٨] ومن الخارجين عليه، ووصلت إليه مبايعة المرينيين الذين دخلوا فاس سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٥م)،[٩] ولما توفي المستنصر بويع ابنه الواثق يحيى المشهور بالمخلوع وذلك سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٨م)، ثم جاء عمه أبو إسحاق من الأندلس للمطالبة بالعرش فتنازل له عنه، ودخل أبو إسحاق تونس بعد ثلاث سنوات من تولية المخلوع وتخلص من ابن أخيه ومن أبنائه المرشحين للحكم[١٠]، واستطاع بهذا المحافظة على الدولة.

استطاع أبو إسحاق القضاء على المنشقين كعامل قسنطينة، ولكنه فشل في القضاء على الدعي أبي عمارة، وبعد مقتله انقسمت الدولة الحفصية إلى إمارتين واحدة بتونس يحكمها أبو حفص ابن إسحاق والأخرى ببجاية يحكمها أخوه أبو زكريا[١١]، ولما توفي أبو حفص خلفه أبو عبد الله محمد بن أبي عصيدة بن الواثق فقتل ابن أبي حفص خوفا من أن يطالب بالسلطة، كما أن أبا زكريا لما توفي خلفه ابنه أبو البقاء خالد، واتفق كل من أبي البقاء وأبي عبد الله أنه من مات منهما قبل صاحبه تصبح مملكته تابعة للآخر،

فلما توفي أبو عبد الله ضم أبو البقاء تونس وعادت الوحدة للدولة وكان ذلك سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٨م)، ثم ما لبث أن انقسمت من جديد فأصبحت بجاية وقسنطينة ولاية واحدة تحت نظر أبي بكر بن أبي البقاء، وتونس لأبي اللحياني سنة (٧١١هـ/١٣١٠م)،[١٢] ثم استطاع أبو بكر توحيدها سنة (٧١٨هـ/١٣١٧م)، واستطاع ضبط أمورها كما رد الزيانيين الذين حاولوا أخذ بجاية وقسنطينة سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، وجعل بجاية تحت نظر ابنه أبي زكريا وقسنطينة لابنه الآخر أبي عبد الله، ولما توفي أبو بكر خلفه ابنه أبو حفص وتولى أيضًا أبو عبد الله بن أبي زكريا الأمر من بعد وفاة والده وذلك سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٧م).[١٣]

ضيّق الزيانيون الخناق على الحفصيين ببجاية فاستنجد هؤلاء بأصهارهم المرينيين فاستغل أبو الحسن علي المريني الفرصة ودخل تلمسان ثم اتجه إلى تونس فدخلها، وقد أخذ في طريقه بجاية وقسنطينة وذلك سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)،[١٤] ثم هُزم في معركة قرب القيروان فرجع أدراجه وتوفي بعد مدة، ورجعت رسوم الدولة الحفصية إلى ما كانت عليه على يد أبي العباس الفضل سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، ثم دخلت في طاعة المرينيين ثانية لما دخلها أبو عنان فارس بن أبي الحسن المريني، ثم عادت من جديد لأبي إسحاق الحفصي وأصبحت بجاية وقسنطينة تحت حكم أمراء حفصيين آخرين[١٥]، وحاول الزيانيون أخذ بجاية مرة أخرى لكنهم لم ينجحوا في ذلك، واستطاع أبو العباس أحمد المستنصر الحاكم الحفصي بعد ذلك القضاء على بعض الطاميعن في العرش والخارجين على الدولة[١٦]، وبقي كذلك في صراعه مع بعض الطامعين إلى أن توفي سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٦م) فخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز، وعرفت الدولة الحفصية في عهدهما نوعا من الاستقرار والوحدة استمرت إلى عهد خلفهما أبو عمرو عثمان بن أبي فارس الذي تولى سنة (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) إلى (٨٩٣هـ/١٤٨٨م).[١٧]

بعد وفاة أبي عمرو عثمان عادت الدولة إلى الانقسام والصراع على الكرسي بين أبناء الأسرة الواحدة، ودامت هذه الفترة من الاضطرابات حوالي مائة سنة، واستعان كل فريق بالنصارى الإسبان وغيرهم، وهو نفس الشيء الذي حدث مع سلفهم، وكأن التاريخ يعيد نفسه في الصورة نفسها مع أشخاص آخرين، وظهر النفوذ الأوروبي جليًا، ففي عهد أبي عبد الله محمد الخامس الحفصي الملقب بالمتوكل (٨٩٩هـ-٩٣٢هـ/١٤٩٣م-١٥٢٦م)، وفي عهد ابنه الحسن (٩٣٢هـ-٩٤٢هـ/١٥٢٦م-١٥٣٥م) ضعفت السلطة المركزية عن السيطرة على البلاد فتقسمت إلى ولايات متفرقة تحكمها أسر محلية واستقل شيوخ عرب المعقل الهلاليين بمساحات واسعة من الأراضي[١٨]، وفي هذه الأثناء استولى الإسبان على بجاية ودلس والجزائر سنة ٩١٥هـ/١٥١٠م من غير مقاومة حفصية، وفي سنة (٩١٩هـ/١٥١٤م) ملكت إسبانيا جيجل، وفي سنة (٩٤١هـ/١٥٣٤م) تنازل لها الأمير الحفصي عن بونة فتم بهذا خروج الجهة الغربية من ملك الحفصيين.[١٩]

وفي هذه الفترة ظهر الأتراك العثمانيون على الساحة بقوة وتصارعوا مع الإسبان بصفة خاصة، وتراوحت مواقف الحفصيين بين الجانبين، واستولى الأوروبيون على معظم موانئ تونس منذ سنة (٩٦٢هـ/١٥٥٦م) وأصبحت تونس منذ سنة (٩٦٩هـ/١٥٦٠م) مجزأة بين الإسبان والأتراك العثمانيين، وكل واحد يؤيد أميرا حفصيا، واستطاع العثمانيون في الأخير السيطرة على تونس. وما يمكن أن نستخلصه عن تاريخ الدولة الحفصية؛ أنها عرفت دور الصعود والعظمة إلى تاريخ خلع الواثق، ثم دور الاضطراب والفتن إلى خلافة أحمد الأول، ثم دور الانتعاش إلى موت أبي عمر عثمان، ثم دور الاحتضار إلى استلاء العثمانيين على المغرب الأدنى.[٢٠]

٢/١- بنو زيان (٦٣٣هـ-٩٦٢هـ/١٢٣٦م-١٥٥٤م):

كانت مواطنهم الأولى ببلاد الزاب فاضطروا إلى الزحف نحو المغرب الأوسط تحت ضغط الهلاليين، واستطاع أبو يحيى يغمراسن بن زيان الاستقرار في تلمسان واستقل عن الدولة الموحدية التي دب فيها الضعف بعد هزيمتها في معركة العقاب التي تسببت في فوضى عامة في بلاد المغرب، أبقى يغمراسن الطاعة الإسمية للموحدين وبدأ حكمه سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٦م).[٢١]

وفي سنة (٦٣٩هـ/١٢٤٢م) جاء أبو زكريا الحفصي في جيش كبير قاصدًا تلمسان فاستولى عليها وأخضع المنطقة لسلطانه، ثم لم يجد أكفأ من يغمراسن- الذي كان فارًا خارج المدينة- فأعاده عليها على أن يكون تابعًا للحفصيين، وبسبب هذا غضب السلطان الموحدي الحسن بن السعيد وجاء قاصدًا تلمسان إلا أن يغمراسن تلقاه بنواحي وجدة فتغلب عليه سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)،[٢٢] ثم حاول يغمراسن القضاء على المرينيين الذين بدأ نجمهم في الظهور، إلا أنه هُزم سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م). وفي سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، استمر هذا النزاع بعد ذلك لما استطاع المرنييون الاستيلاء على مراكش والقضاء على الدولة الموحدية نهائيًا سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، وطمع يغمراسن في ضم المغرب الأقصى إليه إلا أنه فشل في محاولاته سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) في موقعة إيسلي وكان فشل قبل ذلك في معركة وادي تلاغ، واستمر ذلك أيضًا سنة (٦٧٩هـ/١٢٧٩م) حيث وصل السلطان المريني إلى تلمسان.[٢٣]

واستمرت محاولات أخذ تلمسان في عهد أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني خمس مرات فقصدها سنة (٦٨٩هـ/١٢٨٩م)، ثم سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٥م)، ثم في السنة التي تلتها وفي سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٧م) أيضًا، وكانت في كل مرة تمتنع عليه إلى أن قرر السلطان المريني الاستقرار بقربها وذلك سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) وبنى بجوارها مدينة المنصورة إلا أن موته حال دون اقتحامها، ولقد كادت تسقط بعد حصار دام إلى سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٦م)، واستطاع السلطان الزيان الجديد محمد أبو زيان إعادة الاستقرار إلى دولته.[٢٤]

استطاع الملوك الزيانيون بعد ذلك توسيع منطقتهم شرقا باتجاه الحفصيين وحاصروا بجاية وبنوا بقربها مدينة تمزيزدكت

وبعض الحصون الأخرى كحصن بكر وحصن آخر بالياقونة، كما حاصر الزيانيون قسنطينة وغيرها من المناطق، ولم يستطع الحفصيون في هذه الأثناء رد كيد الزيانيين لأن دولتهم كانت تمر بمرحلة ضعف، ثم إن الحفصيين استعانوا بالمرينيين فاتجه السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد المريني إلى تلمسان وأعاد بناء المنصورة واستطاع دخول تلمسان بعد سنتين وستة أشهر من حصارها وذلك سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٧م)، ثم اتجه شرقًا واستولى على كل أقطاره إلى أن وصل إلى تونس فدخلها سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، إلا أن الأوضاع لم تستقر له وعادت تونس للحفصيين وتلمسان للزيانيين إلى أن أعاد أبو عنان فارس بن أبي الحسن استرجاع تلمسان سنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م)، وتمكن من دخول تونس سنة (٧٥٨هـ/١٣٥٧م) ثم عاد أدراجه قاصدا المغرب الأقصى بعد ما تفرق عنه جيشه، وعادت الدولة الحفصية إلى الحكم كما عادت السلطنة الزيانية لتلمسان بعدها مباشرة[٢٥]، وتملك زمام أمورها أبو حمو موسى الثاني.

في هذه الأثناء اعتلى عرش المرينيين أبو سالم ثم جاء من بعده عبد العزيز ثم أبو العباس، وتصادم الزيانيون مع المرينيين كثيرًا، حيث حاول الحكام المرينيون أخذ تلمسان أربع مرات، الأولى سنة (٧٦٠هـ/١٣٥٩م)، والثانية في السنة التي تلتها، والثالثة من ٧٧٢هـ إلى ٧٧٤هـ/١٣٧١م-١٣٧٣م، والرابعة سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٣م) إلى سنة (٧٨٦هـ/١٣٨٥م)، وكان أبو حمو موسى في كل مرة يسترجع مملكته، كما تصارع أبو حمو أيضًا مع بعض المطالبين بالحكم من العائلة الزيانية واستطاع هزيمتهم[٢٦]، لكنه في الأخير قتل على يد ابنه أبي تاشفين، ولم تسلم لهذا الأخير الإمارة وإنما كثر طلابها، ودخلت تلمسان بهذا في دوامة من الصراع والتنافس والدسائس المتنوعة، مما نتج عنه التدخل المريني من جديد والقضاء على الحكم الزياني سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٤م) ثم حكم عرش تلمسان بعد ذلك بعض الزعماء الزيانيين باسم المرينيين، واستمر الحال على هذا إلى سنة (٨١٤هـ/١٤١٢م).[٢٧]

عرفت الدولة الزيانية بعد ذلك استقرارًا نسبيًا على عهد أبي مالك عبد الواحد ثم ما لبث الأمير الحفصي أبو فارس عبد العزيز أن وسّع حدود مملكته إلى أن وصل إلى تلمسان ودخلها سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، وولّى عليها حاكمًا زيانيًا مواليًا له، وبقيت تلمسان تابعة للحفصيين حوالي عشر سنوات أين استقلت مجددا، ولكن بقي صراع الإخوة على العرش إلى سنة (٨٦٧هـ/١٤٦٢م)، حيث فرض عليها الحفصيون الولاء من جديد، وبقيت تلمسان تتأرجح بين الخضوع للحفصيين وبين الصراع الداخلي على الكرسي إلى سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) وصدق أحمد توفيق المدني لما وصف هذه الفترة بالتقهقر والفوضى والانحلال[٢٨]، وظهر الخطر الصليبي على السواحل المغربية.

ونتيجة لانشغال الدول الإسلامية المغربية بهذه الصراعات استطاع الاسبان الاستيلاء على المرسى الكبير سنة (٩١١هـ/١٥٠٦م)، ورغم هذا استمر الصراع بين آل زيان على العرش، بل واستعان بعضهم بالإسبان الذين استغلّوا هذه الفرصة الذهبية، فأعانوا بعض المنشقين واستولوا بعدها على وهران سنة (٩١٥هـ/١٥١٠م)- وقد كان الونشريس توفي قبل هذا الحدث بسنة واحدة- ثم بجاية في نفس السنة والجزائر في السنة الموالية، وساعدوا الثائرين على الدولة الزيانية، وبهذا تقلصت دولة بني عبد الواد إلى أن خضع حكامها للإسبان سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م)، وفي خضم هذا الهوان والذل جاء فرج الله بظهور القوة العثمانية في البحر المتوسط، وانضمت تلمسان نهائيًا إلى الدولة الجزائرية في سنة (٩٦٢هـ/١٥٥٤م)، ومن المؤرخين مَنْ يرى أن الانضمام التام إنما كان سنة (٩٦٦هـ/١٥٥٨م).[٢٩]

٣/١- بنو مرين (٦٨٨هـ-٩٥٧هـ/١٢٦٩م-١٥٥٠م):

بنو مرين من شعوب بني واسين وهم من زناتة ويُرجع بعض المؤرخين نسبهم إلى العرب، استقروا في إقليم تلمسان تحت ضغط الهلاليين وبقوا هناك إلى أن نفذوا إلى المغرب الأقصى بعد معركة العقاب واستقروا ما بين وادي صا ونهر الملوية، وبدؤوا في شن غاراتهم وهجماتهم على الدولة الموحدية دامت حوالي خمسين سنة، إلى أن تمكنوا من النصر النهائي سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) على يد زعيمهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق[٣٠]، وبعد أن توطد له الأمر خرج للقاء الزيانيين- ولقد كانت استحكمت بينهما عداوة قبل ذلك- واستطاع هزيمتهم في وادي إيسلي (سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م) وحاصر تلمسان ثم عاد إلى المغرب، ثم هزمهم مرة أخرى سنة (٦٧٩هـ/١٢٧٩م)، واستمرت الحروب بعد ذلك سنة (٦٨٧هـ/١٢٨٧م)، ثم سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)، ثم في العام الذي يليه، ثم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، وكانت الجيوش المرينية في كل مرة تصل إلى تلمسان فتحاصرها ولا تستطيع دخولها، إلى أن قرر السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بناء مدينة المنصورة بالقرب من تلمسان واستمر الحصار من سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) إلى سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٦م) أين توفي أبو يعقوب ففُك الحصار ورجعت الجيوش المرينية إلى المغرب الأقصى.[٣١]

ثم انشغلت الدولة بعد ذلك بنزاعات داخلية على العرش إلى أن استقر الأمر لأبي الحسن علي المريني، فاتجه هذا الأخير إلى تلمسان وحاصرها ثم استطاع أخذها ووسع نفوذه حتى بلغ مملكة الحفصيين وأخذ تونس سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ثم هُزم قرب القيروان فعاد إلى المغرب وتخلى عن الحكم لابنه أبي عنان، الذي بدوره أعاد توحيد المغرب مرة أخرى سنة (٧٥٨هـ/١٣٥٧م)،[٣٢] ثم خرجت عليه الكثير من المناطق، فعاد إلى المغرب وكانت الفترة التي تلت عهده فترة حروب وقتال بين الدولة المرينية وجارتها الزيانية، وبين أبناء البيت المريني، مما أفضى بعد ذلك إلى انقسام الدولة إلى مملكتين مملكة فاس ومملكة مراكش سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٥م)، ثم توحدت مجددًا سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٣م)، ولكن سرعان ما عاد الصراع بين فاس وتلمسان وبين المتنازعين على كرسي الإمارة، ثم خمد إلى حوالي سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٥م)،[٣٣] وتعتبر هذه المرحلة مرحلة التدخل المريني في شؤون الدولة الزيانية

مباشرة، تُولي مَنْ تشاء وتعزل مَنْ تشاء واستمر هذا إلى حوالي سنة (٨١٤هـ/١٤١٢م).[٣٤]

بقي الأمر في الأخذ والرد إلى أن استعان بعض الأمراء الزيانيين بالحفصيين، فتدخل الحفصيون في شأن تلمسان، وبعد هذه الفترة ضعفت الدولة حيث تولى أمرها أحيانًا بعض الصبية وأحيانًا أخرى بعض الحكام الضعاف، مما أدى إلى انقسام الدولة بين المتنازعين واستقلال بعض العرب الهلالية عن السلطة المركزية، كما تسلّط الوزراء من بني وطاس- وهم فرع من المرينيين- على تسيير الأمور، بل وتدخل سلطان غرناطة في الشؤون المرينية،[٣٥] وظهر في هذه الفترة الخطر الأوروبي على السواحل حيث استطاع البرتغاليون أخذ سبتة سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م)، ثم استطاعوا الاستلاء على صافي وأزمور وطنجة سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٥م)، ثم أصيلا سنة (٨٧٦هـ/١٤٧٢م)،[٣٦] وتسبب تسلط العنصر الوطاسي في تسيير الأمور إلى أن صار الحكم لهم منذ سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م) إلى سنة (٩٥٦هـ/١٥٤٩م)، ولكن في الحقيقة لم يتجاوز حكمهم فاس ونواحيها، وخرجت عنهم معظم الجهات التي تغلب على بعضها بعض المنشقين وبعض الأسر المتغلبة، كما تغلب النصارى (الإسبان والبرتغاليون) على السواحل كما مرّ معنا، وهنا ظهرت قوة الأشراف السعديين في الجنوب الذين استطاعوا دخول مراكش سنة (٩٢٩هـ/١٥٢٣م) بعد حروب طويلة مع الوطاسيين ودخلوا فاس سنة (٩٥٦هـ/١٥٤٩م) وبهذا طويت صفحة من تاريخ طويل وحافل للدولة المرينية والوطاسية وبدأت دولة جديدة هي الدولة السعدية، ثم ظهر بعد ذلك الأشراف العلويين سنة (١٠٧٧هـ/١٦٦٦م).[٣٧]

ثانيًا: علاقة السياسة بالنشاط العلمي في المغرب الإسلامي

لا شك أن مثل هذه الصراعات بين هاته الدويلات كانت تؤثر على المسيرة العلمية للعلماء، فإن الاستقرار الأمني مدعاة للاستقرار العلمي وتطوره، وعدمه يتسبب في التدهور العلمي والفكري، ولعل مثل هذه الصراعات التي ذكرناها من قبل دفعت ببعض الباحثين إلى القول بأن الحركة العلمية ركدت في هذه العصور، وقال عبادة كحيلة: "أنه رغم كثرة الوجوه العلمية وتعددها فإن من صعد منها إلى مكانة عالية عدد يسير، من بينها ابن الخطيب وهو أندلسي قبل أن يكون مغربيا، وابن خلدون وله من الأندلس أصله البعيد، ثم إنه قضى الشطر الأخير والأهم من حياته بالمشرق ومصر على نحو خاص"، ويضيف "وليس لدينا من تفسير لهذه الظاهرة سوى أن الثقافة العربية الإسلامية في ذلك الزمان (أواخر العصور الوسطى) كانت قد توقفت عن النمو وأصابها الركود بعد أن فارقت عصورها الزاهرة"،[٣٨] ولا يمكن أن نسلم بهذا القول دون قيد، فنقول إن الباحث الذي يرجع إلى كتب التراجم لتلك العصور فإنه يجد بها عددًا كبيرًا من أهل العلم، ومنهم المجهولون في كل المغرب الإسلامي، ومنهم مَنْ أُهملت مؤلفاته ومنهم مَنْ لم تصل إلينا كتبه، ومنها عدد كبير جدًا لا يزال مخطوطًا في المكتبات الوطنية العربية والأجنبية بل والمكتبات الخاصة، وهنا يقع اللوم علينا نحن المغاربة لأننا وإلى الآن لم نعط لدراسة المخطوطات حقها ولم نوجه إليها الدارسين الأكاديميين لدراسات عليا، وهناك أطروحتي دكتوراه أنجزتا في هذا الميدان في قسم التاريخ في تلمسان، الأولى الموسومة "بيوتات العلماء في تلمسان"**، والثانية "تطور العلوم في بلاد المغرب الأوسط"*** تدلان على أن العلماء كانوا بعدد لا بأس به.

وهناك نقطة أخرى وهي أن العلماء الذين ذكرهم "كحيلة" وأنهم بلغوا إلى مراتب عُليا كابن الخطيب وغيره، فلنا أن نتساءل أليس كل واحد من هؤلاء الأعلام الذين بلغوا إلى تلك المراتب قُتلوا على يد الحكام بالظنة ودون تثبت، فابن الخطيب قُتل[٣٩]، ويحيى بن خلدون قُتل[٤٠]، وابن الأبار قُتل[٤١]، والغبريني أيضًا قُتل[٤٢]، وغيرهم كثير من الذين كانوا يحيطون بالحكام[٤٣]، فلعل هذا سبب وجيه في اعتزال العلماء للحكام، بل لعل انتقال عبد الرحمن بن خلدون إلى المشرق هذا من أهم أسبابه، فإنه كاد يُقتل بالظنة، ثم إنه تقرب لكل من الحكام الحفصيين والزيانيين المرينيين وعمل معهم فوجد الحروب بينهم متواصلة ويقتل الواحد منهم من يخالفه أو يشك فيه، لذلك انتقل إلى مصر للاستراحة من مثل هذه الظروف التي لا تساعد العلماء على الظهور والبروز. وهناك نقطة أخرى لا تقل أهمية وهي؛ أن عدم الاستقرار في مدينة ما يدفع بعض العلماء إلى التنقل إلى بلدان أكثر استقرارًا، فهذا الونشريسي مثلاً فر إلى فاس بسبب مشكلة مع الحاكم الزياني، وهذا المقري اتجه إلى فاس للعلم والاستقرار ولم يحبذ البقاء في وطنه، وأيضًا ابن مرزوق صاحب المسند استقر في المغرب.

ولقائل أن يقول لماذا جعلتم فترة هذه الدويلات فترة صراع واحتدام فقط وركزتم على ذلك، ألم تكن هناك نهضة عمرانية وثقافية؟ فنقول لا ننكر مثل هذا لأن الصراعات لم تكن ليل نهار ولم تكن مستمرة دائمًا، فخلال فترات الهدوء كان سلاطين تلك الدول يتفرغون للبناء والتعمير والتشييد والإصلاح، ولكن سرعان ما يعود الأمر إلى الحرب والصراع، ثم كيف نفسر عدم وجود الوحدة بين الدويلات؟ ولماذا قتل الوالد ولده والولد والده والأخ إخوته فضلاً عن التصارع مع سلطان دولة أخرى؟ ولماذا استعانوا بالنصارى على إخوانهم المسلمين من أجل البقاء على العرش؟ ولنا أن نتساءل أليس هذه الأسباب هي التي جعلت المغرب الإسلامي يُحتل من قبل الإسبان والبرتغاليين؟ فقد أُخذت معظم المدن الساحلية وأحيانًا تنازل عليها الحكام المسلمين لصالح أعدائهم، وأصبح النشاط البحري يكاد ينعدم، وهو نفس السبب الذي أدى إلى الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية، وكان هذا سببًا فيما بعد للاستعمار المباشر الذي طال كل بلدان المغرب والمشرق الإسلامي. فعلينا أن نقولها وبصراحة دون محاولة تغطية ذلك-لأنه كما قيل من كتم داءه قتله-بأن البعد عن تعاليم

الإسلام التي تأمر بالوحدة، وتُحد من حظوظ النفس لصالح الجماعة هي التي جعلت العالم الإسلامي بأسره يتأخر ولا يزال متأخرًا.

وعلى الرغم من هذا، فإن الحركة العلمية لم تتوقف لأنها ليست بالضرورة ملازمة للسياسة، فليس معنى التدهور السياسي في تلك الدول في تلك الحقبة التاريخية معناه بالضرورة التدهور العلمي، لأن مَنْ اشتغل بالسياسة من العلماء عدد يسير مقارنة مع مَنْ بقي يعلم وينشر علمه ويؤلف، لذلك فقد استقرت الحركة العلمية في هاته الأقطار ولكن بدرجات متفاوتة، ويكفينا للتأكد من ذلك أن نقرأ نبذة عن حياة بعض العلماء في مقدمة كتبهم لنعلم عدد العلماء الذين أخذوا عنهم، وعن أولئك الذين تخرجوا على أيديهم وعلى نوعية العلوم التي كانوا يدرسونها، ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر مقدمة كتاب الشماع "الأدلة البينة النورانية"، وكتاب الزركشي "أخبار الدولتين" وهما من المغرب الأدنى، ولنقرأ مقدمة كتاب التنسي "تاريخ بني زيان"، وكتاب يحي بن خلدون "بغية الرواد" وهما من المغرب الأوسط، ولنقرأ مقدمة كتاب ابن أبي زرع "الأنيس المطرب"، وكتاب المقري "نفح الطيب" و"روضة الآس" وهما من المغرب الأقصى، ولنا في حياة عبد الرحمن بن خلدون كفاية وفي مقدمته ذكر أنواع العلوم وأصحابها المتقدمين والمتأخرين، وهو بذلك يعطينا فكرة عن العلم والعلماء وعن الثقافة بصفة عامة في تلك العصور، وفي هذا الصدد يقول محقق كتاب التيسير في أحكام التسعير بأن المدينتين-يعني فاس وتلمسان- كانتا عبر التاريخ الإسلامي تتبادلان الثقافة والمثقفين، فكثير من رجال البلدين نزح عن مسقط رأسه إلى الموطن الآخر[٤٤]، وهذا القول ينطبق على المغرب الأدنى إذ كانت تونس وبالأخص الزيتونة منارة علم ومنها تخرّج الكثير من العلماء، وعلاقتها بالمغرب الأوسط بصفة خاصة لا تخفى، ولنذكر على سبيل المثال ما قام به أبو الحسن المريني لما انتقل إلى تونس وقد أخذ معه حشدًا كبيرًا من العلماء من المغربين الأقصى والأوسط استقر بعضهم في تونس، كما أن كثيرًا من العلماء في ذلك الوقت كانوا يرحلون في طلب العلم للحواضر العلمية كفاس وتلمسان وبجاية وقسنطينة وتونس والقيروان.

وبما أن الونشريسي عاش بين تلمسان وفاس في هذه الفترة، إلا أن الحركة العلمية كانت على أشدها آنذاك للأسباب المذكورة أعلاه ويمكن إيجازها فيما يلي:

- كلتا المدينتين كانت عاصمة سياسية يسكنها السلطان وحاشيته.
- الهجرات المستمرة من الأندلس وحملهم حضارتهم معهم.
- استقرار كثير من العلماء في المدينتين باعتبارهما عواصم العلم.
- نشاط علماء الأندلس لجعل المغرب كالأندلس حضاريًا.
- تشجيع السلاطين للعلم وجعلهم العلماء أهل مشورتهم.

وسنرى بعد قليل العلماء الذين أخذ عنهم الونشريسي العلم في تلمسان ولما انتقل إلى فاس، ليظهر المستوى العلمي الراقي رغم المستوى السياسي الذي لم يرتق إلى ما كان يجب أن يكون عليه إذا ما قورن بما سبقه.

ثالثًا: العلاّمة الونشريسي أحد أقطاب العلم في المغرب الإسلامي

١/٣- التعريف بالونشريسي:[٤٥]

هو أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، نسبة إلى جبال الونشريس في الغرب الجزائري، العالم العلامة المصنف الأبرع والفقيه الأكمل الأرفع، البحر الزاخر والكوكب الباهر، حجة المغاربة على أهل الأقاليم وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عليم الفقيه المالكي حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة ولد حوالي (٨٣٤هـ/١٤٣٠م) وانتقل إلى تلمسان أين تلقى دراسته بها وأخذ عن العديد من شيوخها.

٢/٣- شيوخ الونشريسي:

في مقدمتهم أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني، وولده القاضي العالم أبو سالم العقباني، وحفيده القاضي محمد بن أحمد بن قاسم العقباني، ومحمد بن العباس، والعالم أبي عبد الله الجلاب، والعالم الخطيب الصالح بن مرزوق الكفيف، والقرابلي، والمري، وأحمد بن زكري، ومحمد المريني، ومحمد بن عباس العبادي وغيرهم، ثم حصلت له كائنة من جهة السلطان أول محرم عام ٨٧٤هـ فقد اتهمه السلطان الزياني محمد الخامس بن ثابت بالتآمر عليه بسبب مجاهرته بالحق، فألحق به الأذى وانتهبت داره، وفر إلى مدينة فاس فاستوطنها وتابع دراسته بها فاستفاد من العديد من العلماء بها، وفي طليعتهم قاضي مكناس محمد بن أحمد اليفرني ومحمد القروي وغيرهم، فعدّ من العارفين بعلم الحديث والتفسير والتوحيد والمنطق إلا أنه لازم تدريس الفقه حتى يقول مَنْ لا يعرفه لا يعرف غيره، وكان فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض مَنْ يحضره يقول لو حضر سيبويه لأخذ النحو من فِيهِ، وواضب على التدريس بالقرويين أين سكن في دار حبس مجاورة للمسجد، ثم توسع نشاطه فانتقل إلى التدريس في مساجد ومدارس أخرى منها المدرسة المصباحية التي قرأ بها المدونة.

٣/٣- طلبة الونشريسي:

وتخرج به جماعة من الفقهاء الأجلاء في مقدمتهم ولده عبد الواحد الذي تولى قضاء فاس، واغتيل غدراً بجامع القرويين، والفقيه أبي عباد بن مليح اللمطي قرأ عليه ابن الحاجب، وشيخ المتقنين الأستاذ أبي زكريا السوسي والمحدث المحري محمد بن عبد الجبار الوارتدغيري صاحب زاوية فكيك، والفقيه عبد السميع المصمودي، والحسن بن عثمان التملي الجزولي شيخ فقهاء تارودات وإقليم سوس، ومحمد الكرسي قاضي تطوان، والفقيه العلامة القاضي محمد بن غرديس التغلبي، وبخزانة هذا الرجل

انتفع كثيرا لاحتوائها على تصانيف الفنون وبها استعان على تصنيف كتابه المعيار سيما فتاوى فاس والأندلس فإنها تيسرت من هذه الخزانة.

وفاته: وقد كان الونشريسي محل احترام والتقدير من الخاصة والعامة لتجنبه الخوض في السياسة ومخالطته أولي الأمر (والأمر فيما نظن أنه اعتبر بما جرى له في تلمسان) والتزم التدريس وواظب على التأليف حتى وافته المنية يوم الثلاثاء العشرين من شهر صفر عام ٩١٤هـ عن عمر يناهز الثمانين سنة قضى منها أربعين سنة في تلمسان وأربعين سنة بفاس فرحمه الله رحمة واسعة.

٤/٣- تآليف الونشريسي:

لقد ترك الونشريسي العديد من التصانيف جلها في الفقه ومسائل الشريعة ذكرها أصحاب التراجم وقد عُرف منها:

- أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات، وضعها في شكل رسالة أجاب فيها الفقيه الغرناطي محمد بن قطبة في شأن من بقي من المسلمين في الأندلس تحت حكم النصارى، أفتى فيها بمعصية من بقي بدار الكفر ولم يهاجر بعد تغلب النصارى على داره، وقال أيضًا بقتل من نزح من دار الإيمان إلى دار الكفر لأن كلها حسب حكمه مرتكب كبيرة أدرجها في المعيار.
- الفائق في الوثائق أو المنهج الفائق والمنْهل الواثق والمعنى اللائق بأدب الموثق وأحكام الوثائق، أفاد ابن مريم والتنبكتي أنه لم يقم بإتمامه، وكان في صناعة التوثيق، ولعله ألفه ردا على لسان الدين بن الخطيب الذي ذم صناعة التوثيق في كتابه مثلى الطريق في ذم الوثيقة، وسبب ذلك أن لسان الدين لما دخل فاس صنع وليمة ودعا إلى داره بعض العلماء والوجهاء وغيرهم وكان ممَنْ دُعي العلاّمة القباب، فاعتذر له هذا الأخير وكان يمتهن صناعة التوثيق فلم يقبل منه لسان الدين وكتب كتابه المذكور، وقد تكلم الونشريسي على هذه المسألة وأيد فيها القباب ورد على لسان الدين.
- غنية المعاصر والتالي في شرح فقه وثائق أبي عبد الله القشتالي.
- مختصر أحكام البُرزلي إختصر فيه نوازل البرزلي.
- إيضاح السالك إلى قواعد الإمام مالك، ضمنه مائة وثماني عشر قاعدة اختلف في تفسيرها أصحاب المذهب المالكي.
- عدة البروق في تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق، وهو محقق أيضًا.
- القصد الواجب في معرفة اصطلاح ابن حاجب وهو في ثلاثة أسفار.
- إضاءة الحُلك والمرجع بالدرك على من أفتى من فقهاء فاس بتضمين الراعي المشترك، أدرجها في كتابه المعيار.
- تنبيه الحذق الندس على من سوى بين القرويين والأندلس، أدرجها في كتابه المعيار.
- تنبيه الطالب الدراك على توجيه الصلح بين بن صعد والحباك، أدرجها في كتابه المعيار.
- المبدي لخطأ الحميدي.
- الأجوبة، وهي ردود على أسئلة ألقيت عليه.
- الأسئلة والأجوبة، هي أجوبة كتبها في تلمسان عن أسئلة لشيخه محمد القروي بفاس.
- شرح الخزرجية في العروض.
- الولايات، تناول فيها الخطط الشرعية في سبع عشرة ولاية، وقد حققه أ.د بلغيث من جامعة الجزائر.
- حل الرقبة عن أسير الصفقة، نسبه إليه محمد ميارة.
- تأليف في ترجمة «المقري الجد» بعد طلب من بعض أهل عصره.
- الوفيات، ذيل فيه كتاب شرف الطالب في أسنى المطالب لابن قنفذ.
- فهرس وضعه برسم تلميذه القاضي ابن عبد الجبار.
- أقضية المعيار في التاريخ.
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، قال أحمد بابا التنبكتي في كتابه "نيل الإبتهاج" أنه في ستة أسفار، وذكر ذلك أيضًا الشريف التلمساني وقال محمد بن عسكر أنه في سبعة أسفار. قلت وهو الآن في اثنتي عشرة مجلد دون مجلد الفهارس خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي لعام ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

خَاتِمَةُ

من خلال هذا الطرح الموجز اتضح لنا أن الظروف السياسية خلال القرنين التاسع والعاشر هجريين كانت مرحلة تدهور كبير في المغرب الإسلامي بشكل عام، ورغم هذا فقد كان النشاط العلمي راقيًا إلى حد بعيد، ولا أدلّ على ذلك من هذا النموذج للإمام الونشريسي وشيوخه وطلبته وكثرة إنتاجه العلمي، ويمكن من خلال هذا القول بأن المستوى العلمي لم يتأثر بالمستوى السياسي الذي لم يرتق إلى ما يجب أن يكون عليه، ولنا نحن في ذلك عبرة في وقتنا الراهن.

الهَوامِشُ:

(١) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في ذكر ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة-الرباط، ١٩٧٢م، ص٢٣٨-٢٤٠؛- عبد الرحمن بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**[كذا]، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٦، ص٣٣٧؛- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعمودي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م، ص٤٩؛- مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، ج٢، ص٣٥٠؛- عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج١، موقم للنشر والتوزيع-الجزائر، ٢٠٠٢م، ص١٣؛- جمال أحمد طه، **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، ٤٤٨هـ-١٠٥٦م/٦٦٨هـ-١٢٦٩م، دراسة سياسية وحضارية**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية-مصر، ٢٠٠١م، ص١١٤.

(*)- هو المولى أبو محمد بن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد ... ابن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، انظر: ابن الشماع، مصدر سابق، ص٤٨. وكان أبو حفص معظمًا في الدولة المؤمنية وتوفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م وولّي الناصر الموحدي ابنه عبد الواحد على تونس سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، وبقي بها إلى أن توفي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م واشتهر من أبنائه عبد الرحمن وعبد الله المدعو عبو أبو زكريا مؤسس الدولة. انظر: الميلي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٨٢.

(٢) محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، طبع مدينة ليدن بمطبعة بريل، ١٨٨١م، ص٢٣٤، ٢٤٥. قال ابن أبي زرع كان ذلك سنة ٦٠٢هـ١٢٠٥م، انظر: ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٢٣٣؛- ابن الأحمر، **تاريخ الدولة الزيانية**، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية،١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص٩؛- ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٣٧٤، ج٧، ص١٠٧. - الشماع، مصدر سابق، ص٤٩-٥٠؛- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط٢، المكتبة العتيقة، الزيتونة-تونس، ١٩٦٦م، ص١٨؛- حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة-مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٨١؛- عُبادة كُحيلة، **المُغرب في تاريخ الأندلس والمغرب**، ط١، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة-مصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٢٧.

(٣) المراكشي، مصدر سابق، ص٢٤٥. - ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٣٨٠. - ابن الشماع، مصدر سابق، ص٥٣-٥٤.- الزركشي، مصدر سابق، ص٢٣. - الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٢. - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٨٢.- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٢٧.

(٤) انظر: ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٣٤٠-٣٤١،٣٨١. ويذكر ابن أبي زرع أن ذلك كان سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٢٥١؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٠؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٢٧.

(٥) ابن الشماع، مصدر سابق، ص٥٨-٥٩. - ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٣٨٦؛- الزركشي، مصدر سابق، ص٢٧.- عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص١٤.

(٦) انظر: ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٣٩٠-٣٩١؛ الزركشي، مصدر سابق، ص٢٩. يجعلها يحى بن خلدون سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، انظر: يحيى بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢٠٥. ويجعلها التنسي سنة ٦٤٥هـ، انظر: محمد بن عبد اللّه التنسي، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ١١٧؛ ابن الشماع، مصدر سابق، ص٥٩؛ - فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٢٢.

(٧) ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٣٩٤-٣٩٦.

(٨) ابن الشماع، مصدر سابق، ص٦٤؛- ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٤٠٢-٤٠٣؛ - الزركشي، مصدر سابق، ص٣٢-٣٣؛- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٨٢؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٢٨؛- محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط٣، دار سراس للنشر-تونس، ١٩٩٣م، ص٥٣.

(٩) ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٤١٣؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص٦٦.

(١٠) انظر: ابن الشماع، مصدر سابق، ص٧٥-٧٦؛- ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣٣. و يجعلها الزركشي سنة ٦٧٨هـ، انظر:- الزركشي، مصدر سابق، ص٤٢؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩١.

(١١) ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٢-٤٥٠؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص٧٧-٨١.

(١٢) نفس المصدر، ج٦، ص٤٥٥-٤٧٧؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص٨٢-٨٦؛- الزركشي، مصدر سابق، ص٥٨-٦٢؛ - الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٢.

(١٣) ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٤٨١-٥١٧؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص٨٧-٩٤؛- الزركشي، مصدر سابق، ص٦٥-٦٧؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٣؛- محمد الهادي شريف، مرجع سابق، ص٥٤.

(١٤) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص٢١٩،٢٣٥؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص٣٠؛- ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٥٢٠-٥٢٧؛- التنسي، مصدر سابق، ص١٤٩،١٤٥؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص٩٥-٩٨؛- الزركشي، مصدر سابق، ص٨٢-٨٣؛ - الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٤؛ - عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣١.

(١٥) ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٦، ص٥٣٣-٥٥٠؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص١٠٠-١٠٤؛- الزركشي، مصدر سابق، ص٨٥-٩٨. ؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٤.

(١٦) نفس المصدر، ج٦، ص٥٥١-٥٧٥؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص١٠٨-١١٢؛- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٨٢.

(١٧) نفس المصدر، ج٦، ص٥٧٦-٥٨٢؛- ابن الشماع، مصدر سابق، ص١١٢-١٢١؛- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٨٢؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣٢.

(١٨) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٨٦.

(١٩) مبارك الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤١٢-٤١٣.

(٢٠) مبارك الميلي، مرجع سابق، ص٤١٢.

(٢١) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص٢٠٤؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص١٤-١٧؛- عبد الرحمن بن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٦؛- التنسي، مصدر سابق، ص١١٥-١١٦؛- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص١٨٣؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣٣؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٢١.

(٢٢) نفس المصدر، ص٢٠٥-٢٠٦؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص١٧-١٨؛- عبد الرحمن بن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص١١٠؛- التنسي، مصدر سابق، ص١١٧-١١٩.

(٢٣) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٢٩٦، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٠، ٣٣٥-٣٣٧؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص١٨-٢٦؛- عبد الرحمن بن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص١١١-١١٧؛- التنسي، مصدر سابق، ص١٢٨؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣٤؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٢٣.

(٢٤) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٣٧٩-٣٨٨؛- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص٢٠٩-٢١٢؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص٢٦-٢٨؛- عبد الرحمن بن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص١٢٦-١٣٠؛- التنسي، مصدر سابق، ص١٣٠-١٣٥؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٢٧-٢٩؛- عبد العزيز لعرج، **المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية**، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار-جامعة الجزائر، ١٩٩٩م، ج١، ص٥٢-٦٥.

(٢٥) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص٢١٩-٢٤٧؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص٣٠-٣٥؛- عبد الرحمن بن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص١٤٨-١٦٣؛- التنسي، مصدر سابق، ص١٤٥-١٥٨؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٤١؛- عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ج١، ص٦٢-٨٧؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣٥-١٣٦؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٤٦-٥٥.

(٢٦) ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص١٦٤-١٩٠؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥٩؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٥٦-٥٨.

(٢٧) ابن خلدون، التاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص١٩٢-١٩٨؛- التنسي، مصدر سابق، ص١٨٠،٢٣٤؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٠؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٥٩-٦٩؛- عبد العزيز سالم، **تاريخ المغرب الكبير، العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية**، ج٢، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ١٩٨١م، ص٨٧٣.

(٢٨) انظر: التنسي، مصدر سابق، ص٢٣٥-٢٥٤؛ - الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٦١-٤٦٢؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٧٠-٧٤؛- عبادة خليفة، مرجع سابق، ص١٣٧؛ - عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ج٢، ص٨٧٤؛- حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**، ط١، ج٢، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ٢٠٥-٢٠٦ ، ج٣، ص٧٣-١٠٩؛- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، ص٦٤، ٧١ .

(٢٩) أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص٣٢١-٣٢٩، ٣٤٣، ٣٧١-٣٧٦؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٣-٤٦٤؛ - فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٧٥-٧٩؛- عبادة خليفة، مرجع سابق، ص١٣٨؛- حسين مؤنس، أطلس...، مرجع سابق، ١٨٣،١٨٦؛- محمد على الصلابي، مرجع سابق، ص٢٧٠؛- محمد بن عمرو الطمار، مرجع سابق، ص٢٣٣-٢٣٤؛- عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٦٨-٦٩؛- ستانلي لين بول، المرجع السابق، ص ١٠٤؛- صالح فركوس، **تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال المراحل الكبرى**، دار العلوم للنشر والتوزيع-الجزائر، ٢٠٠٥م، ص١١٤ .

(٣٠) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص٢٠٧؛- ابن خلدون، تاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص٢٢١-٢٤١؛- ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٣٠٦،٢٧٨-٣٠٧؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص١٩؛ - الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤١٩؛ - عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣٨؛- حسين مؤنس، أطلس...، مرجع سابق، ص١٨٢؛- جمال أحمد طه، مرجع سابق، ص١١٤-١١٧؛- عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ج٢، ص٨٦٧-٨٦٩.

(٣١) نفس المصدر، ص٢٠٩-٢١١؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص٢٣-٢٨؛- ابن خلدون، تاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص٢٤٣-٢٤٥، ٢٦٩، ٢٨٤-٢٨٧، ٢٩٣،٣٠٨-٣٠٩؛- ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص ٣١٠، ٣٣٥-٣٣٧، ٣٧٩، ٣٨٥-٣٨٨؛- التنسي، مصدر سابق، ص١٣٠-١٣٣.- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٢-٤٢٣؛ - عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣٩.

(٣٢) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص٢١٩-٢٤٧؛- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص٣٠-٣٣؛- ابن خلدون، تاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص٣٣٩-٣٩٤؛- التنسي، مصدر سابق، ص١٤٥-١٥٦؛- الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٧-٤٣٣؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٣٩-١٤١؛- فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٤٥-٥٢؛- حسين مؤنس، أطلس...، مرجع سابق، ص١٨٢؛- عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ج٢، ص٨٦٩-٨٧٠. ولقد ذكرنا الكثير من هذه الأحداث في المبحث السابق الخاص بالزيانيين.

(٣٣) ابن خلدون، تاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص٣٩٨-٤٧٩، ٤٨٢-٤٨٣؛- مبارك الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣٥-٤٣٦.

(٣٤) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٦٨-٦٩.

(٣٥) عبادة كحيلة مرجع سابق، ص١٤٢-١٤٣.

(٣٦) فيلالي، مرجع سابق، ج١، ص٦٩-٧١؛ -عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ج٢، ص٨٧٠-٨٧٢.

(٣٧) مبارك الميلي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٠؛- عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٤٣؛- حسين مؤنس، أطلس...، مرجع سابق، ص١٨٣.

(٣٨) عبادة كحيلة، مرجع سابق، ص١٢٦-١٢٧.

(**) نصر الدين بن داود، **بيوتات العلماء بتلمسان من القرن ٧هـ-١٣م إلى القرن ١٠هـ-١٦م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، ٢٠١٠م.

(***)- محمد بو شقيف، **تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين ٨ و٩هـ/١٤-١٥م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، ٢٠١١م.

(٣٩) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ...، مصدر سابق، ج٧، ص٤٥٢-٤٥٣.

(٤٠) نفس المصدر، ج٧، ص١٨٧.

(٤١) نفس المصدر، ج٧، ص٤١٨.

(٤٢) نفس المصدر، ج٧، ص٤٦٢.

(٤٣) وقد ذُكر مثل هذا الكلام في مقدمة كتاب المقري، انظر: -أحمد بن محمد المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، ط٢، المطبعة الملكية-الرباط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص يـد.

(٤٤) أحمد بن سعيد المجيلدي، **كتاب التيسير في أحكام التسعير**، تقديم وتحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، ١٩٨٢م، ص٢٥.

(٤٥) انظر: ترجمة الونشريسي عند:- أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، ج٥، دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٢٠٧-٢٠٨، ص٢٧٨، ص٤١٩؛- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، طبعه واعتنى

بمراجعته محمد بن أبي شنب، طبع في المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ص٥٣-٥٤؛-أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ط١، ج١، دار النصر للطباعة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٩١-٩٢؛- نفس المؤلف، **جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس،** ج١، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص١٥٦-١٥٧؛- محمد بن عسكر الحسني الشفشاوي، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق، محمد حجي، ط٢، دار المغرب- الرباط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٤٧-٤٨؛- أحمد بابا التنبكتي، **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج**، المطبعة الحجرية الجديدة بفاس، طبعة حجرية، ص٧٤-٧٥؛- محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تقديم وتحقيق محمد حبيب الهيلة، ط١، ج١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٨٥م، ص٦٣٤-٦٣٥؛- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، تخريج وتعليق، عبد المجيد خيالي، ط١، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٥٦-١٥٧؛- إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج٤، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٥١٧؛- إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**، ج٥، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٣٨؛- **معجم مشاهير المغاربة**، تنسيق د. أوعمران الشيخ، تقرير، ناصر الدين سعيدوني الملكية للطباعة والأعلام والنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٥م، ص٥٢-٥٣؛- خير الدين الزركلي، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين**، ط٣، ج١، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٩٦٩؛- عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، ج٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص٢٠٥؛- نفس المؤلف، **المستدرك على معجم المؤلفين**، ط٢، ج٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨/١٩٨٨، ص٢٠٥؛- فراج عطا سالم، **كشاف معجم المؤلفين لكحالة**، ج١، مكتبة فهد الوطنية- الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٠٢؛- أحمد بن يحي الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، ج١، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص أ- ك.- نفس المؤلف، **عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق**، دراسة وتحقيق حمزة أبو فارس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٣-٤٧؛- ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين**، ط١، دار الغرب الإسلامي ، بيروت-لبنان، ١٩٩٩م، ص٢٧٧-٢٨٥؛- كمال أبو مصطفي، **جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية-مصر، ١٩٩٧م، ص٥-٩.

مقالات

النخبة الأندلسية المثقفة في خدمة الخلافة الموحدية

٥٤١ – ٦٠٩هـ/ ١١٤٦ – ١٢١٢م

د. محمد العمراني
أستاذ التاريخ الوسيط
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

بعدما تمكن الموحدون من الوصول إلى السلطة في المغرب الأقصى سنة (٥٤١هـ/١١٤٧م) وتوحيد الغرب الإسلامي، فكر الجهاز المسؤول في الدولة الموحدية في ضرورة إعادة هيكلة المجال الجيوسياسي للدولة إداريًا واقتصاديًا وفق تصور أيديولوجي يتماشى مع مبادئ الدعوة التومرتية التي روج لها الزعيم المذهبي للحركة الموحدية محمد بن تومرت. لذلك كان من الضروري على الجهاز الموحدي الحاكم أن يفتح قنوات الاتصال مع مختلف النخب وخاصةً الفئة المثقفة التي ستتولى مناصب المسؤولية في دولة الموحدين. في هذا السياق يأتي هذا المقال الذي يعالج موضوع النخبة الأندلسية المثقفة في علاقتها مع الخلافة الموحدية والذي يتوخى رصد العلاقات المتباينة لهذه النخبة مع النظام الموحدي، وفي الوقت ذاته تتبع مسارها حسب فترات حكم الخلفاء الأربعة الأوائل للدولة الموحدية. وهي الفترة التي تمتد من (٥٤١هـ/١١٤٧) عندما أصبحت مراكش عاصمة لدولتهم وإلى حدود هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م) التي أرخت لمرحلة تراجع المد الإسلامي في الأندلس. لذلك تعتبر الفترة قيد الدرس جد مواتية لتحليل مواقف النخبة المثقفة الأندلسية في علاقتها مع النظام الموحدي وفي الوقت نفسه تتبع الأساليب التي وظفها هذا النظام من أجل استقطاب هذه النخبة مع تفسير سياقات كل حالة من خلال نماذج محددة بالاعتماد على مادة مصدرية وسيطية خاصةً منها كتب التراجم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٥	أبريل	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	أغسطس	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ الأندلس، العصر الموحدي، المجتمع الأندلسي، النخب المثقفة، المثقفين الأندلسيين

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041880

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد العمراني. "النخبة الأندلسية المثقفة في خدمة الخلافة الموحدية (٥٤١هـ-٦٠٩هـ/١١٤٦م -١٢١٢م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١٠٨ – ١١٣.

مُقَدِّمَةُ

نوظف النخبة المثقفة في هذا المقال بمعنى الفئة التي كان لها رصيد ثقافي، وكان لها حظ وافر من المعرفة السائدة خلال العصر الموحدي، ونقصد بذلك إلمامها باللغة العربية، والأدب شعرًا ونثرًا، والفقه وأصوله، وكذا علم الكلام والحكمة والتصوف. وقد مكنتنا كتب التراجم والطبقات من الكشف عن نماذج مختلفة لهذه الشريحة الاجتماعية وذلك انطلاقًا من موقف تعاملها مع الجهاز الإداري والسياسي الموحدي مركزيًا ومحليًا. وقد ساهم الوجود الموحدي في الأندلس ما بين (٥٤١هـ-٦٠٩هـ) في خلق علاقات متباينة مع أفراد هذه الفئة كل من موقعه الخاص. ويمكن تتبع تجليات هذه العلاقات ما بين الخلافة الموحدية من جهة وبين هذه النخبة المثقفة من جهة أخرى من خلال المهام والوظائف التي أسندت إليها. وإذا كانت بعض الوظائف قد عرضت على البعض من هذه النخبة، فإن ما سجلته لنا الإشارات المصدرية هو أن غالبية المثقفين الأندلسيين هي من كانت تتهافت من أجل الحصول عليها تقربًا من فضاء الحكم والسلطة من جهة وخدمة للخلافة الموحدية من جهة أخرى.

ونقصد بهذه الوظائف تلك التي كانت مرتبطة بالسلطة مركزية كانت أو محلية، والتي منحت لمتقلديها هيبة وبوأتهم مكانة متميزة داخل المجتمع الموحدي. ولم تنحصر هذه المهام في وظيفة واحدة، بل تعدتها إلى مزاولة وظائف أخرى كالكتابة للخلفاء والأمراء من السادة بني عبد المؤمن، أو الإشراف على تدريس الأمراء، أو المشاركة في مجالس الخليفة، وكذا القيام بالخطبة وقراءة الشعر في المناسبات الرسمية والاحتفالات، وكذا أثناء العودة بالانتصارات في المعارك والحروب. وسواء كانت مزاولة هذه الوظائف من اختيار هذه النخب المثقفة، أم أنها فرضت عليها، فإنه في جميع الحالات قد حولت معظم أصحابها إلى شخصيات انتهازية ووصولية تهافتت أكثر للتقرب من الخليفة، وهذا ما كان يؤدي بهذه الفئة من رجالات الأندلس أن تدخل في مساومات مع نخب أخرى بالبلاط الموحدي، إن لم نقل أنها كانت تدخل في صراعات معها ليفتح الباب على مصراعيه أمام لعبة الدسائس والمؤامرات.

النخبة الأندلسية المثقفة

ومن بين الشخصيات الأندلسية المثقفة التي حظيت باهتمام البلاط الموحدي، نشير إلى "**محمد بن إبراهيم الأنصاري**"، والمعروف بـ "ابن الفخار" من أهل "مالقة"، ويلقب بـ "الحافظ الإمام"[١]، إذ استطاع بفضل مكانته الفكرية في مجال الحديث والفقه أن يجذب اهتمام السلطة المركزية الموحدية إليه حيث استدعاه المنصور إلى حضرته بمراكش عندما تولى السلطة سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م).[٢] وما يلفت الانتباه في هذا الصدد؛ أن اهتمام الموحدين بهذه الشخصية جاء في سن متأخرة لهذا العالم الأندلسي حيث كان عمره آنذاك تسعة وستون سنة، أي عشر سنوات قبل وفاته التي تزامنت مع الفترات الأخيرة من حكم الخليفة يعقوب المنصور وذلك سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م).[٣] وإذا كانت سيرة هذا الفقيه الأندلسي لا تشير إلى أي استفادة له من تقريب المنصور إليه، فإن "محمد بن عبد العزيز التجيبي" قد استفاد من موقعه في البلاط الموحدي حيث كان كاتبا للخليفة المنصور، فقال عنه صاحب أعلام مالقة أنه كان «يظهر له في كتبه من البلاغة والفصاحة ما يدل على معرفته وحفظه»[٤]، وزاد في السياق نفسه أنه كان «كاتبًا بليغًا شاعرًا مؤثرًا عالي الهمة معظمًا عند الملوك مقربًا لديهم»[٥]. فهذه المكانة التي كان يتمتع بها هذا الأديب الأندلسي تم استغلالها للقيام بوساطات وقضاء الأغراض والمنافع للأهل والأصحاب، وفي هذا الصدد تذكر إحدى الروايات المصدرية أنه بفضله انتفع الناس لقضاء مآربهم، ونالوها عندما كانوا يتوجهون إلى عاصمة الدولة الموحدية مراكش.[٦]

وإذا كان البعض قد استغل موقعه القريب من رجالات الحكم الموحدي لتلبية طموحاته وأغراضه، فإن البعض الآخر لم يكن يسعى إلى تحقيق هذا الطموح، ولم يكن يهدف إلى تقلد مناصب، وذلك لما كان يتمتع به من نفوذ رمزي داخل المجتمع الأندلسي، كما هو الحال بالنسبة لـ "**محمد بن أبي بكر الأنصاري**"، المكنى بأبي عبد الله والذي قيل عنه أنه «كان من أهل الفضل والعدل والدين وكان أمين قيسارية مالقة مقصودًا من البلاد، مؤتمنًا على الودائع»[٧]، ولعل ذلك ما جعل الملوك والسادة بني عبد المؤمن يقصدونه في أغراضهم[٨].

ويبقى منصب كاتب لدى الخلفاء والأمراء الموحدين هدفا تسعى إليه معظم الفئات المثقفة الأندلسية التي تتقن اللغة وتتميز بالفصاحة والإلمام بالأدب، تلك الميزات هي ما اتصفت به شخصية "**عبد الله بن علي ابن أبي العباس**" المتوفى سنة ٥٦٢هـ[٩]، والذي قالت عنه إحدى كتب التراجم «كان من جلة الأدباء وعلية الفصحاء والخطباء معدودًا في الرؤساء من أهل مالقة»[١٠]، وتضيف هذه الرواية كذلك بأن «مرتبته في المعارف مشهورة وآدابه مدونة مسطورة»[١١]، كما كان «جليل المقدار عالي الهمة رفيع القدر»[١٢]. وقيل بأنه «فقيه ماهر وأديب خطيب شاعر»[١٣]. لا شك أن هذه المواصفات هي التي جعلته محط أنظار الجهات المسؤولة للتقرب منه وأن تستقطبه إلى صفها، فحظي عندها بمنصب الكتابة للخليفتين "عبد المؤمن" و"أبي يعقوب يوسف" فكان «مقربًا لديهم يباهون به في مجالسهم، ويشاورونه في أمورهم».[١٤]

لقد تباينت مواقع النخبة الأندلسية المثقفة من النظام الموحدي حسب الأشخاص، وحسب مزاج الخلفاء، وكذا الفترات الزمنية فهناك من استطاع الوصول إلى مكانة هامة عند السلطة الموحدية، كما هو حال الحافظ "أبي بكر بن الجد"، الذي قيل عنه في كتاب "المغرب في حلى المغرب".[١٥] «أنه كان أعجوبة في سرعة ما يحفظه، وبلغ به العلم إلى مرتبة علية»[١٦]، ولعل هذه المكانة العلمية والفكرية التي كان يتميز بها هذا الفقيه هي ما أهلته ليصبح شخصية محترمة، ليس فقط داخل المجتمع الإشبيلي، وإنما نال هذه المكانة أيضًا عند الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لدرجة أن هذا الخليفة الموحدي كان ينزل له عن فرسه إذا ما خرج للقائه وذلك احترامًا وتقديرًا له.[١٧] وإذا كانت المؤهلات الفكرية والأدبية لبعض النخب الأندلسية هي ما دفعت بالمسؤولين الموحدين التقرب منهم، إما لاستشارتهم أو لتوظيفهم في البلاط الموحدي، فإن البعض الآخر قد دفعت بهم الظروف للوصول إلى هذه المرتبة. وهذا فعلاً ما حدث لـ "**أبي عبد الله محمد بن عياش**" الذي كان في خدمة "أبي حفص الرشيد بن يوسف" قبل أن يقوم بالثورة على أخيه الخليفة "يعقوب المنصور". غير أنه بعد قيام هذه الثورة وإعدام "الرشيد" بدأت عملية البحث عن أصحابه فكان "ابن عياش" من جملتهم، وهذا ما اضطره إلى الهروب والاختفاء، فعانى كثيرًا وأراد أن يجعل حدا لهذه الأزمة من خلال نظمه

لأبيات شعرية، فوقف عليها الخليفة يعقوب المنصور وأثرت فيه فقرر أن يعينه كاتبًا له،(١٨) وقد تولى هذا المنصب نفسه خلال فترة حكم الخليفة "محمد الناصر".(١٩)

لم يتردد الموحدون في استمالة النخب المثقفة الأندلسية وإغداق الأموال عليها، وفي هذا الصدد نشير إلى "**المنذر بن الرضى الرعيني**" من أهل بسطة، الذي اتصل بالموحدين في بداية حكمهم «فاعتنوا به وأقطعوه إقطاعات بمالقة»(٢٠). ويظهر أن الموحدين قد أعطوا عناية كبيرة للنخب التي لها امتدادات عائلية معروفة داخل الأندلس، فما كانوا ليمنحوا هذا الأديب ما منحوه إياه من الأراضي إلا "لحسبه وأدبه" على حد قول ابن الزبير في صلته.(٢١) لقد قام الموحدون بتقريب العلماء والاهتمام بهم من خلال منحهم الأموال والهبات، فهذا هو شأن "**نجبة بن يحيى بن خلف الرعيني**" المتوفى عام (٥٩١هـ/١١٩٥م)، والذي قال عنه صاحب "صلة الصلة" بأن كان له «صيت عظيم ووجاهة عند ملوك وقته»(٢٢). ويتبين من سياق نص "ابن الزبير" أن هذا العالم لم تكن غايته في التقرب من السلطان وفي الحصول على الأموال، إلا بغرض منحها كمساعدة لطلبة العلم بإشبيلية حتى يتمكنوا من تجاوز ضائقتهم المالية(٢٣).

ومن بين النخب الأندلسية التي تمكنت من الوصول إلى البلاط الموحدي نجد "**عبد الله بن عبد الرحمان**" من أهل وادي "آش" والمتوفى" سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م)، فقد كان «كاتبًا مجيدًا جليل المقدار، عالي الهمة مشهور الجلالة، مشكور المكان بارع الخط أديبًا شاعرًا، عارفًا بالعدد»(٢٤)، وهي مؤهلات علمية وفكرية كانت كافية لاختياره كاتبًا للخليفة عبد المؤمن.(٢٥) ولم تقتصر استمالة النخب الأندلسية من قبل السلطة المركزية الموحدية على فئة الكتاب فقط، بل قربوا إليهم فقهاء الحديث، كما هو الشأن بالنسبة لـ "**عبد الله بن محمد بن ذي النون الحجي**" المتوفى سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) من أعيان ألمرية(٢٦)، والذي يقول عنه العزفي نقلاً عن ابن الزبير أنه كان «من أركان العلم والدين، جمع الزهد والعفاف والورع والنزاهة مع الكفاف ودون الكفاف»(٢٧)، فلا شك أن هذه المواصفات كانت قادرة على إجبار السلطة المركزية الموحدية على عهد المنصور لاستقطاب هذا الفقيه الأندلسي من خلال تعيينه في منصب إسماع الحديث في المسجد الأعظم في مراكش.(٢٨)

إن الصيغة التي عبر بها ابن الزبير عن تقريب "ابن ذي النون" إلى الخليفة الموحدي "يعقوب المنصور" تدل على أن هذا الفقيه لم يكن راغبًا في الالتحاق بدائرة نفوذ السلطة، خصوصًا وأن هذا العالم يعتبر من رجالات التصوف والزهد، ولم يكن يطمح إلى تجميع الثروة وتكديسها. إن ما يؤكد ما ذهبنا إليه أنه على الرغم من كون المنصور قد أنعم عليه بالمال والسكن والملابس الفاخرة، فإنه لم يستفد منها، كما لم يصرف تلك الأموال، وإنما تبرع بها على أصهاره وضعفاء من قرابته وأهله(٢٩). بل إن إعلانه عن انقطاعه عن مجلس السلطان معتذرًا بكبر سنه، يدل هذا على أن هذا الفقيه الأندلسي يشكل حالة خاصة من بين الحالات القليلة التي لم تتهافت على كرسي الزعامة وإعلان التقرب من السلطة،(٣٠) طمعًا في الحصول على امتيازات كبيرة أو حظوة لدى الخليفة.

وكان ميل بعض النخب الأندلسية إلى اتجاه مذهبي معين، دافعًا وراء احتضان السلطة لهم، ذلك ما نجده مع القاضي "**عبد الله بن سليمان الأنصاري**" من شرق الأندلس، والذي قال عنه صاحب صلة الصلة أنه «كان فقيهًا جليلاً أصوليًا نحويًا، كاتبًا أديبًا، شاعرًا متفننا في العلوم، ورعا دينا حافظا فاضلاً».(٣١) غير أنه في تقديرنا يبقى هناك دافع أقوى أدى بالخليفة المنصور إلى الميول إليه، ألا وهو انتصار هذا الفقيه لرأي الظاهرية(٣٢)، فكان هذا حافزًا للخليفة الموحدي لكي يكلفه بالإشراف على تدريس الناصر وإخوته(٣٣). فكانت له بذلك مكانة متميزة عند الموحدين عبر عنها "ابن الزبير" في قوله أنه: «كان مشهورًا بالفضل معظمًا عند الملوك، معلوم القدر لديهم»(٣٤). فهذه المرتبة هي ما جعلته يخطب في مجالس الأمراء، وأثناء التجمعات، وذلك بفضل بلاغته وفصاحته مما دفع أمراء الموحدين إلى الاهتمام به كثيرًا.(٣٥)

ومن بين العلماء الذين حضروا مجلس الخليفة المنصور، نشير إلى "**ابن الفرس**" المتوفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)(٣٦). فرغم أن الإشارة المصدرية لا تسمح لنا بتحديد درجة علاقته بالسلطة الموحدية، غير أن ما قدمته من خبر عن مراسيم تشييع جنازته يفيدنا بكون هذا الفقيه لم تكن له أطماع أو رغبة في تراكم الثروة، ولا تحدوه أي تطلعات نحو احتلال مراكز سلطوية، وهذا ما يؤكده صاحب "الذيل والتكملة" فيما يلي: «وشهد جنازته عالم لا يحصون كثرة وكسر الناس نعشه وتقسموه تبرگا به».(٣٧) إنه مشهد جاء في كثير من الأحيان في سياق كتب التراجم والمناقب بالنسبة لأعلام كثيرة من رجالات الزهد والتصوف.

وإذا كانت النخبة الأندلسية ممن اقتربت من السلطة الموحدية تهدف في معظمها إلى الحصول على امتيازات أو تجميع الثروة، من خلال قيامها بوظيفة ما داخل البلاط الموحدي أو خارجه، فإن فئة من هذه النخبة قد سطرت أهدافها بوضوح عندما فكرت في الارتباط برجالات السلطة والحكم. ويكون هذا التقرب في شكل لقاء مباشر يتم خلاله الإعلان عن الهدف من الزيارة، أو من خلال تقديم مؤلف يتوخى منه صاحبه أن يجازى عنه بأموال، أو الإنعام عليه بظهير، أو حماية ممتلكاته وثروته. ولعل هذه الحالات قد انتشرت بشكل كبير في بداية الحكم الموحدي قبل وعند دخولهم "مراكش" عام (٥٤١هـ/١١٤٧م).

وفي هذا الإطار نشير إلى "**أبي الحسن علي محمد بن خليد اللخمي الإشبيلي**" والمتوفى عام (٥٦٧هـ/١١٧١م)، والذي يتحدث

عنه ابن صاحب الصلاة وينعته بـ "الفقيه الخطيب أبو الحسن الإشبيلي" ويشير إلى أنه كانت له مكانة متميزة في البلاط الموحدي لدرجة أنه صار "عند الخليفة في العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج...دام على علوّ مكانته عند الخليفة رضي الله عنه فأسهمه الاسهام والديار، وأناله الإكرام والأوطار... ولم يزل على ما ذكرته، مدة أيام الخلافة إلى أن ولي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه فمشاه على منزلته، وولاه جميل رتبته..."[٣٨]. وكان هذا الفقيه مهتمًا بعلم الكلام كما كان خطيبًا بليغًا وحافظًا للفقه[٣٩]. فقد ألف كتابًا سماه "المعراج" منحه هدية إلى الخليفة عبد المؤمن وهو محاصر لـ "أغمات وريكة" في جمادى الأولى سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م).[٤٠]

لا يمكن للخلافة الموحدية أن تتغافل عن مثل هذه الخطوة التي تحمل عدة دلالات رمزية، في وقت كان فيه الموحدون بأمس الحاجة إلى تلميع صورتهم، واكتساب مشروعية حركتهم، إن لم نقل دولتهم، خصوصا وهم على أبواب إسقاط مراكش عاصمة المرابطين. لقد كان الفقيه الأندلسي على وعي تام بالنسبة لهذه الخطوة، التي مكنته من تبوء مكانة هامة وازداد حظوة عند الخليفة "عبد المؤمن"، وكرَّم وفادته فقام بترقيته إلى مرتبة عليا نال بسببها "دنيا عريضة وجاهًا مديدًا" على حد قول "ابن عبد الملك".[٤١] ونشير في هذا الصدد كذلك إلى "**علي بن أحمد**" المعروف بـ "**أبي الحسن بن القابلة**" أخ "أبو بكر بن القابلة"، الثائر على المرابطين عام ٥٣٩هـ[٤٢]، فقد سافر إلى المغرب بهدف التمكن من استرجاع أموال أخيه، غير أنه لم يبلغ مبتغاه بسبب وفاته بمراكش حوالي (٥٦٥-٥٦٦هـ/١١٧٠م)[٤٣]. ونذكر كذلك "**أخيل بن إدريس الرندي**" الكاتب من مدينة رندة[٤٤]، والذي كان تحت طاعة ابن حمدين وبعد ذلك رحل إلى مراكش.[٤٥] وقد كانت أهداف رحلة الرندي واضحة تتمثل في البحث عن وساطة لدى الخليفة عبد المؤمن من أجل استعادة أمواله التي فقدها في الأندلس، فكان "أبو جعفر بن عطية الوزير" وسيطا له في هذه المأمورية، وعلى يديه أعيد ماله «ولم يزل هناك مكرمًا وفي طبقته مقدمًا إلى أن ولي قضاء قرطبة ثم قضاء إشبيلية».[٤٦]

إنه سلوك "براغماتي" واضح لجأت إليه بعض النخب الأندلسية للحصول على مكتسبات جديدة، أو استرجاع ما فقد منها خاصةً خلال المرحلة الانتقالية من "المرابطين إلى الموحدين". إن طبيعة النظام الموحدي، الذي اعتمد على الأسلوب الزجري ضد كل الأطراف التي عارضته، وأسلوب الاستقطاب بالنسبة للنخب الأندلسية أساسًا، يصعب على البعض مقاومة إغراءاته، خصوصًا وأنه يمنح المال والجاه كما هو الحال مع "عبد الملك بن عياش بن فرج القرطبي"، الذي رحل إلى إشبيلية خلال مرحلة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، فتزهد في إحدى رباطات قرى هذه المدينة[٤٧]، غير أن السيطرة الموحدية على إشبيلية أدت بهذا الأديب الزاهد أن يشتغل بالكتابة عند عامل الموحدين "أبي إسحاق براز المسوفي"، فتقلدها على كره وتقية على نفسه. إن هذه الوظيفة جعلته مقربًا للخلفاء فأصبح كاتبًا وأحد خدام النظام حيث كتب للخليفة عبد المؤمن، وكذا لأبنه يوسف عندما كان واليًا على الحاضرة الموحدية "إشبيلية" في الأندلس.[٤٨]

فهذا الاقتراب من السلطة مكَّنه من تسلق درجات الرقي الاجتماعي فـ «نال دنيا عريضة، وكانت له منهم منزلة جليلة وكان ممدحا» على حد تعبير صاحب الذيل والتكملة[٤٩]. إنه تحول جذري من التصوف والزهد إلى البذخ والثروة والجاه، ففي هذه المفارقة تعبير صارخ عن صعوبة مقاومة نظام حل بكل ثقله على البلاد الأندلسية من أجل كسب أتباع من النخبة ستعمل على إضفاء المشروعية على وجودهم بشبه الجزيرة. إن صعوبة مقاومة هذا النظام وقوته تتجلى بشكل واضح من خلال إحساس هذا العالم بعقدة الذنب، خصوصًا بعدما ارتد عن طريقته المثلى على رأي صاحب "الذيل والتكملة"[٥٠]، والتي تم التعبير عنها ثلاثة أيام قبل وفاته سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) عندما نظم البيتين التاليين:

عصيتُ هَوى نَفْسي صغيرا فعندما
رَمتني الليالي بالمَشيب وبالكبر
أطَعْتُ الهوى، عكس القضية ليتني
خلقت كبيرًا وانتقلت إلى الصغر[٥١]

لقد كانت النخب الأندلسية، خاصةً المثقفة منها المتمكنة من دراسة اللغة والآداب محط اهتمام السلطة السياسية الموحدية فتم استقطابها للإشراف على تأديب وتدريس الأمراء. ذلك هو الشأن بالنسبة لـ "**عبد الوالي بن محمد أحمد بن عبد الوالي**" من "بلنسية" والمتوفى سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)، حيث كان مشرفًا على تأديب أبناء الخليفة "أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن".[٥٢] ونشير في السياق ذاته إلى "**علي بن محمد بن يوسف الفهمي**" من "قرطبة"، والذي كان على إلمام بالقراءات السبع، وبعد متابعة دراسته في مدينتي إشبيلي وغرناطة خلال فترة حكم الخليفة "يوسف بن عبد المؤمن"[٥٣]، انتقل إلى مراكش فقام بتدريس أبناء المنصور، إذ كانت له مكانة هامة استغلها في جمع الأموال حيث راكم ثروة كبيرة خاصةً خلال فترة حكم "المنصور والناصر".[٥٤]

خَاتِمَةٌ

يمكن القول مما سبق؛ أن الجهاز السلطوي الموحدي قد فطن إلى السلوك الانتهازي لشريحة من شرائح المجتمع الأندلسي، وتَنَبَّهَ إلى طموحاتها وأهدافها، فلم يحرمها من تحقيقها خصوصا وأنه بهذا الأسلوب سيتمكن الموحدون من ضمان تبعية الرعية، وخلق التنافس فيما بين السكان، وخاصةً نخبهم التي تهافتت من أجل خدمة النظام. وإذا كان البعض قد استغل موقعه القريب من رجالات الحكم الموحدي لتلبية طموحاته وأغراضه، فإن البعض الآخر لم يكن يسعى إلى تحقيق هذا الطموح، ولم يهدف إلى تقلُّد مناصب سامية أو غيرها، وذلك لِمَا كان يتمتع به من نفوذ رمزي داخل المجتمع الأندلسي.

لقد حقق الموحدون من خلال توظيف أسلوب إغداق الأموال ومنح الامتيازات لبعض النخب على حساب فئات أخرى توازنًا سياسيًا في الأندلس مما جعل بعض الأفراد من هذه النخب يقومون بحفر الدسائس للآخرين بُغْيَةَ التقرب من أعتاب الخلافة ونيل الحظوة والمكانة المرموقة والجاه والنفوذ. إن الموحدين باختيارهم لهذا النهج قد رسّخوا في المجتمع الأندلسي سلوك الانتهازية والطمع والوصولية التي كانت سِمَةً بارزة عند مختلف الشرائح النخبوية تقريبًا في حين لجأ البعض الآخر إلى إتباع السلوك الزهدي والتصوف مبتعدًا قدر الإمكان عن مخالطة السلطة أو التعامل معها.



(١) ابن عسكر، أبو عبد الله، وأبو بكر بن خميس، **كتاب أعلام مالقة**، تقديم وتعليق الدكتور عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص. ١١١.
(٢) **أعلام مالقة**، م س، ص.١١١.
(٣) **أعلام مالقة**، م س، ص.١١١.
(٤) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٥.
(٥) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٥.
(٦) **أعلام مالقة**، ص. ١٥٥-١٥٦.
(٧) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٧.
(٨) **أعلام مالقة**، م س، ص.١٥٧.
(٩) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢٧.
(١٠) **أعلام مالقة**، م س، ص.٢٢١.
(١١) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢١.
(١٢) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢١.
(١٣) **أعلام مالقة**، م س، ص. ٢٢١.
(١٤) **أعلام مالقة**، ص٢٢١.
(١٥) ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، ج١، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨، ص.٣٤٣.
(١٦) **المغرب في حلى المغرب**، ج١، م س، ص.٣٤٣.
(١٧) **المغرب في حلى المغرب**، ج١، م س، ص. ٣٤٣.
(١٨) ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨، ص. ٨٢.
(١٩) **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، م س، ص. ٨١-٨٢.
(٢٠) ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، **كتاب صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٩٣، ص.٧١.
(٢١) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.٧١.
(٢٢) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.٨٠.
(٢٣) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص. ٨٠.
(٢٤) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١١٨.
(٢٥) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١١٨.
(٢٦) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١١٩.
(٢٧) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٢٣.
(٢٨) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٢٢.
(٢٩) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص. ١٢٢.
(٣٠) يمكن القول انطلاقًا من هذه الإشارة المصدرية وغيرها، أن التقرب من الخلفاء والعمل في القصور لم يكن يعبر دائما عن ارتياح النخبة الأندلسية، فقد كان هذا العمل يأتي استجابة لأوامر عليا قد لا يكون الشخص بالضرورة مرتاحا لها. ذلك ما نلمسه في الإشارة المصدرية التي تحدثت عن نظم أشعار من طرف أبي بكر بن زهر يتشوق فيها لأحد أبنائه الذي تركه صغير السن بالأندلس، مما يفسر أن مغادرة الخدمة بالقصر كانت مقيدة بشروط، فهي لا تتم إلا بإذن من الخليفة. انظر: ابن أبي زرع الفاسي، أبو الحسن علي بن عبد الله، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ص. ٢٠٧.

(٣١) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.
(٣٢) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦. ناقش العديد من الباحثين مسألة اهتمام يعقوب المنصور بالمذهب الظاهري ودعوته للأخذ بالقرآن والحديث، وحول مزيد من التفاصيل انظر: عبد الهادي أحمد الحسيسن، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي**، ج١، مطابع الشويخ، ديسبريس، تطوان، ١٩٨٢، ص١٨٣-٢٠٩، الدكتور حسين مؤنس، **وثائق المرابطين والموحدين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص١٣١-١٣٤، محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين**، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال الرباط، ٢٠٠٢، ص.١٧٥-١٧٨.
(٣٣) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.
(٣٤) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.
(٣٥) **صلة الصلة**، ج٣، م س، ص.١٣٦.
(٣٦) ابن عبد المالك المراكشي، أبو عبد الله محمد، **الذيل والتكملة**، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٦٥، ص.٦٢.
(٣٧) **الذيل والتكملة**، السفر٥، م س، ص.٦٣.
(٣٨) عبد الملك بن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص.١٦٠-١٦١.
(٣٩) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٠٤.
(٤٠) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٠٤.
(٤١) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٠٤.
(٤٢) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.١٧٥-١٧٦.
(٤٣) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.١٧٦.
(٤٤) ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، **كتاب الحلة السيراء**، ج٢، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص.٢٤٢.
(٤٥) **الحلة السيراء**، ج٢، م س، ص.٢٤٢.
(٤٦) **الحلة السيراء**، ج٢، م س، ص.٢٤٢.
(٤٧) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٢٦.
(٤٨) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٢٧.
(٤٩) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٢٧.
(٥٠) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٢٧.
(٥١) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٢٨.
(٥٢) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، القسم الأول، م س، ص.٧١.
(٥٣) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٩٩.
(٥٤) **الذيل والتكملة**، السفر ٥، م س، ص.٣٩٩-٤٠٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

انشغالات السلطان أبو الحسن وأبو عنان في النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي
العمل على ضم المغرب الأوسط والأدنى للسلطة المرينية

د. محمد امراني علوي
أستاذ التاريخ الوسيط الإسلامي
الكلية المتعددة التخصصات
الرشيدية - المملكة المغربية

مُلَخّص

تعتبر مرحلة حكم السلطانيين أبو الحسن وأبو عنان من المراحل القوية في تاريخ الدولة المرينية، فبعد ما تم توطيد أركان الدولة المرينية داخليًا وتم توحيد المغرب الأقصى مجاليًا حاول السلطانين إعادة أمجاد الدولة المغربية كما كانت عليه في العهد المرابطي والموحدي خصوصًا محاولة الوصول إلى كل المجالات الجغرافية التي كانت تحت سيطرتهم على مستوى الجهة الشرقية أو الشمال، لذلك نجدهم حاولا التوجه شمالاً بجعل الأندلس إحدى أقاليم الدولة المرينية، وقد عرفت خلال هذه الفترة عدة معارك ومواجهات بين الطرفين، جعلت السلطان أبو الحسن يولي اهتمامه نحو الشرق لضم المغرب الأدنى والأوسط، لكن الأحداث التي عرفتها هذه الفترة جعلت أبو عنان يستولي على السلطة في المغرب الأقصى محاولاً توطيد أركان المغرب الأقصى تحت سلطته ن ليدخل في مواجهة مباشرة مع أبيه أبو الحسن، وبعد موت هذا الأخير نهج السياسة السابقة نفسها محاولاً هو كذلك ضم المغربين الأدنى والأوسط، وقد تخللت هذه المرحلة عدة أحداث وقضايا كان لها الدور الكبير في صناعة أحداث المغرب الأقصى بل الغرب الإسلامي، خلال عهدي السلطانيين أبي الحسن وأبي عنان.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٠	أكتوبر	٢٠١٣
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	فبراير	٢٠١٤

كلمات مفتاحية:
الأندلس، المغرب الأوسط، المغرب الأدنى، السلطان أبو الحسن، السلطان أبو عنان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041876

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد امراني علوي. "انشغالات السلطان أبو الحسن وأبو عنان في النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي: العمل على ضم المغرب الأوسط والأدنى للسلطة المرينية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١١٤ – ١١٨.

مُقَدِّمَةٌ

تُعَدّ مرحلة أبي الحسن وكذا أبي عنان فترة ازدهار الدولة المرينية، ذلك أن الأول وصل إلى الحكم عام 731هـ بعد مهلك أبيه سعيد عثمان[١] وتولى الثاني الحكم بشكل نهائي بعد موت أبيه في ٧٥٢هـ، وقد ورث السلطانان وضعًا مستقرًا نتيجة المجهودات التي بذلها أبوسعيد عثمان في القضاء على حركة ابنه أبي على في سجلماسة والعزفيين بسبة فبلغت الدولة قوة عسكرية جعلت غرناطة تستنجد بها لما احتل فرناندوا الرابع جبل طارق كما فعل نفس الشيء أبوبكر بن يحي الحفصي[٢] عندما هده صاحب تلمسان أبو تاشفين بن زيان وكانت نتيجة استجابة المرنيين أن حدثت المصاهرة بين الحفصيين وأبي الحسن وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله "وزفت إليه ليلة إذ عروسه بنت مولانا السلطان أبي يحي".[٣] وعمل السلطان أبو الحسن وأبو عنان على توسيع النفوذ المريني في المغرب الأوسط والأدنى والأندلس فقادا حملات عسكرية اختلفت نتائجها، ونظرا لطبيعة المداخلة التي تفرض الحديث عن انشغالات الملكين فإننا سنعمل على تتبع انشغالات كل واحد منهما على حدة مع تبيان أوجه التشابه والاختلاف. ونشير إلى أن حديثنا سيقتصر على الجوانب السياسية باعتبار ها أساس حركية الأحداث في هذه المرحلة.

أولاً: انشغالات أبي الحسن سياسيًا

١/١- في الشرق:

لما بويع أبو الحسن وقبل أن يتجه إلى منازلة أمير تلمسان انتقامًا لصهره عرج على سجلماسة لمعرفة أحوال أخيه بها وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله: "فأراد مشارفة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان، فأرتحل من معسكره بالزيتون قاصدًا سجلماسة، وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤديًا حقه وموجبًا مبرته مهنيًا بما أتاه الله من ملك، متجافيًا عن المنازعة فيه قانعًا من تراث أبيه فيما حصل في يده طالبًا العقد له بذلك من أخيه، فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما، وشهد الملأ من القبيل وسائر زناته والعرب وانكفأ راجعًا إلى تلمسان.(٤)

وتشير المصادر إلى أن أبا الحسن اتجه بجيوشه شرق تلمسان في انتظار قدوم صهره غير أنه أخبر بانتقاض أخيه عليه في سجلماسة بفعل اتفاقه مع أبي تشافين الزياني مما عجل بعودته إلى الحضرة (فاس) ومنها إلى سجلماسة التي حوصرت مدة سنة كاملة انتهت بدخولها وإلقاء القبض على أبي علي سنة ٧٣٤هـ إذ لم تجده مساعدات أبي تاشفين الزياني وسيق إلى فاس ليموت في سجنه، وبهذا استقام ملك المغرب للسلطان الذي انتصر أيضا على النصارى في جبل الفتح فتوجه مرة ثانية إلى تلمسان، حيث فتح في طريقه إليها وجدة وندرومة كما يظهر ذلك من نص ابن خلدون "وسار يجر الشوك والمدد من أمم المغرب وجنوده ومر بوجدة فجمر الكتائب لحصارها ثم مر بندرومه فقاتلها بعض يوم واقتحمها فقتل حاميتها واستولى عليها أخر سنة خمس (٧٣٥هـ) ثم سار على تعبئته حتى أناخ على تلمسان".(٥) والواقع أن هذه المدينة قاومت المرنيين بشدة رغم حشودهم العسكرية الكثيرة واستعمالهم لبعض الأدوات الحربية مثل المجانيق والخانديق، ودام حصارها سنتين تمكن خلالها أبو الحسن من فتح مدن وهران وهنين ومليانة وتنس والجزائر سنة ٧٣٦هـ وما يقع شرقها كما اختط مدينة المنصورة لتكون مقرًا لسكناه، ليأتي٢٧ رمضان من سنة ٧٣٧هـ حيث اقتحم تلمسان عنوة(٦) وقضى على أميرها الذي استبسل في الدفاع عنها.

ونترك مؤقتًا الحديث عن الأندلس لنواصل رصد أحداث المغرب الأدنى، ذلك أن وفاة أبي بكر بن يحي الحفصي ملك تونس واختلاف أبنائه حول العرش، وسطوة عمر ابنه جعلت وجوه الدولة وعلى رأسهم محمد بن تافراكين يطمعوا أبا الحسن في تملك إفريقية يقول محمود مقديش "وتحرك إلى تونس في صفر سنة ثمان وأربعون وسبعمائة واستولى على مدينة بجاية ثم قسنطينة وقد ظفر بعض حصصه بعمر صاحب الأمر بتونس فارًا عنها، فقتل واهتزت الأرض لطاعة السلطان من الغرب والبلدان وحذر الملوك بمعر ما شاع بسطته وانفساح إيالته وشهرة ذكره... ودخل تونس في حفل لم يسمع بمثله في الثامن من جمادى الآخرة من عام ثمانية وأربعون وسبعمائة".(٧) وهذا ما ذهب إليه أيضًا صاحب الإستقصا.(٨) واتبع أبو الحسن عند سيطرته على إفريقية سياسة نزع الإقطاعات التي منحها الموحدون للأعراب فعوضهم عنها بأعطيات من الديوان ومنعهم من أخذ الخفارة (الإتاوات) بعدما اشتكت الرعية من البدو مما دفع الأعراب إلى مناهضة المرنيين كما يشير إلى ذلك ابن خلدون.(٩)

وقد أسفرت المواجهة بين الطرفين والتي وقعت بين بسيط تونس وبسيط القيروان عن انهزام المرنيين نتيجة غدر بني عبد الواد ومغراوة وبني توجين لمولاتهم للأعراب الهلاليين مما دفع بالسلطان إلى العودة إلى القيروان في فاتح ٧٤٦هـ لينتقل إلى تونس في ربيع الأخر في السنة نفسها حيث حصن المدينة، وأثناء إقامته بتونس تراوحت مواقف الأعراب منه بين التأييد والمعارضة وانقطعت أخباره عن المغرب الأقصى في وقت عم الوباء العظيم المشرق والمغرب واستبد ابنه أبو عنان الذي عينه واليًا على تلمسان بعد توجهه إلى إفريقية بالحكم دون سائر إخوته (١٠) وقفل أبو الحسن عائدًا إلى المغرب الأقصى ممتطيًا البحر فحاول التزود بالماء في بجاية إلا أن واليها الحفصي منعه وجيشه من ذلك، فتمكن في النهاية من التزود، غير أن عاصفة دمرت مراكبهم في البحر فهلك الكثير من العلماء والأعيان والشرفاء إل جفنا أقل السلطان الذي كان على مشارف الموت قرب بلاد رواوة وقذف به في الجزائر التي "تمسكت بطاعته فاستنشق بها ريح الحياة وأقام الرسم"(١١) وفيها التف حوله بعض العرب فكون جيشا اتجه به نحو تلمسان حيث انهزم وقتل ابنه الناصر الذي التحق به من بسكرة. وقد دفعه هذا إلى التفكير في العودة إلى المغرب مقر ملكه فوصل سجلماسة التي استقبلته بالترحاب والطاعة سنة ٧٥١هـ.غير أن ابنه أبا عنان علم بذلك فجهز جيشًا قويًا لمواجهة أبيه الذي أيقن بعدم قدرته على التصدي لابنه وقصد مراكش التي استقبله أهلها بالطاعة فكون جيشًا حاول به استرجاع ملكه في حين اتجه إليه أبو عنان من فاس ودارت بينهما معركة بتامدغوست في سنة ٧٥١هـ انتهت بانهزام جيوش السلطان أبي الحسن فاعتصم بجبال هنتاتة بدرن الذي حاصره أبو عنان إلى أن توفي أبوه سنة ٧٥٢هـ.

٢/١- في الأندلس:

لم تقتصر انشغالات أبي الحسن المريني على تلمسان وإفريقية، بل كانت متزامنة مع اهتمامه بالأندلس، انطلاقًا من طبعه الجهادي، غير أن الظروف لم تكن مناسبة نظرًا لاحتدام الصراع بين ملك غرناطة أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد إسماعيل ومشيخة الغزاة المرنيين الذين استولوا على واد آش والنواحي فهددوا بذلك مملكة غرناطة، وانتهز القشتاليون فرصة

الصراع هذه فسيطروا على البيرة ثغر مملكة غرناطة والإحالة دون وصول الإمدادات المرنية إليها.

ولما أبت الأمور إلى أبي النعيم رضوان النصري في غرناطة حصل التفاهم بينه وبين أبي الحسن المريني ألذي أرسل ابنه أبا مالك بقوة مرينية كبيرة استولت على الجزيرة الخضراء ثم زحف على جبل طارق كما يشير إلى ذلك صاحب الإستقصا بقوله "وعقد لابنه أبي مالك على خمسة ألاف من أنجاد بني مرين وأنفذهم مع بني الأحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد... وزحفوا جميعا إلى الجبل وأحاطوا به وأبلو في منازلة البلاد البلاء الحسن إلى أن فتحوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحموه المسلمين عنوة".[١٢] وفي هذه السنة نفسها اغتالت مشيخة الغزاة ملك غرناطة محمد بن إسماعيل بن الأحمر الذي خلفه على العرش أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل وتمكن من القضاء على بني عثمان بن أبي العلاء أصحاب مشيخة الغزاة واستردوا واد آش منهم ولما استتبت لأبي الحسن أمور المغرب أمر ابنه أبا مالك بالتوغل في أراضي الأندلس" وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور من عمله من الدعوة سنة أربعين بالدخول إلى دار الحرب. وجهز العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء".[١٣]

ومن جبل الفتح نازل طريف التي تمادى في حصارها مما جعل ملكها يستنجد بسلطان البرتغال بينما سارع أبو الحجاج يوسف بن نصر للحاق بأبي مالك والتقت الطائفتان في ظاهر طريف فانهزم المسلمون نظرا لسوء التدبير كما ورد في نص ابن خلدون "...واتصل الخبر بأن النصارى جمعوا له (أبا مالك) وأغذوا السير في أتباعه وأشار عليه الملأ بالخروج عن أرضهم وإجازة الوادي الذي كان تخما بين أرض الإسلام ودار الحرب وأن يسير إلى مدن المسلمين ويمتنع بها فلج في إبايته وصمم على التعريس، وكان قدما ثبتا إلا أنه كان غير بصير بالحروب لمكان سنه. فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يستركبوا وخلطوهم في أبياتهم وأدرك الأمير أبو مالك قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر للسلطان فتفجع لمهلك أبيه واسترحم له".[١٤]

بعد هذه الفاجعة عمل أبو الحسن على الثار من نصارى الأندلس، ففتح ديوان العطاء وأمر بتجهيز الأسطول المريني كما طلب من أصهاره الموحدين أن يمدوه بأسطولهم الذي تألف من أساطيل طرابلس، وقابس، وبونة وبجاية مما كون لديه أسطولا ضخما وصل إلى (١٠٠) وحدة وعقد عليها لمحمد بن علي العزفي صاحب سبة وأمره بمناجزة أسطول النصارى الذي تمركز في الزقاق لمنع السلطان من الإجازة إلى الأندلس فالتقى الجمعان وانتهى الأمر بانهزام النصارى كما يؤكد الناصري"... حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم وإستلحموهم قهرا بالسيوف وطعنا بالرماح وألقوا أشلائهم في اليم وقتلوا قائدهم... واستاقوا أساطيلهم مجذوبة إلى مرسى سبة... وكان ذلك يوم السبت السادس شوال سنة أربعين وسبعمائة".[١٥] ونزل السلطان بساحة طريف بعد انتصاره على النصارى أواخر سنة ٧٤٠هـ فحاصرها وأنزل بها أنواع القتال بعد انضمام جيوش أبي الحجاج يوسف ابن إسماعيل بن الأحمر إليه غير أن الطاغية جهز أسطولاً وسيطر به على الزقاق فقطع الإمدادات على جيوش المرنيين الذين نفذت أقواتهم مع طول الحصار إضافة إلى بث مجموعة من جنوده في صفوف معسكر بني مرين لضربهم من الخلف إلى جانب تدعيمه من قبل البرتغاليين. وكانت النتيجة هي انهزام المسلمين وثأر النصارى في مدة وجيزة، ليتجه أبو الحسن لتوه إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى جبل الفتح ليصل إلى سبة كما ورد عند ابن خلدون.[١٦]

ونتج عن هذا الانتصار النصراني استئساد الطاغية القشتالي على مسلمي الأندلس ورغبة في ضم أراضيهم إليه فاستولى على قلعة بني سعيد ثغر غرناطة سنة ٧٤٢هـ بينما حاول السلطان أبو الحسن رد الاعتبار فدعا وزراءه إلى جمع الجنود وتجهيز الأساطيل وقدم إلى سبتة لتسيرها بنفسه من هناك. وعند وصول خبر ذلك إلى الملك القشتالي جهز أسطوله واتجه به إلى بحر الزقاق حيث واجه أسطول المسلمين الذي كان يقوده عسكر بن تاحضريت الذي انهزم وحوصرت الجزيرة الخضراء أشد حصار انتهى بها إلى الإذعان لملك قشتالة كما يصف نص الناصري "واشتد عليهم (أهل الجزيرة) الحصار وأصابهم الجهد... وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومَنْ كان بها من عسكر السلطان. فسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا له عن البلد فبذ له لهم وخرجوا فوضى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاثة وأربعين وسبعمائة... وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره في المدافعة مع تمكنه منها".[١٧] ويلاحظ أن هذه أخر محطات انشغاله بالأندلس ونقل اهتمامه إلى تلمسان كما سلف الذكر.

وكانت عناية أبي الحسن المرني إلى جانب نشاطه السياسي، بالعمران والثقافة فائقة إذ بنى مدارس منها المدرسة العظمى بمراكش وسلا والمدرسة المصباحية بفاس. ومن أثاره في مكناس الزيتون الزاويتان القديمة والجديدة. أما ما يتعلق بالمجال الديني، فقد اهتم بإرسال بعثات الحجيج إلى المشرق، وكتب ثلاثة مصاحف بيده أوقفها على مكة والمدينة وبيت المقدس. إضافة إلى إيقافه ضياعًا على القراء في مكة.

من خلال ما سبق يتضح؛ أن حياة أبي الحسن كانت مأساة طويلة وفريدة. في بابها كما ذهب إلى ذلك حسن مؤنس[١٨] نظرًا

لما عاشه من صراع مع أبي علي الذي استقل بسجلماسة وابنه أبي عنان الذي استبد بالحكم. إلى جانب ثورة القبائل الهلالية ووباء الطاعون الذي عم البلاد إضافة إلى هزائمه في الأندلس. كل هذا أدى إلى نهاية حكمه رغم ما تميز به من قوة الشكيمة تبعا لما قاله ابن مرزوق في كتابه: "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" من" أن إجهاد النفس كان لذته وسروره، وكان رجلاً بالغ التقى، يحفظ نصف القران ويقضي جانبًا كبيرًا من وقته في القيام بفرائضه الدينية وما يتبعها من أعمال العبادات والورع وكان في حاشية قصره عدد كبير من المتدينين الذين يصاحبونه فيما كان يقوم به عبادات"[١٩].

ثانيًا: انشغالات أبي عنان

(٧٤٩-٧٥٩هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٨م)

سبقت الإشارة إلى؛ أن أبا عنان استبد بالحكم عند سماع موت أبيه وهو في تلمسان. فاتجه نحو فاس مركز الدولة وتمكن بعد مواجهة منصور بن أبا مالك الثائر بها. من دخولها حيث تلقى فروض الولاء والطاعة من سكانها وذلك سنة ٧٤٩هـ وكان لأبناء أبي العلاء في اقتحام المدينة واعتقال منصور وقتله. ولما تبين له أن موت أبيه كان من قبيل الإشاعة فقط رأى أن يساند ملوك الحفصين في المغرب الأدنى ليقفوا سدًا مانعًا بينه وبين أبيه كما لم يمانع استرداد بني عبد الواد لسلطانهم على المغرب الأوسط حتى يأمن جانبهم ولو لوقت. وبقي الصراع محتد ما بينه وبين أبيه إلى أن توفي هذا الأخير سنة ٧٥٢هـ. ويستفاد من إشارة عبد الله العروي التوجه الكلي لأبي عنان نحو إفريقية والعزوف عن التفكير في الأندلس"...أن يتم ما بدأه والده (أبو الحسن) على الأقل فيما يخص إفريقية إذ لم يعد أحد ينوي المغامرة في الأندلس."[٢٠]

لقد أفرزت حروب أبي عنان ضد أبيه توسع النفوذ العبد الوادي على أجزاء كبيرة من المغرب الأوسط كما تميزت علاقة بني عبد الواد بالمرينين بالتحول تدريجيًا من الولاء والتبعية إلى الاستقلال السياسي كما يبدوا ذلك من موقف الأمير أبا ثابت أثناء دخوله تنس وامتناعه من إجابة طلب السلطان أبي عنان في شأن المغراوي علي بن راشد وقومه ويشير علي حامد الماحي إلى أن أبا عنان كان يهدف من خلال شفاعته في مغراوة التدخل في شؤون المغرب الأوسط وإثبات نفوذه في المنطقة الشرقية وبالتالي الحد من توسع نفوذ بني عبد الواد فيها.[٢١] ونتيجة لذلك جمع أبو عنان جيوشه واتجه إلى تلمسان فهزم الأمير أبا سعيد وأخاه أبا ثابت ثم قتلهما وصفا له جو تلمسان سنة ٧٥٣هـ ويبين نص ابن الخطيب مراحل المد المريني في اتجاه تونس حيث قال: "وتحرك إلى تلمسان فاستضافها إلى ولايته ثم ألحق بها قسنطينة وبجاية وجهز أسطوله إلى تونس فدخلها وتملكها ثقاته في رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة".[٢٢]

ونشير هنا إلى أن فتح قسنطينة تم بمساعدة بني المهلهل بعد محاولات عديدة في سنوات ٧٥٣هـ و٧٥٥هـ و٧٥٦هـ و٧٥٧هـ و٧٥٨هـ بينما امتلكت بجاية دون إراقة للدماء إذ تخلى له صاحبها عنها (المولى أبوعبد الله) وعند فتح تونس أحست قبائل رياح وغيرها بخطورة موقف أبي عنان المتمثل في منعها من فرض ضريبة الخفارة على الأهالي والمسافرين. وغيرها من الامتيازات مما جعلها تثور في وجهه وتواجه جيوشه، الشيء الذي اضطر معه السلطان إلى الخروج لتأديبها وإنزال الدمار والخراب بمملكتها وقصورها.[٢٣] وبعد مطاردتها في الصحراء توجه أبو عنان إلى قسنطينة فاستقر بها فترة من الزمن أراد بعدها العودة إلى تونس فاعترض سبيله الخليفة الحفصي الذي غدر به في حفص تبيسة حيث وقع انشقاق في الجيش المريني وانسل جزء منه فاتجه إلى المغرب نظرا لما أصابه من تعب ولطول الرحلة وبعد المسافة عن البلاد والأولاد. فكان أن عاد أبو عنان مضطرا إلى المغرب لتعود تونس إلى الحفصين وانتهت بذلك سيطرة المرينين على جهة الشرقية من الدولة الحفصية. في حين استمر النفوذ المريني في قسنطية وبجاية مدة من الزمن.

ولم تكن الأوضاع في المغرب مستقرة منذ بداية حكم عنان، حيث ثار أبو الفضل الذي أوصلته سفن قشتالة إلى السوس فتقبض عليه صاحب درعة وسلمه إلى السلطان الذي قتله سنة ٧٥٥هـ خنقًا بمحبسه[٢٤] وخرج عن الطاعة أيضًا عيسى بجبل الفتح فنال العقاب نفسه. وبعد عودته من المغرب الأوسط (٧٥٩هـ) إلى فاس ألم به مرض عضال ألزمه الفراش وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله: "ولما وصل السلطان إلى دار ملكه احتل بها بين العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض وأعجله فائق الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة. فدخل قصره ولزم فراشه واشتد به وأطاف به النساء يمرضنه".[٢٥] وقد توفي على إثر هذا المرض سنة ٧٥٩هـ وإن كانت بعض المصادر تشير إلى قتله خنقا من طرف وزيره حسن بن عمر. ورغم طموحات أبي عنان في تحقيق حلم توحيد المغرب وفشله في ذلك فإنه اهتم أيضًا بجوانب أخرى من الحياة أهمها بناء المدارس والزوايا واستجلاب الأعلام،[٢٦] مثل المدرسة البوعنانية في فاس، والمدرسة العجيبة في حومة باب حسين بسلا والتي تعرف اليوم بفندق أسكور،[٢٧] وكان أبو عنان أيضًا فقيهًا عارفًا بالمنطق وأصول الدين وله حظ وافر في علمي العربية والحساب.

خَاتِمَةُ

اتحدت أهداف كل من أبي الحسن وأبي عنان في اتجاهيهما نحو المغربين الأوسط والأدنى في رغبتهما السيطرة على المراكز التجارية النشيطة بهما، نتيجة تحول المسالك التجارية الصحراوية نحو الشرق مع القرن الثامن الهجري. ويبدوا أن هناك عوامل عدة أدت إلى فشل جيوش المرنيين في تحقيق هذا المشروع يأتي على رأسها الأزمة الاقتصادية التي شهدها المغرب الأقصى بسبب تراجع دوره في هذه التجارة(٢٨) ويضاف إلى ذلك؛ أن المرنيين لم يتمكنوا من تحصيل الضرائب من جميع السكان باستثناء السهول الساحلية (أزغار، تامسنا، سهل السوس، بعض نواحي وادي سبو).

ومن الناحية السياسية، يفسر فشل المشروع بضعف ترابط المرنيين الزناتيين وكثرة خروجهم عن الدولة وسهولة انضمامهم إلى دعاة الفتن من أمراء البيت أو شيوخ عرب المعقل خاصةً،(٢٩) أما من حيث الحروب التي خاضها أبو الحسن في الأندلس والتي كان داعي الجهاد حافزًا أساسيًا فيها، فإن أسباب الهزيمة، إضافة إلى ما سبق، جاءت نتيجة النضج السياسي الذي عرفته ممالك إسبانيا وثبات مؤسسات الحكم بها. إلى جانب اتحادها في مواجهة الجبهة الإسلامية بقيادة البابوية، بينما كان يستغل بعض الأمراء المسلمين الانشغال في الصراع ضد المسيحيين ليتوسع على حساب الأراضي الإسلامية مما يدل على تشرذمهم. وقد أشار حسين مؤنس إلى عامل أخر له أهميته في قلب موازين القوى هو مستوى تقنيات أدوات القتال وتدريب الجيوش"... فكانت سيوف النصارى ورماحهم ونبالهم أقوى وأمتن وأقدر على الإصابة من أسلحة المسلمين، ثم إنهم أتقنوا صناعة الدروع للفرسان والأفراس معًا. فكان المقاتل النصراني يحتمي بدرع سابغة تجعل إصابته في مقتل أمرًا عسيرًا. في حين كان المسلمون يدخلون المعارك وكل سلاحهم السيوف والدروع والشجاعة وقليل من الخيل وفي غالب الأحيان تكون الدروع من خشب، أو جلد سميك".(٣٠)

الهَوامِشُ:

(١) ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، طبعة أولى، دار الكتب العلمية، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص ٢٩٩/٧. الناصري: **الإستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٩٧ ص ١١٨/٣.

(٢) حسين مؤنس: **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩٢ ص ٣٨/٣

(٣) ابن خلدون: **العبر**، ٢٩٩/٧

(٤) نفسه، ٣٠٠/٧

(٥) نفسه، ٣٠٤/٧

(٦) الناصري: **الإستقصا**، ١٢٥/٣

(٧) محمود مقديش: **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزاوي ومحمد محفوظ، طبعة أولى، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨ ص ٥٢١/١

(٨) الناصري: مرجع سابق، ١٥٥/٣ ـ ١٥٦

(٩) ابن خلدون: سابق، ٣٢٠/٧

(١٠) الناصري: سابق، ٣/ ١٦٣ ـ ١٦٤

(١١) مقديش: سابق، ٥٢٨/١

(١٢) الناصري: سابق، ٣/ ١٢١ ـ ١٢٢

(١٣) ابن خلدون: سابق، ٣٠٩/٧

(١٤) نفسه، ٣٠٩/٧

(١٥) الناصري: سابق ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦

(١٦) ابن خلدون: سابق ٣١٠/٧ ـ ٣١١

(١٧) الناصري: سابق ١٣٧/٣ ـ ١٣٨

(١٨) مؤنس: سابق ٤٠/٢

(١٩) نفسه ٢/ ٤٠ ـ ٤١

(٢٠)عبد الله العروي: **مجمل تاريخ المغرب**، جزء٢، طبعة أولى، المركز الثقافي العربي ١٩٩٤، ص٢٠٣/٢

(٢١)علي حامد الماحي: **المغرب في عهد السلطان أبي عنان المريني**، بدون طبعة، بدون دار الطبع، ١٩٨٦، ص ٨٣

(٢٢)ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٢٤، ص ٢١/٢

(٢٣) علي حامد الماحي: سابق ١٠٨

(٢٤) ابن خلدون: سابق ٣٥٤/٧ ـ ٣٥٥

(٢٥) نفسه ٣٥٤/٧ ـ ٣٥٥

(٢٦) ابن الخطيب: سابق ٢١/٢

(٢٧)الناصري: سابق ٣/ ٢٠٦

(٢٨)حسن حافظي علوي: **علاقة المغرب الأقصى بمالي من خلال رحلة ابن بطوطة**، المناهل، ٥٣، ١٩٩٦، ص ١٢٥

(٢٩)مؤنس: سابق ٤١

(٣٠)نفسه ٤٥

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مقالات

مؤسسة أيت الأربعين في الصحراء ودورها في حل مشاكل المجتمع القبلي
قراءة في تاريخ جنوب المغرب

د. محمد الصافي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أكاديمية جهة كلميم
السمارة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ
شكل المجال والخريطة القبلية لمنطقة الصحراء مدخلاً أساسيًا للاستعمار خاصةً الفرنسي الذي سعى إلى رسم الحدود بين القبائل لفرض الأمن وتجنب الصراعات القبلية، التي أضفت على المجال نوعًا من الاضطراب الذي شكل مجال الرعي ونقص الماء موضوعًا له، في المقابل تبدو الحدود في المنطقة الاسبانية أكثر التباسًا. وتعكس خريطة التوزيع القبلي على المستوى الوظيفي أهمية المجال وخصوصياته في إفراز النموذج السلوكي والأسلوب المعيشي المميز لكل قبيلة، فقد كان استقرار البدو في أعماق الصحراء كفيلاً بأن يكسبهم قوة قتالية فعالة تشتد كلما كانت القبيلة أكثر رسوخًا في البداوة، وكان أفرادها أكثر استئناسًا بالفقر واحتمالاً لمشاقه من ندرة وتقشف. لقد تميزت إذن أوضاع منطقة وادي نون خلال تلك الفترة بنظام القبيلة وضعف هامش حضور المخزن الذي اتسمت أوضاعه بالضعف نتيجة السياق الدولي والإقليمي المتميز بالضغوطات الاستعمارية وضعف موارده وإمكانياته، مما يفسر ضعف قبضته بالجنوب وتمثل سياسة الإصلاح، وعلى الرغم من تزكية النخبة المحلية بتعيين القواد، فقد ظلت هذه المناطق تحافظ على إدارة شؤونها باعتماد الأعراف التي تستمد قوتها من الإجماع الموجود على موادها، وترتكز في تنفيذها على سلطة الجماعة والشيوخ أو القائد، حيث تشمل هذه الأحكام مختلف المستويات الاجتماعية والسياسية وتسهم في شغل الفراغ الناتج عن ضعف السلطة المادية للمخزن، وتسهر كذلك في إقرار الإخاء وتنظيم أوضاع هذه الهوامش على مختلف المستويات.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠١ أغسطس ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٤ يناير ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
جماعة القبيلة، المجتمع القبلي، أيت الأربعين، جنوب المغرب، تاريخ البنى الاقتصادية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041884

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد الصافي. "مؤسسة أيت الأربعين في الصحراء ودورها في حل مشاكل المجتمع القبلي: قراءة في تاريخ جنوب المغرب".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١١٩ – ١٢٥.

مُقَدِّمَةٌ

عرفت الصحراء دينامية ثقافية واجتماعية وسياسية، حيث شهدت ولادة حركات إصلاحية دينية عرفت بتأثيرها السياسي والديني على الواجهة الشمالية والجنوبية، كما أن وفود القبائل العربية المعقلية أدى إلى ظهور ثقافة عربية وبنيات اجتماعية انصهرت فيها العناصر الثقافية العربية والعناصر الأمازيغية. وهذا ما يزكي فكر قبلي شكل أحد اللبنات الأساسية التي حافظت على استمرارية القبيلة، وبالتالي جعلها كيانًا اجتماعيًا يعبر عن إرادة وتطلعات مجموعة من الأفراد في العيش تحت قوانين نابعة من محيطها تحت إمرة فئات الشيوخ والمسنين، التي حملت على الدوام مشعل الدفاع عن هم القبيلة، والقيام بتسيير شؤون القبيلة على الصعيدين الداخلي من خلال مؤسسة "الجماعة" ممثلة في "أيت الأربعين"[1] باعتبارها صاحبة القرار النهائي، مقابل السلطة الروحية المتمثلة في الطقوس والشعائر الدينية للأفراد، وهذا ما يدل على تداخل الاختصاصات بين الهيئتين (الجماعة وأيت الأربعين)، بل إن الجماعة لا تعدو كونها أيت أربعين عند بعض القبائل، والتي تتشكل من كل الرجال القادرين على حمل السلاح، أو من أعيان يمثلون كل فخذة من القبيلة، وهم الذين يختارون مجلس "أيت أربعين" وهو ما يسمى عند قبائل مجاورة كأيت بعمران وقبائل سوس بـ "إنفلاس".[2]

لكن يبقى السؤال المطروح الآن هو: إلى أي حد تمكنت هذه القبائل الصحراوية من إيجاد تلك التنظيمات الاجتماعية التي تنظم علاقاتها الداخلية ومع غيرها من القبائل المجاورة؟ ثم ما هي المقاييس التي تنتقي بها مسيريها من زعماء وشيوخ؟

١- الجماعة وأيت الأربعين

إن أهم مؤسسات القبيلة في تدبير شؤونها على المستوى الداخلي والخارجي على حد السواء هي "الجماعة"، فهي الجهاز التشريعي القضائي الساهر على تنفيذ بنود العرف القانونية وتنظيم شؤون القبيلة والبث في كل أمورها، وتستمد الجماعة شرعيتها من المجموعة التي فوضت لها سلطة تدبير شؤونها التي تتجاوز البعد القانوني العرفي إلى ما هو سياسي، باعتبارها سلطة تنظم شؤون القبيلة، ومؤسسة الجماعة ليست حديثة في التنظيم القبلي الذي وضعه ابن تومرت تحت اسم "أهل الجماعة" و"أهل الخمسين" الذين يملكون السلطة العليا في تدبير شؤون المجتمع، ونظن كما ذهب إلى ذلك ليفي بروفنسال (Levi Provençal) أن ابن تومرت اعتمد على التنظيم الذي كان سائدًا في المجتمع القبلي للأطلس الكبير في بداية حركته في التنظيم.[٣]

وتُعَدّ الجماعة أهم سلطة مرجعية تتوفر عليها القبيلة من خلال ما تقوم به من أدوار تحكيمية وتنفيذية، وتتكون هذه الجماعة من زعماء الفرق والأعراش بالإضافة إلى كبار السن المتوفرين على الحنكة والخبرة والتجربة اللازمة في هذا الميدان، لذلك نجد الأفراد المكونين لها ينعتون محليا بأبناء "الخيام الكبارات"، أي العائلات ذات النفوذ الاجتماعي المهيمن داخل القبيلة.[٤] وبالإضافة إلى مؤسسة الجماعة هناك هيئة عليا تسمى بـ "أيت الأربعين"، وهي كذلك مؤسسة تحكيمية داخلية تقوم بهذا الدور بين الأفراد وتسن مجموعة من القوانين التنظيمية العرفية، ويترأس هذا المجلس مقدم أيت الأربعين، إذ يقدم هذا الأخير كل سنة بيانًا عن تصرفاته، ويعين المجلس كل عام مقدمًا جديدًا، ومن بين مهام المجلس أنه يقوم بتنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد القبائل ويتحول إلى هيئة عسكرية للدفاع في فترة الحروب القبلية.

١/١- مجلس أيت الأربعين قبل الاستعمار:

تتمثل السلطة السياسية في المناطق الصحراوية في مجلس أيت الأربعين قبل التوغل الاستعماري في الصحراء، حيث ترددت أسماء مرادفة لهذه المؤسسة منها على وجه الذكر: إنفلاس، المقدمون، الشيوخ، النقباء، العمال، الرؤساء...، هذا التعدد الاسمي مرتبط أساسًا بالوسط الجغرافي وباختلاف اللهجات. كان أعضاء مؤسسة أيت الأربعين ينتخبون بطريقة شرعية وتقليدية، حيث تختار كل فخذة من يمثلها في هذا المجلس، لتلعب دور الوساطة بين أفرادها وبين الجماعة، ويخضع هذا الاختيار لمعايير ومقاييس ثابتة والتي يجب أن تتوفر في الشخص المترشح لهذا المنصب كالنسب والانتماء القبلي، وبعد تشكيل مجلس أيت الأربعين يتم اختيار المقدم من بين الأعضاء المنتخبين الذي بدوره يختار أفرادًا من الجماعة يساعدونه في تطبيق أعراف وأوامر الهيئة (أيت الأربعين).[٥]

٢- جماعة القبيلة: أيت الأربعين

إن مفهوم جماعة القبيلة هو من المفاهيم التي يمكن من خلالها فهم الكثير من الآليات المتحكمة في بنية القبيلة الداخلية أو على مستوى علاقاتها الخارجية، ومن خلال هذه الجماعة تمكن العديد من الدارسين من سبر أغوار النظام العرفي في المغرب عامة والجنوب المغربي خاصة.[٦] ويقودنا مفهوم الجماعة إلى الحديث عن "أيت أربعين"، فهذه الكلمة حسب صوفي كاراتيني "تعني في مدلولها الحرفي الأربعين والتي تنعت أحيانا بإد أربعين، وهو تعبير يفيد الوحدة، وهو مجلس أمني يتكون من خمسة عشر إلى ستين رجلاً حرًا".[٧] من هنا يتبين أن أيت أربعين داخل القبيلة هي محصورة على العناصر الأصلية داخل القبيلة دون الأتباع من عبيد وحراطين وغيرهم، وتعتبر كذلك أيت أربعين "هيئة متنقلة بين القبائل للفصل في مختلف القضايا، وترتكز أحكامها على تطبيق قوانين عرفية مكتوبة مؤسسة بذلك قواعد القانون العرفي داخل القبيلة" [٨].

وقد أوردت صوفي كاراتيني أن مؤسسة أيت أربعين لا وجود لها إلا في الجزء الشمالي من تراب البيضان، أي ما بين أدرار ووادي نون، في حين يبقى مفهوم "الركيزة" هو الوارد في النصف الجنوبي من تراب البيضان. ويعين أعضاء المجلس من طرف جماعة الأعيان التي تمثل فيها كل فخذات القبيلة وعشائرها، وهم أعضاء غير دائمين بحيث يستبدلون كل مرة، كما أوردت صوفي كاراتيني معلومات تفيد بأن "السن والثروة والخط الاجتماعي هي معايير لا تتحكم في اختيار أعضاء المجلس" [٩]. ويرأس المجلس عميد يسمى "المقدم" والذي يعين القائمين بتنفيذ القرارات المتخذة، ويصبح ناطقا باسم الجماعة في حالة الضرورة، ومن سمات ترابط العرف بالشرع في الجنوب المغربي فإن المقدم يكون معززا بقاضي وهو بمثابة كاتب ومستشار شرعي، ويتكلف القاضي بكتابة القرارات المتخذة في ثلاثة نسخ يحتفظ بواحدة منها ويعطي الثانية للمقدم، والثالثة يحتفظ بها المجلس، وتعالج هذه القرارات والأحكام شؤون القبيلة في مجال الزراعة والرعي وإصدار العقوبات الجنائية والجنحية في مسائل السرقات، والغصب والقتل وغيرهما [١٠].

كما أن مؤسسة أيت أربعين تراقب بصرامة توزيع نوبات الماء في المداشر، بل ويتجاوز ذلك إلى مجالات الترحال، "فعندما تتجمع إفركان يراقب مجلس أيت أربعين مجالات الرعي والآبار والمناطق الحيوية...، وكذا في فترة التساقطات عند امتلاء

الضايات بالماء، فتسهر جماعة أيت أربعين على كل ما من شأنه أن لا يعكر المياه ويلوثها...، وإذا كانت نسبة الماء غير متوفرة بكثرة فإن المجلس يتدخل لتوزيع الماء بين العائلات، إن مهمة أيت أربعين إضافة إلى تنظيم الشؤون الداخلية للكيان القبلي، تنظر وتبث في أمور الحرب مع القبائل الأخرى".[١١]

٣-الدور السياسي لأيت الأربعين على المستويين الداخلي والخارجي

١/٣- دور أيت أربعين على المستوى الداخلي:

إن السلطة السياسية عموما في المشيخات وتحت ظل الجماعة ظلت في حدود القبيلة، وحتى إن امتدت بواسطة العنف وليس التوافق، فهي تجسيد لغزو وسطوة مجموعة تنتهي بانتهاء أسباب وجودها، وعلى خلاف الأمير فسلطة الشيخ تبقى رهينة كثيرا بموازين القوى بين قسمات فخذات القبيلة، وغالبًا ما تكون السلطة شكلية وصورية [١٢]. فكما أسلفنا القول، يتكون المجلس من أربعين عضوًا أو أكثر حسب أفراد الخمس أو الخيمة وفق مجموعة من الشروط ككبر السن، والخطوة المالية بالنسبة للمقدم والتي تجعله قادرًا على الإحسان إلى الضيوف، مهما كان عددهم لأن المجلس لا يخصص اعتمادات مالية معينة لسد متطلبات مصاريف الضيافة، حيث يفترض توفر بيته على أثاث وأغطية وأواني فاخرة، وخاصة طبلة الشاي وكذلك الأمانة في أداء العمل والصدق في القول، لأن هذه المجتمعات تمقت الكذب إلى حد التجريم، كما يجب أن يكون المرشح ملما بالتاريخ والعرف القانوني وهي دروس عادة ما يتلقونها بشكل عفوي من جلسات الجماعة، كما يجب أن يكون عارفا بمكونات القبيلة، وغيرها من القبائل المجاورة للدفاع عنها، هذا إلى جانب ضرورة مساعدته للضعفاء والمنكوبين خاصةً إذا نهبت أموال أحد الأفراد أو حل به سوء.[١٣]

لقد كان المجلس يجمع كل السلطات بيده ويمارس أيضًا سلطة التحكيم في فض النزاعات خلال عيد المولد النبوي وخاصة في النزاعات المعقدة التي تقع على طول السنة، أما في القضايا ذات الصبغة الاستعجالية فتنفيذها لا يتجاوز الأسبوع الواحد، وهذا النوع من القضايا لا يعرف الاستئناف، وتتوزع الأحكام فيه بين عقوبات زجرية وغرامات مالية. كما يهتم المجلس بفض كل النزاعات القائمة بين السكان وتسطير العقوبات الزجرية، وغالبا ما يتم اللجوء إلى أحكام المجلس بين المتقاضين تجنبا لتدخل المخزن خصوصًا في النزاعات الداخلية. وتتسع صلاحيات المجلس في بعض المخالفات البسيطة مثل الضرب والجرح، حيث يلجأ هذا الأخير إلى طرق مختلفة مثل تطبيق غرامات وفرض تهيئ مآدب عشاء لأعضاء المجلس، أو مقاطعة دخول خيمة أو منزل المخالف، حتى يحس أنه خارج اهتمامات الجماعة، وهي عبارة عن ضغوط نفسية واستهجان شعبي لعمله، مما يضطره للرضوخ لمطالب الجماعة للصفح عن فعلته، وقد يصل الأمر حسب درجة خطورة المخالفة إلى حد إحراق خيمته أو منزله، وعلى مرأى من الجميع وطرده خارج حدود القبيلة [١٤].

كما يستعمل أعضاء المجلس طرقًا أخرى من الضغوط المعنوية كأداء اليمين أمام الجماعة على مصداقية ما يقوله، وتقام لهذا الأمر خيمة خاصة بأداء القسم وتطبيق العقوبات في جلسات علانية، وهو ما يعطي فعالية لأعمال مجلس أيت أربعين، حيث يتخلل هذه الجلسات إقامة مآدب شرب الشاي اليومية ومن أهمها شاي صلاة العصر الذي يحضره الكثير من الرجال، حيث يقدم الرعاة من المراعي ويصل الزوار إلى أماكن المبيت، وتعود القوافل التجارية بعد قطع عشرات الكيلومترات، وقوافل التزود بالماء ويتم التداول في أهم القضايا من قبل الأعضاء تارة ليلا وتارة أخرى في اليوم الموالي، فيختص المجلس ببعضها ويعين أعضاء لفض بعض النزاعات الأخرى البسيطة [١٥]. وتختلف صياغة القرارات باختلاف الأحوال المتحكمة فيها، إلا أنه من الشائع أن المقدم وبعد الانتهاء من جلسات المجلس يخرج ليصعد فوق مكان مرتفع وقريب فيصبح قائلاً (لا إله إلا الله محمد رسول الله) معلنًا عن انتقال الحلة (ركب الخيام) من مكان إلى آخر فيتقدم المجلس القافلة ويضع حدودًا لا يتجاوزها الرحل، كما يتم تغريم المخالفين لقراراته، وهنا يبرز مدى تحكم المجلس في القرارات وانصياع المقدم لشروطه وهي ضمانات تساعدهم على الاستمرارية.

أما على مستوى القاعدة الشعبية، فإن إحدى الروايات الشفوية [١٦] ذكرت أن رجلا قتل آخر من أبناء نفس القبيلة، فلما بدأوا الخوض في هذا الأمر من طرف المجلس تم الحكم عليه بالقتل قصاصا لروح الضحية استنادًا إلى قواعد الشريعة الإسلامية، فقدمت عائلته مرافعة مضادة ومعها العديد من الشهود رافضين هذا الحكم الصادر في حقه، معللين ذلك بأن المعني بالأمر يعيل ثلاثة عائلات، فإذا أصرت الجماعة على قتله فإنها ستتحمل مسؤولية نفقة العائلات الثلاثة، وعرضت القضية من جديد على القاضي الذي يعد في مثل هذه الأحوال رئيسًا للجلسات، فاتضحت صحة هذا الطرح وتبين أنه أكثر من ذلك من المقاتلين الأقوياء الذين أبلوا البلاء الحسن في العديد من المعارك، ومكلف بتدريب فرقة خاصة بضرب الأهداف المركزة "الشارة"، لذلك إذا قتل فإن كل هذه المصالح ستتضرر من هذا الحكم خصوصًا وأن القبيلة تدخل في صراع مرير مع قبائل أخرى، لذلك عدل القاضي عن حكمه لكن أصدر حكمًا لا يقل عنه قساوة، وأمر بترك الأمر إلى حين بلوغ أحد أبنائه سن الرشد فيقتل مكان أبيه أو يطرد خارج القبيلة.

وللمزيد من التوضيح ارتأينا تفكيك محتويات وثيقة الأعراف المتعلقة بنظام علاقات أيت أربعين وجعلها على شكل جدول لتبسيط فهم نصوصها كما يلي:[١٧]

نوع المخالفة	نوع العقوبة المطبقة
السرقة: غنم، إبل ، حنبل، قطيفة [١٨]	يؤدي السارق أربعة أضعاف الشيء المسروق
اغتصاب امرأة حرة	يؤدي ١٠٠ ﷼[١٩] صداقا لها فيتزوجها رغما عنه
دخول دار أو بيت أو خيمة على سبيل الخدعة.	يؤدي ٥٠ ريالا منها ٢٥ لرب البيت و٢٥ لأيت أربعين
رؤية خطر يهدد القبيلة وعدم الإبلاغ به	تفرض عليه الجماعة غرامة تحددها في جلساتها حسب درجة الخطورة التي أخفاها مع أداء غرامات كبيرة مقابل الشيء.
الاعتداء على زوايا [٢٠] أو مسلم	يؤدي المعتدي ما قدره ١٢ ريالا حسني
من ضرب أحدا بخنجر	تعركيبة [٢١] مع دية الجروح ومؤونة المجروح وأجرة طبيب
من ضرب أحدا برصاصة	يؤدي ١٠٠ ﷼ مع إعطاء نصف الدية
من ضرب بتغرميشة [٢٢]	عليه دية كاملة يحددها أعضاء المجلس
من تخاصم مع أحد داخل خيمة له كانت أو لغيره.	يؤدي ١٢ ريالاً حسنيا
من هجم على خيمة من أجل الإساءة إليها	يدفع ١٠٠ ﷼ النصف لرب الخيمة والنصف للجماعة
من أساء الكلام وسب وقذف أحدا ونكر ما قام به ولم يكن لديه شهود.	عليه أن يأتي ب١٠ حلافين [٢٣]
من لفق تهمة السرقة لأحد دون بينة في خيمة أو زريبة غنم أو بيدر.	عليه أن يأتي بـ ٢٥ حلاف داخل أجل ٣ أيام وإذا لم يأتي بهم يطرد خارج القبيلة.
إذا حملت المرأة حملا غير شرعي	تغرم عائلتها ب ١٠٠ ﷼ وتحرق خيمتها وتطرد من القبيلة
من ذبح عليه أحد من القبيلة	يظل الذابح تحت وصاية المذبوح عليه
من سرق خزانة التمر[٢٤] أو معرفة السارق الحقيقي وسكت عن	عليه برد جميع المسروقات

نوع المخالفة	نوع العقوبة المطبقة
الإبلاغ به.	
من كان ضيفا عند أحد فغارت الأعداء على المستضيف وسرق مواشي مستضيفه في جنح الظلام أو تلبسا.	عليه رد كل المسروق إلى أهله ودفع كل ما سرقه العدو في تلك الليلة، فإن نفى ولم يكن له شهود يأتي ب ١٠ حلافين.
من ضرب شخصا بحجر ودمغ رأسه	يدفع ١٠ ريالات وذبيحة، وهذا النوع لا زال ساري المعمول مع تغيير في المبلغ.
من سل سكينا أو خنجرا من حافظها محاولا الضرب بها.	عليه دفع ٥ ريالات غرامة المحاولة
من ضرب بسكين وجرح أحد	عليه ٥٠﷼ غرامة مع أجرة الطبيب وتموين الضحية [٢٥] حية، وإعطاء الدية كلما تدهورت حالة الضحية.
من وضع يده على سكين بنية إخراجها	يدفع ٥ مثاقيل [٢٦]
من ضرب بعصا ودمغ شخصا	يدفع ٩ ريالات غرامة وذبيحة [٢٧]
من ضرب شخصا بطرنيشة [٢٨] وأحدث رضوخا في وجهه وعينه.	عليه دفع ذبيحة للمعني غرامة على فعلته
من ضرب شخصًا وأحدث ضررًا في عينيه الاثنتين.	يدفع غرامة دية كاملة يحددها المجلس
من كسر ذراع فرد أو رجليه	فعليه نصف الدية
من أخذ لحية رجل ونتفها	يدفع غرامة ٥ ريالات وذبيحة
من قتل أحدًا من أبناء القبيلة	عليه غرامة ١٠٠ ﷼ مع حرق القاتل ويخضع تعركيبتين، واحدة لأهل الضحية والثانية للمجلس مع أداء سبعة جمال دية الضحية.
من ضرب شخصا وأدى ذلك الضرب إلى صمم في أذنه، ومن وجد كيسا مخزونا في الخلاء وفتحه وسرق منه وتلاه فرد آخر في الأمر سارقا	فالأول هو السارق الحقيقي والوحيد، وعليه رد كل الأشياء المسروقة وتعويض صاحب الشيء بغرامة يحددها المجلس.

نوع المخالفة	نوع العقوبة المطبقة
أيضًا منه شيء.	
من تأخر في أداء شرط إمام المسجد أو امتنع عن أدائه.	يدفع ٥ مثاقيل غرامة مالية، ويؤذي شرط المسجد عن القبيلة بكاملها طوال السنة أحب أم كره.
من هتك حرمة أحد	عليه ١٠ ريالات ويدفع للضحية المعتدى عليه كل ما طبق من غرامة قلت أو كثرت.
من أساء شيخ[٢٩] أو مسن	يدفع له غرامة ٧ ريالات
من ذبح عليه زوايا أو أحد من القبائل	فإن الشخص الذي ذبح لا غير قراره إذا وضح بسبب فسخ عقدة الذبيحة، فإن تم صلح بينهما تبقى العقدة سارية المفعول وبشكل إلزامي.
من دخل سارق وأعطاه المؤونة ودله على أماكن مواشي القبيلة.	فإن الشخص الممون هو الذي يدفع غرامة جميع المسروقات من أمتعة وحيوانات، مع أداء ٣٠ ﷼ إنصافا للقبيلة لكي لا يعود إلى تموين ودل سارق آخر على مكان ما.
من كسر سن فرد	يؤذي للضحية ٤٥ ﷼ لكل سن أو ضرس
من ضرب شخصا وكسر عظم رأسه	فعليه ٢٥ ريالا إنصافا ودية الرأس وأجرة الطبيب ومؤونة المجروح ما دام مريضا.
من ضرب وشق الجلد دون كسر العظام	يدفع ٠٩ ريالات مع ذبيحة غرامة على فعلته
كل راعي غنم أو بقر دخلت حيواناته فدانا أو أغراسا وأفسدت شيئا منها.	فإن الراعي يؤدي كل ما أفسدته تلك المواشي لمالكيه
إذا دخلت جنان أو أغراسا.	غرامتها أن يذبح رأس من أوسطها

نوع المخالفة	نوع العقوبة المطبقة
من دل العدو على شيء من أموال القبيلة	يؤذي الدال على ذلك ٥٠ ريالا إنصاف لها وتحرق خيمته ويؤذي للقبيلة كل ما أخذه العدو.

٣/٢- دور أيت أربعين على المستوى الخارجي:

أما على المستوى الخارجي، أي علاقة القبيلة مع القبائل الأخرى، فقد كانت أيت أربعين هي التي تنظمها اعتمادًا على العرف والشريعة الإسلامية وعلى اعتبار أن كل "فريك" يرافقه فقيه "طالب" وتستعين به "أيت أربعين" لفض بعض النزاعات، كونه حامل لكتاب الله بالإضافة إلى قضاة عارفين بأمور الشريعة الإسلامية، وهم في الغالب إما تلاميذ لأهل الشيخ ماء العينين أو من قبيلة كنتة [٣٠]. ولتنظيم العلاقات بين القبيلة والقبائل الأخرى خصوصًا فيما يتعلق بالدية، عقدت أيت أربعين مجموعة من الاتفاقيات مع القبائل المعنية، حيث توصلت إلى تحديد حجم ونوع الدية، فمع قبيلة "مريبط" ٥٠ ﷼ حسني، ومع "أيت بلا" ٥٠ ناقة ويطرد من القبيلة، أما بالنسبة لقبيلة "يكوت" و"أولاد دليم" و"أيت لحسن" و"إزركيين" فليس هناك قواعد عرفية تنظم علاقاتهم بأيتوسا لأن علاقاتهم في الغالب تطبعها العداوة والقتال.[٣١]

وهناك صيغة أخرى لتوطيد العلاقات بين القبائل تسمى "الرفد"، حيث تستضيف القبيلة أفرادًا من قبيلة أخرى وتكون مجبرة على تحمل تبعات هذه الاستضافة خصوصًا إذا سرق أحدهم أو تسبب في إحداث أي مشكل، فإن العرش المستضيف هو الذي يدفع ثمن كل الخسائر بشرط أن تلتزم الفرقة من القبيلة الأخرى ـ أي الضيفة ـ بالوفاء بنفس الشروط في حالة استضافة أفراد من القبيلة الأخرى، مما يقوي بالتالي التلاحم بين القبيلتين[٣٢]. كما توجد صيغ أخرى لتعزيز التلاحم بين القبائل كأن تذبح قبيلة على أخرى لطلب الحماية، وهو ما يعرف بالحلف بالدم، بالإضافة إلى كون الرضاعة تلعب دورًا حاسمًا ومهمًا في مجال عقد التحالفات بين القبائل، هذه الصيغ تكون ما يمكن تسميته "بالأخوة المصطنعة" والتي تكاد أن يكون لها نفس ما للأخوة الحقيقية من حقوق وواجبات[٣٣]. وعلى مستوى الصراع بين القبائل حول الأرض تحدد "أيت أربعين" لكل قبيلة قاضيا يكون موضع ثقة لدى القبيلتين، حيث يتولى البث في هذه النزاعات اعتمادا على البنيات القديمة، وفي الغالب يتم الاتفاق أو بالأحرى العمل بالحكم الذي يصدره القاضي[٣٤].

وإذا كانت أيت أربعين هي المسؤولة عن توقيع المخالفات فهي أيضا المسؤولة عن إعلان الحرب على بعض القبائل، إلا أن

خيار الحرب لا يلجأ إليه إلا بعد استنزاف كل المحاولات السلمية، لأن الشر في حد ذاته مرفوض، فالقبيلة لا تلجأ للشر إلا في الحالات التي يصبح فيها مصيرها مهددًا، فالشر في مظهره سواء كان دافعه الحاجة أو بسط النفوذ يبدوا سببًا مباشرًا في تزايد الرأسمال المادي للقبيلة[٣٥]، إلا أنه في الحقيقة تدمير للآليات الاقتصادية، هذا التدمير الذي يترتب عنه اختفاء أو بالأحرى تلاشي الدور الذي يلعبه العامل الاقتصادي في تدعيم مكانة الفرد داخل الجماعة، في مقابل تزايد سلطة الرأسمال الرمزي[٣٦]، هذا ما يدفع أفراد القبيلة عن وعي أو غير وعي إلى إنفاق العديد من الأموال والمبالغة في إكرام الضيوف.

خَاتِمَةُ

خلاصة القول؛ إن مختلف التنظيمات التي أشرنا إليها سابقًا والمتحكمة في التسيير الخارجي والداخلي للقبيلة بوادي نون تفاعلت فيما بينها لتشكل كيانا سياسيا تنظيميا على شكل كونفدرالي، ويتجلى ذلك من خلال بقايا تلك المؤسسات في البنيات الاجتماعية التقليدية لقبائل وادي نون، إذ احتفظت ببعض الوظائف في إطار المصلحة القبلية، لكن المؤسسات الإدارية المخزنية كان لها أثر كبير على هذه التنظيمات الاجتماعية خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين، ومع ذلك فإننا نجد الإنسان التقليدي لا يعطي اهتمامًا كبيرًا للمؤسسات المخزنية فيما يخص بعض المسائل التي تخص حياته اليومية، حيث يفضل المؤسسات العتيقة التي ذكرناها ومنها بالخصوص مجلس الجماعة للبث في القضايا الاجتماعية والاقتصادية.

ويمكن القول عمومًا على أن بلاد تكنة عامة ووادي نون خاصةً قد عرفت تكتلات سياسية قبيلة على شكل اتحادية تتحرك ككتلة واحدة عند تشكيلها، لكن سرعان ما انحلت بنية هذه الاتحادية وأخذت روابطها في التلاشي لتنقسم إلى لفين يضم كل واحد منهما قبائل عربية وبربرية، وهما لف أيت الجمل وأيت عثمان، حيث كان الصراع بينهما مستمرًا خصوصًا في مجال وادي نون من أجل السيطرة السياسية والاقتصادية، هذه الأخيرة تعتبر قاعدة مادية ينبني عليها أي كيان أو مجتمع.

ونظرًا للتحولات التاريخية التي عرفتها المنطقة أصبح وادي نون منطقة إشعاع اقتصادي تمثل في القوافل التجارية المارة عبره، مما شجع على ظهور فئات اجتماعية اشتغلت بدورها في هذه المجال، وهذا التطور الاقتصادي والسياسي لابد له من تنظيم يضبط تصرفات الأفراد والجماعات، حتى تكتمل الشروط الضرورية لاستمرارية وتقدم أي تجمع بشري على مجال جغرافي معين، هذا المجال شكل بالنسبة للإنسان الوادنوني جزءًا لا يتجزأ من كيانه، بل إنه يعتبر أن وجوده مرتبط بتوفره على مجال لائق داخل الصحراء ذات الطبيعة القاسية.

الهَوامِشُ:

[١] بوبريك (رحال)، "**دراسات صحراوية: السلطة والمجتمع والدين**"، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص. ٦٦.

[٢] نفسه، ص. ٦٧.

[٣] بوبريك (رحال)، "**زمن القبيلة: السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي**"، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص. ١٩.

[٤] بوطالب (محمد نجيب)، "**سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**"، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، الطبعة الأولى، يونيو ٢٠٠٢، ص. ٦٢.

[٥] ارنست (كيلنر)، "**السلطة السياسية والوظيفة الدينية بالبوادي المغربية**"، ضمن الأنثروبولوجيا والتاريخ، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد الفلق، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص. ١٢٣.

[٦] بورقية (رحمة)، "**الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل**"، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩١، ص. ٧٥.

[7] Caratini (Sophie), « Les Rgaybats 1610 . 1934 », Tome 2, Paris, 1989, P. 162.

[٨] أفا (عمر)، "**مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن ١٩: سوس ١٨٢٢ . ١٩٠٦**"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص١٠١.

[9] Caratini (Sophie), Op. cit, p. 164.

[١٠] أفا (عمر)، المرجع السابق، ص. ١٠٢.

[11] Caratini (Sophie), Op. cit, p. 165.

[١٢] بوبريك (رحال)، **دراسات صحراوية: السلطة والمجتمع والدين**، المرجع السابق، ص١٣٢.

[١٣] المحمدي (علي)، "**السلطة والمجتمع في المغرب: نموذج أيت بعمران**"، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص. ٤٥.

[١٤] بوبريك (رحال)، م. س، ص. ١٣٤.

[15] Kenneth (Brown), « Tribu et état au Maroc du XXème siècle quelques réflections », La Pensée N° 325, Janvier - Mars 2000, p. 30 - 41.

[١٦] بلا (عياد)، "**مفهوم السلطة في المجتمع الصحراوي: نموذج قبيلة أيتوسا**"، بحث لنيل الإجازة في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، ٢٠٠٤ . ٢٠٠٥، ص. ٤١.

[١٧] بلا (عياد)، المرجع السابق، ص. ٤٢.

[١٨] **القطيفة**: فراش يصنع من الصوف مثل الزربية، تقل زخاريفه عنها بقليل وتقدم للضيوف كفراش مفضل.

[١٩] **الريال**: عملة كانت متداولة قديمًا.

[٢٠] **الزوايا**: أشخاص مسالمون يهتمون بالشريعة الإسلامية ولا يبالون بالأمور السياسية.

[٢١] **التعركيبة**: جمل أو عدة جمال تقدم للمعتدى عليه أو الشخص المراد رد الاعتبار إليه لتنظيف الأجواء بين الأطراف المختلفة.

[٢٢] **التغرميشة**: هي عملية سريعة يقوم بها المحارب لشحن السلاح بالرصاص ووضعه في مخبأ الاستعداد بالسلاح، ثم وضع الأصبع على الزناد رغبة في إطلاق النار.

[٢٣] **الحلافين**: جماعة من الناس يؤدون القسم شاهدين على صحة ما يقوله الشخص الذي أتى بهم.

[٢٤] **خزانة التمور**: أو ما يطلق عليه المتمورة وهي حفرة كبيرة تخزن فيها المحاصيل الزراعية عدة سنين وتتساوى مع الأرض حتى لا تنكشف للأعداء، لكن أهل القبيلة يعرفون علاماتها يرمون بالحجارة.

[٢٥] **الدية**: دعيرة مالية تقدمها عائلة القاتل لعائلة الضحية تعويضا عن قتله ودَرْءًا لخطر الانتقام المضاد.

[٢٦] **مثاقيل**: جمع مثقال وهو عملة كانت متداولة.

[٢٧] **الذبيحة**: هي رأس من الغنم أو الماعز تقدم قربانا للذي حياته بالضرب.

[٢٨] **الطرنيشة**: هي قطعة من الحجر حادة كان يستعملها الرعاة في ذبح الضب والسنجاب والأرنب في حالة عدم وجود السكين.

[٢٩] الشيخ قد تعني المسن وتعني منصب الشيخ السياسي، لأنه من المتعارف عليه أن يحظى الكبار بالوقار والاحترام من لدن الصغار.

[٣٠] حمدان (المحفوظ)، **"الزعامة في المجتمع الصحراوي: نموذج قبيلة أيتوسا"**، بحث لنيل الإجازة في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط، ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣، ص. ٧٦.

[٣١] التامك (عبد الرحمان)، **"السلطة في القبائل الصحراوية: نموذج أيتوسا"**، بحث لنيل الإجازة في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط، ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥، ص. ٧٣.

[٣٢] باري (صالح)، بوعيون (محمد)، **"كيف تحل "اجماعة" مشاكلها الداخلية والخارجية في المجتمع الصحراوي: نموذج قبيلة أيتوسا"**، بحث لنيل الإجازة في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤، ص.٢٢.

[٣٣] المودن (عبد الحي)، **"قراءة في كتاب العرض والبركة لريمون جاموس"**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكدال، العدد ٩، الرباط، ١٩٨٢، ص.٣٢.

[34]Pierre (Bonte), « Tribus et pouvoirs dans le monde arabe et ses périphéries », La Pensée 325 , Janvier - Mars 2001, p.49 - 63.

[٣٥] التامك (عبد الرحمان)، المرجع السابق، ص. ٨١.

[٣٦] الهراس (المختار)، **"القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال إفريقيا"**، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٢٠٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط
رحلة العبدري نموذجًا

د. نور الدين امعيط
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
كاتب وباحث في التاريخ الإسلامي الوسيط
بني ملال– المملكة المغربية

مُلَخّصْ
عرفت العلاقات المغربية المشرقية امتدادًا روحيًا وتواصلاً ثقافيًا منذ فترات مبكرة من العصر الوسيط، حيث شكلت الرحلة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج هاجسًا لدى معظم المغاربة خاصتهم وعامتهم، وهي رحلات كانت تتم بشكل جماعي عرفت في المصادر التاريخية باسم "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج" أو بمصطلح "الركب" دون إضافة. وقد دأب بعض العلماء المغاربة خلال العصر الوسيط، على تدوين رحلاتهم في أسلوب أدبي رزين وضمنوها ما عاينوه وسمعوا به من أحداث ووقائع، في طريقهم إلى بلاد الحجاز، فقدموا بذلك صورة متكاملة عن ركب الحاج المغربي إلى الديار المقدسة. ومن الرحلات المغربية التي دونت خلال الحقبة الوسيطية، رحلة العبدري والتي يتناولها المقال لعرض صورة للركب المغربي إلى بلاد الحجاز خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، وذلك بتوضيح طريق الذهاب والعودة، وإبراز مختلف العوائق التي كانت تقف في وجه ركب الحجاج المغاربة، مع توضيح موقف كل من الحكام والعامة والفقهاء من هذه العوائق ومن ركب الحاج المغربي عامة.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٢٦ مارس ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ يوليـو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
تاريخ الرحلات، بلاد الحجاز، الحواضر الإسلامية، العلماء المغاربة، رحلة العبدري

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041881

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
نور الدين امعيط. "الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط: رحلة العبدري نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١٢٦ – ١٣٢.

مُقَدِّمَةُ
لقد عرفت العلاقات المغربية المشرقية امتدادًا روحيًا وتواصلاً ثقافيًا منذ فترات مبكرة من العصر الوسيط، حيث شكلت الرحلة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج هاجسا لدى معظم المغاربة، خاصتهم وعامتهم، وهي رحلات كانت تتم بشكل جماعي، عرفت في المصادر التاريخية بمصطلح "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج" أو بمصطلح "الركب" دون إضافة.[(١)] وقد دأب بعض العلماء المغاربة خلال فترات مختلفة من تاريخ المغرب على تدوين رحلاتهم في أسلوب أدبي رزين، وضمنوها ما عاينوه، وسمعوا به من أحداث وأخبار ووقائع في طريقهم إلى بلاد الحجاز، فقدموا بذلك صورة متكاملة عن ركب الحاج المغربي إلى الديار المقدسة. ومن الرحلات المغربية التي دونت خلال الحقبة الوسيطية نذكر على سبيل المثال لا الحصر: رحلة ابن رشيد السبتي (ت.٧٢١هـ)،[(٢)] ورحلة ابن بطوطة الطنجي (كان حيًا سنة ٧٧٠هـ)،[(٣)] ورحلة ابن قنفد القسطنطيني (ت.٨٠٩هـ)،[(٤)] ورحلة ابن خلدون الحضرمي (ت.٨٠٨هـ)،[(٥)] ثم رحلة العبدري[(٦)] موضوع هذا العرض الذي سنقدم من خلاله صورة لركب الحاج المغربي خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، وذلك بوصف طريق الذهاب والعودة، وإبراز مختلف العوائق التي كانت تقف في وجه ركب الحجاج المغاربة مع توضيح موقف كل من الحكام والعامة والفقهاء من هذه العوائق ومن ركب الحاج المغربي عامة. وقبل هذا وذاك يبدو من المفيد تقديم نبذة موجزة للتعريف بالعبدري وثقافته.

أولاً: التعريف بصاحب الرحلة وثقافته

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن مسعود العبدري ينتسب إلى بلاد حاحا، القبيلة البربرية المصمودية الشهيرة، الواقعة بين المحيط وسفوح الأطلس الكبير الغربي قرب مدينة الصويرة الحالية، لذلك عرف الرحالة العبدري بالحاحي، كما عرف بالمراكشي[٧] لقرب قبيلته منها، ولكونه تولى القضاء بها، وعرف أيضا بابن المعلم[٨]، لأن والده كان معلمًا. وتجدر الإشارة إلى؛ أن العبدري الحاحي هو من كبار علماء المغرب الأقصى خلال القرن السابع الهجري، على الرغم من أن كتب التراجم لم توليه العناية اللازمة للتعريف به، فباستثناء ما ورد لدى صاحب جذوة الاقتباس[٩] الذي ترجم له اعتمادا على الرحلة نفسها، وما يستفاد منها، لا نكاد نعثر لهذا الرحالة المغربي على ترجمة وافية.

وعلى الرغم من تضارب الآراء والافتراضات حول تاريخ ولادته ووفاته، فإن الثابت أن الرحالة العبدري كان معاصرًا لابن عبد الملك المراكشي[١٠]، فبعد أن تتلمذ على يد والده، انتقل للدراسة بحضرة مراكش، ودرس على يد علمائها كمحمد بن علي بن يحيي الشريف شيخه وشيخ صاحبه ابن عبد الملك المراكشي. ولعل المتصفح لرحلة العبدري، يستشف ثقافته الواسعة، ويلمس اطلاعه على الكثير من علوم عصره، وإلمامه بالفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا وعلم العروض... على أن أجمل ما ميز رحالتنا ولعه باقتناء الكتب، فعندما عرض عليه شيخه أبو العباس أحمد الغماز بتونس كتاب جامع البخاري على سبيل الإعارة بدل شرائه، أجابه العبدري "أريد أن أقرأ هذا الكتاب في أصل يكون لي أرجع إليه".[١١] وقد نال ثقة وتقدير شيوخه، فمنهم من خول له مهمة مراجعة بعض قصائده كالشيخ زين الدين ابن المنير بالإسكندرية، ومنهم من كان يقدمه إمامًا للصلاة كالشيخ أبي القاسم بن حمادي بن أبي بكر الحضرمي بتونس.[١٢]

ثانيًا: صورة ركب الحاج المغربي من خلال رحلة العبدري

١/٢- وصف طريق الذهاب والعودة:

خرج العبدري من بلاده حاحا في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، قاصدًا الديار المقدسة بالحجاز، فقطع الجنوب المغربي من الغرب إلى الشرق في ثلاثين مرحلة، مرورًا بمنطقة سوس ما بين الأطلس الكبير والصغير، حتى إذا وصل إلى الشرق أخذ طريق القوافل إلى تلمسان. وقد شكلت مدينة تلمسان إحدى أهم محطات ركب الحاج المغربي، حيث اجتمع فيها الحجاج القاصدين لبيت الله الحرام حتى اقترب عددهم من الألف[١٣] بحسب تقدير رحالتنا الذي استأنف تقييد رحلته منها[١٤].

وبعد المقام الطويل في تلمسان، خرج الركب في الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ في اتجاه بلدة مليانة على وادي شلف، ومنها إلى الجزائر فباجة، ثم تونس وهي المحطة الرئيسية الثانية حيث وصفها العبدري بأنها "محط الرحال من الغرب والشرق وملتقى الركاب"[١٥]. وبعدما طاب المقام للعبدري بمدينة تونس، خرج الركب إلى القيروان ليصل إلى قابس، ثم إلى طرابلس متأسفا على الحالة العلمية المتدنية بهذه المدن. وما إن وصل الركب إلى أرض برقة، حتى كابد متاعب شتى، فقد وصف العبدري الطريق الموصلة لها بـ "أم البراري والقفار"[١٦]، كما سماها "ببرية زديك البرية الردية معدن كل أدية"[١٧]، في إشارة دالة وصريحة للعوائق الأمنية بهذا الطريق. ومن أرض برقة، مرورًا بالعقبة الكبيرة والصغيرة، وصل الركب إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة التي أمضى بها رحالتنا عيد الفطر، فأخذه الشوق إلى أبنائه ووطنه، وألمت به الغربة والوحشة، فعبر عن ذلك شعرًا ضمن رحلته.[١٨]

سار الركب في اتجاه مكة، وفيها انشرحت نفس الحجاج المغاربة، ومنهم العبدري الذي طاب له المقام، وعزم المجاورة والإقامة بها، حيث يقول: "اكتريت الدار وصرفت بعض من كان معي ليرجعوا إلى المغرب... وبقيت مع الركب ننتظر خروج السكان من المنزل الذي اكتريته... حتى قضى الله بفتنة وقعت بين الركب وبين صاحب مكة".[١٩] واصل الركب المسير في اتجاه المدينة المنورة التي وصل إليها رحالتنا رفقة الركب يوم الأربعاء ثلاثين من ذي الحجة، من سنة ثمان وثمانين وستمائة للهجرة. وبخصوص طريق العودة، فقد كان الرجوع من الطريق الأول، إلا أن هناك من الحجاج من كان يقصد بلاد الشام في اتجاه الخليل وبيت المقدس، وهناك من يصوب الوجهة راجعا إلى وطنه، وهذا حال معظم الحجاج المغاربة الذين كان العبدري برفقتهم، حيث توجهوا إلى مصر عائدين إلى المغرب، فكانت طريق الذهاب هي نفسها طريق العودة، إلى أن وصل الركب إلى تلمسان ليتجه شمالا نحو فاس فمكناسة ثم أزمور غربا وصولا إلى بلاد حاحا.

ومن خلال رصد أهم المحطات التي مر عليها ركب الحاج المرافق للعبدري يمكن إبراز الملاحظات التالية:

- أن الطرق التي كان يسلكها ركب الحاج المغربي نحو المشرق، وإن اختلفت مراحلها ومنازلها، فهي تلتقي جميعها في تلمسان، فمن بلاد حاحا اتخذ الركب طريق القبلة في اتجاه الشرق، كما أن طريق الحج، كانت هي نفسها طريق القوافل التجارية.
- أن بعض المحطات الرئيسة، قد شكلت مجمعًا يلتقي فيه الحجاج كـ تلمسان وتونس والإسكندرية والقاهرة، ومن ثمة كان الحج فرصة للقاء، ومناسبة للتواصل وتلاقح المعارف والأفكار، وتبادل العلوم أخذًا وعطاء بين العلماء المغاربة وإخوانهم المشارقة.
- أن المسير من القاهرة إلى مكة، كان غالبا ما يتم ليلاً لتفادي شدة الحر ولهيب العطش، وهذا حال الركب المصري ومعه المغربي، فقد "كانوا يرحلون في نصف الليل أو قبله بيسير، وربما رحلوا في الثلث الأخير من الليل، والمشاعل ترد الليل نهارًا، فيسيرون حتى تصبح، ويصلون ثم يستديمون السير

حتى ترتفع الشمس فينزلون إلى الظهر، ويصلون، ثم يرحلون، ثم ينزلون آخر النهار عند الغروب إلى نصف الليل هكذا إلى مكة وإلى مصر".[٢٠] ولا غرو، فقد كان المسير ليلاً يخفف على الحجاج كثيرًا من العناء والمشقة فلو "كان سيرهم بالنهار لتعطل عليهم أكثره".[٢١]

- أن مبيت الحجاج، كان يتم بالفنادق أو المدارس والزوايا أو الخوانق[٢٢]، وإن كان العبدري لم يشر إلى ظروف مبيت الحجاج إلا بشكل محتشم، فإن رحالة آخرون زاروا بلاد الحجاز قبل العبدري وبعده، وعلى رأسهم ابن جبير الذي ذكر أن الركب لما وصل إلى الإسكندرية، كان نزوله "بفندق يعرف بفندق الصفار بمقربة من الصبانة"[٢٣]، وعند وصول الركب إلى قوص ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين (...) ومن يتصل بهم، نزل الركب بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية"[٢٤]، كما ذكر أن بمدينة جدة العديد "من الفنادق بنيت بالحجارة والطين"[٢٥].على أن مبيت الركب كان يتم أحيانا في الصحراء، مفترشا الأرض وملتحفا السماء، فقد ذكر ابن جبير "أنا كنا نسير في الصحراء نبيت منها حيث جن علينا الليل".[٢٦]
- وعند الوصول إلى الكعبة، كانت أهم ميزات الركب، كثرة الازدحام وتأهب الناس للقتال، فقد شاهد العبدري قتال الحجاج على الركن الأسود، ومشاداتهم على دخول الكعبة، حيث رأى "الرجال يتساقطون على النساء، والنساء يتساقطن على الرجال، ويلتف البعض بالبعض ويتأهبون للقتال، ويستعدون للدفاع والملاكمة"[٢٧]، على أن الازدحام كان يشتد أكثر بين الحجاج بباب الكعبة، فلا سبيل لدخولهم البيت، ما لم يتوسلوا لأشخاص مختصين في ذلك يساعدونهم على الدخول مقابل بعض الدراهم أو الدنانير.[٢٨] وبالمثل، فقد نقل لنا العبدري صورة للحجاج، وهم بالقرب من بئر زمزم، فرآهم في ازدحام، يتقاتلون على الماء، يأخذ أحدهم الدلو فيصبه على نفسه وثيابه حتى لوثوا الموضع[٢٩].

ولعل من أروع الصور التي نقلها لنا العبدري، ذلك المشهد الرباني المؤثر عند وصول الركب إلى مكة، فبمجرد ما لاحت له معالم هذه المدينة، تحركت سرية رحالتنا، وجادت قريحته شعرا في مدح الرسول الأعظم وأرض مكة التي ذكر "أنها فخر بقاع الأرض على مر السنين"[٣٠]. وقد تقاسم العبدري هذا الشعور والتأثر بلحظة الوصول إلى مكة المباركة، مع الرحالة ابن جبير[٣١] قبله في أواخر القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) الذي ذكر أن في "معاينة البيت الحرام هول يشعر النفوس من الذهول، ويطيش الأفئدة والعقول، فلا تبصر إلا لحظات خاشعة وعبرات هامعة، ومدامع باكية، وألسنة إلى الله عز وجل ضارعة داعية". أما المقري[٣٢] الذي زار بلاد الحجاز أواخر العصر الوسيط، فقد امتزج لديه الفرح بالبكاء إثر وصوله إلى مكة، إذ يقول: "لما وقع بصري على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود، وسبق الدمع الذي لا يعارض الفرح ولا ينافيه".

وبعد هذه الصورة عن ركب الحاج المغربي المرافق للعبدري، **فأين تكمن العوائق التي كانت تعترض سبيله في اتجاه بلاد الحجاز؟**

ثالثًا: عوائق ركب الحاج المغربي

١/٣- العوائق الطبيعية:

سبقت الإشارة إلى؛ أن ركب الحاج، كان يفضل أن يسري ليلاً تفاديًا لشدة الحر، مما يوحي بمجموعة من العوائق والأخطار الطبيعية التي أحدقت به، ومن أبرزها شدة الحر وهبوب الزوابع الرملية، وعدم وضوح معالم الطريق وندرة الماء أو فساد طعمه أحيانًا أو تبخره من القرب أحيانًا أخرى، بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وهبوب الرياح الجافة المعروفة في المصادر "برياح السموم"،[٣٣] فضلاً عن خطر الحشرات والزواحف من العقارب والأفاعي،[٣٤] وغيرها مما كان يتهدد حياة الحجاج والتجار على حد سواء.

(١/٣) ١- ندرة الماء والأمطار العاصفية:

ظلت مسألة الماء والبحث عن منابعه الطيبة والعذبة مسألة حياة أو موت في طريق ركب الحاج المغربي إلى بلاد الحجاز، ولا تعوزنا القرائن الدالة على مدى اهتمام العبدري، ومعه رحالة مغاربة آخرون، بمحطات وجود الماء العذب، ووصف تلك التي وجد ماءها "ملحا أجاجا" أو "وشل زعاق"، فكانت الرحلة بذلك تبدو وكأنها رحلة عطش بحثًا عن منابع المياه العذبة للارتواء وإطفاء لهيب الحر. وقد امتدت مشكلة ندرة الماء على طول الطريق الفاصلة بين المغرب وأرض الحجاز، بل شملت أرض الحجاز نفسها، "فمن البركة إلى مكة توجد بير واحدة، والناس يتقاتلون على مائها حتى لقد قتل بينهم مرة بما ذكر نحو مائتين".[٣٥]

والواضح أن الحاجة كانت تزداد إلى الماء إذ كان الطريق مضني المسير والمسافة التي بين المحطة والتي تليها طويلة، وهو ما عانى منه ركب العبدري بعقبة آيلة فذكر أنها "عقبة شاقة طويلة مسافتها نحو من خمسة أميال تضر بالناس وتقتل الجمال وخصوصًا في الرجوع، وهي في الذهاب حدور".[٣٦] وفي مقابل ندرة الماء وشدة العطش، شكلت الأمطار العاصفية وتهاطل الثلوج أحيانًا بشكل غزير خطرًا محدقًا بالحجاج، وهو ما حصل للركب المغربي في طريقه إلى بلاد الشام لزيارة بيت المقدس، حيث وقع عليهم الثلج، وهم بالقرب من عمان، فأفنى منهم خلقًا كثيرًا، حتى قدر عدد الضحايا بألف وتسعمائة حاج.[٣٧]

(١/٣) ٢- عدم وضوح معالم الطريق:

وقد يحصل زيغ الركب عن الطريق فيصبح لمخزون الماء دور مصيري من أجل حياة الحجاج واستمرار صمودهم بحثًا عن الوجهة الصحيحة في فيافي الصحراء، ولا غرو فقد ذكر العبدري أن بعض الطرق المؤدية إلى بلاد الحجاز "كانت مضلة، يتيه فيها

المسافر دون أن يدري الوجهة الصحيحة، حتى وإن كان الدليل يتقدم الركب أو القافلة، فمن بدر إلى البزواء طريق غير واضح، عده العبدري مجهلاً من المجاهل التي قد يضل فيها حتى الدليل العارف بخبايا ومسالك الصحراء،[٣٨] في حين وصف الطريق الفاصل بين القاهرة ومكة بكونه متاهة من المتاهات "فإذا غاب أحد عن رفيقه لم يجده عن أيام"، وكثير من الحجاج، ضلوا الطريق وظلوا يكابدون مشقة وعناء كبيرين.[٣٩] وقد أورد صاحب التشوف[٤٠] مثالاً حيًا بروايته لمعاناة بعض الحجاج المغاربة الذين ضلوا الطريق وتخلفوا عن الركب، ويتعلق الأمر بالولي الصالح أبا علي مالك الهزميري[٤١] الذي قال: "توجهت من المغرب إلى مكة وكنت أواصل يومين وليلتين، فضللت بصحراء عيذاب عن الركب، فأقمت طاويا يومين وليلتين وأنا مع ذلك أسير سيرًا ضعيفًا من الجوع، فاشتد ضعفي في اليوم الثالث، فأقمت كذلك يومين وليلتين، فسقطت قواي وبقيت في الصحراء طريحًا لا أبصر شيئًا من شدة الجوع(...)".

٢/٣- العوائق الاقتصادية:

وتتمثل فيما كان يلقاه الحاج من الإهانة من قبل القائمين على جباية الضرائب، خاصةً من أهل الإسكندرية، وقد استغرب العبدري لطريقة تعاملهم مع الحجاج "فهم يعترضونهم ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج (...) يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال"[٤٢]. وقد عانى الركب المرافق لابن جبير في القرن السادس الهجري من نفس الإهانة التي تعرض لها رحالتنا من قبل جباة الضرائب الذين مارسوا شططا ضريبيا وطالبوا بالخفارة[٤٣] من أجل المرور في كل من تلمسان والإسكندرية، وتعدى ذلك ليشمل بعض المناطق الحجازية أيضا حيث كان أهلها "يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في أهل الذمة، فقد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها وينتهبونهم انتهابا، فالحاج لا يزال معهم في غرامة ومؤنة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه".[٤٤]

٣/٣- العوائق الأمنية في البر والبحر:

(٣/٣) ١- مسألة الأمن في البر:

وقد ظلت من الأمور التي تؤرق المغاربة القاصدين لأداء فريضة الحج، ولا غرو فقد عانت ركاب الحجيج من كثرة اللصوص الذين كانوا يترصدون مرور الركب، ويترقبون وصوله، وقد وصفهم العبدري في الطريق الفاصلة بين مصر والحجاز بأنهم "قوم من العرب صعاليك، قل ما يظهرون للركب لخبث أفعالهم، إنما يتطرقون [له]، ويطالعونه من كل مرتب، فإذا رأوا متخلفا عنه لغفلة، أو نوم، أو انقطاع عجز، انقضوا عليه فمزقوا أشلاءه، ولو لم يجدوا عليه إلا خرقة واحدة لم يتركوها له"[٤٥]. وهكذا، فقد عانى الركب من اعتداءات العرب الذين احترفوا الحرابة والنهب وقطع الطرقات، وقد ذكر العبدري العديد من الطرق التي لم تكن تخلو من القطاع البتة، واصفًا هؤلاء بأنهم "أشد خلق الله ضررًا، وأكثرهم جرأة، وأوضعهم نفوسًا، وأكثرهم إقدامًا على كل صالح وطالح".[٤٦] ومن الطرائف التي يرويها لنا العبدري، تلك المتعلقة بأحد قطاع الطرق، وقصته أنه لما مرض مرضه الذي مات منه، وسمع ببعض الحجاج على الطريق، نادى بنيه وقد اعتقدوا أنه تاب، فاستأذنوه في إخلاء سبيلهم، فأشار إليهم باعتراضه، فما زالوا يراودونه حتى أضجر فأشار إلى فيه أي سفوهم سفا، فسمي بالسفاف.[٤٧]

(٣/٣) ٢- مسألة الأمن في البحر:

وتمثلت في الحروب والهجمات الصليبية التي كان يشنها المسيحيون عبر البحر على مختلف المدن الإسلامية الساحلية، ويُعَدّ العبدري شاهد عيان عما كان يلاقيه الحجاج من هجمات صليبية، فقد ذكر أنه "أنا صادفنا وقت المرور (بمدينة بونة) زورقا للنصارى تبلغ عمارته عشرين شخصا، وقد حاصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج، وأسروا من البر أشخاصًا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد".[٤٨] وهكذا، فقد عانت العديد من المدن من ضربات الصليبيين زمن رحلة العبدري، فاكتنفها القفر، واستولى عليها نصارى البحر"[٤٩]، وهذا حال مدينة طرابلس وجزيرة جربة.

وصفوة القول؛ أن ركب الحاج المغربي، قد ظل يعاني عوائق طبيعية واقتصادية وأمنية كبرى، تمثلت الأولى في عدوانية الطبيعة، وتمثلت الثانية في قساوة وجور الجباة، في حين تجلت العوائق الأمنية في قطاع الطرق والعربان الذين مارسوا الحرابة والنهب، على أن العائق الأخير ظل يؤرق أفراد الركب كثيرًا، مما جعل الحرص على خروج قوافل الركب بشكل جماعي أمرا ضروريا، لأن الظروف الأمنية لم تكن تسمح بالحج بشكل فردي، أو في نفر قليل وجماعات صغرى، لذلك ظلت القوافل تنتظم وتتكاثر وتتسق فيما بينها إلى أن أصبحت تجسد كيانا واحدا ترعاه الدولة كركب رسمي، توفر له الرعاية والحماية، وتكلفه حمل الهدايا النفيسة[٥٠] إلى ملوك مصر وأهل الحجاز، وهو ما تجسد بشكل واضح خلال العصر المريني الأول.

وإذا كانت هذه هي أبرز عوائق ركب الحاج المغربي إلى بلاد الحجاز، فما هو موقف الحكام والعامة والفقهاء من ركب الحاج في خضم مختلف العوائق التي سبق ذكرها؟

رابعًا: موقف الحكام والعامة والفقهاء من مسألة الأمن في طريق ركب الحاج

١/٤- موقف الحكام:

اهتم الأيوبيون وبعدهم المماليك بصد الهجمات الصليبية وتحرير ما وقع في أيدي الصليبيين من ثغور إسلامية، ويُعَدّ العبدري شاهدًا على إحدى الاستعدادات الحربية لمنازلة الصليبيين، فذكر أنه "بعد مرحلة من رابغ جاءنا من مصر من أخبر بموت سلطانها المنصور، وكنا تركنا السلطان على الحركة إلى جهاد عكة، وقد برز جميع عسكره خارج المدينة، فلما خرج، مرض فمات من حينه"[٥١]. وعلى الرغم من وفاة السلطان المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ /١٢٧٩-١٢٩٠م)، الذي نجح في

استرجاع مدينة طرابلس سنة ٦٨٨هـ، فإن ابنه السلطان الأشرف خليل،[٥٢] الذي تولى العهد، نجح في استرجاع مدينة عكا سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م)، ليصبح بذلك عهد الصليبيين نسيًا منسيا. وهكذا، فإن الحكام المصريين سواء منهم الأيوبيون أو المماليك، قد لعبوا دورًا مهمًا في رد الهجمات الصليبية، وتيسير الطريق أمام ركب الحاج لزيارة الأماكن المقدسة.[٥٣]

والواقع أن المماليك الذين تزامن عهدهم وعهد رحالتنا، قد اعتنوا بركب الحاج المغربي، فقد أورد العبدري أن صاحب مصر (السلطان سيف الدين قلاوون)، قد ألهمه الله من الاعتناء بالركب وإخراج الحصة (للجند) معه بأمير على أكمل ما يكون من الاستعداد والتأهب، ولولاه ما سلك أحد تلك البرية لطولها وخلائها إلا من القطاع".[٥٤] وقد نوه العبدري بحكام مصر من المماليك الأتراك الذين عرفوا بعطفهم على المسلمين ورعايتهم لركب الحجيج وخدمتهم له، فأورد أن ملوك مصر "أهل دين وعقائد سليمة وشفقة وحنان على المسلمين، وقد رأيت من خدمتهم للركب واحتياطهم وصبرهم وحسن محاولتهم ما تعجبت منه".[٥٥]

٢/٤- موقف العامة:

الواقع أن ركب الحاج المغربي المرافق للعبدري، لم يجد ما كان ينتظره من العامة، من ترحيب وحسن معاملة، وإكرام للغريب، بل إن العامة وخاصة في بعض محطات ركب الحاج المغربي تحاملت على ركب الحاج لتزيد من محنه، وخاصة عامة أهل مصر. فقد أدرك العبدري العيد بالقاهرة، وصلى صلاة العيد بها وهو في ظروف نفسية غير مريحة، فأورد أبياتا شعرية دالة على الحزن والكرب وغياب الأنس والوحشة، فقد ذكر أنه لم "ير يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة"[٥٦]، لذلك فلا غرابة إذا وجدناه يصب جام غضبه على أهل القاهرة حيث وصفهم بكثرة اللؤم والحسد ومهانة النفس، وضغينة القلب والسرقة والجفاء للغريب، وما إلى ذلك من الأوصاف التي سطرها في رحلته.

ومهما يكن من قدح العبدري ومبالغته في انتقاد أهل القاهرة[٥٧]، حيث ينبغي أخذ روايته بنوع من التمحيص والحذر، فإن من العامة من أسدى خدمات جليلة لركب الحجيج، وخاصة المتصوفة من القائمين على الزوايا أو الخوانق والمدارس من الأخيار والثقاة ممن سخروا أموالهم في خدمة ركب الحاج، "فالذي يتحملونه من النصب والعناء في خدمة الركب والاحتياط عليه، ومداراة الضعفاء منه... لا يقدر عليه إلا من أهله الله للخير".[٥٨] وعلى الرغم من إشارة العبدري المحتشمة إلى دور العامة خاصة المتصوفة في رعاية ركب الحاج المغربي، فإن ابن بطوطة وابن خلدون اللذان زارا مصر بعد العبدري، قد سجلا وجود عدة زوايا بكل من القاهرة والإسكندرية التي كانت تعرف بمصطلح الخوانق وشكلت ملتقى للفقراء ومطعما للحجاج وعابري السبيل.

٣/٤- موقف الفقهاء:

من أجل دفع أخطار وعوائق ركب الحجيج والدفاع عن حوزة دار الإسلام، كان المغاربة يقاتلون الصليبيين في الشام جنبا إلى جنب مع إخوانهم المشارقة، ليتحول الحجاج إلى مجاهدين في كثير من الأحيان، ومن المغاربة من وقع في يد الأسر لدى الصليبيين، فكان المشارقة يفدون المغاربة لغربتهم[٥٩]. ولا تعوزنا القرائن الدالة على انخراط الحجاج المغاربة في عملية الجهاد ضد الصليبيين، خاصة وأن العديد من الفقهاء، ومنهم ابن رشد (ت.٥٢٠هـ)، وأبي بكر الطرطوشي (ت.٥٢٠هـ) وابن حمدين (ت.٥٠٨هـ) والمازري (ت.٥٣٦هـ)، قد أفتوا بأولوية الجهاد عن الحج ووجوبه في حق المسلمين، في حال غياب الأمن ووجود هجمات الصليبيين. وحسبنا العودة إلى كتب النوازل الفقهية خاصة فتاوى ابن رشد ونوازل المعيار للونشريسي للوقوف على هذه الحقيقة[٦٠]. وإذا كان هذا موقف فقهاء الأندلس من مسألة الأمن في طريق ركب الحاج المغربي، خلال القرن السادس الهجري، فإن من فقهاء فاس، وخاصةً الفقيه عبد النور محمد العمراني[٦١]، من أفتى بسقوط الحج عن أهل المغرب لما شاع من غلبة خوف الطريق وغياب الأمن.

خَاتِمَةٌ

مهما يكن من أمر، فإن ركب الحاج المغربي قد شكل عبر فترات مختلفة من التاريخ الإسلامي، حلقات وصل متتالية بين جناحي العالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا، وذلك على الرغم من العوائق المختلفة (طبيعية وأمنية واقتصادية) التي ظلت تعرقل التلاقح والتواصل الثقافي والروحي بين المشرق والمغرب. والحاصل أن علماء الأمة الإسلامية، ومنهم العلماء المغاربة، قد عبروا عن جرأة عالية منذ فترات مبكرة من العصر الوسيط، فتحملوا كثيرا من المشاق وركبوا المغامرة وتجشموا المخاطر لربط الصلة ثقافيًا وروحيًا مع إخوانهم بالمشرق أداء للفريضة وتحصيلا للعلم، ويُعَدّ العبدري نموذجًا يحتذى ليس على جرأته في خوض غمار رحلة في القفار والفيافي محفوفة بالمخاطر فحسب، ولكن على مستوى طموحه العلمي ورغبته في توسيع دائرة معارفه على الرغم من حصيلته التي تنم عن تضلعه في العديد من علوم عصره، وتظل رحلته وثيقة شاهدة على غزارة علمه وطموحه لتغذية الفكر وتزكية الروح، بل إن رحلته جاءت أيضًا صورة ناطقة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لبعض الحواضر الإسلامية التي مر بها ركب الحاج المغربي خلال (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي). فكان حريصًا على تعزيز المعطيات التي قدمها بأرقام عن عدد الحجاج المرافقين للركب، وعدد الذين وقفوا في تلمسان يرجون مساعدة أهلها أو عدد الحجاج الذين هلكوا نتيجة كارثة طبيعية أو أمنية أو فتنة ونزاع على الماء. وحسبنا أن نشير إلى شهادة المستشرق الفرنسي (شير بونو) الذي قال "إنني ما رأيت كتابًا عربيًا مفيدًا وممتعًا لدرجة رحلة العبدري".[٦٢]

الهَوامِشُ:

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، المسماة **الرحلة المغربية**، حققها وقدم لها وعلق عليها محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، سلسلة رحلات حجازية -٤- وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، الرباط، ١٩٦٨، ص٩٣-١٦٢.- أيضًا: محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، ١٩٥٧، ص٧-٨.- أيضًا: علي لغزيوي، **الركب النبوي والهدايا السلطانية الرسمية خلال موسم الحج**، مجلة دعوة الحق، العدد٣٥٠، مارس ٢٠٠٠م/ ذو الحجة ١٤٢٠هـ، ص٤-٥.

(٢) انظر رحلته، **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، تحقيق محمد الحبيب بن الخوج، الدار التونسية للنشر، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م، ج٢.

(٣) انظر رحلته، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م،ج٢.

(٤) اختصر ابن قنفد القسطنطيني (ت. ٨٠٩هـ) **رحلة العبدري** بعنوان "**المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية**"، والمختصر مازال مخطوطًا بحسب ما نعلم.

(٥) ابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، ضمن كتاب "**العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣، ج٧.

(٦) وتجدر الإشارة أن رحلته تسمى بالرحلة المغربية أو رحلة العبدري.

(٧) يذكر العبدري في رحلته أنه لما سأله شيخه ابن دقيق العيد بالإسكندرية عن موطنه أجابه: "من مراكش"، انظر: **رحلة العبدري**، ص ١٤٠.

(٨) يبدو أن العبدري من عائلة حظيت بنصيبها من العلم، فقد كان والده أبو عبد الله بن علي خطيبا وفقيها، كما أن أخوه الذي صاحبه في الرحلة، قد نال حظه من العلم، وأخذ عن أحد علماء تونس وهو أبو الحسن بن المفضل المقدسي، انظر: **الرحلة**، ص ٢٧٥.

(٩) أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص ٢٨٦.

(١٠) هو أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي (ت. ٧٠٣هـ)، صاحب كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول والثاني تحقيق محمد بن شريفة، والسفر الخامس والسادس تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٥.- ويبدو أن العبدري قد تردد كثيرًا على مراكش قبل رحلته سنة ٦٨٨هـ فقد ذكر ضمن رحلته ابن عبد الملك المراكشي وقال عنه: "صاحبنا الفقيه والأديب الأوحد"، كما نوه بمؤلفه المفيد "الذيل والتكملة"، وقال فيه: "كتاب متقن مفيد"، انظر: **الرحلة**، ص ١٤٠.

(١١) نفسه، ص ٢٤٠.

(١٢) نفسه، ص ص ٢٤٤ -٢٤٥.

(١٣) نفسه، ص ١١.

(١٤) يبدو أن العبدري قد استأنف تقييد رحلته في تلمسان، غير أن إتمام تقييد الرحلة، كان بعد العودة إلى بلده حاحا، انظر: الرحلة، ص ٦.

(١٥) نفسه، ص ٣٩.

(١٦) نفسه، ص ٨٦.

(١٧) نفسه، ص ٨٥.

(١٨) ومما قاله العبدري في هذا الصدد:

ذكرت بيوم الفطر إذ أتي وقوس النوى يرمي الحشا أسهم الكرب
فراحا ناي أنسي بنأي محلهم وصحبا كراما ضمهم أفق الغرب
فأفطرت من قبل الغدو بعبرة غنيت بها يومي عن الأكل والشرب

انظر: الرحلة، ص١٢٨.

(١٩) نفسه، ص١٨٦-١٨٧.

(٢٠) العبدري، ص١٥٦.

(٢١) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٢) ابن بطوطة، م س، ص١١. **والخوانق**: بفتح الخاء والواو ممدودة، مفردها: خانقة وخانقاه: وهي مكان اختلاء وإقامة وعبادة المتصوفة والزهاد، وكانت توقف عليها الأوقاف التي يفي ريعها بما تحتاج من نفقات، وقد كان للخانقاة مرافقها المعاشية من مخبز ومطبخ ومشرب وغيرها، وغالبًا ما كانت تنهض بخدمات عامة كدار للضيافة بالنسبة للمغتربين والمسافرين وأبناء السبيل، انظر: محمد عمارة، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، دار الشروق، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، بيروت، القاهرة، ص. ٢٠٢.- وعن وجود المدارس والخوانق في عهد أمراء الدولة المملوكية، يذكر ابن خلدون، أن "أهل الدولة المملوكية بمصر والشام معنيون على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بني أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم و الخوانق لإقامة رسوم الفقراء..." انظر، **الرحلة**، ضمن كتاب "**العبر**"، ج٧ ، ص٥٧٥ وما بعدها.

(٢٣) ابن جبير، م س، ص :٤٤.

(٢٤) نفسه، ص٦١.

(٢٥) نفسه، ص٦٨.

(٢٦) نفسه، ص ٦٢.

(٢٧) العبدري، م س، ص ١٧٦.

(٢٨) نفسه، ص نفسها.

(٢٩) نفسه، ص نفسها.

(٣٠) نفسه، ص ١٧٤.

(٣١) رحلة ابن جبير، م س، ص٧٣.

(٣٢) عبر المقري عن فرحه وتأثره شعرًا عند وصوله إلى مكة، فقال:

متى ترى عيني الحقيقا ويفرح القلب بالوصول
هذه روضة الرسول فدعني بدل الجمع في الصعيد السعيد
لا تلمني على التكلم بعد موتي إنما ضممتها لهذا الصعيد

انظر: **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، حققه ووضع فهارسه يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص٥٠-٥٢.

(٣٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، البيضاء، ١٩٥٤، ج٢، ص١٢.

(٣٤) عن الأخطار التي كانت تعترض سبيل الحجاج والتجار على حد سواء أثناء عبورهم للمفاوز والصحاري، انظر: مقال الأستاذ حسن علوي حافظي، "**أخطار تنقل القوافل في القفر بين العوامل الطبيعية والثقافية**"، ضمن: **من إيناون إلى استانبول**، أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الرحمن المودن، تنسيق: عبد الأحد السبتي وعبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم ٥٣، ط ١، ٢٠١٢ م، ص٤٥-٨٠.

(٣٥) العبدري، ص١٥٧.

(٣٦) نفسه، ص١٥٩. وعبر ابن جبير عن المعاناة نفسها، فذكر أن محنته بمدينة عيذاب محتسبة عند الله، إذ عاني فيها من شدة العطش وندرة الطعام، فعانى شظف العيش، وسوء الحال، واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة، فيقول: "فكل شيء مجلوب حتى الماء والعطش أشهى من النفس منه، فمن بين هواء يذيب الأجسام وماء يشعل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة لقوله: ماء زعاق ويوكله لهب"، انظر: **رحلة ابن جبير**، م س، ص٦٦.

(٣٧) العبدري، ص٢٢٠.

(٣٨) نفسه، ص١٦٤.

(٣٩) نفسه، ص١٥٦.

(٤٠) ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم-٢٢-، ط٢، ١٩٩٧، ص٤٢٢.

(٤١) هو أبو علي مالك ابن تماجورت الهزميري، من بلد نفيس، توفي بمراكش عام ٦١٠هـ، انظر، م.س، ص٤٢٢. وهامش المحقق رقم: ٣٢٤.

(٤٢) نفسه، ص٩٣.

(٤٣) لم يفصح العبدري عن مقدار الخفارة التي كان يؤديها الحجاج ولا الطرف الذي كانت تدفع له، والثابت أن الخفارة ضريبة غير شرعية كان يدفعها المارة والتجار لحاميهم على المسالك، وتؤدى لصالح شيوخ القبائل أو الحكام والأمراء، انظر: نورالدين امعيط، **المصطلح الاقتصادي في تاريخ المغرب والأندلس**، نماذج وقضايا من القرنين ٥-٦هـ/١١-١٢م، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس،٢٠١١، ص٣٣٩ وما بعدها.

(٤٤) ابن جبير، ص٦٨.

(٤٥) العبدري، ص١٥٤.

(٤٦) نفسه، ص ٩- ٢٧٨.

(٤٧) نفسه، ص١٦٠.

(٤٨) نفسه، ص٣٧.

(٤٩) نفسه، ص٧٧.

(٥٠) عن هذه الهدايا انظر على سبيل المثال: ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغرا، تقديم محمد أبو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤١٠هـ/١٩٨٠م، ص٤٥٢-٤٥٣.- أيضًا ابن خلدون، م س، ج٧، ص٤٧٩.- أيضًا: المنوني، **ورقات عن حضارة بني مرين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠٠٢، ص١٧٦-١٧٧ وما بعدها.

(٥١) العبدري، ص١٦٦.

(٥٢) هو الملك صلاح الدين خليل الأشرف ابن قلاوون (٦٩١ -٦٩٣هـ /١٢٩٠-١٢٩٣م).

(٥٣) عن جهاد دولة المماليك ضد الهجمات الصليبية، انظر: خليل أنطوان، **الدولة المملوكية - التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري**، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص ١١ وما بعدها.

(٥٤) العبدري، ص١٢٨.

(٥٥) نفسه، صنفسها.

(٥٦) نفسه، صنفسها.

(٥٧) انظر: مناقشة مسألة مبالغة العبدري في قدحه لأهل القاهرة في مقال الأستاذ عبد العزيز الضعيفي، "**مجتمع القاهرة من خلال رحلة العبدري**"، ضمن أعمال ندوة، المغرب – المشرق العلاقات والصورة، تنظيم مجموعة الدراسات والأبحاث حول العلاقات المغربية – المشرقية، مارس ١٩٩٣-١٩٩٤، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، ص ١٨٧-٢١٥.

(٥٨) العبدري، ص١٥٥-١٥٦.

(٥٩) ابن جبير، ص٢٨٠. أيضًا محمد المنوني، "**نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليه**"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد ٢١-٢٢، السنة ١٩٩٧، ص١٤٣-١٤٧. العبدري، ص١٥٥-١٥٦.

(٦٠) ابن رشد، **الفتاوى**، تحقيق أحمد المختار بن الظاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٢٢٧، ج٢، ص١٠٢١-١٠٢٦. أيضًا الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، إخراج مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط ١٩٨١، ج١، ص٤٣٢ وما بعدها.

(٦١) هو أبو محمد سيدي عبد النور محمد بن أحمد العمراني، ولد سنة ٦٨٥هـ، ولم نقف على تاريخ وفاته ضمن كتب التراجم التي ذكرته انظر: **جذوة الاقتباس**، م س، ق٢، ص. ٤٤٨.

(٦٢) انظر: **مقدمة تحقيق علي إبراهيم كردي لرحلة العبدري**، تقديم شاكر الفحام، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص (ب-ج).

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مقالات

جبهة مصر – جنوب الشام
الأيوبيون على خطى الزنكيين في مواجهة الصليبيين إلى استعادة بيت المقدس
٥٤٩ – ٥٨٣ هـ/ ١١٥٤ – ١١٨٧م



حمزة قادري
أستاذ "مؤقت" التاريخ الإسلامي الوسيط
جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥
سكيكدة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

بعدما تمكن الموحدون من الوصول إلى السلطة في المغرب الأقصى سنة (٥٤١هـ/١١٤٧م) وتوحيد الغرب الإسلامي، فكر الجهاز المسؤول في الدولة الموحدية في ضرورة إعادة هيكلة المجال الجيوسياسي للدولة إداريًا واقتصاديًا وفق تصور أيديولوجي يتماشى مع مبادئ الدعوة التومرتية التي روج لها الزعيم المذهبي للحركة الموحدية محمد بن تومرت. لذلك كان من الضروري على الجهاز الموحدي الحاكم أن يفتح قنوات الاتصال مع مختلف النخب وخاصةً الفئة المثقفة التي ستتولى مناصب المسؤولية في دولة الموحدين. في هذا السياق يأتي هذا المقال الذي يعالج موضوع النخبة الأندلسية المثقفة في علاقتها مع الخلافة الموحدية والذي يتوخى رصد العلاقات المتباينة لهذه النخبة مع النظام الموحدي، وفي الوقت ذاته تتبع مسارها حسب فترات حكم الخلفاء الأربعة الأوائل للدولة الموحدية. وهي الفترة التي تمتد من (٥٤١هـ/١١٤٧) عندما أصبحت مراكش عاصمة لدولتهم وإلى حدود هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م) التي أرخت لمرحلة تراجع المد الإسلامي في الأندلس. لذلك تعتبر الفترة قيد الدرس جد مواتية لتحليل مواقف النخبة المثقفة الأندلسية في علاقتها مع النظام الموحدي وفي الوقت نفسه تتبع الأساليب التي وظفها هذا النظام من أجل استقطاب هذه النخبة مع تفسير سياقات كل حالة من خلال نماذج محددة بالاعتماد على مادة مصدرية وسيطية خاصةً منها كتب التراجم.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٩ يونيو ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٦ أكتوبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:
الحروب الصليبية، نورالدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، بيت المقدس، الأيوبيون، الزنكيون

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041883

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
حمزة قادري. "جبهة مصر – جنوب الشام: الأيوبيون على خطى الزنكيين في مواجهة الصليبيين إلى استعادة بيت المقدس (٥٤٩ – ٥٨٣ هـ/ ١١٥٤ – ١١٨٧م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص ١٣٣ – ١٤١.

مُقَدِّمَةُ

تمكن آل زنكي انطلاقًا من قاعدة حكمهم الموصل ثم حلب من تحقيق انتصارات مظفرة على الطرف الصليبي فاستعادوا العديد من المدن والقلاع التي كان قد استولى عليها جند الصليبية في حملاتهم الأولى على ديار الإسلام وبخاصة تلك الواقعة بالقرب من نفوذ حكمهم بشمال الشام والجزيرة الفراتية، فعمل قادة هذه الجبهة (جبهة الموصل) على درء خطر الصليبيين من عهد حاكمها كربوغا (٤٨٩هـ- ٤٩٥هـ/ ١٠٩٥م-١١٠١م) إلى قائدها الباسل عماد الدين زنكي بن آقسنقر قسيم الدولة (٥٢١هـ-٥٤١هـ/ ١١٢٧م- ١١٤٦م) – وهو غير آقسنقر البرسقي حاكم الموصل المتأخر- هذا الأخير الذي تمكن من تحقيق أهم انتصار لجبهة المقاومة الإسلامية باستعادته لمدينة الرها في ١٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ/٢٣ ديسمبر ١١٤٤م فاستبشر لذلك المسلمون كثيرا كما أصاب الصليبيين بخيبة أمل كبيرة.

استمرت جهود هذه الجبهة بضمها مدينة حلب في (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) على عهد عماد الدين، إضافة إلى تحقيق الوحدة التي طال انتظارها مع دمشق (٥٤٩هـ/١١٥٤م) على عهد نورالدين محمود،

فتشكلت بشمال الشام وبلاد الجزيرة جبهة مقاومة تمكنت من إرباك الصليبيين وحققت على حسابهم مكاسب عدة، غير أن هذه الجهود كانت لابد من استكمالها بضم الجهة الجنوبية (جنوب بلاد الشام ومصر) لحصر الصليبيين على الساحل الشامي وتطويقهم بغية إخراجهم نهائيا عن أرض الإسلام، فهذه الجبهة التي ظلت تحت السيطرة الفاطمية منذ قدوم الحملات الصليبية قد ساهمت في كثير من الأحيان في إضعاف القوى الإسلامية بتحالفاتها مع الصليبيين ونظرتها الضيقة للأحداث وتركيز اهتمامها على فرض معتقدها (الشيعي) على المسلمين فكانت جهودها خلال تلك الفترة من الصراع مقتصرة على رد ما يهدد مناطق نفوذها دون العمل على تنسيق الجهود مع باقي القوى الإسلامية في رد خطر الصليبيين.

أدرك نورالدين محمود ومن بعده بنو أيوب بقيادة صلاح الدين أن أي جهد يمكن بذله في المواجهة مع الصليبيين لا يمكن أن يكون ذا منفعة تذكر في حال بقاء جنوب الشام ومصر تحت سلطة الفاطميين فكان لزاما تنفيذ إستراتيجية عماد الدين زنكي القائمة على تقوية الجبهة الداخلية بإنهاء الانقسام وجمع القوى الإسلامية المتناثرة هنا وهناك تحت سلطة واحدة، فكان له ذلك في (٥٦٤هـ/١١٦٩م) بتولي صلاح الدين حكم مصر وضمها مع جنوب الشام لسلطة جبهة شمال الشام والجزيرة، ليبدأ بذلك فصل جديد من فصول المقاومة الإسلامية للعدوان الصليبي تحت قيادة جديدة ومن مركز سلطة جديد، مساره ونتائج أحداثه أردناه في هذا المقال إلى غاية الحدث البارز في هذا الفصل وهو استعادة رمز الإسلام وأهم حواضره بيت المقدس (٥٨٣/ ١١٨٧م).

١- ضم مصر إلى جبهة المقاومة الإسلامية في شمال الشام والجزيرة (٥٤٩-٥٦٤هـ/١١٥٤- ١١٦٨م)

منذ تحقيق نورالدين محمود للوحدة مع دمشق وضمان وجود جبهة إسلامية في شمال الشام والجزيرة، رأى أنه من الضروري ربط هذه الجبهة بأخرى في الجنوب حتَّى يكتمل الطوق البري على الصليبيين وحصرهم في الساحل الشامي، بُغية تقليص نفوذهم وإخراجهم بعد ذلك من ديار المسلمين. على أنَّ رغبة نورالدين تلك، اصطدمت بواقع مصري تحت سلطة فاطمية، لم يبرز لها أثر في حركة المقاومة الإسلامية، بقدر ما كان لها دور في إضعاف المسلمين بالتحالف ضد أعدائهم في كثير من المواضع، فقد عرفت الأوضاع التي ميزت مصر في العهد الفاطمي سواء في علاقاتها مع القوى الإسلامية المجاورة لها، أو على مستوى البلاط الفاطمي نفسه حالة من السوء لم تكن بأي حال من الأحوال لتُمكِّنها من المساهمة في حركة المقاومة الإسلامية.

ففي الفترة التي سبقت ضمّ مصر إلى الجبهة الإسلامية بفضل نورالدين محمود، وقيادة صلاح الدين لحركة المقاومة فيها، قد عرف البلاط الفاطمي أقصى مراحل الصراع بين الوزراء الفاطميين، في حين لم يكن للخليفة الفاطمي معهم حكم على حد تعبير ابن الأثير،[١] وهو ما فتح باب الصراع بين الصليبيين ونورالدين للسيطرة عليها لتدعيم مناطق نفوذهما،[٢] فقد حدث في رمضان ٥٥٨هـ/أوت ١١٦٣م أن سار أبو الأشبال ضرغام بن عامر إلى القاهرة متحديًا الوزير شاور السَّعدي، الذي كان يتولّى الصعيد قبل هزمه للزريك بن الصالح طلائع وتولِّي الوزارة في البلاط الفاطمي.

تمكَّن ضرغام من إلحاق الهزيمة بشاور، مما اضطر هذا الأخير إلى الاستنجاد بنور الدين في دمشق[٣] وطلب منه إرسال عساكر معه إلى مصر ليعيده إلى منصبه، مقابل الاعتراف بسيادته على المناطق الواقعة على التخوم، وأن يؤدِّي له جزية سنوية مقدارها ثلث خراج مصر.[٤] وجد نورالدين في ذلك العرض فرصةً لضمِّ مصر إلى جبهة المقاومة الإسلامية، وتحقيق بعض النقاط الإيجابية في صراعه مع الصليبيين، فهدَف من خلال ضمِّها إلى التمكين للسنة على حساب الشيعة وبذلك إنهاء الانقسام المذهبي الذي كان مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، كما أنَّ استيلاءه على مصر سيُمكِّنه من استخدام أسطولها البحري ضد السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين، الأمر الذي يترتب عليه قطع خطوط مواصلاتهم مع أوروبا الغربية، إضافة إلى خلق طريق تجاري، تخرج منه تجارة دمشق، بحيث لا يمرُّ عبر أراضي الصليبيين.[٥]

أرسل نور الدين في (جمادى الثانية ٥٥٩هـ/ أفريل ١١٦٤م)، أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب على رأس جيش إلى مصر، تمكَّن من هزم ضرغام وأعاد منافسه شاور إلى منصبه،[٦] إلاَّ أنَّ هذا الأخير تنكَّر لوعوده التي قطعها على نورالدين، حيث يحدثنا عن ذلك ابن الأثير فيقول:" وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه، وعاد عن ما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضًا، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام..."،[٧] بل أنَّه توجه إلى الصليبيين يستصرخهم على أسد الدين شيركوه وابن أخيه، وهي الفرصة التي طالما انتظرها الصليبيون لمدِّ نفوذهم إلى الديار المصرية، فيقول عن ذلك أبو شامة:" فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نورالدين إن ملك مصر، وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها"[٨] فقاد أملريك عموري ملك بيت المقدس رجاله إلى الديار المصرية في رمضان (٥٥٩هـ/ أوت ١١٦٤م)،[٩] مما جعل قوة نورالدين والقوة الصليبية المدعمة من الفاطميين في مواجهة مباشرة حول ضمِّ مصر.

فور وصول عموري الأول إلى مصر، اتصل بشاور واتفقا على حصار شيركوه في بلبيس[١٠] – التي اتخذها قاعدة له بعد غدر شاور-، وبعد حصارٍ دام ثلاثة شهور، دافع خلالها شيركوه عن بلبيس، تمَّ الاتفاق بين شيركوه وعموري في ذي الحجة من العام نفسه/ أكتوبر ١١٦٤م على مغادرة مصر، بعد أنِ اتضح لشيركوه أنَّ الموقف لمْ يعُد في صالحه، لأنَّ المؤن المتبقية لديه أوشكت على النفاذ، فضلاً عن تفوق الجيوش الصليبية- الفاطمية في العدد، أماَّ عموري الأول فقد حرص على الانسحاب من مصر لأنَّ نورالدين انتهز فرصة تغيبه في مصر وشدَّد هجماته على المعاقل الصليبية بالشام وخاصة قلعة حارم، لإرغامه على رفع الحصار عن شيركوه.[١١]

توالت أحداث ذلك الصراع بين نورالدين من جهة والصليبيين والفاطميين من جهة أخرى على أرض مصر، حيث عاود نورالدين تسيير حملة ثانية على الإقليم في ربيع الأول (٥٦٢هـ/ جانفي ١١٦٢م)، أين عاود شاور الاتصال بالصليبيين لردِّ الحملة، فكانت نتيجة أحداثها، انسحاب كل من عموري الأول وشيركوه عن مصر للمرة الثانية، على أنَّ مواصلة شاور الاستعانة بالصليبيين في رد حملات نورالدين قد أبرق لهم مدى ضعف الجبهة المصرية، وصاروا يتطلعون للاستيلاء عليها بدل مساعدة الفاطميين.[١٢]

كان لعزم ملك بيت المقدس على ضمِّ مصر إلى الممتلكات الصليبية أن دفعه إلى المسير صوب مصر على رأس حملة كبيرة من عسقلان في (محرم ٥٦٤هـ/ أكتوبر١١٦٨م)، فاتجه صوب بلبيس الَّتي حاصرها ثلاثة أيام، ثمَّ اقتحمها، وأخذ في نهب أهلها وسبيهم، وتخريب بيوتهم وقتل الكثير منه بصورة بشعة،[١٣] ثمَّ واصل زحفه إلى القاهرة بغية الاستيلاء عليها، فما كان للخليفة العاضد أمام هذه الأخطار المحدقة بعرش الدولة الفاطمية، أن أرسل كتابًا إلى نورالدين يستصرخه ويستنجد به من الغزو الصليبي، فأجابه إلى ذلك وسيَّر حملة ثالثة إلى مصر بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين في سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، غير أنَّ وصول قوات نورالدين إلى القاهرة نجدةً لها قد كان بعد انسحاب القوات الصليبية عنها بستة أيام وعودتها إلى بيت المقدس.[١٤]

والمهم في كل هذا أن قوات نورالدين بقيادة أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين قد عزما على تخليص مصر والإسلام من شاور[١٥] الذي يقول فيه ابن تغري بردي:" شاور فساد العباد والبلاد وقد كاتب الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام"،[١٦] وفي (ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ جانفي ١١٦٩م) ذهب شاور إلى معسكر أسد الدين، وهناك هاجمه صلاح الدين وسجنه في خيمة، ثمَّ قتل بطلب من الخليفة العاضد.[١٧]

ولَّى الخليفة الفاطمي أسد الدين شيركوه الوزارة بعد مقتل شاور، فكانت بذلك أولى الخطوات في تأسيس الدولة الأيوبية ومعها إكمال بناء الجبهة الإسلامية في الجنوب من بلاد الشام، غير أنَّ أسد الدين توفي بعد فترة وجيزة من توليه المنصب،[١٨] ما دفع بالخليفة العاضد لأخذ العهد بالوزارة لصلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان ذلك في (جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ مارس ١١٦٩م).[١٩]

وبتولي صلاح الدين الوزارة في مصر واستئثاره بالسلطة فيها، عزم قائده نورالدين على إنهاء الحكم الفاطمي عليها، فأمره بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (٥٦٦هـ- ٥٧٥هـ/ ١١٧٠م- ١١٨٠م) تحقيقًا لوحدة العقيدة الإسلامية، وقد اعتذر صلاح الدين لقائده خوفا من قيام المصريين بثورة ضدَّه، لكن نورالدين عاد وألزمه بذلك، حيث يقول في هذا الصدد ابن واصل:" كان العادل نورالدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وأنه لم يبق لهم منعة، كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة العباسي، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك، لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نورالدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه إلزامًا لا فسحة فيه..."[٢٠] فأمر صلاح الدين الخطباء في القاهرة والمدن المصرية بقطع الخطبة على الخليفة العاضد الفاطمي في أول جمعة من (محرم ٥٦٧هـ/ ١٠ سبتمبر ١١٧١م)، وإقامتها للخليفة العباسي، ففعلوا ذلك، ولم يجد صلاح الدين صعوبة في تغير تبعية مصر من الفاطميين إلى العباسيين، لينتهي بذلك عهد الدولة الفاطمية التي عمرت قرنين وسبعين عاما من الزمن.

٢- صلاح الدين وإعادة بناء جبهة المقاومة الإسلامية (٥٦٤ - ٥٨٣هـ/ ١١٦٩ - ١١٨٧م)

لم يكن من اليسير على صلاح الدين خلال السنوات الأولى الَّتي تولَّى فيها حكم مصر، تأسيس جبهة مقاومة إسلامية ضدَّ الوجود الصليبي في الساحل الشامي، فقد واجه العديد من العقبات التي أبطأت من دخوله في مواجهة الصليبين بعزيمة وجدْ بغية إخراجهم من الممتلكات التي استحوذوا عليها في حملتهم الصليبية الأولى، فقد تجلت أولى تلك العقبات، عقب إسقاطه للخلافة الفاطمية، حيث بقي من أنصارها في مصر من أرادوا إعادة إقامتها من جديد، فحدثت مؤامرتين من هؤلاء، كانت الأولى سنة تولي صلاح الدين الحكم في مصر سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)، وأمَّا الثانية فكانت سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م)،[٢١] وقد سعى أنصار الفاطمية إلى دفع صلاح الدين لمواجهة الصليبيين، الذين لم يتوانوا في المساهمة في هذين المؤامرتين لإبعاد الخطر الذي كان يهدد كياناتهم في بلاد الشام، حيث يحدثنا ابن الأثير عن رد فعل الصليبيين بعد تملُّك أسد الدين شيركوه لمصر فيقول: "فكان إفرنج الساحل لمَّا ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك"،[٢٢] وعلى هذا فقد سعى أنصار الفاطمية إلى شغل صلاح

الدين بمواجهة الصليبيين، حتَّى يتسنَّى لهم إعادة سلطة الفاطميين على مصر.[٢٣]

إضافة إلى هذه العقبة فقد حدث أن ساءت علاقات صلاح الدين بقائده نور الدين، ومرَّت بفترة من الفتور تحولت فيما بعد إلى شبه عداء بينهما، حيث ترجع بداية هذه الوحشة بين الاثنين إلى (صفر سنة ٥٦٧هـ/ أكتوبر ١١٧١م)، وذلك عندما دعا نورالدين نائبه صلاح الدين وطلب منه المسير بجيوشه إلى حصن الشوبك[٢٤] بغية حصاره والاستيلاء عليه، فقام صلاح الدين بما أمره به سيده، وضيَّق الحصار على الحصن حتَّى كاد أن يفتحه، إلا أنَّه لما علم بقدوم نور الدين رفع الحصار ورجع إلى مصر، ثمَّ أرسل إليه كتابًا يُبيِّن له الموقف في مصر وضرورة العودة حتى لا تضطرب البلاد ويغتنم أنصار الفاطميين غيابه عنها، للاستيلاء على السلطة، كما وتحجَّج بمرض والده نجم الدين، وهو الأمر الذي أغضب نور الدين ودفعه إلى التفكير في إبعاد صلاح الدين عن مصر.[٢٥]

وقف صلاح الدين أمام عزم قائده نور الدين بِحيرةٍ كبيرة وأحسَّ بأن علاقته معه تسير إلى نفقٍ مظلم، فأخذ يستشير خواصه وأقاربه لإيجاد وسيلة تُثني نور الدين عن القدوم إلى مصر، فأشار عليه ابن أخيه تقي الدين عمر بمواجهته عسكريا، غير أنَّ والده نجم الدين أقنعه بضرورة أن يكتب إلى نور الدين كتابًا يُظْهِر له فيه الولاء والطاعة، ويُحذره من مغبة مواجهة نور الدين لأنَّ ظهوره في مصر سيكون كافيًا لتخلي قوات صلاح الدين عنه، وهذا ما أدركه صلاح الدين ووعاه فعلا فأجاب والده لذلك.[٢٦]

ظلَّت العلاقة بين القائدين متوترة، رغم أنهما اشتركا في العديد من المعارك ضد الصليبيين جنبًا إلى جنب، كمحاولتهما فتح حصن الكرك جنوب البحر الميت سنة (٥٦٨هـ/١١٧٣م)، والدليل على أن العلاقة بينهما لم تزل على حالها من الفتور أن صلاح الدين فكر في مناطق يلتجأ إليها في حالة إقدام قائده نور الدين على إخراجه من مصر، فعمل على فتح النوبة في سنة (٥٦٨/ ١١٧٢م)، وكذا اليمن والحجاز في السنة الموالية،[٢٧] وفي كلام ابن الأثير عن هذا الأمر تأكيد لذلك إذ يقول: "وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر وأخذها منهم، فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد، فإن قووا على منعه أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا البلاد التي فتحوها".[٢٨]

أخذت تلك العقبات التي وقفت في وجه صلاح الدين تنزاح الواحدة تلوى الأخرى، ففي رمضان (٥٦٩هـ/ أفريل١١٧٤م) نجح صلاح الدين في استئصال شأفة بقايا أنصار الدولة الفاطمية المتآمرين مع الصليبيين، بعد أن أمسك بخيوط المؤامرة واطلع على تفاصيلها، فقبض على زعماء المتآمرين وأمر بشنقهم جميعًا،

وأمَّا العقبة الثانية فقد زالت بوفاة نور الدين وهو يهيىء نفسه للسير إلى مصر وانتزاعها من صلاح الدين، فكان ذلك في (١١ شوال٥٦٩هـ/ ١٥ ماي ١١٧٤م)،[٢٩] لتنتهي بذلك حياة رجل قضى أزيد من ثمانية وعشرين عامًا في جهاد الصليبيين، والنضال من أجل بناء الجبهة الإسلامية.[٣٠]

ويجدر بنا الإشارة إلى؛ أن خلافات صلاح الدين وقائده نور الدين، قد أخذت طابع السرية والتكتم، وهذا لبعد نظر الرجلين وإدراكهما بأن شيوع أي خلاف يقع بينهما سيكون له آثار سلبية على الجبهة الإسلامية الَّتي عمل عماد الدين جاهدًا على إقامتها في مواجهة الوجود الصليبي، كما ويتوجب علينا كذلك أن نوضِّح المكامن الخفية وراء صراع القائدين الإسلاميين، فنقول: بأن نور الدين كان يرى في صلاح الدين مجرد نائب عنه في مصر، وأن دور مصر لا يعدوا أن يكون ولاية من الولايات التي تمدُّه بنفقات الحرب والقوات البشرية، وأنَّ بلاد الشام هي ميدان الصراع الحقيقي بين المسلمين والصليبيين، إلاَّ أنَّ طموح صلاح الدين وهدفه لم يكن ليقف على حدود النيابة عن نور الدين في مصر، بل أنَّ تطلعاته تسمو حد إقامة دولة تحمل اسم أسرته، وتلعب دورًا مستقلاً عن الشام في مواجهة الصليبيين، ونظرًا لهذا التباين في مواقف كلا القائدين اتجاه مصر أخذت العلاقات بينهما تسير نحو المجهول، حتَّى كانت وفاة نور الدين التي أطفأت نيران صراع بدأ يشب في الأفق كان سيأتي على الجبهة الإسلامية ككل.

وبوفاة نور الدين دخلت منطقة حكمه في شمال الشام والجزيرة دائرة من الصراعات بين خلفائه، كان لزامًا على صلاح الدين التدخل لإنهائها، حفاظًا على وحدة المسلمين، ولعدم تمكين الصليبيين من الإفادة من هذه الصراعات، فقد تولَّى الحكم بعد نور الدين في حلب ودمشق ابنه الصالح إسماعيل (٥٦٠هـ- ٥٧٦هـ/ ١١٧٤م- ١١٨١م) وكان غلامًا في الحادية عشر من عمره،[٣١] فتولَّى تدبير مُلكه الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدِّم، وقد بعث صلاح الدين إلى الصالح إسماعيل بكتاب يهنئه فيه بتوليته ويعزيه في موت والده نور الدين،[٣٢] ويعلن طاعته له وأنَّ الخطبة ستكون باسمه، غير أنَّ بعض كبار القواد قد طمعوا في الصالح إسماعيل، وحاول كل منهم أن يسيطر عليه، حتَّى يكون صاحب النفوذ والكلمة، ولذلك فقد ظهرت أمام صلاح الدين عقبةٌ جديدة لم يكن لينتظرها قبلاً.

برز صراع بين كبار قواد نور الدين أدَّى إلى قيام مركزان متصارعان أحدهما في دمشق بقيادة ابن المقدم الذي تولَّى تربية الصالح إسماعيل، أما الثاني فكان في حلب ويترأسه شمس الدين علي بن الداية أحد أكابر الأمراء النورية،[٣٣] وكانا كلاهما لا يثقان في صلاح الدين، ويتوجَّسان خيفة من تطلعاته، فكانت هوة الخلاف بينهم كبيرة، وليس هذا فحسب بل إن سيف الدين غازي بن عماد الدين صاحب الموصل عمل على ضمِّ العديد من البلدان

في بلاد الجزيرة لنفوذه، وأنَّه سعى لضم حلب لتكون كما كانت في عهد والده عماد الدين، والأخطر من كل هذا أن مدبر ملك الصالح إسماعيل (الأمير ابن المقدم) قد ارتمى في أحضان الصليبيين وعقد معهم هدنة بغية تحصين ملكه.[٣٤]

وعلى إثر هذه الأوضاع التي آلت إليها بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، فقد كانت الجبهة الإسلامية التي أقامها عماد الدين وابنه نور الدين، والتي أحدثت في نفوس الصليبيين رُعبًا رأوا من خلاله نهاية وجودهم في بلاد المسلمين، قاب قوسين أو أدنى من الانهيار. كان على صلاح الدين أن لا يقف ساكنًا أمام تدهور أوضاع الشام لعلمه بأنَّ الصليبيين سيستغلون الأوضاع فيها ويعاودوا استرجاع ما كان قد أخذه منهم عماد الدين ونور الدين، لهذا فقد سعى جاهدًا إلى إنهاء ذلك الصراع وتوحيد الجبهة الإسلامية من النيل إلى الفرات، رغم ما كان يتعرض له في الجبهة المصرية من أخطار سواء من الصليبيين في الشمال أم في الجنوب من قبل المتمردين على حكمه.[٣٥]

وعلى أية حال؛ فقد كلَّلت جهود صلاح الدين في مواجهته لتلك الأخطار التي تربصت بالجبهة المصرية، كما أنهى ذلك الصراع الذي شهدته جبهة الشام والجزيرة بين كبار أمراء نور الدين، وصارت خاضعة لسيطرته، ليُكْمل بذلك الطوق البري حول الكيانات الصليبية في الساحل الشامي، الذي طالما سعى أسلافه إلى تحقيقه،[٣٦] فحقق بذلك آماله الَّتي كان يعبر عنها بقوله: "لمَّا يسر الله لي الديار المصرية، علمت أنَّه أراد فتح الساحل، لأنَّه أوقع ذلك في نفسي"،[٣٧] فأنفق صلاح الدين في سبيل تحقيق إعادة بناء الجبهة الإسلامية في مواجهة الوجود الصليبي على أرض المسلمين أكثر من عشر سنوات، وجه بعدها جهوده لمحاربة الصليبيين واستعادة ممتلكات المسلمين منهم.

٣- صلاح الدين في مواجهة الصليبيين: من حطين إلى استرداد بيت المقدس (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)

على الرغم من اشتغال صلاح الدين لأزيد من عقد وأربع سنوات في سبيل إعادة بناء الجبهة الإسلامية التي تعرضت للكثير من العقبات سواء في عاصمة حكمه مصر أو في بلاد الشام والجزيرة، على أنَّ ذلك لم يثنه عن القيام بواجبه في تخليص أراضي المسلمين من السيطرة الصليبية خلال تلك الفترة، كمَّا وأنه يمكننا القول: بأن أحداث تلك السنوات التي قضاها صلاح الدين في سبيل إعادة بناء الجبهة الإسلامية كانت عاملاً مهمًا وحاسما فيما تبقى من مرحلة الصراع الصليبي-الإسلامي بعد ذلك.

فموازين القوى بين الصليبيين والمسلمين في تلك الفترة كانت متعادلة إلى حدٍ ما، نظرًا لما شهدته كلتا الجبهتين من إضرابات داخلية،[٣٨] فانعكس ذلك على الصراع بينهما، فتارة يكون النصر للصليبيين كما حدث في موقعة الرملة (٥٧٣هـ/ ١١٧٧م)،[٣٩] وتارةً يكون النصر حليف المسلمين كما وقع في معركة بانياس[٤٠] (٥٧٣هـ/ ١١٧٧م)، الَّتي قتل فيها هنفري، أحد الأمراء الصليبيين الأشداء،[٤١] وكذا في معركة مرج عيون (٥٧٥هـ/١١٧٩م)،[٤٢] وكانت النتيجة في بعضها دون منتصر، كما وقع في (ربيع الأول ٥٧٨هـ/ جويلية ١١٨٢م)، حين التقت القوتين الإسلامية والصليبية على مشارف قلعة كوكب الهوى، أين دارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت دون نتيجة حاسمة لكليهما، وقد عرفت تلك الفترة نوعًا من الهدوء النسبي خلال بعض السنوات سببه ما كان يجري بين صلاح الدين والصليبيين من اتفاقيات هدنة غالبًا ما يتم نقضها من الطرف الصليبي.[٤٣]

فقد حدث في (٥٨٢هـ/ ١١٨٧م) أن نقض البرنس رينودي شاتيون صاحب الكرك الهدنة مع صلاح الدين، وقام بالاستيلاء على قافلة كبيرة كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق، ولم يجب إلى طلب صلاح الدين بإطلاق سراح أسرى القافلة وتقديم تعويضات لهم،[٤٤] فما كان أمام صلاح الدين إلى إعلان القتال ضد الصليبيين، فأرسل إلى القوات الإسلامية في كل من حلب ودمشق والموصل والجزيرة، إضافةً إلى القوات المصرية، فتمكَّنت من إحراز العديد من الانتصارات، كانت أولاها عند صفورية في أواخر (صفر ٥٨٣هـ/ مايو١١٨٧م)، ثم تلتها مدينة طبرية[٤٥] - وكانت صاحبتها إيشف زوجة ريموند الثالث كونت طرابلس- والَّتي سقطت في أيدي القوات الإسلامية في (١٧ ربيع الثاني ٥٨٣هـ/ ٢٦ جوان١١٨٧م)،[٤٦] لتنذر تلك الانتصارات من الجانب الإسلامي بقرب مواجهة عسكرية ضخمة يشارك فيها من الجانبين غالبية الجيوش.

كان من نتيجة سقوط طبرية دون قلعتها، ووصول أنباء ذلك إلى الصليبيين، أن جهزوا جيوشهم وزحفوا بها لملاقاة القوات الإسلامية، حيث التقى الجمعان عند حطين، وبعد قتال عنيف بين الطرفين انتزع المسلمون فيه النصر على أعدائهم، وكان ذلك يوم السبت (٢٥ من ربيع الثاني ٥٨٣/ ٠٤ جويلية ١١٨٧م)،[٤٧] وقد قتل وأسر في هذه الموقعة الكثير من الصليبيين حتى أن ابن الأثير يذكر عن نتائجها بقوله: "وكثر القتل والأسر فيهم، فكان مَنْ يرى القتلى لا يظن أنَّ هناك أسرى، ومَنْ عاين الأسرى لا يظن أنَّ هناك قتلى"،[٤٨] حتىَّ أنَّه وقع من جملة الأسرى الصليبيين، صاحب الكرك أرناط وملك بيت المقدس جاي دي لوزجنان وأخوه والعديد من الفرسان.[٤٩]

لا شك في أن موقعة حطين كانت نقطة تحول هامة في تاريخ الصراع الإسلامي- الصليبي، فبانتصار المسلمين فيها، صارت المدن الصليبية كلها مفتوحة أمام صلاح الدين وقواته نظرًا لفقدان الطرف الصليبي فرسانه ومقاتليه، ممَّا جعل مدنه خاليةً ممن يدافعون عنها،[٥٠] فكان لانتصار حطين في مستهل (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) بداية لانتصارات عديدة خلال هذه العام، تمكَّن خلالها صلاح الدين من فتح الكثير من المدن الساحلية والقلاع،[٥١] أثمرت في النهاية على استرداد المدينة المقدسة من الصليبيين بعد إحدى وتسعين سنة من تملُّكها خلال الحملة الصليبية الأولى (٤٩١هـ/ ١٠٩٩م).

فقد هدى تفكير صلاح الدين إلى توجيه جهود المقاومة صوب المدن الساحلية بغية استردادها، لأهمية ذلك في تضيق دائرة الحصار الإسلامي على الساحل الشامي الواقع تحت السيطرة الصليبية، فكان قبل ذلك قد توجه صوب قلعة طبرية التي استلمها من صاحبتها الكونتسية، حيث طلبت الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها مقابل تسليمها له، فأجابها صلاح الدين إلى ذلك،[٥٢] ثُمَّ توجه بعد ذلك لإخضاع مدن الساحل ففتح منها عكّا،[٥٣] والناصرة،[٥٤] وقيسارية[٥٥] وحيفا ليأخذ بعدها الطريق نحو الداخل حيث تمكَّن من استرداد صفورية،[٥٦] ومعليا،[٥٧] والفولة،[٥٨] وسبسطية،[٥٩] ونابلس،[٦٠][٦١] ولم يواجه صلاح الدين أية صعوبات تذكر في استيلائه على تلك الجهة نظرا لخلوها من المدافعين عنها، حيث كان غالبية الجيش الميداني الصليبي قد قضي عليه في حطين.

إن اشتغال صلاح الدين بإخضاع الساحل الشامي لم يكن لينسيه ضرورة السيطرة على المدن والحصون الواقعة في داخل البلاد الصليبية، فقد كان يوجه أخاه الملك العادل وابن أخيه عمر تقي الدين للاستيلاء عليها، حيث نجح في ضم تبنين[٦٢] ومجدليابه،[٦٣] كما واصل مسيرة إخضاع مدن الساحل فاستولى على يافا،[٦٤] وصيدا، وبيروت، وجبيل، وعسقلان،[٦٥] وغزة،[٦٦] والدَّاروم،.... وغيرها من مدن الجنوب الشامي.[٦٧]

وأمام هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين على الصليبيين، باستيلائه على أغلب مدن الساحل الشامي- ماعدا صور-، صوَّب جهوده لاستعادة بيت المقدس وإرجاعها مدينة إسلامية كما كانت قبل استيلاء الصليبيين عليها، حيث أرسل وهو بعسقلان أوامره إلى الأسطول الإسلامي بمصر للقضاء على أي سفينة صليبية في السواحل الجنوبية، كما زحف هو بقواته إلى بيت المقدس فوصلها في (رجب ٥٨٣هـ/ سبتمبر١١٨٧م)، أين وجد الصليبيين وقد أعدُّوا أنفسهم للحرب، مستفيدين من الفرصة التي أتاحها لهم صلاح الدين بعدم مهاجمة المدينة بعد موقعة حطين، فحصَّنوا المدينة ونصبوا المجانيق على أسوارها، غير أن تصميم صلاح الدين على تملُّكها واستعادتها منهم دفعه إلى الأمر بالمهاجمة من الجهة الشمالية،[٦٨] فدار على إثرها قتال عنيف بين القوتين يصفه لنا ابن الأثير بقوله: "وقوتلوا أشدَّ قتال رآه أحد من النَّاس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينًا وحتمًا واجبًا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا يَنزجرون".[٦٩]

وبعد تلك الجولة من القتال العنيف، أدرك الصليبيون أنَّهم على مشارف الهلاك، فأخلدوا إلى المفاوضة وطلبوا الأمان من صلاح الدين مقابل تسليم المدينة، غير أنَّه رفض العرض قائلاً: "لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعة مائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها"[٧٠] فما كان من باليان بارزان صاحب الرملة وطرابلس- وقد كان ببيت المقدس عند حصارها – أن هدد بقتل أسرى المسلمين، وحرق المدينة وتخريب قبة الصخرة، وإتلاف ممتلكات الصليبيين وأموالهم، ومواصلة الحرب ضد المسلمين حتى آخر نفس، وحينها استشار صلاح الدين رجاله فأجابوه إلى الأمان والمصالحة وتسلم المدينة دون تخريب.[٧١]

وبهذا استقرت شروط تسليم المدينة بالأمان لصلاح الدين على أن يفتدي الرجل لنفسه مقابل عشرة دنانير، أما المرأة فتفتدي نفسها بخمسة دنانير، وعلى كل ولد أو بنت دينارين،[٧٢] ومنح الجميع مهلة أربعين يوما، فمن أدى الضريبة حينها سمح له بالخروج من المدينة آمنا بماله، ومن لم يؤدها أخذ مملوكًا، كما سمح للرعايا المسيحيين من الشاميين واليونانيين من البقاء في القدس كرعايا.

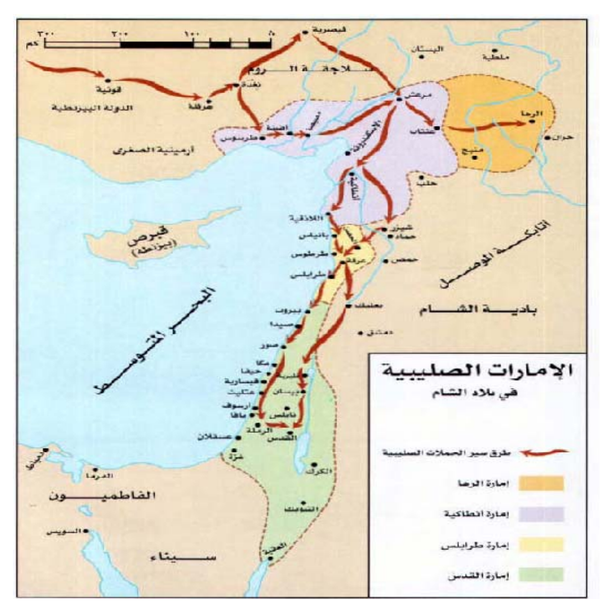
كان لهذا النصر الذي حققه المسلمون على الصليبيين باسترداد بيت المقدس، من أجلِّ الأعمال التي قام بها قادة المقاومة الإسلامية، إذ تكمن أهمية ذلك في أن الصليبين قد فقدوا أهم إقليم استولوا عليه في حملتهم الصليبية الأولى، مما كان له أثر بالغ على باقي الصليبيين في الإمارات الأخرى، كما وأن هذا النصر كان له وقع جليل في نفوس المسلمين الذين استبشروا له، وأثنوا على صلاح الدين، لما للمدينة المقدسة من مكان في قلوبهم.

وعلى أية حال؛ فإن حركة المقاومة الإسلامية التي زرع نواتها حكام مدينة الموصل في بلاد الجزيرة، ثم سقاها حكام حلب ودمشق في الشام، قد تكفَّل بقطف أحسن ثمارها صلاح الدين من إقليم مصر، لتكون الفترة الممتدة من حكم عماد الدين زنكي (٥٢١هـ- ٥٤١هـ/ ١١٢٧م- ١١٤٦م) مرورًا بفترة حكم نور الدين (٥٤١هـ- ٥٦٩هـ/ ١١٤٦م- ١١٧٤م) وإلى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) من أهم فترات الصراع الإسلامي ضد الوجود الصليبي على أراضي الإسلام.

خَاتِمَةُ

خط صلاح الدين لمسيرة حياته حروفًا من ذهب بعد أن تمكن من قطف ثمار ما قد زرعه أسلافه من بذور للمقاومة فتمكن من استكمال طوق الصد الاسلامي بضمه مصر وجنوب الشام وحصر القوات الصليبية على الساحل الشامي، فكانت سنين حكمه مليئة بالانتصارات استعاد من خلالها العديد من المدن والقلاع والحصون، فكانت هذه الجبهة وقائدها خير خلف لخير سلف، بل أن ما حققه صلاح الدين على مستوى جبهة جنوب الشام- مصر كان لها أثر معنوي بالغ لطرفي الصراع لما تحويه مدينة بيت المقدس من قدسية واعتبارها محور تلك الحروب حين اصطباغها بالمظهر الديني، فأرهبت تلك المكاسب المحققة جموع الصليبيين، ومنحت للمسلمين دفعًا مضاعفًا لمواصلة المقاومة في سبيل إجلاء الأعداء عن أراضيهم.

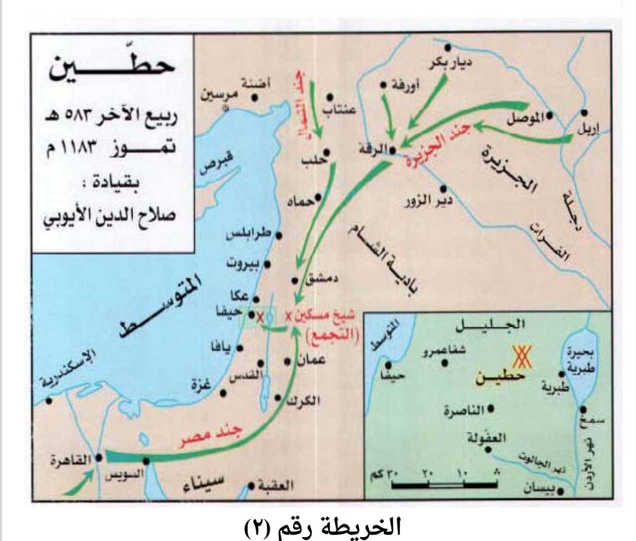
الملاحق:



الخريطة رقم (١)

خريطة توضح الإمارات الصليبية ببلاد الشام والجزيرة

نقلاً عن: شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر العربي، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢، ص٨٦.



الخريطة رقم (٢)

خريطة توضح معركة حطين

المصدر: شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص١٠١.

الهَوامِشُ:

(١) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت. ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م): **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦، ١٤٢/١١، ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تح، إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ٥/ ٣١٣، ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي(ت.١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح، لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت)، ١٧٧/٤.

(٢) حامد غنيم أبو سعيد، **الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر**- دار السلام، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٢١٣-٢١٦

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٢٩٠/١١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٦٣/٥، ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٣٢/١٢٣٤م) **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، دار القلم العربي، حلب، ط٢، ١٩٨٧، ص ٤٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٢٩٨/١١-٢٩٩.

(٥) محمود محمد الحويري، **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين**، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص ١٣٠- ١٣١، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٥- ١٦.

(٦) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م): **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تح: محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة للنشر، القاهرة، ١٩٦٢، ٣٣٢/١، ابن الأثير، الكامل، ٢٩٩/١١.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ٢٩٩/١١.

(٨) أبو شامة، **الروضتين**، ٣٣٥/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣٤٧/٥.

(٩) حامد غنيم، المرجع السابق، ص ٢١٨.

(١٠) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م): **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، مج١، ٣٧٦/٢.

(١١) ابن الأثير، **الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٢١- ١٢٢، أبو شامة، **الروضتين**، ٣٣٥/١- ٣٣٧.

(١٢) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م): **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٢، ١/ ١٤٩، ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٣٢

(١٣) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٥٠.

(١٤) ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص ٤٥، حامد غنيم، المرجع السابق، ص٢٢٥-٢٢٧

(١٥) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٤٠، أبو شامة، **الروضتين**، ٣٩٦/١- ٣٩٧.

(١٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣٥١/٥.

(١٧) ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٣٣٥- ٣٣٦، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ١٦١/١-١٦٢.

(١٨) لم تدم فترة حكم أسد الدين شيركوه في الوزارة الفاطمية سوى خمس وستين يوما، توفي بعدها، فكانت وفاته في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/ ٢٣ مارس ١١٦٩م، ويذكر المؤرخون أن سبب وفاته هو كثرة تناوله للحوم المدهنة فأصيب بالتخمة والخوانيق، أبو شامة، **الروضتين**، ٤٣٨/١، ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ٤/ ٢١١.

(١٩) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٥/ ٣٨١، ابن الأثير، **الكامل**، ٣٤٣/١١-٣٤٤، ابن شداد، **النوادر**، ص ٥٠، ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق حسن محمد الشماع، بيروت، ١٩٧٠، مج٤، ١/ ٦٧.

(٢٠) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٢٠٠/١، الحويري، المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢١) ابن الفرات، تاريخه، مج٤، ٦٧/١- ٦٨، حامد أبو غنيم، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٢٢) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٤٣.

(٢٣) يذكر أبو شامة عن هؤلاء أن عزمهم على إعادة بعث الخلافة الفاطمية، وتيقنهم إلى حد كبير بنجاح المؤامرة كان أن دفعهم إلى تعيين الرجل الذي سيتولى الخلافة فيها، وكذلك الرجل الذي كان سيتولى مقاليد الوزارة، أنظر: **الروضتين**، ٥٦٤/١.

(٢٤) **الشوبك**: بلد صغير، كثير البساتين وغالب ساكنيه النصارى، وهو شرقي الغور، وهو على طرق الشام من جهة الحجاز وينبع من ذيل قلعتها عينان، أحداها على يمين القلعة والأخرى عن يسارها وهي في واد من غربي البلد، وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن علي (ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، د ت، ص ٢٤٧.

(٢٥) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٥٨-١٦١، أبو شامة، **الروضتين**،٥٦٠/١-٥٦٥، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٢٢١/١، ابن الفرات، تاريخه، مج٤، ١/ ١٨٤-١٨٥.

(٢٦) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص١٥٨- ١٥٩، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٢٢٢/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/ ٢٢- ٢٣، المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **السلوك في معرفة دول الملوك**، تح محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦، ٤٩/١، أبوشامة، **الروضتين**، ٥١٨/١.

(٢٧) ابن شداد، **النوادر**، ص ٥٥.

(٢٨) ابن الأثير، **الكامل**، ٣٨٦/١١- ٣٨٧.

(٢٩) ابن الأثير، **الكامل**، ٤٠٢/١١، الحريري، أحمد بن علي بن أحمد، **الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين**، تحقيق، مهدي رزق الله أحمد، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ط١، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص٣٠، ابن شداد، **النوادر**، ص ٥٦.

(٣٠) يذكر ابن شداد عن وفاة نورالدين فيقول: " كانت وفاته رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته، عجز الأطباء عن علاجها، ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكان جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يرده إذا تحقق قصده قال: وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال: شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاه رحمه الله تعالى ورضي عنه" انظر، **النوادر السلطانية**، ص٥٦.

(٣١) ابن الأثير، **الكامل**، ٤٠٥/١١.

(٣٢) أبو شامة، **الروضتين**، ٢٣١/١.

(٣٣) محمود محمد الحويري، **بناء الجبهة**، ص ١٦٥، حامد أبو غنيم، المرجع السابق، ٢٤٧.

(٣٤) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٧/٢، أبو شامة، **الروضتين**، ٥٨٩/١.

(٣٥) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٢/ ١٦- ١٧، ابن الأثير، **الكامل**، ١١/ ٤١٤.

(٣٦) **الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)**، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ١/ ٣١.

(٣٧) ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص ٤١.

(٣٨) بالنسبة للجبهة الإسلامية فقد تحدثنا على أهم العقبات الداخلية التي اعترضت صلاح الدين عن استئناف حركة الجهاد ضد الصليبيين بعزم وجدية، أما على مستوى الجبهة الصليبية فهي الأخرى كانت تعاني من إضرابات، تجلت في انهيار ذلك التحالف الذي كان قائما بين البيزنطيين والصليبيين، كما وأن العلاقات بين الأمراء الصليبيين قد ساءت، خاصة بعد وفاة ملك بيت المقدس عموري (أملريك)، واختلافهم في تولية خليفة له، أنظر: أرنست باركر: **الحروب الصليبية**، دار النهضة العربية، ترجمة، السيد الباز العريني، بيروت، د ت، ص ٨٠ – ٨٢.

(٣٩) ابن شداد، **النوادر**، ص ٦٦، المقريزي، السلوك، ٦٤/١.

(٤٠) بانياس: على طرف الحولة وحدة الجبل، وهي بلدة صغيرة، ذات أشجار محمضات وأنهار، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميل إلى الجنوب والصبيبة اسم لقلعتها، وهي من الحصون المنيعة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٢٤٩، المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت. ٣٨٨هـ/٩٩٨م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تح، ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٧م، ص ١٦٠، القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) **صبحي الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م، ١٠٤/٤.

(٤١) ابن الأثير، **الكامل**، ١١/ ٤٥٣، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٧٣/٢.

(٤٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٧٥/٢- ٧٧.

(٤٣) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٢/ ٨١- ٨٢، ابن الأثير، **الكامل**، ١١/ ٤٥٦- ٤٥٧، الحويري، **بناء الجبهة الإسلامية**، ص ١٨٥.

(٤٤) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٢٧/١١-٥٢٨، حسن حبشي، المصدر السابق، ٣٢/١.

(٤٥) **طبرية**: وهي في الغور على ضفة بحيرة لها طولها إثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال، والجبل من غربي المدينة والبحيرة من شرقيها والجبال تدور بها وكانت طبرية قديما قاعدة الأردن، أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص ٢٤٧.

(٤٦) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٣١/١١-٥٣٤، الحريري، **الإعلام**، ص ٣٣، حسن حبشي، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٤٧) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٣٤/١١، ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص ٩٧- ١٠٣.

(٤٨) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ١٩٣/٢، ابن الأثير، **الكامل**، ٥٣٧/١١.

(٤٩) الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠١)، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، المطبعة الخيرية، ط١، ١٣٢٢هـ، ص٨٠، أبو شامة، **الروضتين**، ٨٢/٢، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ١٩٣/٢، ابن الأثير، **الكامل**، ٥٣٧/١١-٥٣٨.

(٥٠) أحمد الشامي، **صلاح الدين والصليبيون**، مكتبة النهضة العربية، ط١، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٣٢.

(٥١) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٤٠/١١.

(٥٢) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٣٨/١١.

(٥٣) **عكّا**: مدينة كبيرة من سواحل الشام، وداخلها عينٌ تعرف بعين البقر، وبها مسجد يُنسب إلى صالح عليه السلام وبين عكا وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً، ومنها إلى مدينة صور إثنا عشر ميلاً، استرجعها المسلمون من يدي الإفرنج سنة تسعين وستمائة، أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص ٢٤٣.

(٥٤) **النَّاصرة**: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً، فيها كان مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ومنها اشتق اسم النصارى، ياقوت، **معجم البلدان**، مج٤، ٣٦٠/٨.

(٥٥) **قيسارية**: بلد على ساحل بحر الشام، تعدُّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، كانت قديمًا من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، ياقوت، **معجم البلدان**، مج٤، ١٠٧/٧.

(٥٦) **صفورية**: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي قرب طبرية، ياقوت، **معجم البلدان**، مج٣، ١٩٥/٥.

(٥٧) **معليا**: من نواحي الأردن بالشام، ياقوت، **معجم البلدان**، مج٤، ٢٨٨/٨.

(٥٨) **الفولة**: بلدة بقلسطين من نواحي الشام، ياقوت، معجم البلدان، مج٣، ٦/ ٤٤٨.

(٥٩) **سبسطية**: مدينة قرب سميساط، محسوبة من أعمالها على أعلى الفرات ذات سور، والمشهور هي بلدة من نواحي فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يومان، ياقوت، معجم البلدان، ٥/ ١٩.

(٦٠) **نابلس**: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين، مستطيلة لا عرض لها، القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود (ت. ٦٨١هـ/ ١٣٨٢م) **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٢٧٧، الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت. ق٤هـ/١٠م): **المسالك والممالك**، تح، محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، مصر، ١٩٦١، ص ٤٤.

(٦١) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٤٠/١١، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٢٠٢/٢-٢٠٣، الحريري، **الإعلام**، ص ٣٥-٣٦

(٦٢) **تبنين**: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور، ياقوت، **معجم البلدان**، مج١، ٤٣١/٢.

(٦٣) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٤١/١١، ابن شداد، **النوادر**، ص ١٠٥.

(٦٤) **يافا**: بلدة صغيرة كبيرة الرحاء، ساحلية من الفرض المشهورة، ومدينة يافا كانت حصنا كبيرا فيه أسواق عامرة ووكلاء النجار ومينا كبير فيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين والمقلعة منها إلى كل بلد، وبينها وبين الرملة ستة أميال وهي في الغرب عن الرملة، أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص ٢٣٩.

(٦٥) **عسقلان**: بلد بها آثار قديمة على جانب البحر بينها وبين غزة إثنا عشر ميلا، وبينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلا، وهي من جملة ثغور الإسلام الشامية، وهي من أجل مدن الساحل، أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص ٢٣٩.

(٦٦) **غزة**: بلدة متوسطة في العظم ذات بساتين على ساحل البحر، وبها قليل نخيل وكروم، بينها وبين البحر أكوام رمال، ولها قلعة صغيرة، اختلف في طولها والأقوى أنه ستٌّ وخمسون على ما ذكره صاحب كتاب الأطوال، أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص٢٣٩.

(٦٧) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٤٢/١١-٥٤٣، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٢٠٦/٢. الحريري، الإعلام، ص ٣٥-٣٦، ابن شداد، **النوادر**، ص ١١٦.

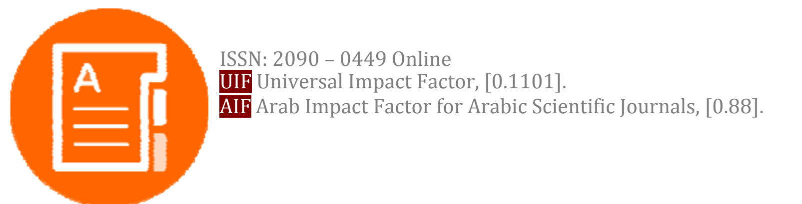
(٦٨) ألبير شاندور: **صلاح الدين – البطل الأنقى في الإسلام**- ترجمة، سعيد أبو الحسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٣٠.

(٦٩) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٤٧/١١، حسن حبشي، المصدر السابق، ٤١/١- ٤٢.

(٧٠) ابن الأثير، **الكامل**، ٥٤٨/١١، الحريري، الإعلام، ص ٣٦.

(٧١) ألبير شاندور، المرجع السابق، ص ٢٢٩- ٢٣٢.

(٧٢) هكذا عند ابن الأثير وابن واصل، فدية الطفل من الذكور والإناث دينارين، **الكامل**، ٥٤٩/١١، **مفرج الكروب**، ٢٣٤/٢، أما ابن شداد، فيذكر أن فدية الطفل دينار واحد، **النوادر**، ص ٨٢، أنظر كذلك: ألبير شاندور، **صلاح الدين**، ص ٢٣٢.


ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

أداة في خدمة الاستعمار

التعليم في شمال المغرب (١٩١٢ – ١٩٥٦)

ترجمة وتعليق

د. سلوى الزاهري

أستاذة التعليم العالي

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

طنجة – المملكة المغربية

Irene González González, “Un instrumento al servicio de la colonización: La enseñanza en el Norte de Marruecos (1912-1956)”, en X Congreso de la Asociación de Historia Contemporánea. Nuevos horizontes del pasado: culturas políticas, identidades y formas de representación. Santander, 2010.

تاريخ استلام المقال: ٢٤ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ١٧ يونيو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
المدرسة الاستعمارية، المدرسة الإسبانية، المدارس القرآنية، المدارس المغربية، المجتمع المغربي

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
أداة في خدمة الاستعمار: التعليم في شمال المغرب (١٩١٢ - ١٩٥٦)/ ترجمة: سلوى الزاهري.- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة - العدد السادس والثلاثين؛ يونيو ٢٠١٧. ص١٤٢ – ١٥٠.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041872

ملخص

أقامت الإدارة الإسبانية بعد فرض الحماية على المغرب سنة ١٩١٢، نظامًا تعليميًا متعددًا موجهًا لأبناء العائلات الإسبانية التي بدأت تستقر بمنطقة الحماية، وكذلك إلى الساكنة المغربية المسلمة واليهودية. واعتبرت السلطات الاستعمارية مسألة تعليم المغاربة وسيلة لممارسة المراقبة السياسية والاجتماعية عليهم وعلى مجالهم. وتوطد دور المدرسة باعتبارها أداة استعمارية ابتداء من سنوات الاضطرابات السياسية العسكرية (١٩١٢-١٩٢٧)، بواسطة النموذج الإسباني -العربي الذي كان ينسج على منوال المبادرة الفرنسية المطبقة في الجزائر (منتصف القرن التاسع عشر). وقد حولت حكومة الجنرال فرانكو النظام التربوي الإسباني-العربي إلى نموذج تعليمي مغربي من خلال صيرورة مغربة التعليم، والمواد، واللغة، والمدرسين.

مُقَدِّمَةُ

أدى قيام نظام الحماية في المغرب سنة ١٩١٢ إلى تقسيم الإمبراطورية الشريفة إلى ثلاثة مناطق مختلفة، ولو أنها ظلت نظريا تحت سيادة السلطان المغربي. فقد مارست فرنسا سلطتها على وسط البلاد وجنوبها، بينما ظل شمال البلاد تحت السيطرة الإسبانية، باستثناء مدينة طنجة التي خضعت لنظام دولي، ووُضعت تحت مراقبة أربعة قوى هي: فرنسا والمملكة المتحدة، وإسبانيا وإيطاليا. ومارست إسبانيا خلال السنوات الأولى للحماية الإسبانية مراقبة سياسية وعسكرية جزئية على المجال الذي كانت تديره، مقتصرة على المراكز الحضرية (تطوان، القصر الكبير، العرائش، أصيلة، الواقعة في المنطقة الغربية؛ أو زغوان وزايو بأقصى الشرق) بسبب المقاومة العسكرية بقيادة أحمد الريسوني ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، وموقف بعض شرائح الساكنة المغربية من فرض الحماية. وأسفر هذا الوضع عن اختلال كبير في نظام الحماية، بلغت آثاره حتى إلى إسبانيا. وقد انتهت فترة القلاقل السياسية والعسكرية سنة ١٩٢٧ مع استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي[1]، سنتين بعد وفاة الريسوني عام ١٩٢٥.

في هذا الإطار، لعبت السياسة التعليمية التي طوّرتها إسبانيا في المغرب دورًا محوريًا. فقد كان للسلطات الاستعمارية تصورًا للتعليم بكونه أداة لممارسة الرقابة السياسية والاجتماعية على السكان ومجالهم. وتوطّد دور المدرسة باعتبارها أداة استعمارية ابتداء من سنوات القلاقل السياسية-العسكرية، وحسب المبادئ التي أعلنها مؤتمر الجزيرة الخضراء.(٢) وشرعت إسبانيا ابتداء من هذه اللحظة، في إنشاء نموذجها التعليمي الاستعماري الخاص القائم على ثلاثة نماذج مدرسية: المدرسة الإسبانية، والمدرسة الإسبانية -العربية، والمدرسة الإسبانية-العِبْرية. وكانت كل واحدة منها تستهدف مجموعة بشرية محدّدة، وهو ما سمح لإسبانيا بأن تمارس مراقبة سياسية وإيديولوجية متزايدة على الساكنة.(٣)

سيركز المقال على تحليل النسق التعليمي الإسباني-العربي باعتباره أداة ثلاثية الأبعاد للمراقبة:

- مراقبة الساكنة، لأنه من خلال الطلبة كان بوسع إسبانيا أن تحصل على معلومات بخصوص ما يجري وما يُقال داخل الأسر المغربية.

- مراقبة المجال بفعل موقع هذه المدارس في المراكز الحضرية الأكثر أهمية، وفي النقط الاستراتيجية، وفي ملتقيات الطرق، أو في الأسواق.

- يتعلق الأمر كذلك بأداة لتكوين نُخبة مساندة لإسبانيا مرشحة للانخراط في النسق الإداري الإسباني. فالأهمية التي أولتها إسبانيا لهذا النموذج التعليمي نجده كذلك في مصطلحات هذه الفترة، فقد تغيرت تسميته مرات عدة طيلة عهد الحماية (المدارس القنصلية، مدارس الأهالي، المدارس المتقدمة، المدارس الإسبانية العربية، المدارس المغربية، المدارس المغربية الإسلامية). بيد أن ماهية هذه المدارس وأهدافها ظلت ثابتة. يتعلق الأمر بتعليم يتّبع خطى النموذج التعليمي الإسباني الذي كان يتكفل به أستاذ إسباني، بينما كان أستاذ مغربي مسؤولا عن تدريس القرآن واللغة العربية. وسار النموذج الإسباني-العربي على خطى المبادرة الفرنسية التي كانت بدورها منذ منتصف القرن التاسع عشر قد غرست في مستعمرتها الجزائرية النموذج التعليمي الفرنسي-العربي، وقد نقلته إلى المغرب في بداية القرن العشرين.(٤)

تعايش نماذج تعليمية: المدرسة الاستعمارية، المدرسة الوطنية، والمدرسة التقليدية

شجعت السياسة التعليمية التي طورتها إسبانيا في شمال المغرب، تعايش مختلف الأنماط المدرسية، وكل واحد منها كان يستهدف قسما من الساكنة حسب معتقدها الديني (مسلمة، يهودية أو مسيحية) أو طبقتها الاجتماعية. لقد كان لمختلف المدارس التي وجدت على عهد الحماية غايات إيديولوجية محددة، ويمكننا أن نميز بين ثلاثة أنماط:

- المدرسة الاستعمارية
- والمدرسة الوطنية
- والمدرسة التقليدية.

وقد شجعت الإدارة الإسبانية -التي كانت واعية بأهمية الدور الاجتماعي الحاسم الذي يمكن أن يلعبه التعليم-تعليمًا من نمط استعماري كانت للغة والثقافة الإسبانيتين مكانة محورية فيه. كانت المدرسة الاستعمارية مخصصة لتعليم الإسبانيين ولتكوين ساكنة مغربية مقرّبة من النظام الإسباني، ومرشحة لشغل المناصب الوسيطة داخل الإدارة، من قبيل المترجمين والكتاب. وضم النموذج الاستعماري مختلف المراكز التعليمية: المركز الخاص للتعليم الإسباني، التعليم العام، المدارس الإسبانية-العربية، والمدارس الإسبانية-العبرية. يتعلق الأمر بترسيمة مشابهة لغيرها عند الدول الاستعمارية، مثل فرنسا، التي كانت تتوفر بالمغرب على مدارس ممولة من طرف الرابطة الفرنسية(٥)، والمدارس الفرنسية-العربية، ومراكز الرابطة الإسرائيلية العالمية.(٦)

اضطلعت الأنظمة الدينية، مثل الآباء الفرانسيسكان، وأتباع مارية(٧) بالتعليم الإسباني الخاص، وكانت هذه المدارس تقع في المراكز الحضرية الأكثر أهمية بمنطقة الحماية، مثل: تطوان والعرائش والقصر الكبير. وكانت البرامج المقدمة من طرف الفرنسسكان تتبع البرامج الموجودة في مدارس شبه الجزيرة الإيبيرية، ولو أن تدريس اللغة العربية كان يشكل جزء من مواد البرنامج، وهذه كانت خاصية مدارسهم بشمال المغرب، وبما أن الأمر يتعلق بمدارس خاصة، فإنها لم تكن تخضع للحكومة، ولو أنها كانت تستفيد من إعانات الإقامة العامة.

كان التعليم العام الإسباني موجها إلى الإسبانيين، وإلى المغاربة في بعض الأحيان. وكان يمكن أن يكون للمدارس عدة مستويات (أستاذ لكل مستوى)، وكان يتم ربطها بمراكز سكنية ذات الأهمية المتوسطة أو الكبيرة. ويحصل في بعض الأحيان أن تكون هذه المدارس ذات قسم وحيد: أستاذ واحد وقسم واحد لأطفال من أعمار مختلفة، وقد تكون في بعض الأحيان مختلطة، وتجمع تلاميذ إسبان ومغاربة. في البداية أنشأت المدارس ذات القسم الواحد، وتحولت بعد ذلك إلى مدارس بمستويات عدة، حسب ازدياد حجم الجالية الإسبانية في مختلف المناطق. ونعثر على نفس النموذج في شبه الجزيرة الإيبيرية(٨). وتوقف اشتغال هذه المراكز على الاستقرار السياسي والعسكري بالمنطقة. وتجسد المدارس الإسبانية الواقعة في النطاق الجغرافي لأنوال، والتي ظلت مغلقة طيلة سنوات الاضطراب العسكري بالمنطقة (١٩٢٤-١٩٢٧)، خير مثال على ذلك.

استهدف التعليم الإسباني المغربي السكان المغاربة، واستعملته الإدارة الإسبانية أداة لمراقبة الساكنة. كانت المدارس الإسبانية -العربية تقع في المجالات الحضرية وفي الأماكن التي تعتبرها إسبانيا ذات أهمية جغرافية كبيرة (الأسواق، ملتقى الطرق...). فإلى جانب مكتب التدخل (Oficinas de intervención) كان هناك عيادة طبية والمدرسة الإسبانية- العربية التي يدرس بها أبناء المغاربة الذين يشتغلون مع المراقب الإسباني (Interventor)،

ترجمات

أبناء "أصدقاء المورو" والنخبة المحلية. وكانت إسبانيا تقدم منحا لبعض الطلبة لمتابعة دراستهم الثانوية بتطوان، وسبتة ومليلية. وكانت المراكز الإسبانية-المغربية تشبه المراكز الإسبانية-العبرية. وكانت هذه الأخيرة موجهة لأتباع الديانة اليهودية، وكانت مقتصرة على الوسط الحضري ولا تتعدى مدن تطوان والعرائش وأصيلة. وفي سنة ١٩٣٥ تم دمج المدارس الإسبانية-العبرية في المدارس الإسبانية، وأصبحت فروعًا عبرية داخل المجموعات المدرسية.

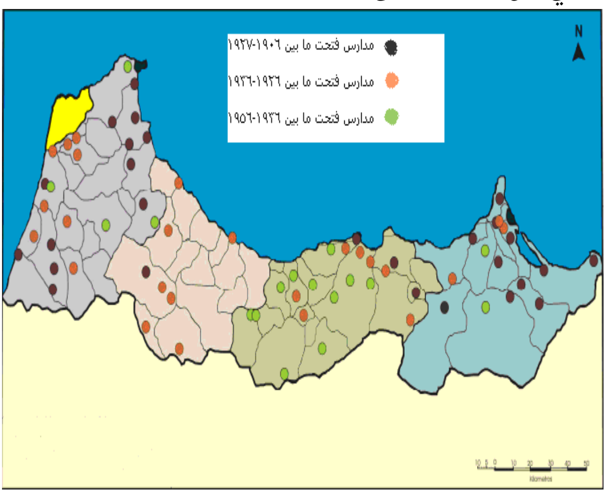
النموذج المدرسي الثاني الذي نجده على عهد الحماية هو **المدارس الوطنية**. فقد طالبت الحركة الوطنية في المرحلة الأولى بإدخال إصلاحات سياسية واجتماعية في إطار الحماية. وأنشأ عبد السلام بنونة ومحمد داود سنة ١٩٢٥ أول مدرسة وطنية بتطوان، وهي المدرسة الأهلية، التي استعادت البرامج الدراسية الأوربية، حيث يحتل تعليم التاريخ المغرب وجغرافيته وأدبه مركزًا مرموقًا. كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في هذه المدارس، عكس مدارس النموذج الاستعماري حيث كانت الإسبانية هي اللغة الناقلة. وكان أطفال الطبقة المتوسطة المرتبطة بالحركة الوطنية يتابعون دراستهم بهذه المدارس. واستفاد التلاميذ من منحة الإقامة العامة ابتداءً من سنة ١٩٣٧[٩] وسمحت لهم تلك المنحة بمتابعة دراستهم المتوسطة والعليا بإسبانيا، وبمصر، وبنابلس. وكانت موارد المدرسة الأساسية هي واجبات التسجيل التي يتعين على التلميذ أداؤها، وكذا هبات الوطنيين، وموارد أخرى ثانوية تمنحها الإقامة العامة.

النموذج الثالث كان يضم تعليما من نمط تقليدي يعطى **بالمدارس القرآنية**، والمدارس التلمودية المرتبطة باليهود المغاربة وبالبيعات. وظل هذا التعليم على حاله لقرون، وكان يرتكز على التكوين الديني عبر دراسة القرآن أو التلمود، ودراسة اللغة العربية والعبرية على التوالي. كان التعليم القرآني يخضع لوزارة الأحباس، بينما كان الرّبي الأعظم يتولى أمر التعليم العِبري.

المدرسة الإسبانية -العربية وسيلة لمراقبة المجال

لقد كانت المنطقة التي بسطت إسبانيا حمايتها عليها مجزئة إلى مراكز سكنية صغيرة. وكانت القبيلة هي نمط التنظيم الاجتماعي المهيمن خارج المراكز الحضرية الكبرى. وكانت القبيلة تنتظم حول مراكز سكنية صغيرة، وكانت الساكنة مشتتة حولها، في بيوت تقيم بها العائلة الموسعة. وكانت النتيجة المباشرة لهذ المعطى هو صعوبة مراقبة المجال. ولمواجهة هذا المعطى بدأت السلطات الإسبانية في تطوير سياسة هيكلة المجال[١٠] عن طريق إنشاء مراكز سكنية جديدة هدفها النهائي هو مراقبة المنطقة عسكريا. إن إنشاء مدينة الحسيمة هو مثال على ذلك. فقد كان الهدف من إنشائها هو هيكلة مجال الريف الأوسط. وارتبطت عملية هيكلة المجال منذ بدايتها بسياسة إنشاء المدارس. واعتبرت المدرسة أداة تكميلية تسمح بتقوية الرقابة السياسية والعسكرية. وبهذه الطريقة كانت إسبانيا تتبع أهدفا ثلاثة: هيكلة المجال، والتصدي للمقاومات والتخوفات من التسرب الاستعماري، وتكوين ساكنة تحت تأثير أيديولوجيتها الاستعمارية.

كانت الفكرة الاستعمارية الإسبانية تولي كذلك قيمة خاصة للمدارس التي كان ينبغي أن تساهم في توطيد الوجود الإسباني بالمنطقة مثلها في ذلك مثل المساجد[١١] وخلق فرص الشغل[١٢] وإنشاء البنيات التحتية من طرق وسكك حديدية.[١٣] وكان ينظر إلى التعليم كأداة حاسمة: "ليس ثمة شك في أن انتشار التعليم ينبغي أن يكون القاعدة الأساس في توطيد الحماية، وينبغي أن نعتني بكل ما يساعد على انتشاره مهما كانت الترتيبات".[١٤]



خريطة مراحل إنشاء المدارس الإسبانية – العربية في منطقة الحماية الإسبانية

يمكننا تمييز أربعة مراحل كرونولوجية مختلفة في صيرورة إنشاء المدارس الإسبانية-العربية بعد بداية الحماية:

- **المرحلة الأولى** تنحصر ما بين (١٩١٢) و(١٩١٦)، وخلالها تركز إنشاء المدارس في الوسط الحضري الذي كانت إسبانيا قد أنشأت به مندوبيات قنصلية، ومراكز تجارية ومعدنية، وثكنات عسكرية قبل فرض الحماية. ففي الجهة الشرقية من منطقة الحماية، نجد أن أولى المراكز المدرسية قد أنشأت حول المدن التي أقامتها إسبانيا والمرتبطة بالنشاط المنجمي وبإنشاء الثكنات العسكرية، مثل الناضور[١٥] وزغوان وجبل العروي، حيث توجد بنية سككية جيدة تملكها شركات استغلال المعادن بالريف[١٦] والتي فوتت خطوطها إلى الدولة طبقا للاتفاق التي ينظم استخدامها. ولم تتمتع المنطقة الوسطى من الريف، منطقة المقاومة ضد التغلغل الاستعماري، والمكونة من تضاريس صعبة، بأي رابط سككي مع باقي المجال. وقد عرقل هذان العاملان إنشاء المدارس إلى حدود "تهدئة" المنطقة سنة ١٩٢٧.[١٧]

المرحلة الثانية محصورة بين سنة ١٩١٦، تاريخ إنشاء أول مؤسسة تعليمية على عهد الحماية، وسنة ١٩٢٧، السنة التي نجح فيها الجيش الإسباني في بسط رقابته العسكرية على المنطقة التي يسيطر عليها. وقد تسارعت وتيرة فتح المدارس الجديدة في منطقة الحماية خلال هذه المرحلة. وظلت منطقتا جبالة

وكرت تحتويان على أكبر عدد من المراكز التعليمية، ومع ذلك بدأت هذه المراكز تقام في المناطق البعيدة عن المراكز الحضرية. وخلال هذه المرحلة الثانية، ولأول مرة في تاريخ الحماية الإسبانية، ستفتح مدارس في مناطق غمارة والريف، ولو أن هذه المدارس كانت تقع في مناطق القبائل الحدودية مع جبالة وكرت. وبذلك أصبحت المراقبة المتدرجة للمناطق الصراعية واضحة. وفي المنطقة الواقعة أقصى غرب منطقة الحماية، حيث كان أحمد الريسوني يقود المقاومة ضد الاستعمار، نجد أنه بموازاة تقليص منطقة نفوذه، يرتفع عدد المراكز المدرسية في المناطق التي تعتبر استراتيجية للإبقاء على مراقبة المنطقة التي تم احتلالها. "ينبغي حمل المدرسة إلى داخل القبائل، وحتى داخل الساكنة المتأسبنة الأكثر بعدا، ومعها اللغة القشتالية والتدريب على الممارسات الأساسية للحياة المتحضرة".(١٨) وتعتبر المدرسة التي فتحت بشفشاون نموذجا لذلك. فمراقبتها كانت حيوية جدا نظرا لأهميتها المزدوجة: استراتيجيًا، لأن الأمر يتعلق بباب الدخول إلى الريف، وهو ما يمنحها قيمة سياسية (في سنة ١٩١٤ تم الإعلان عن الرسيوني سلطانا لجبل شفشاون من قبل أتباعه). ودينيًا، لأن الأمر يتعلق بإحدى المدن المقدسة في الإسلام، وكان يُمنع دخولها على غير المسلمين إلى حدود سنة ١٩٢٢.

لقد كان سوق أربعاء بني حسان إحدى المفاتح الاستراتيجية بالنسبة للإسبان. فقد كانت بسبب موقعها الطبيعي مدخلا لسلسلة الريف، وكانت مرتبطة بتطوان والشاون والريف بواسطة خط طرقي. وبها كان يقام أحد الأسواق الهامة بالمنطقة. ولم يكن للسوق دور اقتصادي فحسب، وإنما كان كذلك مكان اجتماع وتلاقي وتبادل الأخبار، ومجالا مناسبا لحل الصراعات واتخاذ القرارات، وهو ما يضفي عليه أهمية كبرى لتقوية مراقبة الساكنة والمجال. ومثال آخر تجسده ثلاثاء ريسانة. فهي تقع بقبيلة الخلوط في الجزء الجنوبي الغربي لمنطقة الحماية الإسبانية، وسط سهل نهر لوكوس، في منطقة وافرة الإنتاج الزراعي حيث استقرت الشركات الفلاحية وشركات الصيد الإسبانيتين. وتتميز كذلك بكونها منطقة كبيرة الإنتاج التجاري حيث يقام سوق أسبوعي هو ثلاثاء ريسانة. وكان يخترقها الخط السككي الذي يربط طنجة وفاس بالدار البيضاء، ومدن أصيلا والقصر الكبير بالمنطقة الدولية وبالمدن الكبرى للحماية الفرنسية. وبضواحي ثلاثاء ريسانة أقيمت قاعدة عسكرية تذكر بالوجود العسكري الإسباني.

في المنطقة الشرقية، تركز إنشاء الوحدات المدرسية في نطاق مدينة مليلية، في مناطق زايو، ورأس الماء، ومناجم ويكسان، وفرخانة وزغانغان أو بودينار، حيث لعبت المناجم المعدنية والأنشطة التجارية والجيش دورًا في تلك الوحدات. فقد أقيمت في قبيلة بودينار، الواقعة في وسط سلسلة جبال الريف، ثكنة عسكرية مهمتها القضاء على بؤر المقاومة التي يؤججها أتباع ابن عبد الكريم الخطابي. وكانت المدرسة تستقبل التلاميذ الإسبان والمغاربة على حد السواء. وفي بداية الأمر تكفل الأساتذة وضباط الجيش والرهبان العسكريون بالتدريس في هذه المراكز. وارتكز التعليم بصفة خاصة في تلقين القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب، وكذا مفاهيم أساسية في تاريخ وجغرافية إسبانيا. وتوقف التعليم الذي يعطى في هذه المدارس حيث يختلط التلاميذ الإسبان والمغاربة، على مستوى معارف واهتمام الأستاذ. فقد كان الأساتذة يفتقرون إلى وسائل الدعم كلية تقريبًا، وكانت الدروس تعطى غالبًا في أقسام بصفة غير مبرمجة، وحتى في الهواء الطلق، بواسطة صبورات صغيرة.

لقد انتهت عملية السيطرة على المجال سنة ١٩٢٧. وفتح الاستقرار السياسي والعسكري الباب أمام **المرحلة الثالثة**، مع إنشاء مدارس جديدة في المناطق التي لم تطأها لحد الآن أقدام المدرسين. وقد تركز أكبر عدد من المراكز المفتوحة في مناطق الريف وفي منطقة غمارة. وغطت المراكز المدرسية في هذه المرحلة مجموع منطقة الحماية. ففي منطقة جبالة وكرت، ظلت وتيرة فتح المجالات الدراسية مرتفعة، وخاصة في المنطقة الأولى. وأصبحت جبالة سنة ١٩٣٦ المنطقة التي تضم أكبر عدد من المدارس ذات المنشأ الاستعماري. إلا أن التطور الأكبر هو الذي عرفته القبائل المتاخمة لمدينة طنجة الدولية. إن وجود مراكز حدودية، والقرب من الخطوط السككية، والحاميات العسكرية، فضلا عن مناطق الأنشطة التجارية، يبرر فتح المراكز الدراسية الجديدة.

لقد تم تدشين مدرسة تارجيست بمنطقة الريف سنة ١٩٣٠. وتعود أهميتها إلى موقعها الجغرافي، فبموقعها في وسط سلسلة جبال الريف، كانت عبارة عن نواة استراتيجية، لأنها كانت عصب المواصلات بين الحسيمة وتطوان، عن طريق تخترق السلسلة الجبلية وتسمح بمراقبة الهجمات المحتملة واستباق حدوثها. وفي نفس السياق كذلك يمكننا أن نذكر إنشاء مدارس وادي لاو، الواقع في مصب الوادي الذي يحمل نفس الاسم، حيث أقيمت إحدى أكبر المحطات الهدرو كهربائية على عهد الحماية، المكلفة بتزويد تطوان بالكهرباء. وفي منطقة كرت، كان القرب من مليلية والنشاط المنجمي والعسكري عناصر بنيوية بالنسبة لإنشاء مدارس جديدة، ولو أن عدد المراكز الجديدة خلال هذه المرحلة كان أقل نسبيا من المدارس التي تم إنشاؤها خلال المرحلة السابقة (١٩١٦-١٩٢٧).

يتميز إنشاء المدارس بهذه المناطق بسيادة طابعها القروي، بسبب غياب مراكز حضرية هامة وتشتت السكان الجغرافي. إن ضعف أعداد الإسبانيين المقيمين في هتين المنطقتين بسبب عدم الاستقرار العسكري حتى سنة ١٩٢٧ يوضح لنا كيف أن المتمدرسين كانوا مغاربة في غالبيتهم. فمكاتب التدخل، وموقع الأسواق وملتقيات الطرق كانت هي المناطق المفضلة لإنشاء المدارس. وكانت هذه الأخيرة تقع في بعض الأحيان على بُعد عدة كيلومترات من مكان إقامة تلامذتها. فإذا كانت أغلبية المدارس تقع سابقا في قلب نواة الساكنة، فإن مدارس مناطق غمارة والريف تتميز بموقعها بالقرب من مكاتب المراقبة ومن الأسواق،

ترجمات

وتدخل في دائرتها الجغرافية مجالات تأثير تتجاوز في بعض الأحيان عشرات الكيلومترات.

أما في منطقة جبالة، فتجدر الإشارة إلى منشآت أقيمت في مناطق مثل خميس الساحل والزِّينات، اللتان تم تدشينهما سنة ١٩٣٠. كانت الأولى (أي خميس الساحل) تستجيب لحاجيات مرتبطة بطلب مزدوج: طلب ساكنة إسبانية عمالية أساسا، تشتغل في الشركات الإسبانية للاستغلال الفلاحي؛ وطلب ساكنة مغربية تشتغل مع الإسبانيين وتربطها بهم علاقات وطيدة. أما الثانية (أي الزينات) فكانت تخضع لمصالح مرتبطة بوضعيتها كنواة حدودية مع طنجة ونقطة عبور على الطريق الرابطة بين تطوان وطنجة؛ ولكنها كانت كذلك مسقط رأس الريسوني، ومكان يمكن أن تنبعث منه المقاومة من جديد.

وقد تركزت أكثر من (٥٠%) من المدارس التي أنشأت بمنطقة الريف في قبائل بني ورياغل وبقيوة. وكانت هاتان المنطقتان المجاورتان الواقعتان في قلب جبال الريف، بؤرة المقاومة التي تزعمها ابن عبد الكريم، وكانت لإسبانيا مصلحة خاصة في مراقبتهما، وقد بررت إنشاء المدارس بهما بالشكل التالي: "إن إحدى الواجبات التي تفرضها الحماية على الدولة الحامية، ولعلها الأكثر أهمية بعد واجب ضمان الأمن والسلم الداخلي للمحميين، هي بلا شك واجب التعليم (...) إنه إذا من المستعجل، أن نشرع حال استكمال المرحلة الحربية من عملنا بالمغرب، بالعمل الحقيقي للحماية، والذي يكمن في انكبابنا على المدارس بكل أريحية."[١٩]

تستحق مدرسة الحسيمة الذكر، لأن افتتاحها كان نتيجة لظروف استثنائية للريف. فهي تقع في قبيلة بني ورياغل، ويرجع أصلها إلى الإنزال الإسباني في خليج الحسيمة سنة ١٩٢٤، تاريخ بداية الحملات الإسبانية الأولى بالريف. ويسمح خليج الحسيمة للريف بالاتصال مع مدن سبتة ومليلية عبر الطريق البحري. ولذلك أصبحت المدينة ثغرًا استراتيجيًا لمراقبة سلسلة جبال الريف، ولمحاربة ابن عبد الكريم، ولتزويد المنطقة بالمؤن. وأتاح إنشاء الحسيمة -كان تدعى آنذاك مدينة سان خورخو- للقوات الإسبانية ولوجا سريعًا في المنطقة، واقتصادًا في الوقت والمال والمجهودات، وسهلت لها بالإضافة إلى ذلك، التزود بالمؤن.

إلى حدود سنة ١٩١٦، كانت الحكومة الإسبانية قد أنشأت مدارس في مختلف المناطق، وقد ارتفع عددها ما بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩٢٧ إلى ستة عشر مدرسة، بينما تضاعف هذا العدد خلال الفترة ١٩٢٧-١٩٣٦، وارتفع إلى ٣٦ منطقة جديدة. إن فتح المدارس هو ظاهرة مرتبطة بتطور المراقبة الإسبانية للمجال. وعلى الرغم من ارتفاع عدد المراكز الدراسية، فإنها ظلت غير كافية لتلبية طلبات التلاميذ المغاربة والإسبان على حد سواء. وفي سنة ١٩٣٦ كانت إسبانيا تتوفر على مدارس في ستين موضعا مختلفا على الأقل، ولكن لم تكن هذه الأخيرة تغطي مجموع المجال. يتعلق الأمر بتعليم نخبوي لا يلجه إلا عدد محدود من الأشخاص.

المرحلة الرابعة والأخيرة توافق الفترة الفرانكوية. وقد عرف عدد المدارس الإسبانية -العربية خلال هذه السنوات ارتفاعا قويا ولو أنها لم تغط جميع القبائل. في سنة الاستقلال كانت قبيلة بني وليشك أو قبيلة بني سدات-وكلاهما في منطقة الريف-وقبيلة بني رزين وبني سلمان في منطقة غمارة، وقبيلة بني ليث وودراس في منطقة جبالة، لا يتوفرون على مدارس، على عكس منطقة كرت التي كانت قبائلها تتوفر على مدرسة إسبانية -عربية واحدة على الأقل. إن أسباب هذه الوضعية ليست ديموغرافية ولا مرتبطة بالكثافة السكانية. فالإحصاء الذي أجرته المندوبية السامية سنة ١٩٤٠ يوضح أن الكثافة السكانية كانت منخفضة في منطقة غمارة (٢٩,٥٢ شخص في الكلمتر المربع) مقارنة بباقي المناطق: جبالة (٣٦,٢٤ شخص في الكلمتر المربع)، الريف (٤١ شخص في الكلمتر المربع) وكرت (٥٠,٢ شخص في الكلمتر المربع). فقبائل مثل بني زجل في منطقة غمارة التي كانت بها أحد الكثافات السكانية الأكثر انخفاضا (١٩,٥ شخص في الكلمتر المربع) كانت تتوفر على مركز مدرسي، ونفس الشيء نجده في مناطق أخرى مثل مطالسة وبني بويحيى في منطقة كرت، بمدارسها الإسبانية-العربية وبكثافة سكانية تتراوح ما بين ١٩,٢ و١٦,١ شخص في الكلمتر المربع. في حين لم تكن قبائل مثل بني بوغافر، في منطقة كرت التي كانت كثافتها السكانية من بين الأقوى على عهد الحماية (١٤٥,٦ شخص في الكلمتر المربع) تتوفر سوى على مدرسة إسبانية-عربية واحدة ووحيدة. ولم تكن قبائل أخرى مثل قبيلة بني وليشك في منطقة الريف بكثافة سكانية ٨٣,٧ شخص في الكلمتر المربع، تتوفر على هذا النوع من المدارس. إن توزيع المدارس الإسبانية-العربية قد خضع إلى محددات أخرى، وعلى رأسها: الأهمية السياسية والعسكرية التي تمثلها المنطقة، وتوفر أو غياب الموارد الطبيعية -السهول الخصبة، شساعة منطقة الرعي أو المناجم القابلة للاستغلال من قبل الشركات الاستعمارية-وبذلك تفسِّر لنا الأهمية السياسية والاقتصادية كيف أن قبائل ريفية مثل قبيلة بني ورياغل، بكثافة سكانية ٥٨,٤ شخص في الكلمتر المربع، كانت تتوفر على خمس مدارس، أو قبيلة بقيوة بكثافة ٣٧,٩ شخص في الكلمتر المربع، كانت تتوفر على أربع مدارس.

إن تخوف الساكنة المغربية وريبتها من كل تعليم غير تقليدي طرح بعض المشاكل في وجه المدرسة الإسبانية -العربية. فكانت هناك ريبة من فقدان العناصر الهويّاتية الثقافية العربية الإسلامية، والخوف من أن يتم تعليم الشباب المغاربة وفق مذاهب الديانة الكاثوليكية، وهو ما كان سيبعدهم عن الإسلام ويحولهم إلى ديانة المستعمر الإسباني. وتتمثل إحدى الإجراءات التي اتخذتها الإدارة الإسبانية للتصدي لهذا التخوف وتشجيع الساكنة المسلمة على التقرب من هذه المراكز الاسبانية، في إدخال تعليم العربية، يتولاه أحد الأساتذة المغاربة، وتعليم القرآن يتولاه أحد الفقهاء.

إن الريبة تجاه المدارس الإسبانية-العربية القروية كان في بعض الأحيان بسبب موقعها الجغرافي، الذي كان مرتبطا بمراكز السلطة ومراقبة المجال، فبينما كانت المراكز الأولى بالمناطق الحضرية قد أقيمت في نطاق المكاتب القنصلية (oficinas consulares) نجد أن المدارس بالمناطق القروية قد أقيمت على

مقربة من الثكنات والفرق العسكرية. ولهذا السبب كان لقسم من الساكنة ريبة في إرسال أبنائه إلى هذه المراكز، خوفا من أن تكون مراكز إسبانية للتجنيد، تنتهي بإدماج الشباب المغربي في صفوف الجيش الإسباني. ومع ذلك، لا ينبغي أن يقتصر تفسير ضعف مشاركة المغاربة في المدارس الإسبانية على هذه العوامل. فلم يكن التعليم مُعمما في صفوف المجتمع المغربي، وكان الذكور وحدهم من يقصد "المسيد"، ويحدث أن الأسر التي تضم عددا من الذكور لا تبعث للدراسة إلا أكبرهم سنا ولفترة لا تتجاوز السنتين أو الثلاث سنوات. والهدف من هذه الدراسة هو جعل الأطفال يستأنسون بالمبادئ الدينية الأساسية، وكان الذين يتابعون دراساتهم في مستويات أعلى ولوقت أطول هم الذين يطمحون ليصبحوا فقهاء.

إن الظروف الاقتصادية الهشّة للمنطقة تفسّر كذلك النسب الضعيفة للتمدرس التي تميز القبائل، بما أن القاصرين كانوا مكلفين بمهام منزلية، مثل الاعتناء بالحيوانات، وبيع المواد في الأسواق، أو بالأعمال الفلاحية الموسمية، أو سقي الماء. إن الظروف المناخية وشبكة المواصلات كانت تشكل عوامل تسهل أو تصعّب – حسب الحالات-عدد المسجلين في المدارس الإسبانية-العربية. في بعض الأحيان كانت المدارس بعيدة عن مناطق السكان، وكان على التلاميذ أن يقطعوا عدة كلميرات مشيًا على الأقدام للوصول إليها.

لقد أصبح المراقبون Interventores حجز الزاوية التي تنبني حولها السياسات المدرسية، وخاصة في المناطق القروية. إن إحدى المهام التي أنجزها **المراقبون** كانت هي دعوة النخب المحلية إلى إرسال أبنائهم إلى المدارس الإسبانية-العربية، ليكونوا قدوة لبقية السكان، وبالتالي يقتنعون بالمزايا التعليمية لهذه المدارس، حيث كانت ممارسة المبادئ الدينية محترمة. ولم يكن لهذا العمل الإقناعي الذي قام به **المراقبون** تجاه النخب المحلية النتائج المرجوة دائما. وكان في بعض الأحيان من الضروري إعادة بعث الدعوات لكي تمدرس النخب أبناءها في هذه المدارس. بل طرحت في بعض الأحيان قضية أنزال عقوبات بأولئك الذين يرفضون (تمدرس أبنائهم بهذه المدارس). كان المراقبون يعرفون الوضعية الاقتصادية للعائلات، وكانوا يرون أنه من المناسب أن تخصص ميزانية خاصة لتوزيع أكلات يومية على التلاميذ. وكانت المدرسة الإسبانية-العربية في مليلية هي السباقة لهذه المبادرة سنة ١٩١٣. ودفع نجاح هذه المبادرة القائد العام لمليلية بعد ذلك ببضع سنوات إلى أن يطلب هذه الميزانية لمدرسة سوق الأحد ببني شيكر. إن مصلحة توزيع الألبسة كان ينظر إليها كمساعدة للعائلة. وكان تقديم الألبسة يعبر عن مكافأة، توزع خلال الاحتفالات المدرسية أو الدينية على التلاميذ المجتهدين وحين الضرورة. ومع ذلك تم تغيير هذه المصلحة، لأن بعض العائلات كانت تبيع الألبسة التي حصلت عليها، محرّفة بذلك الهدف الأصلي لهذه المبادرة.[٢٠]

نحو مَغْربة التعليم

لقد اقترن وصول الجنرال فرانكو إلى السلطة بإدخال مجموعة من الإصلاحات التعليمية في منطقة الحماية. وقد اتبعت ثلاثة اتجاهات: إعادة التنظيم الإداري للنظام التعليمي الاستعماري، وإعادة الاعتبار للتعليم الإسباني-العربي، وإدخال التعليم الإسلامي. وهذه الإجراءات كانت تستجيب من جهة، إلى مطالب الحركة الوطنية المغربية التي كانت قد قدمت مساندتها لتجنيد المغاربة خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وكانت تطمح من جهة أخرى إلى إرضاء المقيمين الإسبانيين في منطقة الحماية. وكانت السياسة التعليمة الفرانكاوية تنادي بتطوير منطقة الحماية تعليميا وثقافيا حسب مبادئ الأخوة الإسبانية-العربية.[٢١] وبعد تنظيم التعليم الإسباني بالمغرب، شرَع المقيم العام في تنظيم التعليم الإسباني-العربي. وكان الهدف الأسمى هو تسويق صورة لاهتمام الفرانكاوية بتثقيف الشعب المغربي، بتزويده بالأدوات التعليمية والثقافية التي ستكون في نفس الوقت الأدوات الضرورية للوصول إلى الاستقلال، والسماح له بالخروج من هذا "التأخر" الذي أدى إلى فرض الحماية.

إن التجديد التعليمي للحكومة الفرانكوية يتمثل في مَغربة التعليم التي حولت النموذج التعليمي الإسباني-العربي إلى النموذج المغربي عبر مغربة مدرسيه. عمدت الإقامة العامة في سنة ١٩٣٧، تحت رئاسة المقيم العام بيكبيدر على إعادة تنظيم المدارس العربية-الإسبانية[٢٢] وتحويلها إلى مدارس مغربية. بيد أن ما تم تغييره هو الإطار وليس المحتوى. فالتصور الإسباني-العربي ترك مكانه للتصور المغربي. وإدخال كلمة المغربي يفترض اعتراف إسبانيا بالهوية الوطنية القائمة على مفاهيم لسانية ودينية. ولقد حولت الإدارة الاستعمارية الإسبانية النموذج التعليمي الاستعماري إلى نموذج تعليمي "وطني"، يرتكز على اللغة العربية كلغة محلية تعليمية، وعلى التعليم الديني للإسلام، حيث سيتم تدريجيا استبدال هيئة الأساتذة الإسبانية بهيئة الأساتذة المغربية التي كانت اختصاصاتها تتجاوز تعليم اللغة أو الدين. وبدأت سيمة الأستاذ تتغير. وكان على الأساتذة المغاربة أن يحلوا شيئًا فشيئًا وتدريجيًا محل الطاقم التدريسي الإسباني بشغل جميع أقسام المركز، باستثناء دروس اللغة الإسبانية التي ظل المدرسون الإسبان-الذين لهم مبادئ في اللغة العربية-يتولون تدريسها. إن تربية الطفل المغربي التي كانت سابقا من مهام المستعمر، ستصبح من اختصاص أستاذ مغربي. وأصبحت المدارس يسيرها مغاربة، والطاقم البيداغوجي مكون في غالبيته من أساتذة مغاربة. كان المدرس أو الأستاذ مكلفا بإدارة المركز، ويشرف على احترام نظامه، والاعتناء بكل ما يهم المدرسة. وكان المدير يعتمد على مساعد له، وهو منصب شغله أستاذ إسباني كان يتولى الأمور الإدارية للمدرسة، وسجلات المصاريف بالعربية والإسبانية، مع بقائه في نفس الوقت المسؤول الأول عن تعليم اللغة الإسبانية. وكانت هذه الشخصية تضمن للمقيم العام وسيلة للمراقبة على

مدارسه. إن إحدى المستجدات الأكثر أهمية في هذا التنظيم هو تعيين "مدرسين" مسلمين كمديرين للمدارس، وأصبح الأستاذ الإسباني وصيًا إداريًا وتأديبيًا للإدارة. يتعلق الأمر هنا بتقدم مرموق في أفق منح المسؤولية للطاقم التربوي المغربي الذي بدأت أهدافه تتحدد. كان الإصلاح يقضي تبعية الطاقم المغربي للمقيم العام بصفة نهائية. وأصبحت مباريات شغل هذه المناصب والتعيين فيها من اختصاص المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي الذي كان مراقبًا من قبل المقيم العام، ولو أنه كان يتكون من أعضاء مرموقين من بين النخبة السياسية والاجتماعية والدينية. في سنة ١٩٣٨ دخل حيز التطبيق قانون الهيئة التعليمة المسلمة، مستجيبا إلى ضرورة تنظيم الطاقم التعليمي[٢٣]. وبموازاة ذلك تقررت ضوابط انتقاء هيئة التدريس، وكذلك أدخلت المواد المتعلقة بالمغرب في برنامج المباراة. وإلى حدود ذلك الوقت لم تكن تلك المواد مبرمجة في سلك الأستاذية.

وهكذا، يتضح أن الأمر يتعلق بالاستجابة لإحدى مطالب الحركة الوطنية: تطوير تعليم عصري يأخذ بعين الاعتبار الخصوصية المغربية. وبذلك نرى أن إسبانيا لم تخلق نموذجا تعليميا جديدا، وإنما اقتصرت على إعادة صياغة النموذج الإسباني-العربي القائم. لقد كانت الحركة الوطنية تتصور التطور التربوي / التعليمي والثقافي للمجتمع باعتباره إحدى الركائز الأساسية التي ينبني عليها تطور البلاد، وغايته النهائية هي الإدارة الذاتية والتسيير الذاتي، أي الحصول على الاستقلال. بالنسبة للوطنيين، كان على الإدارة الاسبانية-باعتبارها حامية-أن تزود الشعب المغربي بسلسلة من البنيات التحتية، والتي كانت الحركة الوطنية قد أنشأتها على نطاق ضيق، في المدارس الوطنية (المدرسة الأهلية ١٩٢٥، المعهد الحر ١٩٣٥). ومع ذلك فإن تطبيق ذلك القانون لم يكن حالا. فقد اعتبر المقيم العام أنه بالنظر إلى النقص في الأساتذة المكوَّنين، سيتم الاستعانة بالأساتذة الإسبان حتى يوجد جيل من الشباب المغربي المكون في إسبانيا وفي أوربا، ذو تكوين يسمح له بالاضطلاع بهذه المهام. وبسبب هذه الوضعية ظل الأستاذ الإسباني يتولى إدارة المراكز التعليمية.

ويندرج في ذات الإطار كذلك إعادة تنظيم التعليم المغربي الذي باشرته المقيمية العامة سنة ١٩٤٠.[٢٤] يتعلق الأمر بإصلاح هيكلي، هدفه هو تحسين تمفصلات النظام التعليمي بتقوية التعليم الابتدائي الذي تطور تطورا كبيرا خلال المراحل السابقة، وتطوير التعليم الثانوي مع إنشاء الباكالوريا المغربية. كانت إعادة التنظيم تسعى لتكون بديلا للمبادرات الوطنية في الميدان التربوي الذي بدأ منذ سنة ١٩٢٥ بتطوير نموذج تعليمي عصري بالعربية على غرار الأنظمة التعليمية المشرقية والأوربية، والذي توسع سنة ١٩٣٥ ليشمل التعليم الثانوي مع إنشاء "المعهد الحر بتطوان". وكان الوطنيون يرون بعد إنشائهم للمعهد الحر، أنه لم يعد هناك مبرر أمام الطلبة للسفر إلى الشرق الأوسط -مصر أو نابلس-أو إلى إسبانيا لمتابعة دراستهم. ولقد استبقت الحركة الوطنية الإدارة الإسبانية بإنشائها للمعهد الحر. ومن جهة أخرى، كان الإصلاح يقتضي إدخال سلسلة من التعديلات على النموذج التربوي استجابة للمطالب التي قدمتها الحركة الوطنية، وهو ما كان يحسن صورة إسبانيا أمام الدول العربية بالمشرق. وبعد عشر سنوات، في سنة ١٩٤٨ [٢٥] دخل حيز التنفيذ تنظيم جديدة للتعليم الابتدائي الإسلامي. ورفع برنامج الدراسة الجديد عدد ساعات التمدرس إلى ثلاثة وثلاثين ساعة في الأسبوع. وكانت اللغة العربية والإسبانية هما المادتان اللتان تحظيان بنصيب الأسد من عدد الساعات: عشر ساعات في الأسبوع للغة العربية، وست ساعات للغة الإسبانية. ولقد رفع إصلاح سنة ١٩٥٤ عد ساعات الدراسة إلى خمسة وأربعين ساعة.[٢٦]

إن إعادة تنظيم التعليم الابتدائي الإسلامي وخلق الباكالوريا الإسلامية جعل من الضروري صياغة نصوص مدرسية منسجمة مع المقررات الدراسية الجديدة. وهكذا نظمت الإدارة الإسبانية مباراة لبلورة الكتب المدرسية. يتعلق الأمر بكتب التعليم الابتدائي الخاصة باللغة الإسبانية، وتعلم العربية، والأدب الإسباني ومبادئ الأدب العالمي، وجغرافية المغرب، والجغرافية العالمية، وخاصة جغرافية إسبانيا، وتاريخ المغرب والتاريخ العالمي، وخاصة تاريخ إسبانيا.[٢٧] وكان المغاربة وحدهم المسموح لهم التقدم لمباراة مادتي جغرافية المغرب وتاريخه، بينما كان يسمح للإسبان والمغاربة التقدم إلى المباريات المتعلقة بالمواد الأخرى. في سنة ١٩٤٣، شملت المباراة المواد التالية: الدين والأخلاق، النحو العربي، الأدب العربي، التاريخ، الجغرافية، الرياضيات، العلوم الطبيعية، كتب القراءة والأدب الإسباني.

خلاصة

طيلة عهد الحماية، أوجدت إسبانيا نظامها التعليمي الخاص بالساكنة المغربية المسلمة. وكان نموذج التعليم الإسباني العربي - ويسمى كذلك التعليم المغربي الإسلامي خلال الفترة الفرنكوية- مثالاً للتوافق بين الحداثة الأوربية واحترام التقاليد والهوية المغربية. وأصبحت هذه المدارس إحدى محاور السياسة الاستعمارية الإسبانية، وكان تطويرها يثير ريبة الساكنة المغربية وشكوكها. ولقد كونت فيها نخبة مساندة لإسبانيا ومساعدة لها على توطيد حضورها في المجال، وفي مناطق اعتبرت استراتيجية، أو كانت موضوع نزاعات.

إن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الفرنكوية في ميدان التعليم، لم تكن في عدد من الحالات، سوى إصلاحات رمزية، تهدف إلى التقرب من الحركة الوطنية، ولم يتم تطبيقها إلا جزئيا. إن خطاب النظام الفرنكوي كان يدافع عن بزوغ فترة جديدة من التفاهم، والدعم والاحترام للشعب المغربي المبني على ماضي مشترك: الأندلس والأخوة الإسبانية-العربية. ومع ذلك لم يكن لهذا الخطاب آثار عملية. فعند نهاية الحماية، لم يكن هناك أي أستاذ مغربي على رأس هذه المراكز. ففي أغلب الحالات، كان التكوين بهذه المدارس يتولاه الإسبان. فإذا كانت مغربة التعليم قد أعطت نتائج جيدة بالنسبة للصورة الخارجية لإسبانيا في العالم العربي،

وفي الداخل بالنسبة للحركة الوطنية، فإن الحقيقة على أرض الواقع كانت أبعد من أن تكون مرضية.

واجه المغرب بعد حصوله على الاستقلال سنة ١٩٥٦ مشكلة رباعية الأوجه في ميدان التعليم، كنتيجة مباشرة للفترة الاستعمارية. المشكل الأول هو كيفية جعل التعليم متجانسًا. لقد واجهت المغرب المستقل تحدي إنشاء نظام تعليمي واحد يقطع مع عدم التجانس التعليمي الموجود سواء في المنطقة الخليفية أو في المنطقة السلطانية، التي كانت بنية التعليم بها ونظامه متشابها مع نظام تعليم المنطقة الإسبانية. وينبغي أن يضاف إلى ذلك خصوصية النظام التعليمي بطنجة.

شكلت مسألة مغربة الطاقم التعليمي الوجه الثاني من المشكل الذي كان يتعين تحديه. فقد أظهر الاستقلال النقص الحاصل في عدد الأساتذة المغاربة المؤهلين، لكون جل مناصب التعليم كانت حكرا على الأساتذة الإسبان. لقد كان المغرب يفتقر إلى الأساتذة الذين يمكنهم تعويض الطاقم الأوربي. وكان تعريب التعليم هو الوجه الثالث للمشكلة. ولو أنه كان قد شرع في اتخاذ سلسلة من الإجراءات خلال الفترة الاستعمارية، فإن عملية تنزيلها على أرض الواقع، ظلت غائبة، بسبب نقص الأساتذة المغاربة المؤهلين في العربية. ذلك أن الطاقم التدريسي المغربي جرى تكوينه بلغة المستعمر. فكان على المغرب الجديد أن يواجه هذه المشكلة إن هو أراد ألا يستمر في استعمال اللغة الفرنسية أو الإسبانية في التعليم.

وأخيرًا، هناك قضية تعميم التعليم. كانت إسبانيا خلال فترة الحماية قد أصدرت قرارين في هذا الاتجاه. في سنة ١٩٤٢ تم فرض إجبارية تعليم الإسبانية، ولم يتم إجبارها في التعليم المغربي إلا سنة ١٩٥٤، ومع ذلك لم تخرج نصوصها التنظيمية إلى الوجود. ولم يكن عدد الطلبة المغاربة المتمدرسين بشمال المغرب عند نهاية الحماية سوى (٨%). في سنة ١٩٥٦، فتحت صفحة جديدة من تاريخ المغرب، وكان عليه مجابهة تحديات جديدة، نذكر منها في ميدان التعليم: تركة الماضي الاستعماري الذي كان على المغرب أن يبني فوقه نظامًا تعليميًا جديدًا.



الهَوامِشُ

(□) AYACHE Germain, 2001, **La guerre du Rif**, Paris, L´Harmattan.; MADARIAGA María Rosa de, 2009, **Abd-el-Krim el Jatabi : la lucha por la independencia**, Madrid, Alianza Editorial.

(□) GONZÁLEZ GONZÁLEZ Irene, ٢٠٠٨, «La Conferencia de Algeciras, motor de la política educativa europea en Marruecos », **in** PINTOR Antonio Pilar et O'NEILL PECIONO Rosabel (dir.), **La Conferencia Internacional de Algeciras de 1906. Cien años después**, Cadiz, Fundación Municipal de Cultura José Luis Cano, p. 477-490.; GONZÁLEZ GONZÁLEZ Irene, 2011, « La política educativa española en el Norte de Marruecos (1860-1912) », **in** MARTÍNEZ ANTONIO Francisco Javier et GONZÁLEZ GONZÁLEZ Irene, **Regenerar España y Marruecos. Ciencia y educación en las relaciones hispano-marroquíes a finales del siglo XIX**, Madrid, CSIC, p. 219-251.

(□) GONZÁLEZ GONZÁLEZ Irene, 2005, « La política educativa de España en Marruecos (1912-1956). Aproximación a un modelo educativo: la enseñanza hispano-árabe », **in** DAVILA P. y NAYA L.M. (coord.), **La infancia en la historia: espacios y representaciones**, Tomo II, Espacio Universitario Erein, Donosita, p. 700-708.

(□) COLONNA Fanny, 1975, **Instituteurs algériens 1883-1939**, Alger, Office des publications universitaires

(□) CHAUBET François, 2006, **La politique culturelle française et la diplomatie de la langue, L´Alliance Française (1883-1940)**, Paris, L´Harmattan.

(□) KASPI André (dir.), 2010, **Histoire de l'Alliance israélite universelle. De 1860 à nos jours**, Paris, Armand Colin; LASKIER Michel, 1983, **The "Alliance Israelite universelle" and the Jewish communities of Morocco, 1863-1962**, State University New York Press.

(□) LOURIDO DÍAZ Ramón (Coor.), 1996, **Marruecos y el Padre Lerchundi**, Madrid, Editorial Mapfre.; LOURIDO DÍAZ Ramón et al., 1993, **El cristianismo en el norte de África**, Madrid, Editorial Mapfre.

(□) VIÑAO FRAGO Antonio, 1990, **Innovación pedagógica y racionalidad científica. La escuela graduada pública en España (1898-1936)**, Madrid, Akal Universitaria. -, 1990 ; PUELLES BENÍTEZ Manuel de, 1999, **Educación e ideología en la España contemporánea**, Madrid, Editorial Tecnos.

(□) GONZÁLEZ GONZÁLEZ Irene, et AZAOLA PIAZZA Bárbara, 2008, «Becarios marroquíes en El Cairo (1937-1956): una visión de la política cultural del Protectorado español en Marruecos », **Awraq** Vol. XXV, p. 159-182.

(□□) Villanova José Luís, 2004, **El Protectorado de España en Marruecos. Organización política y territorial**, Barcelone, edicions Bellaterra.

(□□) Mateo Dieste, 2003, **La "hermandad" hispano-marroquí. Política y religión bajo el Protectorado español en Marruecos (1912-1956)**, Barcelone, edicions Bellaterra. : 221-274; MATEO DIESTE Josep Lluis, 2007, « El interventor y el Cadí. La política colonial española frente a la justicia marroquí durante el Protectorado de Marruecos (1912-1956) », **HISPANIA**. Revista Española de Historia, Vol. LXVII, p. 643-669.

(□□) Aziza Mimoun, 2003, **La sociedad rifeña frente al Protectorado español de Marruecos (1912-1956)**, Barcelone, edicions Bellaterra.: 72-97

(□□) Aziza Mimoun, 2003, **La sociedad rifeña frente al Protectorado español de Marruecos (1912-1956)**, Barcelone, edicions Bellaterra : 93-94

(□□) Note du Haut Commissaire, Francisco Gómez Jordana, Tétouan 18 janvier 1919. Archives Centrales de l'Administration d'Alcalá de Henares (AGA), Section

Afrique, Direction Générale du Maroc et Colonies, section éducation, Côte M-330, Exp. 1.

(□□) Aziza Mimoun, 2003, ***op.cit.*** ; Berriane Muhammad et Hopfinger Hans, 1999, **Nador (Maroc). Petite ville parmi les grands**, Tours, URBAMA.

(١٦) انتشرت في بداية القرن العشرين شائعات في أوربا حول وجود مناجم غنية بالمعادن في منطقة الريف. وبذلك حاولت عدة شركات أوربية، وخاصة الشركات الإنجليزية والإسبانية، الحصول على امتياز استغلال هذه المناجم. ومنح امتياز استغلال هذه المناجم في نهاية الأمر إلى الشركة الإسبانية لمعادن الريف، نتيجة اندماج المجموعات التي أنشأها إنريكي ماكفرسون وكليمينطي فرمانديز، وشركة فيكويروا- المملوكة لعائلة رومانونيص- وبيت كويل البرشلوني. وكان امتياز الاستغلال المنجمي يتضمن ترخيص بإنشاء سكة حديدية تصل المناجم بميناء مليلية. انظر:

(Madariaga, 1999 ; Rodrigo Alharilla, 2002).

(١٧) "إلى الآن، المناطق التي لم تصل إليها أسلحتها، لم يتمكن الأستاذ من دخولها. ولكن على الأقل، إننا ننشر التعليم في المناطق التي هدئناها. لكي يتماها معنا الشباب، ويتخرج منها مع الزمن، الموظفون والصناعيون والفلاحون، وحتى الأدباء ..."

انظر: (García Figueras, 1957: 207)

(١٨) مشروع إنشاء الماجستير القروي الأهلي الذي صاغه مجلس المدرسة العامة والتقنية لمليلية وأرسل إلى إدارة التدخل المدنية والشؤون العامة، مليلية في ٢١ فبراير ١٩٢٧.

AGA, Section Afrique, Haut Commissaire d'Espagne au Maroc, Archive du Protectorat au Maroc, Côte M-2034, Exp. 53.

(□□) Ceano-Vivas José, 1928, **La enseñanza en las kabilas**, Tétouan, Imprenta Martínez.

(□□) Valderrama Martínez Fernando, 1956, **Historia de la acción cultural de España en el Norte de Marruecos**, Tétouan, Imprenta del Majzen.

(□□) (Mateo Dieste, 2003, **La "hermandad" hispano-marroquí. Política y religión bajo el Protectorado español en Marruecos (1912-1956)**, Barcelone, edicions Bellaterra.; González González, 2007, « La "hermandad hispano-árabe" en la política cultural del franquismo (1936-1956) », **Anales de Historia Contemporánea** 23, p. 183-197.

(٢٢) ظهير ١٣ دجنبر ١٩٣٨ المتعلق بقانون بهيئة الأساتذة المسلمين الموضوعين رهن إشارة التعليم المغربي.

BOZPEM, n° 36, 21/12/1938, p. 873-886.

(□□)*Idem*, p. 873.

(٢٤) ظهير ٣١ دجنبر ١٩٤٠ بتنظيم التعليم المغربي

BOZPEM, nº 35, 21/12/1941, p. 203-212.

(٢٥) ظهير ٢ يونيو ١٩٤٨ بتنظيم التعليم الأولي الإسلامي

BOZPEM, n° 23, 04/06/1948, p. 758-762.

(٢٦) مرسوم وزيري بتاريخ ٢٢ دجنبر ١٩٥٤ بتنظيم التعليم الأولي

BOZPEM, n° 53, 31/12/1954, p. 1929-1938.

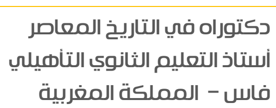
(٢٧) المساطر التي تنظم مباراة الكتب المدرسية المتعلقة بالباكالوريا المغربية.

BOZPEM, n° 28, 10/10/1941, p. 753-762.

ترجمات



التحولات الاقتصادية والاجتماعية في منطقة دكالة
على عهد الحماية الفرنسية
١٩١٢ – ١٩٥٦

د. أنس الصنهاجي

دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
فاس – المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – ظهر المهراز
فاس – جامعة سيدي محمد بن عبد الله
المغرب ٢٠١٤

The economic and social changes in Doukkala region under The French protectorate 1912 – 1956.
إعداد: الباحث أنس الصنهاجي
إشراف: أ.د. سمير بوزويتة

كلمات مفتاحية:
تاريخ المغرب المعاصر، تاريخ دكالة، الحماية الفرنسية، التاريخ الكولونيالي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041871

أهمية وطبيعة الموضوع

يعتبر هذا البحث من طينة البحوث المونوغرافية، التي حاولت سبر مرحلة هامة من مراحل العلاقات المغربية الفرنسية خلال عهد الحماية (1912-1956)، حيث ظلت هذه الفترة تشكل مقطعًا تاريخيًا مركزيًا في التاريخ العام المغربي في الحقبة المعاصرة، باعتبار ما طرأ من تحولات عميقة، ومن إرسابات في مسار تطور المجتمع والدولة في المغرب، وقد ارتبطت هذه التحولات بسياق التاريخ الدولي العام خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، الذي نضجت في ظله الظاهرة الإمبريالية والمشروع الكولونيالي، بفعل متطلبات الرأسمالية الصناعية التي كانت تصبو إلى السيطرة على مناطق خارج أوروبا، لتصريف فائض الإنتاج والسكان واستثمار الأموال واحتكار الثروات والمقدرات والأسواق.

إذن فهذه المحددات الاستراتيجية كانت هي المسؤولة عن بعث الدوافع القصوى لازدهار الفكر الكولونيالي في فرنسا، الذي حقق نسبيا مشروعه الكولونيالي الطامح إلى إعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية بشمال إفريقيا بعد إلحاق المغرب بالمتروبول، حيث شكل هذا الحدث، أهمية وازنة من الناحية الاقتصادية والعسكرية والجيوسياسية في المشروع الكولونيالي الفرنسي، بعد أن طفقت الدراسات الفرنسية النظرية المؤسسة للمعرفة الكولونيالية تقدم المغرب بصورة واضحة، مقترحة الوسائل والميكانيزمات التي يحسن للسّاسة والعسكريين الأخذ بها لتذليل المهمة بالمغرب، كما صورته في كليشيهات البلد الاقتصادي الواعد والمحتّم بالسيطرة الفرنسية، وهكذا وجه العديد من رواد هذه الدراسات أمثال "إدمون دوتي"، "ميشوبلير"، "شارل دوفوكو"... الرأي العام الفرنسي، وعلى وجه الخصوص أصحاب الرأسمال والاقتصاد، إلى جدوى الهيمنة على المغرب، وتحويله إلى حديقة خلفية يمد فرنسا بمختلف الموارد الأساسية.

بيد أن هذا المشروع سرعان ما اصطدم خلال الفترة المدروسة بواقع الإرغامات الداخلية (المقاومة، المجال الطبيعي، ضغوطات اللوبي الكولونيالي بالمغرب، طبيعة البنية الاجتماعية المغربية، حدود التحرك الفرنسي المقيد ببنود معاهدة الحماية...)، والإكراهات الخارجية التي أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في تحديد الاختيارات الكبرى للإقامة العامة وسياستها الاقتصادية والاجتماعية، وحسبنا في ذلك الحربين العالميتين الأولى والثانية، والأزمة الاقتصادية الكبرى، وحركات التحرير العالمية والميثاق الأطلسي...، وتأثيراتها على توجيه مسار الحركة الوطنية في المغرب، فكل هذه الحيثيات شكلت انجذابات مارست ضغطها على صناعة القرار الكولونيالي بالمغرب.

وعلى هذا الأساس، فالمرحلة الكولونيالية في إطار الحماية الفرنسية، بما لها وما عليها، تفرض على الباحث ضرورة الانفلات من إصدار الأحكام الانطباعية المحكومة بقناعات سابقة تميل إلى

الرؤية الضيقة، سواء كانت صادرة عن تجريم الاستعمال بشكل مجحف، أو عن إطرائه بصيغة المبالغة، فالدراسة التاريخية ترنو إلى إعادة بناء الوقائع كما وقعت، وتمثلها وفق قوانينها الداخلية وسياقها الخارجي، أي الانضباط لخط التحليل الموضوعي النابذ للذاتية، حتى يتسنى بناء تصور واضح عن ما أحدثته هذه الفترة، من خلال استكناه أقصى أشكال التأثير، في إطار ربط السابق باللاحق، أو بمعنى آخر أن فترة الحماية قد تمكنت من توجيه مضمار التاريخ المغربي، ووشجه بدولة أوروبية رأسمالية ليبرالية، ما انفكت تنتصر لهذا النموذج السوسيو اقتصادي إلى حد الآن، وهو ما يشير إلى أهمية موضوع الدراسة، التي وضعنا لها عنوان: التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة دكالة على عهد الحماية الفرنسية، إيمانًا منا بقوة التحول الاقتصادي والاجتماعي الذي طرأ بالمغرب إبان الفترة المدروسة، حيث تم ربط عرى الاقتصاد المغربي بالاقتصاد الرأسمالي، وإقحامه ضمن البنية الإنتاجية الرأسمالية، كما حدث تحول على كافة المستويات والواجهات، بفعل ما أحدثته فرنسا من نظم وهياكل ومؤسسات، حيث استطاعت من خلال ذلك، خلخلة بنيات المجتمع المغربي واختراقها بالبادية والحضر، فتفككت بذلك بنيتها التقليدية التي كانت تنبني في خطاطتها على المرجعية الإسلامية والخصوصية المغربية، لتتبنى في غمرة ذلك عناصر ثقافية جديدة، وممارسات وعادات وتقاليد...غربية دخيلة، فأصبحنا بذلك نعيش في مجتمع يعرف نوعًا من الهجانة، نتيجة ازدواجية النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة (مغربية–فرنسية). ولعل هذه المنطلقات تشير إلى طبيعة الموضوع وأهميته وامتداداته المعرفية، التي فرضت علينا الانتباه خصوصًا أمام غياب دراسة أكاديمية تطرقت لهذا النوع من الموضوعات، مما يجعل هذا العمل يتطلع إلى خدمة أفق عمل منجز يمكن أن يصبح قاعدة معلومات تاريخية عن منطقة دكالة، بعدما حاولنا الاعتماد على مركزية الرصد التاريخي للظاهرة الكولونيالية في بعديها الاقتصادي والاجتماعي، المنسجمة مع التساؤلات الأساسية التي تطرحها إشكالية الموضوع.

إشكالية الموضوع

يمكن الاستشكال كما يتبين من عنوان الموضوع، من خلال صياغة الإشكالية الأساسية في فكرة محورية، إطارها دراسة التحولات في البنيات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة دكالة على عهد الحماية، والتي تم تفريغها عبر الأسئلة الآتية: ما هي مظاهر التحول في البنية الاقتصادية بدكالة ما بين ١٩١٢-١٩٥٦ على المستوى الفلاحي والتجاري والصناعي؟ وما تجلياتها؟ ما هي مظاهر التحول في البنية الاجتماعية بدكالة ما بين 1912-1956 من خلال الأنماط والعلائق والعمران والصحة والتعليم؟ كيف رسمت الإقامة العامة سياستها الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة دكالة؟ وعلى أي أساس تمت بلورتها؟ إلى أي حد مست التحولات البنيات الاقتصادية والاجتماعية؟ وما انعكاسات ذلك على تطور أو انتكاسة منطقة دكالة؟ ما هي حدود التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة دكالة؟ وما آثارها على المجتمع الدكالي؟

مناهج البحث

شكل انفتاح البحث على العديد من الحقول المعرفية، دافعًا منهجيًا لضرورة الاشتغال بمناهج متنوعة من قبيل المنهج الإحصائي الذي ساعدنا على استثمار المعطيات الرقمية، وسهل استقراء منحى التطور، والمنهج السوسيولوجي الذي أطر عملية تحليل التغير الاجتماعي، ورصد مثيراته وتأثيراته وعمقه في إطار الشبكة الاجتماعية لمنطقة دكالة، علاوة على المنهج الاستقرائي الذي وظفناه في فهم الظاهرة بالانطلاق من الخاص إلى العام، والخروج بخلاصات يمكن سحبها على أشكال التحول بمغرب الحماية، وقد تمت الاستعانة بهذه المناهج، تحت توجيه المنهج التاريخي الذي ينبني على وصف الظاهرة ثم تحليلها ثم تركيبها خدمة للأفق العام المقصودة، والمتجلي في رصد هذا التطور داخل دائرة دراسة الموضوع، في إطار الزمان والمكان، بغية ضبط محددات الاتصال والانفصال في الظاهرة الاقتصادية والوقائع الاجتماعية.

استراتيجية البحث

ينضبط البحث في بعده الكرونولوجي، للفترة الكولونيالية التي امتدت من ١٩١٢ إلى ١٩٥٦، وهي المرحلة التي شكلت منعرجًا هامًا في تاريخ المنطقة المدروسة، وتحولاً طارئًا على مستوى بنياتها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية. وتأسيسًا على ذلك تم تقسيم البحث إلى بابين رئيسين يسبقهما فصل تمهيدي.

الفصل التمهيدي: حاولنا من خلاله تكوين صورة تقريبية عن المؤهلات الطبيعية والبشرية التي تزخر بها المنطقة، والتي كانت سببا في شد انتباه الكولونيالي الذي وضعها في استراتيجياته الاستغلالية منذ السيطرة عليها. كما وقفنا في هذا الفصل على المنعطفات التاريخية التي شهدتها المنطقة بتشيكلاتها الإثنوغرافية وخصوصياتها الثقافية.

الباب الأول: خصص الباب الأول لدراسة التحولات الاقتصادية التي عرفتها دائرة دكالة، غداة فترة الحماية الفرنسية في ثلاثة فصول رئيسة وهي:

الفصل الأول: تناولنا فيه دور الفلاحية الكولونيالية في خلخلة الأنماط التقليدية السائدة، عبر إدماج أساليب الاستغلال الدخيلة، التي أسهمت في إظهار أشكال جديدة من الملكية وأنماط العمل والعلاقات الاجتماعية وحركية السكان، وقد شكلت المنظومة الرأسمالية الطارئة في الممارسة الاقتصادية بالمجال، أداة فعالة في عملية التحويل التي طالت المنطقة.

الفصل الثاني: أثرنا فيه الأسباب الكامنة وراء تراجع النشاط التجاري بشقيه الداخلي والخارجي، والظروف والملابسات التي ساعدت على إقصاء الدور التجاري المشع الذي أداه ميناء الجديدة

عبر عصور، والذي بلغ أوجه خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، حيث استأثر إبان هذه الفترة باثنين وعشرين في المائة من مجموع البضائع المغربية الواردة والمصدرة إلى الخارج، كما ظل يحتل المرتبة الثانية في الحركة التجارية بعد ميناء طنجة، هذه الوضعية الزاهرة سرعان ما تقهقرت مع فترة الحماية، حيث صار يتذيل قائمة الموانئ المغربية الناشطة بالمنطقة السلطانية. وفي المقابل استحوذت مدينة الدار البيضاء ومیناؤها - الذي كان من بين أهم الأسباب التي أدت إلى أفول دور ميناء الجديدة وتدهور وضع المدينة التجاري – على النزر الأوفر من صفقات التصدير والاستيراد، بعدما حولته إدارة الحماية إلى أكبر قطب تجاري بمغرب الحماية. ورغم ذلك فإن النشاط التجاري بالمنطقة الحضرية، عرف تطورًا على مستوى آليات الممارسة التجارية، حيث أدخلت طرق جديدة في أساليب التسويق من قبيل المعارض، التي صارت مجالا للتعريف بالمنتوج الدكالي على المستويات المحلية والوطنية والدولية، وكذا الأسواق الرئيسة والأهلية التي أصبحت تعرض المنتجات المختلفة الأصناف والمشارب، في محلات تستقيم لمعايير النظافة والجودة.

الفصل الثالث: حرصنا فيه على إبراز أنواع الحرف الأهلية، والصناعات الأوربية الحديثة التي سادت المجال الدكالي إبان الفترة المدروسة، وعلى هذا المنوال بينا طبيعة الصناعات الحديثة التي اتسمت بالبساطة في المنتوج والأداء والوظيفة، حيث اقتصرت هذه الصناعات على أوراش النجارة والميكانيك، ومطاحن الحبوب، ومصانع المشروبات الغازية، والحبال الرقيقة، والمعلبات.

الباب الثاني: أفردناه لدراسة التحولات الاجتماعية خلال عهد الحماية في ثلاثة فصول رئيسة: **الفصل الأول**: رصدنا فيه التحولات الطارئة على المجال والمجتمع الدكالي، مبرزين في إطار تطور مؤشر ساكنته، وتغير مرافقه الحيوية وبنيته التحتية...، مدى تحول مستواه الاجتماعي من مستوى جامد عتيق إلى مستوى جديد بمسحة عصرية تراصفية.

الفصل الثاني: تطرقنا فيه للمبادئ الأساسية التي تأسست على منوالها السياسة التعليمية الكولونيالية، في إطار إستراتيجية تعتمد على مقاربة طبقية تمييزية في تنزيل أسس هذه السياسة، وقد تغيت هذه الأخيرة تكوين يد عاملة قادرة على خدمة المصالح الكولونيالية بالمنطقة بكفاءة، وهذا ما يفسر سيادة التعليم الصناعي بالحاضرة الدكالية، وصنوه الفلاحي بالقرى والقبائل، ورغم ذلك فقد استطاعت هذه السياسة على علتها إرساء قواعد تعليم عصري جديد في المنطقة، يعتمد على بيداغوجية حديثة منفتحة على علوم وثقافات الغرب.

الفصل الثالث: ناقشنا فيه دور الطب الأوروبي في الاختراق السلمي للمجتمع الدكالي، فمن خلال ما حققته هذه الطبابة من منجزات في القضاء على الكثير من الأمراض والأوبئة ومكافحة المستعصية منها، نجحت إدارة الحماية في التخفيف من السلوك الاجتنابي الذي كان يمارسه الأهلي اتجاه الأجنبي. وقد تزايد تبدد هذا السلوك مع الأمراض التي كانت الأدوية والأمصال والمراهم وباقي الخدمات الطبية تداوي علل الأهالي وتنهي أو تسكن آلامهم، وبفضل المعاهد الطبية والمصالح والمؤسسات الصحية الثابتة والمتنقلة... توقف نزف الموت الذي كان يودي بمئات الأرواح كلما هبت عاصفة وباء أو مرض معدي. وهكذا أرست الممارسة الطبية الفرنسية ثقافة طبية جديدة بآليات ونظم حديثة، أسهمت في إيلاج دائرة دكالة عصرًا جديدًا في العمل الطبي الناهض على ركائز علمية حديثة.

أما الخاتمة، فحاولنا من خلالها رصد مجمل التحولات التي طالت دائرة دكالة غداة عهد الحماية، وكيف أسهمت التحولات الاقتصادية في التوطئة للتحولات الاجتماعية، التي كانت نتاجا للإستراتيجيات الكولونيالية المعتمدة في إرساء نظمها على القيم الرأسمالية الغربية، في الحدود التي تخدم مصالحها.

دراسة بيبليوغرافية لبعض مصادر ومراجع البحث

الوثائق الوطنية

شملت هذه الوثائق المحافظ الموجودة في الخزانة العامة بالرباط، وملفات دار المحافظة العقارية القائمة بمدينتي الجديدة والدار البيضاء، وكان بودي أن أطلع على أرشيف بلديتي أزمور والجديدة، لكن منع القيمين عليه بذريعة أنه غير مصنف حال دون ذلك، وقد وجدت بالخزانة العامة بالرباط - قسم الأرشيفات- وثائق غزيرة عن منطقة دكالة، تحت تصنيف رمز (F) و(P) ولكنها لا تغطي المرحلة المدروسة، حيث تمتد كرونولوجيا مابين 1904و١٩٣٠، وهي في الغالب مجموعة من التقارير والمراسلات الصادرة عن مكتب الاستعلامات أو مصلحة الشؤون الأهلية، التي ترصد بشكل دوري الحالة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية لمنطقة دكالة، كما احتوت بعض المحافظ على مسودات ومبيضات للجزءين العاشر والحادي عشر من سلسلة مدن وقبائل المغرب المفردة دراستها لمنطقة دكالة ومدينة أزمور، أما أرشيف دار المحافظة العقارية الموجود بمدينتي الدار البيضاء والجديدة، فقد أتاح لنا القيمون عليها الإطلاع على جملة من الملفات، التي انطوت على كم من الملكيات العقارية المحفّظة في مختلف القبائل الدكالية، وقد لوحظ من دراسة الملفات المحصل عليها، أن العشرية الثانية من عهد الحماية، شهدت نشاطًا مكثفًا من حيث تسجيل الأراضي العقارية المتفاوتة المساحات، وتحفيظها من قبل الكولون، بعد اقتنائها أوتفويتها له عن طريق أحد أعيان المنطقة.

Delanoë (E), *Trente années d'activité médicale et sociale au Maroc*, Ed Maloine, Paris, 1949

ينتمي هذا الكتاب إلى صنف الكتابة الأوتوبيوغرافية التي تمنح المؤرخ مادة مصدرية جديدة، تمكنه من تنويع أدواته المنهجية، والانفتاح على باقي مناهج العلوم الإنسانية، بل والانفتاح على تخصصات العلوم الحقة. ويمتد الزمن الكرونولوجي للكتاب على امتداد 41 سنة، بيد أن الفترة المغربية حظيت بـ 32 سنة من هذه المادة (من سنة 1913 إلى سنة 1945) وهي فترة استقرار الطبيبة "دلانوي" بالمغرب وعملها بمدينة الجديدة، وبذلك تكون "دلانوي" شاهدة على أهم التحولات الطارئة على المدينة وساكنتها منذ المرحلة الأولى من عهد الحماية.

صحيح أن المادة التاريخية في الكتابة الأوتوبيوغرافية ، تتمحور حول أنا مركزية ومجترة وفق تأويل ذاتي وهذا ما قد يشوش على صرامة المنهج التاريخي في بعده النسبي والموضوعي، ومع ذلك فالكتابة الأوتوبيوغرافية تقدم للمؤرخ، متنا حاملا للعديد من الأوجه المهملة أو المقصية للحقيقة التاريخية من قبل الوثيقة الرسمية. ويمكن اختزال الصورة التي قدمتها "دلانوي" عن مدينة الجديدة مع بداية الحماية في شقين، تجسد الأول في كونها مدينة عليلة وبئيسة، وتجسد الثاني في كونها مدينة أصولية لكن متسامحة. ففي سنة 1913 وجدت الطبيبة مدينة الجديدة دون مناعة صحية، تهددها الأوبئة وتخترقها عدة أمراض خطيرة، فالساكنة متروكة لحالها لمواجهة أمراضها وعاهاتها، فلا وجود للمؤسسات الصحية والاجتماعية والأطر الطبية والأدوية العصرية، وبحكم عملها الطبي، توقفت الطبيبة لرصد الأوبئة والأمراض المنتشرة بالمدينة، وصنفت في مقدمة الأوبئة الحمى الصفراء وحمى المستنقعات، وفي مقدمة الأمراض السل والروماتيزم والعيون والأمراض الجنسية والعقم، وقد أكدت في معرض حديثها أن العامل الطبيعي والوضع المورفولوجي للمدينة هي العوامل المسؤولة عن تردي الوضع الصحي بالمدينة، فالعامل الطبيعي تمثل في السيول المائية التي تتحول في السنوات الممطرة إلى مستنقعات، فتصبح بعد ذلك أوكارًا مناسبة لتكاثر بعوض الملاريا، وتأثير المناخ البحري الذي يوفر للمدينة رطوبة جوية مرتفعة، فيخلق بذلك أسباب انتشار الأمراض الرئوية والروماتيزم. أما العامل المرفولوجي فتجسم في شكل المدينة غير المتجانس والأزقة الضيقة، والضعف الشديد للتهوية والتشميس، وغياب النظافة وسوء التغدية، والهجرة القروية والمساكن المكدسة بالإنسان والحيوان، الأمر الذي أوجد البيئة المناسبة لبعث الأمراض ونقلها بسرعة متناهية.

Bellaire (Michaux), *Villes et tribus du Maroc, région des Doukkala*, t1, Ed Frontis pice, Casablanca, sans date.

يدخل هذا الكتاب ضمن الجزء العاشر من سلسلة مدن وقبائل المغرب، إذ حاول فيه ميشوبلير رصد تاريخ وجغرافية منطقة دكالة ومكوناتها الاجتماعية، واصفا في إطار ذلك عادات وتقاليد وطقوس ومعتقدات الساكنة الدكالية في مختلف العصور، حيث طرح في معرض تحليله للمجتمع، مختلف مستويات الحياة القبلية، لكن دون إبراز الأبعاد النسقية لمكونات الحياة القبلية، ودون تحديد التفاعل والترابط القائمين فيما بينها، وبما أن مفتاح المجتمع المغربي يكمن في ظاهرة الزوايا حسب تعبير "دانييل ريفي"، فإن ميشوبلير عرّف بكل الزوايا والطرق القائمة بالمجال الدكالي، محددا طقوسها في الأذكار والأوراد وحتى نوعية السبحة المتعبد بها وعدد حباتها، كما ذكر علاقاتها الداخلية والخارجية، وأعداد مريديها والمنتسبين إليها، وذلك بغية إبراز الطريقة التي تشكل أهمية وحضوة كبيرة داخل مجال كل قبيلة، فذكر الطريقة الدرقاوية والتجانية والكتانية، باعتبارهم الطرق الأكثر انتشارًا بالنظر إلى عدد الأتباع، مقارنة مع الطريقة المختارية والرحالية والعيساوية، ويتضح أن غاية ميشوبلير في هذه الدراسة تقديم فكرة عن أهمية الطرقية في البنية الاجتماعية الدكالية، وقياس وزنها داخل الساحة السياسية، لإظهار الزوايا التي توجد في مركز قوة، ليحذر بشكل ضمني من الطرق التي يمكن أن تعرقل مسيرة التوغل الفرنسي في المنطقة، وكيف يمكن التعامل معها لكسبها إلى جانب المحتل، أو على الأقل جعلها على الطرف المحايد. ثم انتقل بعد ذلك إلى سرد مجمل الأضرحة المتبرك بمقاماتها في مختلف أنحاء دكالة، مبرزا في السياق ذاته قيمة هذه الأضرحة في نفوس الساكنة، وكيف أن المخزن زاد من تعميق قدسية هذه الرفات، بجعل المعتصم بها معصوم من أي عقاب مهما فدح جرمه. وفي الأخير يؤكد الكاتب على أهمية دراسة الطرقية على اعتبار أنها تعد من الجوانب الأكثر أهمية في السياسة الأهلية الفرنسية بالمغرب. وانسجاما مع ذلك يمكن اعتبار ميشوبلير المخطط الأول لمسيرة السوسيولوجيا الكولونيالية، باعتبار تقسيمه للسوسيولوجيا إلى ثلاثة حقول: سوسيولوجيا المخزن، والسوسيولوجيا الإسلامية، والسوسيولوجيا المغربية، حيث أكد أن الأولى تهتم بالمدن ومناطق نفوذ المخزن، أما الثانية فموضوعها دراسة المظاهر الإسلامية الرسمية والسنية، أما الثالثة فاهتمامها القبائل البربرية، والنبش فيها على الرواسب الما قبل إسلامية على صعيد المعتقدات والمؤسسات والممارسات.

Goulven (Joseph), *Le cercle des Doukkala au point de vue économique*, Ed Emille Larose, Paris, 1917

شكل هذا الكتاب أهم مؤلف حول منطقة دكالة حتى حدود سنة 1917، حيث قدم فيه الباحث معلومات هامة على المنطقة من الناحية التاريخية والطبيعية والاقتصادية والمكونات الاجتماعية، كما قدم حصيلة منجزات إدارة الحماية في المنطقة على المستوى الاقتصادي (الفلاحة، التجارة، الصناعة، وسائل الإنتاج...) والاجتماعي (العمران، البنية التحتية، التعليم، الصحة...) والإداري (غرف الصناعة والتجارة والفلاحة، الأبناك، البلدية، البريد...)، كما شكل الكاتب مرشدا اقتصاديًا ومشجعًا للفرنسيين الراغبين في الاستثمار في مغرب الحماية، حيث كان في معرض حديثة عن القطاع الفلاحي مثلا ينصح بفلاحة معينة على حساب أخرى، أو ينصح بالاستقرار في قبيلة وينفّر من أخرى إذا كان المستوطن لا يتقن لغة أهلها، كما كان يوجه الكولون إلى نوع العلاقات التي من الممكن نهجها مع الساكنة في فترة من الفترات لكسب ودها، بهدفها نزع الأرض ثم وتحويل أصحابها إلى عمال أو خماسة أوروباة. إجمالا يمكن القول إن هذا الكتاب يقدم للباحث في التاريخ الكولونيالي بدكالة مجمل المعلومات التي يمكنه من خلالها بناء تصور رصين عن مسألة التحولات التي مست المنطقة، رغم أنه لم يغط الفترة المدروسة، إذ يفهم من خلال دراسة الكتاب أهم التصورات الإجرائية والإستراتيجيات الموظفة من قبل إدارة الحماية في دينامية التحول.

Jeannin (P), *Les Doukkala et Mazagan*, Imprimés francaises, Casablanca, 1915

يعتبر الكاتب من أشهر المستوطنين الفرنسيين وأقدمهم حضورا في المنطقة، حيث نصب نفسه في خلال هذا الكتاب مرشدًا للمستوطنين الجدد الوافدين على دكالة، أوالذين ينوون الاستثمار الفلاحي في المنطقة المدروسة، وفي إطار ذلك حاول الكاتب إظهار المقومات الطبيعية التي تزخر بها دكالة، حيث أبرز المؤلف في مستهل حديثه مؤهلات كل منطقة على حدة، ثم تطرق للحديث عن الزراعات الناجحة والأخرى غير الناجحة، والزراعات المدرة للأرباح مقارنة بأخرى، وفي حديثه عن المواشي ذكر أنها من أجود مواشي المغرب وأفضلها، خاصةً تلك الموجودة بقبائل أولاد عمران، أولاد عمور، أولاد سباتة، العونات، وفي دراسته للوضع الاستيطاني الأوروبي بدكالة أعرب أن الدكالي لا يبيع أرضه إلا إذا تورط في دين، وأن الحل السريع لتوسيع الاستيطان في المنطقة يكمن في كراء أراضي المخزن، وفي تطبيق الظهير المتعلق بتحفيظ الأراضي وتسجيلها، وفي توفير متطلبات الاستيطان، من قبيل دراسة الأشغال اللازمة للتنقيب عن المياه الباطنية، إنشاء مختبر لتحليل التربة، التخفيض من ضريبة الترتيب كما هو الشأن في تونس لصالح المؤسسات الفلاحية المعتمدة على المعدات العصرية، مكافئات وعلاوات للتشجيع على زراعة الأشجار غير المثمرة، طرق معبدة تصل القبيلة بمحيطها الداخلي والخارجي...، تم انتقل بعد ذلك لمناقشة حركة الاستيراد والتصدير التي كان ميناء الجديدة وعاء لها، حيث ذكر أن المواد التموينية والمعدات الفلاحية والخمور ومواد البناء كانت أهم السلع المستورة، بينما ظلت المنتجات الفلاحية من أهم السلع المصدرة إلى مختلف مناطق أوروبا، وفي الأخير عمد الكاتب إلى ذكر الاستغلاليات الفلاحية الأوروبية القائمة بمختلف مناطق دكالة، مبرزًا في معرض ذلك اسم صاحب كل مزرعة، ومساحة ومنتجات كل استغلالية على حده، مع ذكر تاريخ إنشائها والمباني القائمة بها، ووسائل ومعدات الإنتاج المستعملة، وعدد المواشي وأنواعها، ونوعية التربة والأشجار والشبكة المائية السائدة، وعلاقة صاحب المزرعة مع المحليين. وهكذا شكلت هذه الدراسة قاعدة معلومات لكل من أراد الإطلاع على مؤهلات المنطقة على المستويين الطبيعي والفلاحي، وعلى مستوى السياسة الاستيطانية التي نهجها المستعمر في السيطرة على أجود الأراضي قبيل وبعيد فترة الحماية الفرنسية.

Feucher (Christian), *Mazagan (1514-1956)*, l'Harmattan, Paris, 2011

غطت فصول هذا الكتاب مرحلة طويلة من مراحل تاريخ منطقة دكالة، امتدت بعيد احتلال مدينة الجديدة إلى سنة استقلال الجديدة/ المغرب من ربقة الحماية الفرنسية سنة 1956، وقد ناقش الكاتب حتى حدود الصفحة 178 مدينة الجديدة وأحوازها قبل عهد الحماية بمكوناتها الإثنية والقبلية، ثم تطرق بعد ذلك إلى الأسباب والبواعث التي أدت إلى احتلال المدينة والمدن الأطلسية المجاورة من قبل البرتغال، مبرزًا بعد ذلك أهم الأحداث والملابسات السياسية، والدول المتعاقبة على حكم المنطقة، وما رافق ذلك من وقائع اجتماعية مزرية وأوضاع اقتصادية قاصية حتى حدود عهد الحماية. وقد استهل الكاتب الحديث عن منطقة دكالة إبان الفترة المدروسة باحتلال الكولونيل "مانجان" لمدينة أزمور والصراع الهتشكوكي الذي جمعه مع القائد التريعي وأتباعه، وكيف نهج هذا الضابط سياسة بقعة الزيت في إخضاع المنطقة، لينتقل بعد ذلك للحديث عن دور اليوطي في تحويل ميناء الجديدة إلى ميناء ثانوي لا تتعدى حركته (5%) من مجموع التجارة المغربية، حيث ظل يصدر السلع الفلاحية ويستقبل المواد التموينية والخمور والسلع عالية الاستهلاك، رغم رصد مبلغ مهم لتأهيله وتطويره والرفع من قدرته الاستيعابية، مقابل ميناء البيضاء الذي أريد له أن يكون الميناء الأهم بمغرب الحماية، وفي إطار حديثه عن المؤهلات السياحية التي تزخر بها المنطقة، ذكر أن مدينة الجديدة تتمتع بمؤهلات جمة في هذا المجال، من قبيل الشاطئ وفنادق وفيلات مفروشة ومطاعم من طراز عالمي، وحدائق عمومية ومهرجانات، وحفلات وملاعب ومآثر تاريخية، أما حينما تطرق إلى ساكنة المدينة فقط قدم

إحصائيات عن مكوناتها الإثنية وعدد أفرادها مابين 1909 و1953 وفي سياق ذلك أشار الكاتب إلى الهجرة الأوروبية التي اندفعت نحو مدينة الجديدة بقوة منذ إعلان نظام الحماية على المغرب، وكيف ساهمت هذه الهجرة في تحديث البنية التحتية للمدينة، وتهيئها بما يضمن فصل العناصر الأوروبية عن الساكنة الأهلية حتى في المؤسسات التعليمية الابتدائية منها والثانوية. وهكذا ناقش الكاتب بالتحليل والدرس مابين الصفحة 179 والصفحة 209 أبرز الأحداث والتحولات التي طالت مدينة الجديدة خلال عهد الحماية.

Jmahri (Mustapha), « *La communauté juive de la ville d'El Jadida* », *les cahiers d'El Jadida*, 1ère édition, Mars 2005

يُعَدّ الأستاذ مصطفى الجماهري من بين أبرز الباحثين في تاريخ دكالة غداة عهد الحماية الفرنسية، إذ أثار من خلال مجلة Les cahiers d'El Jadida مجموعة من الموضوعات التي ترصد بالدرس والتحليل مقطعًا مهمًا من تاريخ المجتمع الدكالي، وما رافق ذلك من أحداث وتطورات، أسهمت بقوة في إرساء قواعد التحولات خلال الفترة المدروسة، على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، وما يزيد من قوة أعماله ودقتها، هو اعتماده على رواية مستوطنين أوروبيين عايشوا الفترة بظروفها وملابساتها في مختلف ربوع دكالة، وهذا ما يجعله ينفرد بسرد أحداث دقيقة غفلت عن ذكرها المصادر والمراجع. وفي إطار هذه المجلة التي نحن بصدد دراستها، حاول الكاتب رصد وضعية اليهود داخل البنية الاقتصادية والاجتماعية بدكالة خلال عهد الحماية الفرنسية، موضحًا كيف استفادوا من الحرب العالمية الأولى في المغرب ماديا ومن انهزام ألمانيا، وكيف أسهم تنصيب حكومة "فيشي" الموالية لحكم الفوهرر في الإضطهاد الذي تعرضوا له، ما دفعهم إلى الهجرة نحو فلسطين، وفي حديثه عن الدور الاجتماعي والتجاري لهذه الفئة، أعرب الكاتب أن دورهم كان وازنا على هذا الصعيد، وذلك بفضل إتقانهم للغات أروبية كثيرة، وخبرتهم في المعاملات التجارية لردح من الزمن، الأمر الذي أهلهم إلى ربط علاقات تجارية مع مختلف العواصم الأوروبية، وتدبيرهم لفروع كثيرة من الشركات الأجنبية، إلى جانب تجارة الجملة والتقسيط، وعمليات بيع وإيجار العقارات، ومهن ووظائف إدارية وحرة، أما في الصناعة فقد امتهنوا جل الصناعات التقليدية وخاصة منها صناعة الحلي، ولم يغفل الكاتب عن إبراز دور المرأة اليهودية ومكانتها داخل المجتمع الدكالي، حيث ذكر أنها كانت تعمل خياطة في دكاكين صغيرة في قيسارية "ناهون" أو في زقاق درب بن دريس، كما اشتغلت إلى جانب المرأة المسلمة كخادمة في بيوت الأغنياء، أما بعد الحماية فقد عملت المثقفة منها في الإدارات العمومية وفي الشركات الخاصة. وفي غمرة حديثه عن الحياة الاجتماعية التي سادت بدكالة، ذكر الباحث أن مظاهر التعايش والتسامح كانت هي الطاغية على مشهدها، فالحي البرتغالي كان يسكنه المسلمون واليهود والأوروبيون جنبا إلى جنب، وهي خاصية -على حد تعبيره- انفردت بها مدينة الجديدة. وإثر حديثه عن التعليم الإسرائيلي العصري بمدينة الجديدة، أكد الباحث أن سنة 1866 كانت السنة التي أنشأت فيها أول مدرسة إسرائيلية بالمدينة، مبرزا منحنيات التطور الحاصل في عدد المدارس والمتمدرسين اليهود والمتمدرسات، ودور إدارة الحماية في ذلك، كما تطرق إلى البرامج التعليمية المدرّسة في مختلف أسلاكها ومستوياتها، وإلى العائلات والنخب اليهودية التي أدت أدوارًا مهمة في التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والرياضي بالمنطقة. وأخيرًا يمكن القول تتفتق من ثنايا هذا العمل روح بحاثة مسكون بغور المهمول، الأمر الذي حدا به إلى تسليط الأضواء الكاشفة على الأحداث المدلهمة في تاريخ دكالة، وذلك من خلال اعتماده إلى جانب المصادر والوثائق والمخطوطات... على الرواية الشفوية من أشخاص عايشوا كل تفاصيل المرحلة.

Jmahri (Mustapha), « *Chroniques secretes sur Mazagan* », El Jadida 1850-1950, les cahiers d'El Jadida, n°9, 2010

حاول الباحث في هذا العمل تسليط الضوء على السياق التاريخي الذي أسفر عن وضع اللبنات الأولى لتطور البنيات التحتية والإدارية بمنطقة دكالة، حيث وقف طويلا يتحدث عن الظروف والبواعث التي أدت إلى إحلال أول خدمة بريدية وسكة حديدية بالمنطقة، حيث أكد في سياق حديثه عن الموضوع أن ازدهار ميناء الجديدة خلال القرن التاسع عشر هو الذي أبذر فكرة إقامة خدمات بريدية تصل المجال الدكالي بمحيطه الوطني والدولي عبر ميناء الجديدة، وكان"إزاك بريدو"(Isaac Brudo) هو من اخترع أول خدمة بريدية خاصة بالمغرب، ربطت في أول الأمر مدينة الجديدة بمراكش بثمن 25 سنتيما للرسالة، لتشمل هذه الخدمة بعد ذلك جميع ربوع المغرب. أما خدمة السكة الحديدية فقد أرجع الباحث اقتراحها أول مرة من لدن البريطانيين سنة 1902 ، بهدف تيسير عملية تدفق السلع مابين مدينتي الجديدة و مراكش، غير أن المولى عبد العزيز رفض المشروع، وفي سنة 1920 كتب لمشروع السكة الحديدية أن يرى النور من جديد في مجال دكالي لا يتعدى 103 كلمترات، أي في الحدود الرابطة بين الجديدة ودار القائد التونسي، خصص لنقل الجنود والمنتجات الفلاحية الموجهة للتصدير، غير أن هذا الخط توقفت خدمته بعد خمس سنوات من استغلاله.

Monmarché (M), *Le Maroc*, Librairie Hachette, 3ème édition, Paris, 1925

يقدم هذا الكتاب ورقة تعريفية ودليلا لأهم المراكز الحضرية بالمغرب، حيث يوضح كل معالم المدن التاريخية والدينية والعمرانية القديمة منها والحديثة، مع التركيز على أهم الزوايا والبنى التحتية، والطرق التي تربط المدن المدروسة مع محيطها، ومع بداية الصفحة 164 استهل الباحث الحديث عن مدينة الجديدة، مبرزا في البداية تصميم المدينة الجديد الذي يسمح

بتنظيم الأنشطة الاقتصادية والخدمات الاجتماعية والمباني السكنية على الطراز العصري، كما تطرق في إطار ذلك إلى الأحياء التي تحتضن الصناعات الأوروبية الحديثة، من قبيل المطاحن وورشات الميكانيك وصناعة المثلجات وصناعات الإسمنت، وإلى الشركات الملاحية التي تصل مدينة الجديدة بموانئ أوروبية، والمطاعم والحانات، والفنادق القائمة بأصنافها وعدد غرفها، ثم انتقل الكاتب بعد ذلك، ليحدد بدقة أماكن الأسواق والمستشفى المحلي، والمقبرة الإسلامية وضريح بوآسفي ومنارته، وضريح سيدي موسى وعبد الله أمغار، ومدرسة الإتحاد الإسرائيلي والمذابح والمزارع التجريبية ...، ولم يغفل الكاتب الحديث عن المؤهلات الفلاحية التي تزخر بها جهات ومناطق دكالة، وغناها بمختلف المنتجات والطرق الرئيسة والثانوية التي تربط بولعوان وسيدي بنور والوليدية بالقبائل والحواضر المجاورة، ومدينة الجديدة بمدن آسفي ومراكش والدار البيضاء، وفي معرض حديثه عن الميناء، فصل الكاتب في وصفه وفي التحولات التي طرأت به على مستوى المساحة والمرافق والتجهيزات والقدرة الاستيعابية، وفي الأخير ذكر الكاتب كل الأبناك والقنصليات ومواقف أصحاب سيارات الأجرة ومراكزها، ومحلات أصحاب المكتبات والتصوير. وهكذا وصف الكاتب في عشر صفحات (مابين الصفحة 164 و 173) مدينة الجديدة ومعالمها الحضرية والحضارية خلال الربع الأول من عهد الحماية.

Jamal (Abdellatif), *Croissance démographique et mutations agraires dans le Sahel des Doukkala* , thèse de Doctorat, Faculté des lettres et sciences humaines, Université de Chouaib Doukkali d'El Jadida, 1999-2000

أطروحة دكتوراه تناقش بالتحليل والدرس انعكاس سياسة الاستيطان الرسمي والخاص، وتطور الإنتاج ووسائل الإنتاج الفلاحي على البنية الاجتماعية وظاهرة التمدين بالمجال الدكالي خلال عهد الحماية، والمراحل الأولى من فجر الاستقلال، ثم انتقل الباحث للحديث عن المساحات المزروعة والزراعات المكثفة التسويقية التي تطورت منذ سنة 1945، ودور الشبكة المائية في تعزيز ذلك، وقد أعرب في غمرة تحليله للموضوع، أن النمو الديمغرافي والكثافة السكانية كانتا ترتفع في المناطق الدكالية الأكثر خصوبة وتطورًا لوسائل الإنتاج الفلاحي، أما بمنطقة الساحل فقد أصبح مجالها يلعب دورًا أساسيًا في بناء أشكال جديدة من الهياكل الفلاحية، تمثلت في زراعة المستنقعات وتربية المواشي وتوليدها، وزراعة الحبوب والأعلاف، أي اقتصاد مركب على أسس حديث، ما فرض تشييد الطريق الساحلية التي تربط الجديدة بآسفي مرورًا بالوليدية، والوليدية بالزمامرة، وتقنيات الضخ التي بدأ استعمالها يتطور أواخر عهد الحماية. وكان الباحث يقف بين الفكرة والأخرى، ليبرز حدود التحولات الطارئة والميكانيزمات الحديثة المستخدمة في وسائل الإنتاج.

وعلى هذا الأساس حاول الباحث من خلال هذه الأطروحة رصد السياق التاريخي لمضمار التحول الذي طال المجال والاقتصاد الفلاحي بمنطقة الساحل الدكالي، وكيف وظف المستعمر آلياته وخططه لإنجاح مشروعه الإستراتيجي على المستوى الفلاحي في المنطقة، وانعكاسات ذلك على الوضع الاقتصادي والاجتماعي على صعيد نظم الإنتاج والنمو الديمغرافي والكثافة السكانية وظاهرة التمدين.

الخلاصة

صفوة القول: سجل التاريخ المعاصر للمغرب حدث الحماية الفرنسية التي شكلت بفعل إستراتجياتها، قسمات شخصية الدولة والمجتمع لما بعد ١٩٥٦، حيث تركت بصماتها وتأثيراتها في العمق المغربي على كل المستويات، الشيء الذي جعل مرحلة الحماية مفتاحا معرفيا يفرض ضرورة الالتفات إليها لقراءة مرفولوجية التطور الحاصل اليوم بالمجتمع المغربي، وهو ما اهتدت إليه هذه الدراسة لكشف الطارئ خلال الفترة المدروسة في إطار استخلاص استنتاجات عامة تساعد على استنباط مظاهر التحول وعوامله وأبعاده ونتائجه، وذلك من خلال الاشتغال على دكالة ورصد تحولاتها الاقتصادية والاجتماعية ما بين ١٩١٢ و١٩٥٦، حيث خرجنا بخلاصات أساسية نتيجة الحفريات التي قمنا بها على مستوى العمق الاقتصادي والاجتماعي، حيث كشفت لنا بنياتها عن مؤشرات التحول، وعن جدلية الاتصال الانفصال في خط التطور التاريخي لدكالة خلال المرحلة الكولونيالية. فالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي يتميز بالتطور البطيء من حيث الإيقاع الناظم لهما، مما يفسر أن التحول يستغرق فترة زمنية طويلة نسبيا، لتوجيه المجتمع نحو أفق اقتصادي واجتماعي مغاير عن ثابت البنيات التي كانت سائدة من قبل، وينسجم ذلك مع حركية التاريخ التي لا تخضع لمنطق استاتيكي جامد ومستكين، بل يحكمها طابع التغير الدائم، المصحوب بعلامات تفصح بصماتها في سياقي الزمان والمكان عن حجم التحول الواقع وطبيعته. وبالتالي فإن هذه القوانين هي التي تحكمت بشكل أو بآخر في التحولات العامة التي حدثت بدكالة بشكل واضح، الأمر الذي أحالنا على الخروج بالخلاصات والاستنتاجات التالية:

فعلى المستوى الاقتصادي، وقع تحول جذري في البنية الإنتاجية بدكالة التي اتسمت بهيمنة القطاع الفلاحي، بعدما أولته مؤسسة الحماية عناية فائقة بفعل تدخلاتها في البنية العقارية وتوظيفها لوسائل تقنية، وهيمنتها على ملكيات شاسعة في إطار الاستيطان العام والخاص، حيث حددت الإستراتيجية الاقتصادية هدفها من هذه السياسة في جعل دكالة موردًا فلاحيًا، خصوصًا على مستوى الحبوب والبيض والصناعة الغذائية، وقد نجم عن هذه السياسة التي ظلت تخدم في أبعادها الأفق الكولونيالي، بروز تناقضات اجتماعية مست الفلاحين المغاربة الذين أصبحوا بروليتاريا فلاحية بعدما انتزعت أراضيهم، مقابل المستوطنين

الأجانب الذين استفادوا من كل التسهيلات الممكنة والمتاحة ومن دعم الإقامة العامة لهم ماليًا وإداريًا وقانونيًا ولوجستيكيًا...، وقد أسهم هذا الأمر في إبراز تجليات التحول في المشهد الفلاحي، حيث تم تهميش الفلاحة الأهلية وجعلها تتراجع أمام الفلاحة الكولونيالية، فأصبحت بذلك البادية الدكالية/ المغربية على العموم والأقاليم على الخصوص، تواجه تفككًا في بنيتها العقارية والإنتاجية، وتعاني من تناقضات بينها وبين المدينة، فبعد العلاقة التبادلية التي كانت بينهما قبل الحماية، باتت البوادي معزولة عن هذا الدور، مما انعكس سلبًا على شريحة واسعة من الدكاليين/ المغاربة.

أما على المستوى التجاري، فيمكن القول إن العملية التجارية بدكالة قد شملت بروز المعارض والمتاجر والمحلات العصرية والشركات الفرنسية العامة والخاصة، إلى جانب الأسواق الأسبوعية...، واستنتجنا في إطار ذلك، بأن الفرنسيين احتكروا الشأن التجاري على حساب التجار المغاربة الذين تحولوا إلى مجرد وسطاء أو مفلسين، نتيجة منافسة المنتجات الأجنبية، وضعف قدرتهم التجارية والاستثمارية أمام الرأسمال الأجنبي، بالإضافة إلى الدعم المطلق من الإدارة الفرنسية للتجار الفرنسيين الذين تحكموا في الواردات والصادرات، وأدمجوا التجارة الدكالية بالتجارة الفرنسية الرأسمالية، وتجدر الإشارة في هذا السياق أن ميناء الجديدة قد فقد ديناميته التي عرف بها من قبل، خصوصًا بعد إحداث موانئ أخرى وعلى رأسها ميناءي البيضاء وأكادير.

أما على المستوى الصناعي، فقد اقتصر الأمر في مجمله على بعض الصناعات الغذائية والصناعات البسيطة ذات الأصل الزراعي التي كان إنتاجها محتشمًا، وهو ما تعكسه المؤشرات الرقمية الضعيفة التي تحصّلنا عليها من خلال الكشف عن عدد المؤسسات الصناعية أو المعامل. وبهذا نستخلص بأن الحماية الفرنسية قد عملت على خلخلة البنية الاقتصادية بدكالة في إطار سياستها الاقتصادية الشاملة الخاصة بالمغرب، والتي جعلت من الإنتاج المغربي ملحقا بالاقتصاد الفرنسي والرأسمالي، كما أصابته بعجز بنيوي نتج عن ارتفاع الواردات، وتحول دكالة إلى سوق استهلاكية للمنتجات الفرنسية مقابل انخفاض الصادرات، وهي معالم اقتصادية وشت عن تحول اقتصادي عميق.

أما فيما يخص التحول الاجتماعي، فلا يختلف اثنان عن مدى التغير الاجتماعي الذي حصل بالمغرب عامة ودكالة خاصة خلال الفترة المدروسة، محدثا في المجتمع بالبادية والمدينة رجات عميقة، جعلتنا نميز فيهما بين اتجاهين، اتجاه تقليدي وآخر عصري، كتجلي من تجليات الصدمة الاستعمارية، ونتيجه مباشرة للعقل الكولونيالي على الأرض الذي يدرك بشكل واضح من خلال السياسة الأهلية التي ارتكزت في تموجاتها على استعمال أساليب وآليات شكلت مداخل لاختراق المجتمع، عبر استنبات العديد من المؤسسات والآليات للتحكم في الشبكة الاجتماعية ومراقبة العناصر الفاعلة فيها، مما مكنها من مراقبة عملية تحول المجتمع من كل أبعاده. وتعتبر السياسة القايدية والسياسة الصحية والتعليمية... من أبرز هذه الأسس التي اعتمدتها الإدارة الفرنسية على مستوى المجال الدكالي /المغربي لتجاوز حالة الاصطدام التي يمكن أن تشوش على المشروع الكولونيالي، وهو ما جعل الإقامة العامة تظهر الرغبة في الحفاظ على الإطار العام لمعاهدة الحماية وتوجهاته، رغم انسلاخها من التزامها الأساس القاضي بإدخال الإصلاحات والارتكان إلى دور المراقبة بدل الحكم المباشر، غير أن بعض الأدبيات الكولونيالية دعت في النصف الثاني من فترة الحماية إلى التدخل المباشر، وإنزال الترسانة الاستعمارية بالمغرب، والاستعانة بإمكانياتها البشرية، ودمجها بحسب وظيفتها والدور المنوط بها في الاستراتيجية الاستعمارية.

وعلى هذا الأساس فإن الحديث عن مثيرات التحول الاجتماعي بدكالة تجرنا لإبراز مظاهره المتعددة، سواء المتعلقة منها بالعادات والتقاليد وتغيرها، أو التعديلات الطارئة على قيم المجتمع وتصوراته عن الحضارة الغربية في إطار دهشة الحداثة، التي عكست درجات الانتقال من حالة ثقافية تقليدية، إلى حالة ثقافية هجينة تمزج التقليدي بالعصري، سواء في صورة التعايش والتثاقف، أو في صورة التناقض والاستيلاب، فكانت المحصلة أن المجتمع وجد ذاته مشدودًا بين انجذابين، فالأول مثل مرجعيته الأصيلة التي تشكلت منها قيمه، والثاني شمل مغريات الحياة الحديثة وطريقة العيش الغربية الدخيلة على عوائده، فبرزت في غمرة ذلك مجموعة من المسميات التي راجت في الأوساط الاجتماعية من قبيل البلدي- الرومي، التي تحيل على هذا التزاوج في الثقافات.

فإلى أي حد أسهمت هذه الفترة في وضع إحداثيات التطور السوسيو اقتصادي بدكالة ما بعد الحماية؟ وإلى أي حد تم استثمار هذا الإرث الكولونيالي في القطع مع ثقافة الاجتناب، واستلهام استراتيجيات واعدة تصبو إلى استثمار مقدرات المنطقة وتنميتها بما ينسجم مع قيم الحكامة والإبداع...؟ أم ظلت دار لقمان على حالها تعاني من العقليات القرسطوية الاستغلالية والبيروقراطية التي أعيد إنتاجها في إطار تطور هزيل لا يرقى لمستوى العصر والتطلعات؟

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

ملف العدد

صلات المغرب والأندلس بفلسطين في العصر العباسي

١٣٢ — ٤٩٢هـ/ ٧٥٠ — ١٠٩٩م

د. عبد الحميد جمال الفراني
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
كلية مجتمع الأقصى - غزة
جامعة الأقصى - فلسطين

مُلَخّص

اتسع حضور المغاربة والأندلسيين في فلسطين بشكل عام والقدس بشكل خاص في العصر العباسي، مما وثق الصلات المختلفة بين القادمين من المغاربة والأندلسيين، وبين أهل فلسطين. وكانت العلاقات العلمية والثقافية على رأس العلاقات بين فلسطين من جهة، والمغرب والأندلس من جهة أخرى. وقد وصل إلى فلسطين العديد من العلماء المغاربة والأندلسيين، وسمعوا وروا الحديث، وتلقوا العلم، ودخلوا في مناظرات علمية مع علماء فلسطين، وغيرهم ممَن ورد البلاد المقدسة. وفي هذه الدراسة يهدف الباحث إلى التعرف على صلات المغرب والأندلس بفلسطين في العصر العباسي منذ قيام الخلافة العباسية، حتى الغزو الصليبي لفلسطين، مرورًا بالدويلات المستقلة التي حكمت خلال تلك الحقبة المهمة من تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي، والتي امتد تاريخها من (١٣٢-٤٩٢هـ/ ٧٥٠-١٠٩٩م). وقد تم تقسيم البحث إلى عدة نقاط شملت الصلات السياسية والاجتماعية، والصلات الثقافية والفكرية، والصلات الاقتصادية، وقد توصلت الدراسة إلى وجود صلات قوية في تلك الجوانب، وخاصةً الجانب الثقافي والفكري، حيث وصل العديد من العلماء المغاربة، والأندلسيين وخاصةً المختصين بالعلوم النقلية إلى فلسطين لطلب العلم وتعليم الناس الخير.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ أغسطس ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ ديسمبر ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

المغاربة والأندلسيين، الخلافة العباسية، المناظرات العلمية، أبي عقبة الحنفي، رحلة ابن العربي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041882

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الحميد جمال الفراني. "صلات المغرب والأندلس بفلسطين في العصر العباسي (١٣٢-٤٩٢هـ/ ٧٥٠-١٠٩٩م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١٥٩ – ١٧١.

مُقَدِّمَةٌ

لفلسطين بشكل عام، والقدس بشكل خاص مكانة خاصة في نفوس المسلمين، فهي بلاد مقدسة مباركة، فيها المسجد الأقصى، ثاني المساجد التي بنيت على الأرض، وأول قبلة للمسلمين، فضلاً عن الموقع الجغرافي المتميز التي تمتع به هذه البلاد، فهي ملتقى جناحي العالم الإسلامي، وملتقى الطرق التجارية بين بلاد المسلمين، وهي حلقة الوصل البرية بين بلاد المغرب في الغرب، وبلاد المشرق التي يبرز فيها أهم حواضر الشرق الإسلامي: بغداد، ودمشق، والقدس، وغيرها من المدن التي كانت تعج بالعلماء، ونشطت فيها الحياة الفكرية، والاقتصادية. ومن هنا كان لا بد لدول وعلماء، وتجار المغرب، والأندلس من الاستفادة من ذلك الزخم المتنوع، ليفيدوا ويستفيدوا. وهناك العديد من عوامل الجذب التي كان لها دور في انتقال واتصال عدد من المغاربة والأندلسيين بفلسطين، من هذه العوامل: العوامل الدينية التي سبق أن أشرنا إليها حيث وجود المقدسات الإسلامية كالمسجد الأقصى، والعوامل الجغرافية المتمثلة بالموقع الجغرافي، والطبيعة الجغرافية الفلسطينية المتشابهة إلى حد ما مع الطبيعة الأندلسية دور مهم في جذب عدد من الأندلسيين إليها.(1)

كما كان للجانب السياسي دور في الوجود المغربي والأندلسي في فلسطين، حيث شارك عدد من المغاربة في القتال إلى جانب الفاطميين الذين سيطروا على فلسطين، وترك ذلك تأثيرات واضحة على مختلف جوانب الحياة. ولا يفوتنا الحديث عن دور الرحلة العلمية في طلب العلم التي كانت دافعا مهما لتنقل العلماء المغاربة والأندلسيين بين البلدان والأمصار الإسلامية والتي من بينها فلسطين. وللأسباب والعوامل السابقة، عوامل الجذب، كانت

الصلات المتنوعة: السياسية والاجتماعية، والثقافية، والعلمية، والاقتصادية، وكانت فلسطين واحدة من بلاد المشرق التي استفادت وأفادت من تلك الصلات. ويهدف الباحث إلى التعرف على تلك الصلات التي كانت تربط بين بلاد المغرب والأندلس بفلسطين في العصر العباسي منذ قيام الخلافة العباسية، حتى الغزو الصليبي لفلسطين، مرورًا بالدويلات المستقلة التي حكمت خلال تلك الحقبة المهمة من تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي، والتي امتد تاريخها من (١٣٢-٤٩٢هـ/٧٥٠-١٠٩٩م).

ويرتبط هذا الهدف بمعرفة طبيعة تلك الصلات وما نتج عنها، ويجيب عن التساؤلات التالية:

- ما هي الصلات التي كانت تربط بين المغرب والأندلس وبين فلسطين في العصر العباسي؟
- ما طبيعة الصلات السياسية والاجتماعية التي وربطت بين المغرب والأندلس وبين فلسطين في العصر العباسي؟
- كيف كانت العلاقات الثقافية والعلمية بين المغرب والأندلس وبين فلسطين في العصر العباسي؟
- هل كانت هناك صلات اقتصادية بين المغرب والأندلس وبين فلسطين في العصر العباسي؟

وتم تقسيم البحث إلى عدة نقاط شملت الصلات السياسية والاجتماعية، والصلات الثقافية والفكرية، والصلات الاقتصادية ليتم الإجابة عن التساؤلات السابقة. وقد استخدم الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي في تتبع الإشارات الواردة في المصادر والمراجع التاريخية، وكتب التراجم والجغرافيا والرحلات والبلدان، للاستفادة منها في جمع المعلومات وصياغتها في هذا القالب البحثي.

الدراسات السابقة

رغم أهمية الموضوع، إلا أن الباحث لم يعثر على دراسة تتناول الموضوع نفسه والحقبة الزمنية، ولكنه عثر على بعض الدراسات المتشابهة لموضوعه، ومن هذه الدراسات:

- أثر المغاربة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي "القضاء إنموذجًا"، د. عمار مرضي علاوي، مجلة ديالي ٢٠١٢م، العدد ٥٦.
- إسهامات المغاربة والأندلسيين في مصر والشام من بداية القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع، الثاني عشر إلى التاسع الميلادي. من إعداد الحاج عيفة، جامعة الجزائر-كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ، ٢٠١٠م.
- الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري -د.علي أحمد -دار طلاس - دمشق ١٩٨٩م.
- المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، لصلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٣م.

أولاً: الصلات السياسية والاجتماعية

قبل الحديث في هذا الموضوع المهم يجب التمييز بين المغاربة الذين قدموا مع الجيش الفاطمي كعنصر من عناصر ذلك الجيش، وبين علماء السنة المغاربة، ومعهم علماء الأندلس الذين زاروا فلسطين ورحلوا إليها طلبًا للعلم والمعرفة. لقد شكل المغاربة عنصرًا من عناصر السكان في فلسطين؛ وقد طرأ ذلك العنصر على فلسطين في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وكان غالبيتهم من قبائل البربر.[٢] وتمثلت تلك القبائل، الوافدة مع الجيش العبيدي (الفاطمي) من المغرب إلي فلسطين، في قبائل رئيسة، كان من ضمنها: قبيلة صنهاجة[٣]، والمصامدة وكُتامة.[٤]

وقد استغل الفاطميون ما كان لدى البربر من عقائد تربطهم بفلسطين، ومنها اعتقادهم أنهم انحدروا من قوم من قبائل حِمْيَر، كانوا يسكنون فلسطين[٥]، والقدس بالذات، وأنهم طردوا من هناك، واستغل الفاطميون تلك الفكرة، وروجوا لها بين البربر، ورغبوهم بالعمل من أجل التوجه لتحرير القدس، وإعادة مجدهم المزعوم[٦]، فكان لهم دور مهم في المساهمة في غزو بلاد الشام، ومنها فلسطين، في المرحلة الأولى للسيطرة العبيدية بقيادة جوهر الصقلي، وفي المراحل اللاحقة خلال حروبهم مع القرامطة، والعباسيين، والعرب.[٧] ولقد كانت غالبية جيش جعفر بن فلاح - ذلك الأمير البربري العبيدي في فلسطين -من عناصر بربر كتامة، وقد ترك لهم كامل الحرية في التصرف، والتعدي على الناس، ومعاملتهم أسوء معاملة، والعبث بالأمن.[٨]

وبشكل عام فقد كانت الصفات السابقة للكتاميين، من حيث معاملتهم السيئة للناس، ضمن الصفات العامة التي اتصف بها عناصر المغاربة من الشيعة؛ الذين كانوا ضمن صفوف الجيش المغربي، مما دعا شيخ الرملة أبو بكر النابلسي إلى أن يحرض الأهالي عليهم قائلاً: "لو أن معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة، وواحدًا في الروم"[٩]، وهذا التصريح الخطير من قبل ذلك الشيخ الأعزل لم يأت من فراغ، فهو يدلل دلالة قطعية على كراهية المجتمع الفلسطيني للعنصر المغربي الشيعي الداعي لحكم الفواطم، وعبر عنه ذاك الشيخ كواحد من أبناء ذلك المجتمع المقهور، ذلك القهر الذي تجاوز الحدود، حتى تمنى الواحد منهم قتال المغاربة قبل قتال الروم، فالمغاربة - صنيعة العبيديين - كما ذكر النابلسي (شاهد العيان).

فقد استبدلوا المذهب السني الذي كان سائدًا في معظم بلاد الشام بالمذهب الشيعي الإسماعيلي، ولم يكتفوا بذلك؛ بل قاموا بقتل العلماء والصالحين، بالإضافة إلى جرائم التعدي، والنهب، ونشر الفوضى، وإشاعة الخوف. وبعد سيطرة الفاطميين على فلسطين استقرت جماعات من المغاربة فيها، وخاصة في الرملة، وطبرية[١٠]، وكان في عَكّةَ "جمع من المغاربة"[١١] ونزلت قبيلة كتامة المغربية في عسقلان.[١٢] وذكر المقريزي[١٣] أن إقامة الدعوة الشيعية في طبرية قد سبق وصول الجيش العبيدي بقيادة جعفر

بن فلاح، الذي كان قد أرسل داعيًا يُقال له: أبو طالب التنوخي ليقيم الدعوة فيها.

ومما سبق يمكن لنا أن نلحظ تواجد المغاربة في فلسطين، واستقرارهم في العديد من مدنها، بعد بسط سيطرتهم عليها، فأقاموا الدعوة فيها للعبيديين الشيعة، وأسقطوا الدعوة السنية في العديد من المناطق؛ إلا أن أهالي فلسطين من العرب تصدوا لهم، ففي سنة (٣٦٤هـ/974م)، "اقتتل المغاربة بجوار القدس مع العرب، فظهر العرب عليهم وهزموهم"[١٤]، ثم تحالفوا مع الأتراك السلاجقة ضدهم، ونجحوا في طردهم من فلسطين، واللحاق بهم إلى مصر، وكادوا أن يقضوا عليهم لولا ما حدث من مؤامرات أدت إلى تغير الأحوال.

ثانيًا: الصلات الثقافية والفكرية

برز العديد من العلماء المغاربة والأندلسيين في فلسطين في الفترة موضوع الدراسة، فقد زار فلسطين عدد من العلماء المغاربة والأندلسيين لتلقي العلم عن علماء متخصصين كانوا في فلسطين، واستخدموا شتى وسائل التلقي النافعة، ففي القرن (٤هـ/١٠م) نزل فلسطين المقرئ: ابن الدّبّاغ، خَلَفُ بْن القاسم، أبو القاسم الأندلسي (ت: ٣٩٣هـ/١٠٠٢م)، الحافظ "رحل إلى المشرق سنة (٣٤٥هـ/٩٥٦م)، وقرأ بالرّوايات عَلَى جماعة، وكان حافظًا فَهْمًا، عارفًا بالرجال. صنّف حديث مالك، وحديث شُعْبَة، وأشياء فِي الزُّهد، ورَوَى عَنْهُ جماعة، وقرأ بالرّملة عَلَى أحْمَد ابْن صالح صاحب ابن مجاهد.[١٥]

ومنهم: مكي بن أبي طالب بن حموش القيسي القيرواني، ثم الأندلسي القرطبي، أستاذ القراء والمجودين، ولد سنة (٣٥٠هـ/٩٦١م)، بالقيروان، قرأ القراءات على علماء الأمصار المعاصرين[١٦]. وقد " كان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التأليف في علوم القرآن، محسنًا مجودًا عالمًا بمعاني القرآن...... وقد مات في ثاني المحرم سنة (٤٣٧هـ/١٠٤٥م)" [١٧]، وقد ترك مكي أبي طالب عدد كبير من المصنفات في مجال علم القراءات، تشهد ببراعته، وطول باعه في ذلك العلم المهم منها: كتاب التبصر في القراءات السبع، والكشف عن وجوه القراءات السبع وحججها وعللها ومقاييس النحو فيها، و الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه سبعون جزاءا، ومشكل إعراب القرآن والرعاية في تجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، والموجز في القراءات، و الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، الإبانة عن معاني القراءات، وغريب القرآن، و جزء فيه تعديل التجزئة بين الأئمة في شهر رمضان في قراءة القرآن في الأشفاع.[١٨]، ومؤلفاته تنيف عن ثمانين تأليفًا[١٩]، وكان من بين تلك المصنفات: كتابه مشكل إعراب القرآن[٢٠] الذي قال عنه: "ألفته في الشام بالقدس سنة (٣٩١هـ/١٠٠٠م)".[٢١]

كما ساهم ابن العربي في علم التفسير[٢٢]، وقد عُنى به أبو بكر الطرطوشي، نزيل القدس، من خلال اهتمامه بكتاب "الكشف والبيان في تفسير القرآن" لأبي إسحاق الثعالبي[٢٣]. فاختصره، وعقد مجلسًا لتدريسه داخل المسجد الأقصى سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، وممن قرأه عليه، تلميذه ابن العربي، الذي تصدر لتدريسه في بلاد الأندلس بعد عودته إليها[٢٤].

وفي مجال الحديث الشريف قرأ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام ابن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ/١١٤٧م) عن أَبي عبد الرَّحْمَن النَّسَائِيّ (ت:٣٠٣هـ/٩١٥م) بالرملة "كتاب السّنَن لأبي عِيسَى مُحَمَّد بن عِيسَى بن سُورَة بن مُوسَى بن الضَّحَّاك السّلمِيّ التِّرْمِذِيّ".[٢٥] وبرع في علم الحديث في فلسطين من أهل الأندلس: مُحَمَّد بن أَحْمد ابْن مُحَمَّد بن مفرج يكنى أَبَا بكر أو عبد الله، مولى عبد الرحمن بن الحكم الْأمَوِي الأندلسي الْقَاضِي الْمَعْرُوف وَالِده بالقبتوري نِسْبَة إِلَى عين قبتارويه بقرطبة (ت: ٣٤٨هـ/٩٥٩م)[٢٦]، فقد "دخل الْقُدس وَالشَّام، ومصر وأعمال تِلْكَ الْبلدَان، وَسمع عدّة الشُّيُوخ، وَالَّذين سمع مِنْهُم مِائَتَا شيخ وَثَلَاثُونَ شَيخًا".[٢٧]

كما نزل فلسطين مَسْلَمَة بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن حَاتم أَبُو القاسم، من أَهْلِ قُرْطُبَة (ت: ٣٥٣هـ /٩٦٤م)،[٢٨] سَمِعَ بالرَّملة: من يحيى بن موسى.[٢٩] وقد سمع تمّام بن عبد اللَّه بن تمّام، أَبُو تمّام أَبُو غالب المغازي الطُّلَيْطِلي (ت: ٣٨٣هـ/٩٩٣م)، بغزّة أبي الحسن بن أبي عيّاش.[٣٠] وسمع هاشم بْن الحَجَّاج، أَبُو الوليد البَطَلْيُوسِي (ت: ٣٨٥هـ/٩٩٥م)، من الفضل بْن عُبَيْد اللَّه بالقدس، وعلي بْن الْعَبَّاس الغَزِّي بغَزَّة[٣١]، و" كان لا بأس بِهِ فِي ضَبْطه"[٣٢]. ورَوَى مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن عثمان الخَوْلاني، أَبُو بَكْر القُرْطُبي الزّاهد، ويعرف بالعَوّاد (ت: ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) المُوَطَّأَ عَنْ أَبِي عيسى يحيى بْن عَبْد اللَّه، وغيره.[٣٣] كما روى أبو العباس أحمد ابن محمد بن الحاج بن يحيى الإشبيلي الشاهد، عن " أبي أحمد عمر بن عثمان بن جعفر بن محمد السبيعي, بالرملة , إملاء من حفظه"[٣٤]. وعن أبي بكر أحمد بن عبد الله بن عمرو بن صفوان المعروف بابن أبي دجانة الدمشقي، قراءة عليه بالرملة.[٣٥]

ولم تنقطع الصلة العلمية بين الأندلس وفلسطين، فوصل إلى القدس وحدث بها[٣٦] عليّ بن أحمد بن عبد العزيز بن طُبَيز، أبو الحَسَن الأنصاريّ المَيُورْقيّ (ت:٤٧٧هـ/١٠٨٤م)[٣٧]، الأندلسيّ"، وكان من علماء اللغة والنَّحْو، دينًا، فاضلاً، فقيهًا، عارفًا بمذهب مالك".[٣٨] وعندما شاع التصوف في فلسطين عامة، والقدس خاصة، في القرن الخامس الهجري[٣٩]، ظهر عدد من الزهاد والمتصوفة من الأندلسيين المقيميين في فلسطين، أمثال: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم القرشي الأندلسي (٤٩٩هـ/١١٠٥م).[٤٠]

وفي مجال علم التاريخ والأدب زار فلسطين عدد من المؤرخين، كان من بينهم المؤرخ الأندلسي: محمد ابن موسى بن هاشم بن يزيد؛ المعروف: بالأقْشَتِين (ت: ٣٠٧هـ/٩١٩م)، من أهل قُرْطُبَة، "كان متصرفًا في علم الأدب والخبر، ورحل إلى المشرق، فزار قَيْسارية، وقد ألف في التاريخ طبقات الكتّاب".[٤١]

وفي مجال الطب نجد أن الطبيب المقدسي أبو عبد الله محمد بن سعيد التميمي (كان حيًا: ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، الذي كان يُقيم في القدس ونواحيها، وكانت " له معرفة جيدة بالنبات وماهياته

والكلام فيه، وكان متميزًا أيضًا في أعمال الطب والاطلاع على دقائقها؛ وله خبرة فاضلة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة؛ واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه، وركب منه شيئًا كثيرًا على أتم ما يكون من حسن الصنعة، وانتقل إلى الديار المصرية، وأقام بها إلى أن توفي...وأدرك الدولة العلوية (الفاطمية) عند دخولها إلى الديار المصرية، وصحب الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز، وصنف له كتابًا كبيرًا في عدة مجلدات سماه مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء، والتحرز من ضرر الأوباء وكل ذلك بالقاهرة المعزية، ولقي الأطباء بمصر وناظرهم، واختلط بأطباء الخاص القادمين من أهل المغرب في صحبة المعز عند قدومه والمقيمين بمصر من أهلها".(٤٢)

١/٢-مشاركة المغاربة والأندلسيين في المناظرات العلمية في المدارس:

شارك عدد من هؤلاء لعلماء المغرب والأندلس في المناظرات العلمية التي كانت تعقد في المدارس، فكان ابن العربي في القدس يدخل "إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور المتناظرين".(٤٣) ومن تلك المدارس:

(١/٢) ١- المدرسة النصرية الشافعية:

وقد زارها العالم الأندلسي، القاضي أبو بكر بن العربي سنة (٤٨٥هـ /١٠٩٢م)، واجتمع مع علماء الشافعية فيها، حيث كانوا يشاركون في المناظرات التي كانت تعقد فيها باستمرار، وقد شارك معهم في عدد من تلك المناظرات، وعبر عن ذلك بقوله: "عمدت إلى مدرسة الشافعية، فألفيت بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد، يحيى،(٤٤) الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الإمام الزاهد، نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي، وهم يتناظرون على عادتهم".(٤٥)

(١/٢) ٢- مدرسة أبي عقبة الحنفي:

كما كانت مدرسة أبي عقبة الحنفي من بين المدارس التي كانت تعقد فيها المناظرات(٤٦)، يقول ابن العربي(٤٧): "وقد حضرت في القدس طهره الله بمدرسة أبي عتبة الحنفي والقاضي الريحاني يلقي علينا الدرس في يوم جمعة، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بهي المنظر على ظهره أطمار، فسلم سلام العلماء، وتصدر في صدر المجلس بمدارع الرعاء، فقال له الريحاني: من السيد؟ فقال له: رجل سلبه الشطار أمس، وكان مقصدي هذا الحرم المقدس، وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم فقال القاضي مبادرا: سلوه، على العادة في إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم، ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحرم، هل يقتل فيه أم لا؟ فأفتى بأنه لا يقتل، فسئل عن الدليل، فقال: قوله تعالى [**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**] {البقرة:١٩١}. قرئ: ولا تقتلوهم ولا تقاتلوهم، فإن قرئ ولا تقتلوهم فالمسألة نص، وإن قرئ ولا تقاتلوهم فهو تنبيه؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذي هو سبب القتل كان دليلا بينا ظاهرًا على النهي عن القتل، فاعترض عليه القاضي الريحاني منتصرًا للشافعي ومالك، وإن لم ير مذهبهما على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى [**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**] {التوبة:٥}، فقال له الصاغاني: هذا لا يليق بمنصب القاضي وعلمه، فإن هذه الآية التي اعترضت بها علي عامة في الأماكن، والآية التي احتججت بها خاصة، ولا يجوز لأحد أن يقول إن العام ينسخ الخاص، فأبهت القاضي الريحاني، وهذا من بديع الكلام".

ويبدو أن المناظرة كانت من أنجح طرق التدريس التي تبناها العلماء، وخاصةً بين الطلاب وبإشراف الأستاذ، أو بين العلماء(٤٨)؛ لما لها من أهمية في شحذ الهمم، وإذكاء العقل، وقدح الأفكار، فهي تزيد من فرص الطالب والمعلم في طرح موضوعات متنوعة، ومناقشتها بإسلوب علمي راق.

٢/٢- رحلة ابن العربي العلمية إلى فلسطين:

ويُعَدّ ابن العربي (ت: ٥٤٣هـ/١١٤٨م) من أهم علماء السنة المغاربة الذين رحلوا إلى فلسطين لطلب العلم والتعليم، فنزل مدينة نابلس، والقدس والخليل، وعسقلان، ولقد وصف ابن العربي.(٤٩) النساء فينابلس، والقدس، فقال: " لقد دخلت نيفا على ألف قرية فما رأيت نساء أصون عيالا ولا أعف نساء من نساء نابلس، ...، فإني أقمت فيها فما رأيت امرأة في طريق نهارا؛ إلا يوم الجمعة فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن، فإذا قضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهن، لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى، وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه".

كما زار عدد من المشاهد والمزارات في فلسطين، ومن أهم المشاهد زارها في فلسطين في فترة الدراسة: مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام في الخليل(٥٠)، وقد ذكر خسرو أن ذلك المشهد على حافة الخليل" من ناحية الجنوب، وهي في الجنوب الشرقي، والمشهد يتكون من: بناء ذي أربع حوائط من الحجر المصقول طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون وارتفاعه عشرون وثخانة حوائطه ذراعان، وبه مقصورة ومحراب في عرض البناء، وبالمقصورة محاريب جميلة بها قبران رأسهما للقبلة وكلاهما من الحجر المصقول بارتفاع قامة الرجل، الأيمن قبر اسحق بن إبراهيم، والآخر قبر زوجه عليها السلام وبينهما عشرة أذرع، وأرض هذا المشهد وجدرانه مزينة بالسجاجيد القيمة والحصر المغربية التي تفوق الديباج حسنًا، وقد رأيت – الكلام لخسرو- هناك حصير صلاة، قيل أرسلها أمير الجيوش، وهو تابع لسلطان مصر، وقد اشتريت من مصر بثلاثين دينارا من الذهب المغربي ولو كانت من الديباج الرومي لما بلغت هذا الثمن، ولم أر مثلها في مكان قط حين يخرج السائر من المقصورة إلى وسط ساحة المشهد يجد مشهدين أمام القبلة الأيمن به قبر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، وهو مشهد كبير ومن داخله مشهد آخر لا يستطاع الطواف حوله؛ ولكن له أربع نوافذ يرى منها، فيراه الزائرون وهم يطوفون حول المشهد الكبير، وقد كسيت أرضه وجدرانه ببسط من الديباج والقبر من الحجر ارتفاعه ثلاث أذرع

وعلق به كثير من القناديل والمصابيح الفضية، والمشهد الثاني الذي على يسار القبلة به قبر سارة زوج إبراهيم عليه السلام، وبين القبرين ممر عليه باباهما، وهو كالدهليز، وبه كثير من القناديل والمسارج، وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران الأيمن قبر النبي يعقوب عليه السلام، والأيسر قبر زوجه، وبعدهما المنازل التي اتخذها إبراهيم للضيافة، وبها ستة قبورعلى سطح المقصورة التي في المشهد حجرات للضيوف الوافدين، وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات القدس، ويقال انه لم يكن لهذا المشهد باب وكان دخوله مستحيلا بل كان الناس يزورونه من الإيوان في الخارج، فلما جلس المهدي على عرش مصر، أمر بفتح باب فيه وزينه وفرشه بالسجاجيد وأدخل على عمارته إصلاحا كثيرًا، وباب المشهد وسط الحائط الشمالي على ارتفاع أربع أذرع فوق الأرض وعلى جانبيه درجات من الحجر فيصعد إليه من جانب ويكون النزول من الجانب الثاني ووضع هناك باب صغير من الحديد".(٥١)

وقد زار ذلك المشهد ابن العربي سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، وجاور فيه، ووصفه بأنه "بنيان مرصوص من حجارة عظام سورا عظيما، في داخله مسجد، في الجانب الغربي منه مما يلي القبلة إسحاق، ويليه في الجانب المذكور إبراهيم الخليل، ويليه في الطرف الجواني من الجانب الغربي يعقوب على نسبة متماثلة. وفيما يقابلها من الجانب الشرقي قبور أزواجهم على الاعتدال، على كل قبر حجر عظيم واحد له الطول والعرض والعمق".(٥٢) وقد التقى ابن العربي في سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) بعدد من علماء خراسان الذين وصلوا إلى الخليل، وكان من بينهم" الزَّوْزني، والصَّاغَانى(٥٣)، والزَّنْجانى(٥٤)، والقاضي الرَّيْحانى،(٥٥) وعدد من طلاب العلم، كان بينهم: البسكري، وساتكين التركي(٥٦)، وجاور معهم في المشهد " أعوامًا وأيامًا آمنين في نعم فاكهين، وعلى الدرس والمناظرة متقابلين"(٥٧)

لقد شهدت فلسطين خلال فترة الدراسة حركة علمية تميزت بالحيوية والنشاط بشكل عام، في شتى المجالات العلمية والتعليمية، وقامت تلك الحركة على عدد من المؤسسات والأنظمة، التي كفلت للعالم والمتعلم بيئة وأساليب تُعين كلا منهما على العطاء والتحصيل، كما أُشتهرت على امتداد مساحة فلسطين عدد من المدن التي تميزت بدورها ونشاطها في ذلك المجال، وقد كان يعتريها بعض الفتور، وتخبو جذوتها، تبعًا لتقلبات الحياة السياسية التي كانت تعانيها بلاد الشام عامة، وفلسطين بشكل خاص، فكانت تلك الأحوال السياسية لا تؤثر على سير الحياة العامة، أو العلمية والثقافية، ولم تكن تُوقف عجلتها.

وقد صور لنا ابن العربي، الأحوال العلمية في القدس، وكيف أنه رغم الثورات، والفتن، وانعدام الأقوات؛ فإنها لا تتوقف، فبيت المقدس " عَلَى صِغَرِهِ مُسْتَمِرٌّ عَلَى حَالِهِ، مَا أُغْلِقَتْ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ سُوقٌ، وَلَا سَارَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَامَّةِ بَشَرٌ، وَلَا بَرَزَ لِلْحَالِ مِنَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى مُعْتَكِفٌ، وَلَا انْقَطَعَتْ مُنَاظَرَةٌ، وَلَا بَطَلَ التَّدْرِيسُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَسْكَرِيَّةُ قَدْ تَفَرَّقَتْ فِرْقَتَيْنِ يَقْتَتِلُونَ، وَلَيْسَ عِنْدَ سَائِرِ النَّاسِ لِذَلِكَ حَرَكَةٌ"، على النقيض مما يحصل في بلاد ابن العربي.(٥٨)، فلو حدث مثل ذلك" لَاضْطَرَمَتْ نَارُ الْحَرْبِ فِي الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ، وَلَانْقَطَعَتْ الْمَعَايِشُ، وَغُلِّقَتْ الدَّكَاكِينُ، وَبَطَلَ التَّعَامُلُ لِكَثْرَةِ فُضُولِنَا وَقِلَّةِ فُضُولِهِمْ"(٥٩) ولعل ذلك الأمر من بركات القدس، الذي بارك الله " لسكانه في معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم".(٦٠)

وقد جرت في مسجد قبة الصخرة العديد من المناظرات واللقاءات العلمية بين العلماء، أورد ابن العربي مثالاً لواحد من اللقاءات التي حضرها، فيقول: "ورد علينا بالمسجد الأقصى سنة سبع وثمانين وأربعمائة فقيه من عظماء أصحاب أبي حنيفة يعرف بالزَّوْزَنى(٦١)، زائرًا للخليل صلوات الله عليه فحضرنا في حرم الصخرة المقدسة طهرها الله معه، وشهد علماء البلد، فسئل على العادة عن قتل المسلم بالكافر، فقال: يقتل به قصاصًا؛ فطولب بالدليل، فقال: الدليل عليه قوله تعالى: [**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ**] {البقرة:١٧٨}، وهذا عام في كل قتيل، فانتدب معه للكلام فقيه الشافعية بها وإمامهم عطاء المقدسي(ت: ١٣٥هـ/٧٥٢م)(٦٢)، وقال: ما استدل به الشيخ الإمام لا حجة له فيه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الله سبحانه قال: [**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ**] {البقرة:١٧٨}، فشرط المساواة في المجازاة، ولا مساواة بين المسلم والكافر؛ فإن الكفر حط منزلته ووضع مرتبته، الثاني: أن الله سبحانه ربط آخر الآية بأولها، وجعل بيانها عند تمامها، فقال: [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى**][البقرة: ١٧٨]؛ فإذا نقص العبد عن الحر بالرق، وهو من آثار الكفر، فأحرى وأولى أن ينقص عنه الكافر، الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: [**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**][البقرة: ١٧٨]؛ ولا مؤاخاة بين المسلم والكافر؛ فدل على عدم دخوله في هذا القول. فقال الزوزني: بل ذلك دليل صحيح، وما اعترضت به لا يلزمني منه شيء، أما قولك: إن الله تعالى شرط المساواة في المجازاة، فكذلك أقول، وأما دعواك أن المساواة بين الكافر والمسلم في القصاص غير معروفة فغير صحيح؛ فإنهما متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص، وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد؛ فإن الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم محقون الدم على التأبيد، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي؛ وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم؛ فدل على مساواته لدمه؛ إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه، وأما قولك: إن الله تعالى ربط آخر الآية بأولها فغير مسلم؛ فإن أول الآية عام وآخرها خاص، وخصوص آخرها لا يمنع من عموم أولها؛ بل يجري كل على حكمه من عموم أو خصوص، وأما قولك: إن الحر لا يقتل بالعبد، فلا أسلم به؛ بل يقتل به عندي قصاصًا، فتعلقت بدعوى لا تصح لك، وأما قولك: فمن عفي له من أخيه شيء يعني المسلم، فكذلك أقول، ولكن هذا خصوص في العفو؛ فلا يمنع من عموم ورود القصاص، فإنهما قضيتان متباينتان؛ فعموم إحداهما لا يمنع من خصوص الأخرى، ولا خصوص هذه يناقض عموم".(٦٣)

كما جرت مناظرات حامية بين أصحاب مذهب أهل السنة، وبين الشيعة، وكانت المدرسة النَّصْرِيَّةُ بالمسجد الأقصى مسرحا لتلك المناظرات، فقد نقل عن ابن العربي قوله: "قَالَ لِي أَصْحَابُنَا النَّصْرِيَّةُ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى: إِنَّ شَيْخَنَا أَبَا الْفَتْحِ نَصْرَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْمَقْدِسِيَّ اجْتَمَعَ بِرَئِيسٍ مِنَ الشِّيعَةِ، فَشَكَا إِلَيْهِ فَسَادَ الْخَلْقِ، وَأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِخُرُوجِ الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ، فَقَالَ نَصْرٌ: هَلْ لِخُرُوجِهِ مِيقَاتٌ أَمْ لَا؟ قَالَ الشِّيعِيُّ: نَعَمْ، قَالَ لَهُ أَبُو الْفَتْحِ: وَمَعْلُومٌ هُوَ أَوْ مَجْهُولٌ؟ قَالَ: مَعْلُومٌ. قَالَ نَصْرٌ: وَمَتَى يَكُونُ؟ قَالَ: إِذَا فَسَدَ الْخَلْقُ. قَالَ أَبُو الْفَتْحِ: فَهَلْ تَحْبِسُونَهُ عَنِ الْخَلْقِ، وَقَدْ فَسَدَ جَمِيعُهُمْ إِلَّا أَنْتُمْ، فَلَوْ فَسَدْتُمْ لَخَرَجَ; فَأَسْرِعُوا بِهِ وَأَطْلِقُوهُ مِنْ سِجْنِهِ وَعَجِّلُوا بِالرُّجُوعِ إِلَى مَذْهَبِنَا; فَبُهِتَ".[٦٤]

وخلال زيارته للمسجد الأقصى أشار ابن العربي إلى بعض معالم هذا المسجد، فذكر قبة السلسلة، ونوه إلى أنه قد اعتكف على القراءة فيها.[٦٥] وأشار ابن العربي إلى زيارته لقبر يونس بن متى عليه السلام في قرية حَلْحُولُ.[٦٦] وقد ذكر ابن العربي أنه زاره عدة مرات، كان آخرها سنة (٤٨٧هـ/1094م)، وهو في طريقه من المسجد الأقصى إلى الخليل، وفي ذلك يقول: "وبت به، وتقربت إلى الله تعالى بمحبته، ودرسنا كثيرا من العلم عنده"[٦٧] وبعدها اتجه إلى مسجد إبراهيم الخليل في الخليل، ويعد من المساجد المهمة في فلسطين[٦٨]، وقد زاره ابن العربي سنة (٤٨٧هـ /١٠٩٤م)، وجاور فيه مع عدد من العلماء " أعوامًا وأيامًا، آمنين في نعم فاكهين، وعلى الدرس والمناظرة متقابلين"[٦٩] وقد كان إمام هذا المسجد أبو القاسم عمر بن أحمد الواسطي، الذي روى عنه القضاعي في مسنده.[٧٠]

ومن بين العلماء الأندلسيين الذين زاروا فلسطين وأقاموا في المسجد الأقصى: الشيخ العالم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي[٧١] محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي، نزل الإسكندرية وتدبر بها إلى حين وفاته، وكان إمامًا فقيهًا صالحًا سديد السيرة مشتغلا بما يعنيه ملاذًا للغرباء والفقهاء ورد بغداد وتفقه بها على أبى بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي، وانحدر إلى البصرة وسمع بها السنن لأبى داود عن أبى على أحمد بن على التستري عن أبى عمر الهاشمي عن أبى على اللؤلؤي عنه، روى عنه أبو القاسم أحمد بن أحمد بن إسحاق الدندانقانى بمكة وغيره، وروى عن أبى الوليد سليمان بن خلف الباجي السرقسطي سمع منه بسرقسطة، وتوفى بعد سنة (٥١٦هـ)، وقيل سنة (٥٢٠هـ/١١٢٦م) بالإسكندرية[٧٢]، حيث أقام في الغوير[٧٣] الواقع بين باب الأسباط، ومحراب زكريا[٧٤]، فكان يشارك في حلقات الدرس، والمناظرة بحضور العلماء والفقهاء من أهل القدس، وغيرهم من العلماء الوافدين[٧٥]، وكان الطلبة يحضرون إلى "الغوير"؛ حيث يقيم الشيخ الطرطوشي، فيأخذون عنه، وقد ذكر ابن العربي، أنه قابل الطرطوشي في ذلك المكان، وسمع كلامه وحظي به، ثم قال: "وانفتح لي به إلى العلم كل باب، ونفعني الله به في العلم، وتيسر لي على يديه أعظم أمل، فاتخذت بالقدس مكانًا، والتزمت فيه القراءة، لا أقبل على دنيا ولا أكلم إنسيًا، نواصل الليل بالنهار".[٧٦]

ثالثًا: الصلات الاقتصادية

لا تهتم المصادر كثيرًا لذكر مثل تلك الصلات؛ ولكن هناك بعض الإشارات المرجعية الجغرافية قد أشارت إلى نوع من تلك الصلات، ومن ذلك أن فلسطين كانت تستورد الحصائر المغربية، فعلى حد قول ابن عبد ربه[٧٧]، والمقدسي[٧٨]، فقد كان في المسجد الأقصى ثمان مئة حصيرة، بعضها كان مستوردًا من المغرب[٧٩]. وأورد ناصر خسرو[٨٠] أنه شاهد الحصير المغربي في المسجد الأقصى، كما شاهد في مسجد الخليل الحصر المغربية التي تفوق الديباج حسنًا[٨١]، مما يعني أن فلسطين كانت تستورد الحصر المغربية من المغرب.

وكان في القدس سوق للحصرية[٨٢]، اشتغل فيه الخليفة الأموي الهارب من الأندلس، فقد ذكر الذهبي خلال حديثه عن قصة هروب هشام المُؤَيَّد الأُمَوي[٨٣] من قُرْطُبة عام (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) أن هشام هذا وصل من الأندلس مستخفيا "مع قافلة إلى الشّام على أسوأ حال، فقدِم بيت المقدس فرأى رجلاً حُضريًّا فوقف ينظر، فقال له الرّجل: أَتُحْسِنُ هذه الصّناعة؟ قال: لا، قال: فتكون عندي تناولني القَشّ، فأقام عنده مدّة، وتعلّم صنعة الحُصْر، وبقي يتقوّت منها، وأقام ببيت المقدس أعوامًا، ثمّ رجع إلى الأندلس سنة (٤٢٤هـ/١٠٣٢م)".[٨٤]

وهكذا نجد أن نوعًا من الصلات المهمة قامت بين فلسطين وبلاد المغرب والأندلس، تلك الصلات لم تنقطع حتى مع وقوع فلسطين تحت الاحتلال الصليبي بعد عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، واستمرت تلك الصلات حتى تم دحر ذلك الاحتلال لتعود أقوى من ذي قبل، حيث شارك المغاربة والأندلسيون في الجهاد ضد الصليبيين، فقربهم صلاح الدين وأنشأ لهم حارة باسمهم، غرفت فيما بعد بحارة المغاربة.

خَاتِمَةٌ

وفي الختام فقد توصلت الدراسة بعد توفيق الله عزو جل إلى عدد من النتائج، والتي كان من أهمها:

- اتسع حضور المغاربة والأندلسيين في فلسطين بشكل عام والقدس بشكل خاص، مما وثق الصلات المختلفة بين القادمين من المغاربة والأندلسيين، وبين أهل فلسطين.
- كانت العلاقات العلمية والثقافية على رأس العلاقات بين فلسطين من جهة، والمغرب والأندلس من جهة أخرى.
- وصل إلى فلسطين العديد من العلماء المغاربة والأندلسيين، وسمعوا وروا الحديث، وتلقوا العلم، ودخلوا في مناظرات علمية مع علماء فلسطين، وغيرهم ممن ورد البلاد المقدسة.
- تمثلت الصلات السياسية بين فلسطين والمغرب بمشاركة المغاربة في الحكم الفاطمي لفلسطين، كون المغاربة من ضمن العناصر العسكرية المشاركة في السيطرة على فلسطين.
- كان ابن العربي والطرطوشي من بين أبرز العلماء المغاربة والأندلسيين الذين وثقوا الصلات العلمية والثقافين بين بلادهم وفلسطين.
- ساهم المغاربة والأندلسيين مساهمة واضحة في إثراء الحياة العلمية والفكرية في فلسطين بشكل عام، والقدس بشكل خاص.
- كانت هناك صلات اقتصادية بين المغرب وفلسطين، تمثلت في عمليات التبادل التجاري، حيث استوردت فلسطين بعض السلع المصنوعة في المغرب.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: المخطوطات

- الخِلَعي، علي بن الحسن بن الحسين بن محمد، أبو الحسن الشافعيّ (٢٠٠٤م).
- الفوائد الحسان الصحاح والغرائب، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية.
- الفوائد المنتقاة الحسان الصحاح والغرائب (الخلعيات)، رواية: أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي، تخريج: أحمد بن الحسن بن الحسين الشيرازي، مخطوط المكتبة الأزهرية: [رقم: ٦٥٩] ٥٧١٢، منشور إلكترونيًا عبر المكتبة الشاملة.

ثانيًا: المصادر العربية

- ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (١٤١٥هـ /١٩٩٥م): التكملة لكتاب الصلة، المحقق: عبد السلام الهراس، لبنان، دار الفكر للطباعة.
- الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين (٢٠٠٢م): طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى.
- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (د.ت): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المحقق: الدكتور نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ط).
- ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن محمد بن علي الكوفي (١٤١١هـ/١٩٩١م): الفتوح، تحقيق: علي شيري، بيروت-لبنان، دار الأضواء.
- ابن الأكفاني، هبة الله بن أحمد بن هبة الله، أبو محمد، الأمين، الأنصاري الدمشقيّ (١٤٠٩هـ): ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، المحقق: د. عبد الله بن أحمد بن سلمان الحمدن الرياض، دار العاصمة، ط١.
- الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين (١٤٠٥هـ /١٩٨٥م): نزهة الألباء في طبقات الأدباء، المحقق: إبراهيم السامرائي، الزرقاء – الأردن، مكتبة المنار، ط٣.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، الطبعة: الثانية.
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م): فتوح البلدان، بيروت – لبنان، دار ومكتبة الهلال).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى ابن الضحاك (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) : سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد

محمد شاكر، ،(ج١، ٢)، إبراهيم عطوة عوض (ج٤،٥)، مصر– شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- ابن تميم المقدسي: شهاب الدين أبي محمود (١٩٩٤م): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق: أحمد الخطيمي، بيروت، دار الجليل.
- البغدادي، صفيّ الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي الحنبلي، (١٤١٢هـ /١٩٩١م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، بيروت، دار الجيل.
- ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، شمس الدين، أبو الخير (١٩٧٩): غاية النهاية في طبقات القراء، مكتبة ابن تيمية، عني بنشره لأول مرة عام ١٣٥١هـ، ج. برجستراسر، مكتبة المتنبي، القاهرة.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني (١٩٤١م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، مكتبة المثنى (وصورتها عدة دور لبنانية، بنفس ترقيم صفحاتها، مثل: دار إحياء التراث العربي، ودار العلوم الحديثة، ودار الكتب العلمية) .
- الحَمِيدي، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي أبو عبد الله بن أبي نصر (١٩٦٦م): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر.
- خسرو: ناصر (١٩٨٣م): سفر نامه، حققه: يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٣ .
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (١٤١٧هـ ـ/١٩٩٦م) : تاريخ بغداد وذيوله، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (١٣٩١هـ/١٩٧١م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، بيروت – لبنان، منشورات مؤسسه الأعلمي للمطبوعات.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم البر مكي الإربلي (١٣١٧هـ /١٩٠٠م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت- لبنان، دار صادر.
- ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوني الأموي (١٤١٩هـ/١٩٩٨م): فهرسة ابن خير الإشبيلي، المحقق: محمد فؤاد منصور، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (د.ت): سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا، بيروت – لبنان، المكتبة العصرية.
- **الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز(ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):**
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة، ط٣، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله البغدادي (١٩٩٠م): مرآة الزمان في تأريخ الأعيان من سنة ٣٤٥-٤٤٧هـ، دراسة وتحقيق: جنان جليل محمد الهموندي، بغداد، الدار الوطنية.
- السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري (د.ت): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، المحقق: جعفر الناصري/ محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، (د.ط).
- سِلَفَه الأصبهاني، أبو طاهر السِّلَفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم، صدر الدين (د.ت): معجم السفر، المحقق: عبد الله عمر البارودي، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، (د.ط).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (د،ت): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا- لبنان، المكتبة العصرية، (د، ط).
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي، أبو سعد (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م): الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية .
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى (١٩٩٢م): الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، السعودية.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت.
- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر (١٩٦٧م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، القاهرة، دار الكاتب العربي.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م): جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

- العزيزي، الحسن بن أحمد المهلبي (٢٠٠٦م): الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، جمعه وعلق عليه ووضع حواشيه: تيسير خلف، ط١، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.
- **ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (١٤١٩هـ):**

العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١.

قانون التأويل، دراسة وتحقيق: محمد السليماني، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة علوم القرآن (د.ت).

أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (١٤١٥هـ/١٩٩٥م): تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (١٩٨٣م): فهرسة ابن عطية، المحقق: محمد أبو الأجفان/ محمد الزاهي، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط٢.
- العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (١٤١٩هـ/١٩٩٨م): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية.
- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م): شذرات الذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – سوريا، بيروت – لبنان.
- العليمي، مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحنبلي (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عمان – الأردن، مكتبة دنديس .
- الغزي، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (١٤١١هـ /١٩٩٠م): ديوان الإسلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١.
- الفيروز أبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م): القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٨.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (د.ت): المعارف، تحقيق: دكتور ثروت عكاشة، القاهرة - مصر، دار المعارف.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م): الجامع لأحكام القرآن أو تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (١٤٢٤هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة، المكتبة العنصرية، بيروت، ط١.
- الكتاني، عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي التميمي، أبو محمد الدمشقي (١٤٠٩هـ): ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، المحقق: د. عبد الله أحمد سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، الطبعة: الأولى.
- ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد، برهان الدين اليعمري (د،ت): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، (د،ط).
- ابن الفرضي، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو الوليد (١٤٠٨هـ /١٩٨٨م): تاريخ علماء الأندلس، عنى بنشره؛ وصححه؛ ووقف على طبعه: السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٢.
- القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، أبو الفضل (١٩٦٦-١٩٧٠م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، المحمدية -المغرب، مطبعة فضالة.
- القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (د، ت): آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت-لبنان، دار صادر.
- ابن ماكولا، سعد الملك أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر (١٤١١هـ/١٩٩٠م): الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية.
- المرصفي، عبد الفتاح بن السيد عجمي: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، المدينة المنورة، مكتبة طيبة، ط٢، (د. ت).
- المقدسي، محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أبو عبد الله (١٤١١هـ /١٩٩١م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة، ط٣.
- **المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي (د.ت):**

اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: الجزء ١: حققه: جمال الدين الشيال، الجزء ٢، ٣: حققه د محمد حلمي محمد أحمد .

المقفى الكبير، ٨ أجزاء، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.
- اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (١٤١٧هـ/١٩٩٧م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية.
- النعمان، القاضي النعمان بن محمد المغربي (١٩٩٦م): المجالس والمسايرات، تحقيق: حبيب الفقي، ابراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، بيروت، دار المنتظر، ط١.

- الهروي، علي بن أبي بكر بن علي، أبو الحسن (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م): الإشارات إلى معرفة الزيارات، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- **ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):**

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء"، المحقق: إحسان عباس، بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، (د.ط)، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

معجم البلدان، بيروت – لبنان، دار صادر، ط٢، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

ثالثًا: المراجع العربية والمعربة

- أعراب، سعيد (١٩٨٧م): مع القاضي ابن العربي، بيروت-لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط١.
- البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني (١٣٧٠/١٩٥١م): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول، أعادت طبعه بالأوفست: بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي (د.ت) .
- تامر، عارف (١٩٨٢م): المعز لدين الله الفاطمي، واضع أسس الوحدة العربية الكبرى، بيروت، دار الآفاق الجديدة.
- جرار، عبد الرؤوف (رجب ١٤٣١هـ/ حزيران ٢٠١٠م): سقوط الدولة الفاطمية في المغرب - ونبذ التشيع، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات - العدد العشرون –.
- حسن، حسن إبراهيم، وطه أحمد شرف (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م): عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب وسورية وبلاد العرب، القاهرة، مكتبة النهضة الإسلامية.
- الدرة، عبد القادر علي أحمد (٢٠٠٩م): العلماء الشهداء في الأندلس (٤٠٠-٨٩٧هـ/١٠٠٩-١٤٩٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية-غزة، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار.
- زكار، سهيل، أمينة البيطار (د.ت): تاريخ الدولة العربية من السلاجقة حتى سقوط بغداد، مطبعة جامعة دمشق، (د.ط).
- زكي، عبد الرحمن (١٩٧٠م): الجيش المصري في العهد الإسلامي، القاهرة.
- الساحلي، حمادي (١٤١٢هـ/١٩٩٢م): الدولة الصنهاجي، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى القرن ١٢ الميلادي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي.
- سلطان، عبد المنعم عبد الحميد (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م): الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية، دار الثقافة العلمية.
- كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني الدمشقي (١٩٩٤م): معجم المؤلفين "، بيروت، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي .
- الكعاك، عثمان (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م): محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب، معهد الدراسات العربية– جامعة الدول العربية.
- عباس، إحسان (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م): رحلة ابن العربي كما صورها قانون التأويل "، بيروت، الجامعة الأمريكية، مجلة الأبحاث، ع٢٤.
- عبد الحميد، سعد زغلول (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م): تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، منشأة المعارف – الإسكندرية – مصر.
- عبد المهدي، عبد الجليل حسن (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م): الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، عمان، مكتبة الأقصى، ط١.
- العسلي، كامل جميل: معاهد العلم في القدس، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، (١٤٠٢هـ/١٩٨١م).
- ابن عميرة، محمد (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م): دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، ط١.
- لقبال موسى، بورويبة رشيد وآخرون (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م): الجزائر في تاريخ – العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- كاستلان، جورج (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م): تاريخ الجيوش، ترجمة آمال الدسوقي، مكتبة النهضة العربية.
- مارسيه (ج): مادة "صنهاجة" دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتاوي، مج١٤.

المواقع الإلكترونية:

- صحيفة إيلاف، الجمعة ٢٤ أبريل (٢٠٠٩م) على الرابط: http://www.elaph.com

الهَوامِشُ

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، س٢٠٩.

(٢) البربر: قسم علماء الأنساب البربر، القبائل البربرية إلى مجموعتين رئيسيتين: البرانس أعقاب برنس بن بر، والبتر المنحدرون من سلالة مادغيس الأبتر بن بر، ونسبوا الجد الأعلى بر الذي أعطى اسمه لتلك المجموعة إلي كنعان بن حزم بن نوح. وقد اتصفت على الدوام بالميزة الحربية، فهي جزء من حياتهم اليومية، وزادهم حماسهم الديني منذ اعتناقهم الإسلام روحًا قتالية، ونفسًا جديدًا فيه. ينظر، كاستلان: ١٩٥٦م، ص٦٢. الساحلي، حمادي: ١٩٩٢م، ص٣٢، الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية، وكانوا يدينون بالعقائد العبيدية، ومذهبهم الشيعي، فشكلوا عصب الجيش العبيدي (الفاطمي)، وخاصة قبيلة كتامة (المقريزي)، (د.ت)، اتعاظ، ج١، ص٥٧؛ انظر: حسن، حسن إبراهيم، وطه أحمد شرف، ١٩٤٧م، ص٣٢٩. وانظر، النعمان: ١٩٩٦م، ج٢، ص١-٥. وانظر: تامر: ١٩٨٢م، ١٧٣. الكعاك: البربر، ص٥، ٥٥، ٦١. سلطان، ١٩٩٩م، ص٥. زكي، عبد الرحمن: ١٩٧٠م، ص٣٠-٣١. صحيفة إيلاف، الجمعة ٢٤ أبريل ٢٠٠٩م على الرابط:
http://www.elaph.com/Web/Culture/2009/4/432735.htm.

(٣) انظر: ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص312 . البغدادي، (د.ت)، ص103 . وانظر: الكعاك،1958م، ص42. عبد الحميد، ١٩٧٨م، ج١، ص96. مارسيه(ج)، مج14، ص359.)، وزناتة (فرع من ضريسة إحدى البطون الرئيسية للبتر، من القبائل البربرية المستقرة بلوبيا (طرابلس) منذ القديم، أغلب ديارهم بالمغرب الأوسط والأقصى، خاصة القسم الغربي من الأوسط، مثل ريف وهران، وتلمسان، من فروعها بني يفرن، ومغراوة، وبني وامانو. انظر: ابن خلدون: ١٩٨٤م، ج ٦، ص٢٠٣، ٢٩٦. ابن عميرة، محمد: ١٩٨٤م، ص٢١، ص١٥. لقبال، موسى، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٩،٣٠. جران، ٢٠١٠م. Merçais –op . cit ; P 137).

(٤) انظر: تامر: ١٩٨٢م، ص١٣٩، ١٧٣.

(٥) ابن قتيبة: د.ت، ص٦٢٧. البلاذري: ١٤٠٣هـ، ص٢٢٢. ابن أعثم: ١٩٩١، ج٢، ص٢٦٩.

(٦) انظر: زكار: د.ت، ص٥٥.

(٧) انظر: تامر:١٩٨٢م، ص١٧٣. زكار: د.ت، ص٧٧. صحيفة إيلاف، الجمعة ٢٤ أبريل ٢٠٠٩م على الرابط
http://www.elaph.com/Web/Culture/2009/4/432735.htm

(٨) المقريزي: (د.ت) اتعاظ، ج١، ص٢٣. انظر: تامر: ١٩٨٢، ص١٣٩. زكار: د.ت، ص٧٣.

(٩) الكتاني: ١٤٠٩هـ، ص٩٧. ابن القلانسي: ١٩٨٣م، ص١٠. ابن عساكر: ١٩٩٥م، ج٥١، ص٥١. الذهبي:١٩٩٣، ج٢٦، ص٣١١. سبط بن الجوزي: ١٩٩٠م، ص١٨٦. الصفدي: ٢٠٠٠م، ج٢، ص٣٤. المقريزي: (د.ت) اتعاظ، ج١، ص٢١٠

(١٠) المقريزي: (د.ت) اتعاظ، ج٢، ص١١

(١١) المقريزي: (د.ت) اتعاظ، ج١، ص٢٣٩

(١٢) المقريزي، (د.ت) اتعاظ، ج١، ص٢٤١

(١٣) (د.ت) اتعاظ، ج١، ص١٢٣

(١٤) المقريزي: (د.ت) اتعاظ، ج١، ص٢٢٢.

(١٥) ابن الفرضي: ١٩٨٨م، ح١، ص١١٩. الحَمِيدي، ١٩٦٦م، ص٢١٠. الذهبي: ١٩٩٣م، ج٢٧، ص٢٨٥.

(١٦) في مصر على: أبي الطيب عبد المنعم بن غلبون وابنه طاهر وقراءة ورش على أبي عدي عبد العزيز وسمع من أبي بكر محمد بن علي الأدفوي، وقرأ عليه جماعة منهم: موسى بن سليمان اللخمي وأبو بكر محمد بن المفرج ومحمد بن أحمد بن مطرف الكناني. ابن الجزري: ١٩٧٩م، ج١، ص٤١٣. اليافعي، ١٩٩٧م، ج٣، ص٥٨. الذهبي، ١٩٩٧م، ج١، ص٣٩٤؛ سير، ج١٧، ص٥٩١. ابن تغري بردي: د.ت، ج٥، ص٤١. السيوطي: د.ت، ج٢، ص٢٩٨. الغزي: ١٩٩٠م، ج١، ص٧٨. ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ج٣، ص٢٦٠.

(١٧) انظر ترجمته في: ابن الجزري: ١٩٧٩م، ج١، ص٤١٣. اليافعي،١٩٩٧م، ج٣، ص٥٨. الذهبي: ١٩٩٧م، ج١، ص٣٩٤؛ سير،١٤١٣هـ. ج١٧، ص٥٩١. ابن تغري بردي: د.ط، ج٥، ص٤١. السيوطي: د.ت، ج٢، ص٢٩٨. الفيروز أبادي: ٢٠٠٠م، ص٧٧. الحَمِيدي: ١٩٦٦م، ص٣٥١. القاضي عياض: ١٩٦٦-١٩٧٠م، ج٤، ص٧٣٧. الأنباري: ١٩٨٥م، ص٣٤٧. ابن بشكوال: ١٩٥٥م، ج٢، ص٦٣١ – ٦٣٣. الضبي: ١٩٦٧م، ص٤٦٩، ياقوت: ١٩٩٣م، ج١٩، ص١٦٧–١٧١. القفطي: ١٤٢٤هـ، ج٣، ص٣١٣ – ٣١٩. ابن خلكان:١٩٠٠م، ج٥، ص٢٧٤–٢٧٧. الذهبي: د.ت، ج٣، ص١٨٧؛ معرفة القراء: ١٩٩٧م، ص٣١٦ –٣١٧. الصفدي: ٢٠٠٠م، ج٢٦، ص٦٨. اليافعي: ١٩٩٧م، ج٣، ص٥٧، ٥٨. ابن فرحون: د.ت، ج٢، ص٣٤٢، ٣٤٣، ابن الجزري: ١٩٧٩م، ج٢، ص٣٠٩، ٣١٠. ابن تغري بردي: د.ط، ج٥، ص٤١

(١٨) انظر تلك المصنفات وغيرها في: ابن خير الإشبيلي: ١٩٩٨م، ص٢٨، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٦، ٥٩، ٦٠، ٦٧. أبو شامة: ١٩٧٥م، ص١٧٢. اليافعي: ١٩٩٧م، ج٣، ص٥٨. الزركشي: ١٩٥٧م، ج١، ص٣٣١. ابن خلكان:١٩٠٠م، ج٥، ص٢٧٥-٢٧٧. ابن حجر: ١٩٩٨م، ص٣٨٧. القنوجي: ٢٠٠٢م، ص٨٠. حاجي خليفة: ١٩٤١م، ج١، ص٣٣، ١٢١، ١٧٤. ابن العماد الحنبلي: ١٩٨٦م، ج٣، ص٢٦٠، ٢٦١. البغدادي، د.ت، ج١، ص٨٥؛ هدية:١٩٥١، ج٢، ص٤٧٠، ٤٧١.

(١٩) ابن خير الإشبيلي، ١٩٩٨م، ص٣٩٤. الذهبي، ١٩٩٧م، ج١، ص٣٩٤. ابن الجزري: ١٩٧٩م، ج١، ص٤١٣.

(٢٠) تحقيق: حاتم صالح الضامن: ١٤٠٥هـ، عدد الأجزاء: ٢.

(٢١) المرصفي: (د ت)، ج٢، ص٧٣٢.

(٢٢) ابن العربي: ١٤١٩هـ، ص١٨.

(٢٣) أبو إسحاق الثعالبي: ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م، الذهبي: ١٩٨٥م، ج١٣، ص٢٨١-٢٨٢. الأسنوي: طبقات، ج١، ص١٥٩. حاجي خليفة: ١٩٤١م، ج٢، ص٤١٩.

(٢٤) ابن خير الإشبيلي: ١٩٩٨م، ص٥٩

(٢٥) ابن عطية،١٩٨٣م، ص٧٠.

(٢٦) ابن فرحون: (د.ت)، ص٣١٦. المقريزي: ١٩٩١م، المقفى، ح١، ص٢١٨.

(٢٧) ابن فرحون: د.ت، ص٣١٦.

(٢٨) ابن الفرضي: ١٩٨٨م، ج٢، ص١٢٨. انظر: الذهبي: ١٩٩٣، ج٢٦، ص٩٨. كحالة: ١٩٩٤م، ج١٢، ص٢٣٥.

(٢٩) ابن الفرضي: ١٩٩٨م، ج٢، ص١٢٩.

(٣٠) الذهبي: ١٩٩٣، ج٢٧، ص٦١.

(٣١) الذهبي: ١٩٩٣، ج٢٧، ص١١٢.

(٣٢) الذهبي: ١٩٩٣، ج٢٧، ص١١٢

(٣٣) الذهبي: ١٩٩٣، ج٢٨، ص٥٠٨.

(٣٤) الخلعي: ٢٠٠٤، ج٢، ص١٩٩.

(٣٥) الخلعي: الخلعيات، مخطوط، ج١، ص٢١.

(٣٦) الذهبي: ١٩٩٣، ج٣٢، ص٢٠١.

(٣٧) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد:١٩٩٦م، ج٢١، ص١٣٣. ابن الأكفاني: ١٤٠٩هـ، ص٦٠. ابن عساكر: ١٩٩٥م، ج٤١، ص٢٢١. ابن الأبار: ١٩٩٥، ج٣، ص١٧٧.

(٣٨) الذهبي:١٩٩٣، ج٣٢، ص١٩٩-٢٠٠.

(٣٩) انظر: عبد المهدي: ١٩٨٠م، ص٢٠٣.

(٤٠) الشهاب المقدسي: ١٩٩٤، ص٦٥.

(٤١) ابن الفرضي: ١٩٩٨، ج٢، ص٣١. ابن ماكولا: ١٩٩٠م، ج١، ص١٠٤. الحميدي: ١٩٦٦م، ص٨٨. الضبي:١٩٦٦م، ص١٢٧. المقريزي: ١٩٩١، المقفى، ج٢، ص٢٣٦.

(٤٢) ابن أبي أصيبعة: د.ت، ص٥٤٦.

(٤٣) ابن العربي: د.ت، ص٤٣٦. أعراب، ١٩٨٧م، ص٢٠٥.

(٤٤) هو: يحيى بن المفرج أبو الحسين اللخمي المقدسي، أسن تلاميذ الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي انتقل إلى الإسكندرية وقت استيلاء الإفرنج على بلدهم وأصبح على قضاء الإسكندرية. انظر: سِلَفَه الأصبهاني: د.ت، ص٦٣، ٤٢١. الصفدي: ٢٠٠٠م، ج٢٧، ص١٨٦. السبكي: ١٤١٣هـ، ج٧، ص٣٣٥. ابن ناصر الدين: ١٩٩٧، ج١، ص٤٨٩.

(٤٥) ابن العربي: د.ت، ص٤٣٣-٤٣٤. مع القاضي، ص٢٠٣-٢٠٤. انظر: عباس: ١٩٩٣م، ص٥٦؛ رحلة ابن العربي:١٩٦٨م، ص٨٠؛ عبد المهدي: ١٩٨٠م، ص٢١؛ العسلي: ١٩٨٣م، ص٩٨.

(٤٦) ابن العربي: ٢٠٠٣م، ج١، ص١٥٢؛ ابن العربي: د.ت، ص٤٤١-٤٤٢. أعراب: مع القاضي، ص٢١١.

(٤٧) ٢٠٠٣م، ج١، ص١٥٢؛ د.ت، ص٤٤١-٤٤٢. أعراب: مع القاضي، ص٢٠٩-٢١١.

(٤٨) انظر: الدرة: ٢٠٠٩م، ص١٠٥-١٠٦.

(٤٩) ٢٠٠٣م، ج٣، ص٥٦٩. القرطبي: ١٩٦٤م، ج١٤، ص١٨١.

(٥٠) المقدسي: ١٩٩١م، ص٧٣. الهروي: ٢٠٠٣م ص٣٥. ياقوت: ١٩٩٣م، ج٢، ص٣٨٧. القزويني: د.ت، ص١٨٧. البغدادي: ١٩٩١م، ج١، ص٤٨٠. العليمي: ١٩٩٩، ج١، ص٤٦.

(٥١) خسرو:١٩٩٤م.

(٥٢) ابن العربي: ٢٠٠٣م، ج٣، ص٧٤.

(٥٣) تلك النسبة إلى صاغان وتلك النسبة إلى قرية بمرو يقال لها چاغان عند نسفان السمعاني: ١٩٦٢م، ج٨، ص٢٥٢.

(٥٤) تلك النسبة إلى زنجان وهي بلدة على حد أذربيجان، منها يتفرق القوافل، السمعاني: ١٩٦٢م، ج٦، ص٣٢٥.

(٥٥) هذه النسبة إلى الريحان وبيعها، وإلى رجل اسمه ريحان. السمعاني: ١٩٦٢م، ج٦، ص٢١٣.

(٥٦) ابن العربي: ٢٠٠٣م، ج١، ص١٥٢؛ د.ت، ص٤٣٩.

(٥٧) ابن العربي: ٢٠٠٣م، ج٣، ص٧٤.

(٥٨) أصل ابن العربي من مدينة إشبيلية، بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة، وهي: "مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس، تسمى حمص أيضا وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره وبها كان بنو عباد ولمقامهم بها خربت قرطبة وعملها متصل بعمل لبلة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا". ياقوت:١٩٩٣م، ج١، ص١٩٥.

(٥٩) ابن العربي: أحكام، ج٤، ص٨. يتحدث ابن العربي هنا وفق تجربة حدثت معه شخصيًا، فقد راح ابنه عبد الله ضحية، وقتل من غير قصد، خلال الحرب التي دارت بين المرابطين، والموحدين، الذين نجحوا في السيطرة على إشبيلية، في شعبان سنة (٥٤١)، مما يعني أن الحرب كما صورها ابن العربي، في بلاده، كانت تأتي على كل شيء، وتوقف عجلة الحياة، على العكس مما رآه في القدس، خلال رحلته العلمية، التي استمرت ثلاث سنوات، قضاها في فلسطين. انظر: السلاوي: د.ت، ج٢، ص١١٧. ابن خلدون: تاريخ، ج٦، ص٢٣٤. (ابن العربي: ٢٠٠٣م، ج٤، ص٨. يتحدث ابن العربي هنا وفق تجربة حدثت معه شخصيا، فقد راح ابنه عبد الله ضحية، وقتل من غير قصد، خلال الحرب التي دارت بين المرابطين، والموحدين، الذين نجحوا في السيطرة على إشبيلية، في شعبان سنة (٥٤١)، مما يعني أن الحرب كما صورها ابن العربي، في بلاده، كانت تأتي على كل شيء، وتوقف عجلة الحياة، على العكس مما رآه في القدس، خلال رحلته العلمية، التي استمرت ثلاث سنوات، قضاها في فلسطين. انظر: السلاوي: د.ت، ج٢، ص١١٧. ابن خلدون: ١٩٧١م، ج٦، ص٢٣٤.

(٦٠) الطبري: ٢٠٠٠م، ج١٧، ص٣٥١.

(٦١) تلك النسبة إلى زوزن وهي بلدة كبيرة حسنة بين هراة ونيسابور. السمعاني: ١٩٦٢م، ج٦، ص٣٤٢.

(٦٢) عطاء بن أبي مسلم: أحد الكبار، اسمه ميسرة ويقال عبد الله أبو أيوب ويقال أبو عثمان ويقال أبو محمد ويقال أبو صالح الخراساني، بلخي مولى المهلب بن أبي صفرة سكن الشام ومن الشام القدس، وحديثه عن أبي الدرداء والمغيرة بن شعبة وابن عباس وجماعة مرسل، وروى عن سعيد بن المسيب وعروة وابن بريدة وعطاء بن أبي رباح وعمرو ابن شعيب ونافع وعدة، وعنه شعبة ومعمر ومالك والثوري وحماد بن سلمة وإسماعيل بن عياش وخلق، حتى إن شيخه عطاء روى عنه، وثقه ابن معين، توفي بأريحا سنة خمس وثلاثين ومائة. انظر: ابن عساكر: ١٩٩٥م، ج٤٠، ص٤٢٣. الذهبي: ١٩٩٣م، ج٨، ص٤٩٠؛ د.ت، ج٦، ص٢٨٧.

(٦٣) ابن العربي: ٢٠٠٣م، ج١، ص٩٠-٩١.

(٦٤) الشاطبي: ١٩٩٢م، ص٢٠٥. العصامي: ١٩٩٨م، ج٤، ص١٥٦-١٥٧.

(٦٥)٢٠٠٣م، ص٤٣٥. مع القاضي، ص٢٠٥. انظر: عباس: ١٩٩٣م، ص٥٦؛ رحلة ابن العربي:١٩٦٧م، ص٨٠-٨١.

(٦٦) ذكرها ابن العربي باسم جلجول. ابن العربي: د.ت، ج٣، ص٣٦، والصواب حلحول. انظر: الهروي: ٢٠٠٣م، ص٣٤. ياقوت: ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٩٠. البغدادي: ١٩٩١م، ج١، ص٤١٨).

(٦٧) ابن العربي:٢٠٠٣م، ص٤٣٥. مع القاضي، ص٢٠٥. انظر: عباس: ١٩٩٣م، ص٥٦؛ رحلة ابن العربي: ١٩٦٨م، ص٨٠-٨١.

(٦٨) العزيزي: ٢٠٠٦م، ص٨٢.

(٦٩) ابن العربي:٢٠٠٣م، ج٣، ص٧٤.

(٧٠) القضاعي: ١٩٨٦م)، ج١، ص٢٢٩.

(٧١) نسبة إلى طرطوشة، وهي مدينة بالأندلس على ساحل البحر. انظر: السمعاني: ١٩٦٢م، ج٩، ص٦٩. الحموي: ١٩٩٥م، ج٤، ص٣٠. ابن خلكان: ١٩٠٠م، ج٤، ص٢٦٥.

(٧٢) السمعاني: ١٩٦٢م، ج٩، ص٦٩.

(٧٣) ذكر ناصر خسرو مقام الغوري في المسجد الأقصى بالقدس، والذي بناه الأمير ليث الدولة نوشتكين الغوري، الوالي الفاطمي، ولعله هو نفسه الغوير الذي ذكره ابن العربي في رحلته. خسرو:١٩٩٥م، ص٦٩.

(٧٤) محراب زكريا: يقع في مسجد عمر بجوار الباب الشرقي للمسجد، في محيط المسجد الأقصى. خسرو: ١٩٨٣م، ص٥٩. العليمي: ١٩٩٩م، ج٢، ص١٢.

(٧٥) القرطبي: ١٩٦٤م، ج٨، ص٣٣٩. ابن العربي: د.ت ص٤٣٥. انظر: أعراب: مع القاضي، ص٢٠٥. عباس: ١٩٩٣م، ص٥٦. عبد المهدي: ١٩٨٠م، ص٢٢. العسلي: ١٩٨٣م، ص٣٠.

(٧٦) القرطبي: ١٩٦٤م، ج ٨، ص٣٣٩. ابن العربي: د.ت، ص٤٣٥. انظر: أعراب: مع القاضي، ص٢٠٥. عباس: ١٩٩٣م، ص٥٦. عبد المهدي: ١٩٨٠م، ص٢٢. العسلي:١٩٨٣م، ص٣٠.

(٧٧) العقد:١٩٨٤م ج٧، ص٢٩١.

(٧٨) أحسن التقاسيم: ١٩٩١م، ص١٧١.

(٧٩) خسرو: ١٩٨٣م، ص٦٢، ٧١

(٨٠) سفر نامه: ١٩٨٣م، ص٦٢.
(٨١) خسرو:١٩٨٣م، ص٧١.
(٨٢) العليمي: ١٩٩٩م، ج٢، ص٧٩.
(٨٣) هشام المؤيد: هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، أبو الوليد، المؤيد باللّه الأموي: من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس. ولد بقرطبة، وبويع يوم وفاة أبيه سنة (٥٣٦٦) فاستأثر بتدبير مملكته وزير أبيه محمد بن عبد الله الملقب بالمنصور ابن أبي عامر، ثم ابن المنصور، عبد الملك الملقب بالمظفر، ثم ابنه الثاني عبد الرحمن ابن محمد الملقب بالناصر. واستمر صاحب الترجمة خليفة في قفص، إلى أن طلب منه عبد الرحمن هذا أن يوليه عهده، فأجابه، وكتب له عهدا بالخلافة من بعده، فثارت ثائرة أهل الدولة لذلك، فقتلوا صاحب الشرطة وهو في باب قصر الخلافة بقرطبة سنة (٥٣٩٩) ونادوا بخلع المؤيد، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين اللّه، ولقبوه "المهدي باللّه "وقتلوا عبد الرحمن الوزير، ثم كانت فتن انتهت بقتل المهدي.
انظر: ابن الفرضي: ١٩٩٨م، ج١، ص١٥. الحميدي: ١٩٦٦م، ص١٧.
(٨٤) الذهبي:١٩٩٣م، ج٢٩، ص٣٩٠؛ الذهبي:١٩٨٥م، ج١٢، ص٥٥٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

Articles

History of Algeria (1518 - 1871) by French historians view

Case of Charles André Julien



Dr. Miloud Belalia
Senior lecturer (A) in history
Faculty of Humanities and Social Sciences
University Hassiba Ben Bouali Chlef - Algeria

ABSTRACT

It should be recognized that on Algeria at the time of entry; Algeria was the coveted and conquered for three years by a Christian France and it was during this period that we studied the privileges of the people and religion. The research of the history of modern and contemporary Algeria began with military historians that are based on the experience, written and oral tradition to finalize and formalize their writings by historians. Among French historians Charles André Julien, who worked on the colonization. His goal was to showcase the analysis and criticism of the documents sought to better understand the Algerian people and to dominate it. In conclusion the history of the colonial empire has sought to explain, define, understand the modern and contemporary history of Algeria but in the manner of French historians.

Keywords:
French historian Charles André Julien, Colonial Empire, Algeria, North Africa, Emir Abdelkader, HamdanKhodja.

Article info:
Received: 04 Augustus 2015
Accepted: 17 December 2015
DOI: 10.12816/0041869

Citation:
Miloud Belalia, "History of Algeria (1518-1871) by French historians view: Case of Charles André Julien".- Historical kan Periodical.- Vol. (10) Issue (36); June 2017. Pp. 172 – 179.

Introduction

It has often written that the modern and contemporary history of Algeria were made from French sources and we thought, that of Algeria from the sixteenth to the nineteenth century, to be studied mainly through French observers relationships and how to archive documents.

In the early sixteenth century, Algeria has entered a new phase in its history. For over three centuries, the country was an Ottoman regency, after the Spanish conquest of the main coastal cities of Mers el Kebir in Jijel, The Muslim Algeria became the major enemy of Christian Spain, as the intervention of Oruch and Kheir-Eddine brothers prevented the Algerians to undergo under Spanish rule. The country has therefore a central administration called for Dar Essultan Djazair capital, a regional administration within three Beylik: Constantine, Oran and Titteri, borders with the Hafsids east and west Saadian, a marine in the western Mediterranean basin and finally a weight in the regional reports. Conflicts with European naval powers are becoming more numerous until the French conquest of Algiers in 1830.

1- Field of the French history of modern and contemporary Algeria

The ottoman period in Algeria intrigue France and the French awakens growing interest. She is among those that have spilled much ink in France.

Indeed, wars, trade, espionage, diplomacy, the redemption of captives and the taste for adventure gave the French, countless opportunities to know or write on modern and contemporary history Algeria. This is why books on literature and social science are numerous.

Besides the descriptive sources, geography, travel stories, Navigation narrative descriptions of the cities visited, manners and customs of the people, we must add work history, monographs, biographies, stand, fraternities and tribes of Jews Algeria and finally the relations with the European naval powers.

2- Literature Value of French writings on Algeria

The French writings, despite numerous and serious gaps prejudged, that may fall, remains indispensable in modern history and contomporaine of Algeria, as the Arabic manuscripts are that rare time.[1]

Ottoman documents that may help the historian only date back to the seventeenth century. Part of the Ottoman archive documents in North Africa was published in Istanbul.[2] They consist essentially in accounting records. Their exploration would bring little new light on the events and lives of Algerians because the Janissaries careless or illiterate have little concern to devote the memory of events.

The story is nonexistent in Algeria at that time. Indeed, this kind flourished in the shadow of dynasties. However, Ziyanids were tottering from the early sixteenth century. By cons, it still flourishes in Tunis and Fez,[3] which sometimes informs, especially indirectly, on some events in Algeria. Historical monographs are read with caution as they are written mostly for household or sovereign Hafsids Saadian, naturally hostile to the Ottomans in Algeria. The principal of voyages that of the late sixteenth century to the eighteenth century are rich in biographies of saints, are very poor in information about the state of Algeria, and in any case very posterior to the first half of the sixteenth century.

Overall, the work done by French historians is huge, the research is patient, conscientious work and net divisions. These remarks are the main qualities of Mercier works, Grammont or Masson which were the basis of recent history books in Arabic. Several authors have stayed in Algiers, or across the country, or served in the entourage of Deys.[4] Their observations are direct and the information they provide are invaluable. Some researchers, after 1830, had the merit of translating official reports and exploit original documents of numbers and importance.[5] However these qualities can not forget the negative aspect of most of these works. The importance of these French sources, for the modern period, is far from unanimous researchers. According to Rinn: "For the Turkish period, there is shortage of good documents, and if we find those are sometimes sincere, curious and instructive, they say almost nothing of the history of Algerians who lived outside of the Turkish oligarchy".[6]

When one examines the writings of French eighteenth and nineteenth centuries, we see that in the Barbary cycle, the largest square is reserved, in fact, in the race, piracy, slavery to the Christian, stay captive Europeans in Algiers, their misery, their suffering, their torment, redemption of captives and redemption orders,[7] the life of traders, missionaries, in their precarious security, the role of fathers precursors of Cardinal Lavigerie.[8]

The title chosen by the father Dan is material to his book, "History and its Barbary corsairs, the kingdom and the cities of Algiers, Tunis and Tripoli Salé", or it is treated their government, their manners, their cruelty, their robberies, their spells and several other remarkable features by Father Dan, bachelor of theology and superior of the Holy Trinity monastery for the redemption of captives.[9] The author who visited Algiers between 1634 and 1635, devotes most of his book to the way of arming race, the peculiarities of renegades, penalties and misery that Turks are barbarians and Christians endure they hold slaves, and finally to the order of the Holy Trinity.

Objectivity is not the quality of these works mistress. The interpretations are often biased, omissions volunteers and misinformation. These authors belonging to different religious orders, [10] is written, in fact propaganda works. The French consuls[11] like others who were stationed in Algiers have recorded their memories of facts noted, reported certain events affecting Algeria. Some were even witnesses. They were therefore generally well informed about some problems. Their correspondences and reports are a wealth of information. But they are generally unfavorable in the Regency. On the other hand, several consuls were confined to the cities of their residence, were not traveling, or very little, and were not wearing special attention to the inner

life of the country. In the capital itself, Muslim society remained their secret. They were ignorant of rural and urban life and shared the prejudices of their countrymen. In their eyes, the Algerians were the source of all the misfortunes they were deceitful, lazy, greedy, ungrateful.

Books published after 1830 have a different trend and are of unequal value. If for the Roman period, the authors have used authoritative sources, they looked for the same texts of ancient Greek and Latin authors, if for the colonial period they exploited the reports, official reports and other documents, to the Muslim period they struggled to study Arabic texts of history or geography they almost always considered "never precise and leaving a large part in the event ...". Surnames appeared to them repulsive, and the events of constant turnovers a story that made and unmade constantly, "wrote G. Marçais. Few historians who read fluent Arabic. The modern age[12] is sketched in order to quickly reach the conquest of 1830.

Travel the book of L. Galibert: "Ancient and Modern Algeria, Paris 1844, approximately 639 pages». The description of the country and its history from antiquity until 1830 stop on page 249. The rest is devoted to French rule; the romantic and the wonderful taste mingle in history proper.[13] It is a kind of history of Algiers by narration of the facts considered key since the sixteenth century and the story of a few anecdotes. Deys of encroachments on the power of Pachas, representatives of the Sultan, and parallel decline of the authority of the Sublime Porte in Algiers extraordinary fortune of a poor miserable first captive and covered with vermin that denies becomes privateer and Pasha Tripoli and Algiers attacks and major European nations in Algiers.

This richness and variety of topics are explained by the fact that France since the sixteenth century discovered in Algeria in favor of a turbulent era that favors larger designs. A spirit of universal, military, commercial and intellectual animates the French conquest. Faraway trips, discoveries of new lands and unknown peoples were to lead to a widening of the historical research.

Apart from the taste of wonderful and extraordinary, the major themes of modern history of Algeria, before 1830, are the dramas of captivity - that of Muslims caught at sea and sold at Livorno in particular, are not listed - and the anti-Ottoman campaign.

Many French historians are obsessed with the power of Algiers and the desire to shave "the cave of thieves" and dreaming of a decisive operation against Algiers.

Intolerance is in their eyes a force of faith. They see Islam with wisdom. This is an erroneous religion ... Those who came from Europe to be Muslims are traitors. Denial is unforgivable and even the temptations of interest can not excuse it, "for the most serious offense that a Christian can commit is to renounce his religion."

In the nineteenth century, critical rules of the historical method are defined in France. Some experts are beginning to gather Algeria; materials, to confront the sources and present, with more or less success, the work of synthesis which, despite data gaps or directions and we noted above, remain a substantial contribution to the knowledge of our past. We must not reject or accept it, but use it carefully this work some - unfortunately few - deserve to be translated into Arabic for the general benefit of researchers.

3- Presentation of the historian Charles André Julien

3.1Biography of Charles André Julien:

Charles André Julien (1891-1991): was a French historian of North Africa. After receiving his bachelor's degree, he worked as a director in Oran. It ranks left and met intellectuals and politicians opposed to the colonial system.[14]

In 1931, he became editorial secretary of the Historical Review and wrote his first book, "History of North Africa", in this book, it contradicts the colonialist arguments that Algeria's history starts from 1830.[15]

Professor, member of the Socialist Party, advised the French Union, then it denounces the abuses of French policy in North Africa, and unworthy of the excesses of the Fourth Republic. The year 1945 marks the outbreak of revolts in the four corners of the French colonial empire, first in Algeria and Indochina, and Madagascar. It was after these revolts, harshly put down, he decided to engage in journalistic means.[16]

He participated in the creation of the newspaper Le Monde, which allows him to gain the friendship of its founder, Hubert Beuve-

Mery.[17] He will assume the professorship at the Sorbonne. After leaving his academic duties, he continues to work on North Africa by directing a collection of biographies. He died in 1991.[18]

3.2His book presentation:

History of contemporary Algeria.
Author: Julian, Charles Andrew.
Publisher: Presses Universitaires de France.
Volume 1: The conquest and early colonization (1827-1871).
First edition, Paris, 1964.
Number of pages: 632.

This work of Charles André Julien, has lost none of its interest almost four decades after its release in France for the first time in 1964, it remains a staple on the first forty years of the French conquest of Algeria.

The book opens with a general introduction, a brief economic and sociological picture of the Regency of Algiers, then ruled by the Ottomans, whose domination, essentially military, could not be extended to the entire territory current Algerian.

The first chapter analyzes the global climate in which the French landing in Algiers in July 1830, was prepared and executed. Relying on extensive documentation - from deliberations of French parliament to epistolary exchanges between officers in the field and their families - the author reproduces the energetic debates between colonisâtes and anticolonistes on whether to conquer and highlights political interests and career ambitions that clashed during the debates.

The following chapters are in the form of events that marked the conquest (first settlers of installation, expropriations, multiplication revolts ...) and echoes - often distorted - it has had in France. The detailed description of confrontations between supporters of the limited occupation and the total occupation of defenders can trace the patient construction of settlement colonization project that will distinguish the fate of Algeria that of its North African neighbors. An entire chapter is devoted to the African army; it reconstitutes its specific route spans legendary indiscipline and brutality as well as the occupied place within indigenous body (Spahis[19] and Zouaves[20]).

4- Study and review of the book: History of contemporary Algeria

One can study and criticize the chapters written by historian Charles André Julien concerning the history of contemporary Algeria as follows:

4.1. During the 1830-1962 colonial, colonial historians have drawn a geographical and not a sociological study. They described the geographical territory and civilizations that have marked this country and had thought that the country was open to colonial penetration. For this, they have written and studied Phoenicians, Romans, Vandals, Byzantines, Turks and French, without considering the Algerians. It is recognized that the study of the history of Algeria during the colonial period was an integral part of the history of France since Algeria was French territory. Charles André Julien, this historian leaned much on imperialist force by studying French personalities and political systems where the title of his book "History of France in Algeria".

4.2. Charles André Julien, this historian has enhanced the power of the Ottomans in Algeria he characterizes as Turkish imperialism: "The imperialist power that the Turks imposed with all the force, left the Algerians no possibility of uniting".[21] But the Ottomans established their dynasty as the Habsburgs in Austria, the Romanovs in Russia, the Hohenzollern in Prussia and the Bourbons in France. Admittedly, these families were the forerunners of colonies, but in truth the Ottomans wanted a union of Muslims in their own way.

Note that Algerians have called the Ottomans to sign a Turkish power agreement. This was done, the deal was signed and established with the Beylerbey Kheir-Eddine[22] and Sultan Salim representative first[23] since 1518. The primary objective was to expel the Spanish conquerors who occupied the coast and the Algerian coast.

4.3. French historian Charles André Julien had refused to admit that there was a French Algerian nation before penetration and thought like most imperialist historians of this period that the Algerian nation did not exist, there were tribes dotted here and there in the country.

Charles André Julien said in his book: "The Algerian tribes did not know the borders of

their country, but he thought much more to their union".[24] For Julien, the French historian Algerian consciousness did not exist during the Ottoman period. The opinion of the historian was to fight against Algerian nationalism why France has imposed its penetration.

But the administrative relationship between the Algerians and the Ottomans to unify geographically Algeria, political, military insurrection chained 1830.

Charles André Julien acknowledged that mistakes made by most of the abuses, "the deys who governed part of the country were not approved by the Ottoman power".[25] Algerians having no stability already had a national consciousness before and during the French penetration.

4.4. Algeria, Charles André Julien, had only name and imperialist power was intended to achieve these objectives, thus in 1518 the Algerian state was formed as a state for Algerians. But this state was in its infancy and historians were unaware that he had an inter-relationship and each Dey received his orders from Istanbul.

Algeria approved the Ottoman power as it required a referendum upset the other Maghreb countries. Charles André Julien joined Gautier, Bousquet and other French historians thinking that Algeria was colonized by the Turks themselves were imperialists.

4.5. Charles André Julien highlighted the personality of Hamdan Khoja[26] while criticizing him: "As it was in the pay of French soldiers",[27] having played a key role before the French penetration. The historian Charles André Julien disguised the truth forgetting to report the pact established between the Hussein Dey[28] Bourmont [29]with France on behalf of the July 5, 1830 which stated that: all freedoms would be respected, respect for mosques, respect for women, respect for property, and that France would not intervene in religious affairs, cultural and economic.

This approach was intended to liberate Algerians from Turkish yoke. France had promised that she would leave the country once the Turkish parties. The historian Charles André Julien told Hamdan Khoja who held high office in representing his people did not trust the French since they did not respect the signed pact. We then realized that the colonial period began, the historian was disappointed and victim of French politics.

4.6. Charles André Julien did not criticize the Emir Abdelkader,[30] but has proven to be a friend to France: "Since it signed a pact like what he would not take up arms against France, then the Algerians rose up under the banner of Mohamed El Mokrani".[31] But Charles André Julien failed to tell the Emir Abdelkader had been a state and a nation based on Algerian politics, diplomacy and exemplary military force. Finally Charles André Julien was no longer occupied the Emir Abdelkader as the latter was imprisoned in France.

4.7. Charles André Julien failed to highlight the political movement, the revolutionary movement, cultural associations and the political system but described the French colonial period, such as elections, the referendum of Napoleon III[32] reserved for French. He spoke about the civilizing power since 1848-1870 a saying itself. Did not pray his role. He admitted that it could create an Arab kingdom in Algeria, but he did not think it as Senatus consult[33] 1865 who considered that Algerians were French subjects and were not entitled to French nationality unless they gave up their status Muslim. Charles André Julien asked that we should "build churches, learn Arabic and Islam".[34]

4.8. Charles André Julien felt that the rebellions were the work of bandits and not of nationalists. Algerians who rebelled in the name of honor and the nation because for Charles André Julien and for Algerians religion was not the pillar of popular uprising. The question was this a good omen?

4.9. The historian Charles André Julien concluded his thesis: "The Algerians refused to be colonized because they were wronged in their freedom".[35] But Bugeaud, Pelissier, Randon, Gautier, Bousquet and others fought the Algerian nation but have falsified, disguised the truth of the contemporary history of Algeria; that is why the historian Charles André Julien collaborated in his research much more to the French invasion has research truths.

Conclusion:

We can summarize aspects of french writings on Algeria as follows:

- Collection of sources and results, their preservation in museums and libraries and profit.
- Publication of many chief of Arab-Islamic works in their language and both the original texts, this conservation has given researchers the opportunity to enjoy it.
- The use of modern technology in research as the classification of materials, depending on the specialty, tables of contents, alphabetical order and periodic symbol of time.
- The use of means of research and encouragement of researchers through the publication of periodicals, books, meetings, the disposal of the material essential to collect data and publish them.
- The source criticism, suspicion and reserve, this positive quality that is applied on Arab-Islamic sources, which lacks its goal of any scientific value.
- In their writings, Algeria is a geographical part, which undergoes various settlements starting from the Phoenicians to the French. For them the idea of the people, nation, state, does not exist, but the idea of scattered tribes into permanent disputes predominates. Tribes who obey only the strength, the strength of the Roman colonizers, Turkish and French. This is the philosophy of the French in their writings on the history of Algeria. But this theory is not applied to their colonial period beginning in 1830, they apply it to other historical periods of Algeria to justify their presence.
- Military historians and specialists of the Ministry of War were the spokesmen of the colonial regime which prevented them from seeing the truth and made their work devoid of any scientific purpose and characterized by a very limited analysis.
- Also this attitude led them to focus on the industrial, administrative and military history in search of information on the movements of the army and its generals. The treatment of tribal and religious conflicts that has the objective of submission and domination concerned. As is the case with the Sophists Novo methods, he neglected the cultural and social political history of Algeria.
- The French were interested in colonial times, they have written about these men, on their policies, on changes in French, their impact on Algeria and emigration to Europe, on the one hand, and secondly, the French were interested in the history of the Roman, Byzantine and Christianity in Algeria. As against the history of the Arab-Islamic era, or the Algerians have freed foreign constraints and began to manage their own affairs by themselves, according to Gautier remained obscure, even for the Ottoman era or 'Algeria became united geographically and politically and administratively had stabilized.

Notes:

[01]Montran (R), Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie, Annales de l'Afrique de Nord, (Data from the modern and contemporary history of Algeria and Tunisia, North Africa Annals), Paris 1962, pp 243-248. See as well: Tailliart, Ch-E, L'Algérie dans la littérature française, essai de bibliographie méthodique et raisonné jusqu'en 1924, (The Algeria in French literature, methodical and reasoned bibliography trial until 1924), E. Champion, Paris 1925, pp, 79-160.

[02] Aziz Samih Itler, Les Turcs en Afrique du Nord, (The Turks in North Africa), Istanbul 1937, 75.

[03] Provençal (L), Les historiens des Chorfas, (Historians of Chorfas), Paris 1922, 52.

[04] Shaw, Voyage dans la régence d'Alger, édité en 1948, 85.

[05] Berbrugger, La prise de Mers El-Kébir par les Espagnols en 1505. (Taking Mers El Kebir by the Spaniards in 1505), Paris 1931, 123.

[06] Rinn (L), Bulletin de la société de géographie d'Alger, (Bulletin of the Geographical Society of Algiers), 1903, Paris, 96.

[07] Aranda (Emmanuel d'), Relation de la captivité, (Relationship of captivity), 2 parties, Paris 1657,45.

[08] Blavin, La condition de la vie des français dans la Régence d'Alger,(The condition of the lives of French in the Regency of Algiers), Alger 1899, 56.

[09] Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaires, le royaume et les villes d'Alger, de Tunis et de Salé de Tripoli, (History Barbary corsairs and its the Kingdom and the cities of Algiers, Tunis and Tripoli Salé), Paris 1637, 102.

[10] Godard (l'Abbé) : (ancien curé de Laghouat), Les soirées algériennes. Corsaires esclaves et martyrs de Barbarie, (former pastor of Laghouat), (Algerian evenings. Corsairs Barbary slaves and martyrs), Tours 1857, 78.

[11] Grammont (H.de), Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742), (Correspondence consuls Algiers), Paris 1890, 92.

[12] Vinchon (Le Baron de), Histoire générale de l'Algérie et des autres Etats barbaresques jusqu'à nos jours, (General of Algeria and other Barbary states until today), Alger 1910, 52.

[13] Farine (Ch.), Deux pirates au XVIe siècle, histoire de Barberousse, (Two pirates in the sixteenth century, history of Barbarossa), Paris 1869, 19.

[14] Jean-François Sirinelli, Dictionnaire de la vie politique française au XXe siècle,(Dictionary of French politics in the twentieth century), Quadrige, PUF, Paris 1995, 496.

[15] Ibidem.

[16] Jean-François Sirinelli, op.cit, 510.

[17] Hubert Beuve-Méry (1902-1989) was a French journalist and newspaper editor. Before the Second World War, he was associated with right-wing causes and collaborated with the Vichy regime until December 1942, when he joined the Resistance. In 1944, he founded Le Monde at the behest of Charles. Following the liberation of France Beuve-Méry, built Le Monde from the ruins of Le Temps using its offices, printing presses, masthead and those staff members who had not collaborated with the Germans.

[18] Jean-François Sirinelli, op.cit, 548.

[19] The Spahis were soldiers of cavalry units belonging to the Army of Africa who depended on the French army.

[20] The Zouaves are French light infantry units belonging to the Army of Africa. Often associated with the image of the battles of the Second and known for their singular uniform, these units have existed since 1830.
The body of Zouaves is created during the conquest of Algeria by incorporating soldiers from the Regency of Algiers

[21] Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, tome1 :1827-1871, (History of contemporary Algeria, tome1: 1827-1871), PUF, Paris 1964, 19.

[22] Khayr ad-dīn, dit Barberousse(1478-1546), fut un grand marin de l'Empire ottoman, ayant occupé les postes de beylerbey (gouverneur-général) de la régence et de kapudan pacha (grand amiral), il était le frère cadet d'un autre célèbre marin, Arudj Reïs.

[23] Sultan SelimI (1466-1520), was the Sultan of the Ottoman from 1512 to 1520. His reign is notable for the enormous expansion of the Empire, particularly hisconquest between 1516 and 1517 of the entire Mamluk Sultanate of Egypt, which included all of Sham, Hejaz, Tihamah, and Egyptitself. He was also granted the title of "Khâdim ül Haramain ish Sharifain" (Servant of the Holy Cities of Mecca and Medina) by the Sharif in 1517. Selim's expansion into the Middle East represented a sudden change in the expansion policy of the empire, which, before his reign, had mostly been within the Balkans (Southeast Europe).

[24]Charles André Julien, op.cit, 2.

[25] Ibidem, 5.

[26] Hamdan Khodja Ben Othman (1773-1842) was a notable Algiers and savant. He wrote The Mirror in which he denounced the abuses of the French soldiers in Algiers shortly after the conquest of Algeria by France. See as well: Chentouf Tayeb, Une légitimation de l'état en Algérie (16(e)-19(e) siècle), le Miroir de Hamdan khodja, (Legitimization of the state in Algeria (16th-19th century), the Mirror Hamdan Khodja), Université d'Oran 1996.

[27]Charles André Julien, op.cit, 74.

[28] Hussein Dey Hussein or Pasha (1765-1838), born in 1765 in Smyrna (Turkey), is the last Algiers. He replaces Ali Khodja in March 1818. On April 30 1827 he blow with his fly swatter the consul of France Pierre Deval. Charles X demands an apology and the incident involves the severance of diplomatic relations. In reality, the

grievances were many sides: barrier to trade and fishing; old financial dispute due to unfulfilled French debt. After an attempted blockade of the port of Algiers (1827-1829), Charles X decides to land an intervention force in Algeria which marks the beginning of the conquest of the country.
After the capture of Algiers, Hussein Dey, who surrendered, was forced into exile. There is escorted with his family and his personal fortune, the Joan of Arc July 15, 1830, which took him to Naples, where he chose to installer. He lived for three years in Italy. He died in Alexandria (Piemonte) in 1838.

[29] Louis Auguste Victor Ghaisne, count of Bourmont (1773-1846), Marshal of France, French expedition's commander in 1830, governor of Algiers July 5, August 12, 1830.

[30] Abd el-Kader Ben Muhieddine, better known as Emir Abdelkader, was born in 1808 in El Guetna (near Mascara) in Algeria, and died May 26, 1883 in Damascus (Syria) is an Algerian politician and military leader, writer and poet. Best known for resisting of 1832-1847 to the conquest of Algeria by France in Algeria is considered as a symbol of the struggle against colonialism and against French rule and as being at the origin of the Algerian State modern.

[31] Charles Louis Napoleon Bonaparte, said Napoleon III (1808-1873). He is the first President of the French Republic, elected on 10 December 1848 universal male suffrage before being proclaimed Emperor of the French December 2, 1852 under the name of Napoleon III. The end of his regime is sealed at the end of the trap of Ems Dispatch and the Battle of Sedan, September 2, 1870, during the Franco-Prussian War. On September 4, 1870, the Republic is proclaimed. Napoleon III went into exile in England, where he died in January 1873.

[32] Charles André Julien, op.cit, 209.

[33] The decree of the Senate of 14 July 1865 on the status of persons naturalized in Algeria is a law in five articles inspired by the Saint-Simonian Ishmael Urban relating firstly to personal status and naturalization of "indigenous Muslim "and the" native Jew ", and secondly to naturalization of" the stranger who is credited with three years of residence in Algeria "(later called the" European of Algeria "). Article 5 announces the decree implementing the Act of 14 July 1865, which was promulgated by the emperor Napoleon III, 21 April 1866.

[34] Charles André Julien, op.cit, 436.

[35] Ibid, 517.

تاريخ الجزائر(١٥١٨-١٨٧١) من منظور المؤرخين الفرنسيين: حالة شارل أندري جوليان

د. ميلود بلعالية
أستاذ محاضر التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة حسيبة بن بوعلي
الشلف – الجمهورية الجزائرية

ملخص

يتناول هذا المقال نظرة الفرنسيين إلى تاريخ الجزائر (١٥١٨-١٨٧١): المؤرخ شارل أندري جوليان أنموذجًا، فعلى الرغم من جهل الفرنسيين بواقع الجزائر وتاريخها، في بداية الاحتلال، فإنهم اتجهوا في البحث في مجالات الجمع والتعريف بالمصادر التاريخية الجزائرية ونشرها. أما عن دوافع البحث في تاريخ الجزائر، فقد انطلق الفرنسيون في كتابتهم بدافع الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الفرنسية، وبدافع السيطرة والاحتلال، وبدافع الفضول العلمي، وأخيرًا بدافع الدين، فقد احتلت الجزائر بعد حرب الثلاثمائة سنة مع أوروبا المسيحية. وهذه الدوافع هي التي حددت منهج الفرنسيين في الكتابة عن التاريخ الجزائري، وإذا كان البحث في تاريخ الجزائر قد بدأ مع المؤرخين العسكريين الذين اعتمدوا على المصادر المحلية المخطوطة والشفوية في غالب الأحيان، فإنه قد انتهى بكتابات المؤرخين الجامعيين الذين اهتموا بتاريخ الجزائر خاصةً وماضي شمال أفريقيا عامة، ولقد استفاد هؤلاء المؤرخون الاختصاصيون من دعم سلطات الاحتلال الفرنسي لأن هذه الكتابات كانت تهدف إلى خدمة الإدارة الاستعمارية، ومن المؤرخين الفرنسيين البارزين: جورج إيفير الذي اهتم بتاريخ الاحتلال، وستيفان غزال الذي تخصص في تاريخ شمال افريقيا القديمة، وإيميل غوتي الذي كتب عن القرون الغامضة، ومارسيل إيمريت الذي اهتم بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للأهالي في العهد الفرنسي، وياكونو الذي تناول قضايا الاستعمار والمكاتب العربية، وشارل أندري جوليان الذي اهتم بتاريخ شمال أفريقيا، وكتب تاريخ الجزائر المعاصرة (١٨٢٧-١٨٧١)، موضوع الدراسة النقدية في هذا المقال. وإذا كان المؤرخون الفرنسيون قد كتبوا الكثير عن الجزائر، واستعملوا طريقة النقد الحديثة للمصادر، وتوصلوا إلى جمع آثار ومخطوطات ووثائق كثيرة عن الجزائر وحفظوها، فإن الكثير من الفرنسيين كان هدفهم الوصول إلى فهم السكان الذين يحكمونهم وليس هدفًا علميًا، ومساعدة الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، لكي تسيطر على الجزائريين والدعاية للثقافة والوجود الفرنسي بينهم.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

info@kanhistorique.org